

النمل 19 فاستحسن الحاضرون جوابه ومثل هذا أيضا ما حكاه ابن رشيق القيرواني في كتاب الأنموذج وهو أن عبد الله بن إبراهيم بن المثنى الطوسي المعروف بابن المؤدب المهدي الأصل القيرواني البلد الشاعر المشهور كان مغرى بالسياحة وطلب الكيمياء والأحجار وكان محروما مقترا عليه متلافا إذا أفاد شيئا فخرج مرة يريد جزيرة صقلية فأسره الروم في البحر وأقام مدة طويلة إلى أن هادن ثقة الدولة يوسف بن عبد الله بن محمد بن أبي الحسين القضاعي صاحب صقلية الروم وبعث إليه بالأسرى فكان عبد الله المذكور فيمن بعث فامتدح عبد الله المذكور ثقة

158 الدولة بقصيدة شكره فيها على صنعه ورجا صلته فلم يصله بشيء أرضاه وكانت فيه رغبة فتكلم وطلب طلبا شديدا وهو مستخف عند بعض من يعرف من أهل صناعته وطالت المدة فخرج سكران يشتري نقلا فما شعر إلا وقد أخذ وحمله صاحب الشرطة حتى أدخله على ثقة الدولة فقال له ما الذي بلغني يا بئس قال المحال أيد الله سيدنا الأمير قال ومن هو الذي يقول في شعره (فالحر ممتحن بأولاد الزنا *) قال هو الذي يقول (وعداوة الشعراء بئس المقتنى *) فتنمر ساعة ثم أمر له بمائة ربايعي وأخرجه من المدينة كراهية أن تقوم عليه نفسه فيعاقبه بعد أن عفا عنه فخرج منها وهذا المستشهد به عجزا بيتين من شعر المتنبى في قصيدته النونية التي يمدح بها بدر بن عمار وأولها (الحب ما منع الكلام الألسنا * وأذ شكوى عاشق ما أعلننا) وهي من مشاهير قصائده وأول العجز الأول (وأنه المشير عليك في بضلة * فالحر ممتحن بأولاد الزنا) وأول العجز الثاني (ومكايد السفهاء واقعة بهم * وعداوة الشعراء بئس المقتنى)

159 وإذ قد ذكرنا ثقة الدولة المذكور فنذكر قصيدة أبي محمد عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميعة التي مدحه بها في عيد النحر وهي قصيدة بديعة لا توجد بكمالها في أيدي الناس ولقد ظفرت بها في ظهر كتاب ولم يكن عندي منها سوى البعض ولا سمعت أحدا يروي منها إلا ذلك القدر فأحببت إثباتها لحسنها وغرابتها وهي هذه (يذيل الهوى دمعي وقلبي المعنف * وتجنني جفوني الوجد وهو المكلف) (وإني ليدعوني إلى ما شنفته * وفارقت مغناه الأغن المشنف) (وأحور ساجي الطرف أما وشاحه * فصفر وأما وقفه فموقف) (يطيب أجاج الماء من نحو أرضه * يحيي ويندى ريحه وهو حرجف) (وأياسني من وصله أن دونه * متالف تسري الريح فيها فنتلف) (وغيران يجفو النوم كي لا يرى لنا * إذا نام شملا في الكرى

(يتألف) (يظل على ما كان من قرب دارنا * وغفلته عما مضى يتأسف) (وجون بمزن الرعد يستن ودقه * يرى برقه كالحية الصل تطرف) (كأني إذا ما لاح والرعد معول * وجفن السحاب الجون بالماء يذرف) (سليم وصوت الرعد راق وودقه * كنفث الرقى من سوء ما أتكلف) (ذكرت به ربا وما كنت ناسيا * فأذكر لكن لوعة تتضعف) (ولما التقينا محرمين وسيرنا * بلبيك ربا والركائب تعسف) (نظرت إليها والمطي كأنما * غواربها منها معاطس رعف) (فقالت أما منكن من يعرف الفتى * فقد رابني من طول ما يتشوف) (أراه إذا سرنا يسير حذاءنا * ونوقف أخفاف المطي فيوقف)

160 (فقلت لتربيها ابلاغها بأني * بها مستهام قالتا نتلطف) (وقولا لها يا أم عمرو أليس ذا * منى والمنى في خيفه ليس يخلف) (تفاءلت في أن تبذلي طارف الوفا * بأن عن لي منك البنان المطرف) (وفي عرفات ما يخبر أنني * بعارفة من عطف قلبك أسعف) (وأما دماء الهدى فهي هدى لنا * يدوم ورأي في الهوى يتألف) (وتقبيل ركن البيت إقبال دولة * لنا وزمان بالمودة يعطف) (فأوصلتا ما قلته فتبسمت * وقالت أحاديث العيافة زخرف) (بعيشي ألم أخبركما أنه فتى * على لفظه برد الكلام المفوف) (فلا تأمنا ما اسطعنا كيد نطقه * وقولا ستدري أيننا اليوم أعيف) (إذا كنت ترجو في منى الفوز بالمنى * ففي الخيف من إعراضنا تتخوف) (وقد أنذر الإحرام أن وصالنا * حرام وأنا عن مزارك نصدف) (وهذا وقذفي بالحصى لك مخبر * بأن النوى بي عن ديارك تقذف) (وحاذر نفارى ليلة النفر إنه * سريع فقل من بالعيافة أعرف) (فلم أر مثيلنا خليلي مودة * لكل لسان ذو غرارين مرهف) (أما إنه لولا أغن مهفهف * وأشنف براق وأحور أوطف) (لراجع مشتاق ونام مسهد * وأيقن مرتاب وأقصر مدنف) (وعاذلة في بذل ما ملكت يدي * لراج رجاني دون صحبي تعنف) (تقول إذا أفنيت مالك كله * وأحوجت من يعطيكه قلت يوسف) (أغر قضاعي يكاد نواله * لكثرة ما يدعو إلى الشكر يجحف) (إذا نحن أخلفنا مخايل ديمة * وجدنا حيا معروفة ليس يخلف) (سعى وسعى الأملاك في طلب العلا * ففاز وأكدوا إذ أخف وأقطفوا)

161 (ويقظان شاب البطش باللين والتقوى * بكفيه ما يرجى وما يتخوف) (حسام على من ناصب الدين مصلت * وستر على من راقب الله مغدف) (يسايره جيشان رأي وفيلق * ويصحبه سيفان عزم ومرهف) (

مطل على من شاءه فكأنما * على حكمه صرف الردى يتصرف) (يرى
رأيه ما لا ترى عين غيره * ويفري به ما ليس يفري المثقف) (رعى الله
من ترعى حمى الدين عينه * ويحمي حمى الإسلام والليل أغضف) (ومن
وعده في مسرح الحمد مطلق * وإيعاده في ذمة الحلم موقف) (ومن يضرب
الأعداء هبرا فينثني * صناديدهم والبيض بالهام تقذف) (رماهم بمجر
ضعضع الأرض رزه * كأن الروابي منه بالنبل تدلف) (كأن الردينيات في
رونق الضحى * أراقم في طام من الال تزحف) (يعود الدجى من بيضه
وهو أبيض * ويبدو الضحى من نغعه وهو أكلف) (ويحجب نور الشمس
بالنقع عنهم * ففعل الظبا في هامهم لا يكيف) (لهم كل عام منك جاءوك فيلق
* يسائل عنهم بالعوالي فيلحف) (إذا ما طووا كشحا على قرح عامهم *
وبلوا من الآلام أنشأت تقرف) (فكم من أغم الوجه غاو تركته * وهاديه من
عثنون لحييه أكثف) (هوى المقضب الماضي بمهواه فانثنى * صريعا تراه
حبترا وهو أسقف) (لعمرى لقد عاديت في الله طالبا * رضاه وقد أبليت ما
الله يعرف) (أطلبتهم في الأهل حتى تركتهم * فرادى وفي الأديان حتى
تحنفوا) (فيا ثقة الملك الذي الملك سهمه * يراش لأكباد الأعادي ويرصف)
(هنيئا لك العيد الذي منك حسنه * يروق ومن أوصافك الغر يوصف) (بدا
معلم الأرجاء يزهى كأنما * على عطفه وشي العراق المشفف) (أتى بعد
حول زائرا عن تشوق * وقد كان ذا طرف للقياك يطرف)

162 (فطوقته عزا وشنفته به * فلاح لنا وهو المحلى المشنف) ()
وقابله بالسعد نجلك جعفر * فيا لك من عيد بملكين تتحف) (فلا زلت
تستجدي فتولي وترتجى * فتكفي وتستدعى لخطب فتكشف) (نجزت القصيدة
(314) وكان لثقة الدولة المذكور ولد يدعى تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة
وكان أديبا شاعرا وله الأبيات السائرة في غلامين على أحدهما ثوب ديباج
أحمر وعلى الآخر ثوب ديباج أسود وهي (أرى بدرين قد طلعا * على
غصنين في نسق) (وفي ثوبين قد صبغا * صباغ الخد والحدق) (فهذا
الشمس في شفق * وهذا البدر في غسق) (وكان عمله لهذه الأبيات في سنة
سبع وعشرين وخمسمائة ولما توجه المأمون إلى مصر وذلك في سنة سبع
عشرة ومائتين دخلها لعشر خلون من المحرم وخرج منها سلخ صفر من السنة
كان معه القاضي يحيى بن أكتم فولاه قضاء مصر وحكم بها ثلاثة أيام ثم خرج
مع المأمون وعده ابن زولاق في جملة قضاة مصر لذلك وروي عن يحيى بن
أكتم أنه قال اختصم إلي في الرصافة الجد الخامس يطلب ميراث ابن ابن

ابنه وكان عبد الصمد بن أبي مروة بن المعذل بن غيلان بن المحارب بن
البحثري

163 العبدى البصرى الشاعر المشهور يلزم الترداد إلى القاضى يحيى
المذكور ويغشى مجلسه وكان بعض الأحيان لا يقدر على الوصول إليه إلا بعد
مشقة ومذلة يقاسيها فانقطع عنه فلامته زوجته فى ذلك مرارا فأنشدها (
تكلفنى إذلال نفسى لعزها * وهان عليها أن أهان لتكرما) (تقول سل
المعروف يحيى بن أكرم * فقلت سليه رب يحيى بن أكرما) ولم تزل الأحوال
تختلف عليه وتقلب به إلى أيام المتوكل على الله فلما عزل القاضى محمد بن
القاضى أحمد بن أبى داود عن القضاء فوض الولاية إلى القاضى يحيى وخلع
عليه خمس خلع ثم عزله فى سنة أربعين ومائتين وأخذ أمواله وولى فى رتبته
جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن علي ابن عبد الله بن العباس
الهاشمى فجاء كاتبه إلى القاضى يحيى فقال له سلم الديوان فأبى فقال شاهدان
عدلان على أمير المؤمنين أنه أمرنى بذلك فأخذ منه الديوان قهرا وغضب
عليه المتوكل فأمر بقبض أملاكه وألزم منزله ثم حج وحمل أخته معه وعزم
على أن يجاور فلما اتصل به رجوع المتوكل له بدا له فى المجاورة ورجع
يريد العراق فلما وصل إلى الربذة توفي بها يوم الجمعة منتصف ذى الحجة
سنة اثنتين وأربعين ومائتين وقيل غرة سنة ثلاث وأربعين ودفن هناك رحمه
الله تعالى وعمره ثلاث وثمانون سنة وأكتم بفتح الهمزة وسكون الكاف وفتح
الثاء المثناة وبعدها ميم وهو العظيم البطن والشبعان أيضا يقال بالثاء المثناة
والتاء المثناة من فوقها ومعناها واحد ذكره فى كتاب المحكم وحكى أبو عبد
الله الحسين بن عبد الله بن سعيد قال كان يحيى بن أكرم القاضى صديقا لي
وكان يودنى وأوده فمات يحيى فكنيت أشتهي أن أراه فى المنام فأقول ما فعل
الله بك فرأيت له ليلة فى المنام فقلت ما فعل الله بك

164 قال غفر لي إلا أنه وبخني ثم قال لي يا يحيى خلطت علي فى الدنيا
فقلت يا رب اتكلت على حديث حدثني به أبو معاوية الضرير عن الأعمش عن
أبى صالح عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله إنك قلت
إني لأستحيى أن أعذب ذا شيبة بالنار فقال قد عفوت عنك يا يحيى وصدق
نبيي إلا أنك خلطت علي فى دار الدنيا هكذا ذكره أبو القاسم القشيري فى
الرسالة وقطن بفتح القاف والطاء المهملة وبعدها نون وسمعان بفتح السين
المهملة ومشنج كشفت عنه كثيرا من الكتب وأرباب هذه الصناعة فلم أقف منه
على حقيقة ثم وجدت فى نسخة من تاريخ بغداد للخطيب وهى صحيحة

مسموعة وقد قيد هذا الاسم بضم الميم وفتح الشين المعجمة وفتح النون المشددة وفي آخره جيم هذا أقصى ما قدرت عليه والله أعلم بالصواب ثم وجدته في المختلف والمؤتلف لعبد الغني بن سعيد كما قيل هاهنا الأسيدي بضم الهمزة وفتح السين المهملة وكسر الياء المثناة من تحتها وتشديدها وبعدها دال مهملة هذه النسبة إلى أسيد وهو بطن من تميم يقال له أسيد بن عمرو بن تميم وقد تقدم الكلام على التميمي والمروزي والربذة بفتح الراء والباء الموحدة والذال المعجمة وبعدها هاء ساكنة وهي قرية من قرى المدينة على طريق الحاج ينزلونها عند عبورهم عليها وهي التي نفى عثمان بن عفان أبا ذر الغفاري رضي الله عنهما إليها وأقام بها حتى

165 مات وقبره ظاهر هناك يزار وميلة بكسر الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح اللام وبعدها هاء ساكنة وهي بليدة من أعمال إفريقية (315) وتوفي جعفر بن عبد الواحد القاضي المذكور ويكنى أبا عبد الله سنة ثمان وخمسين ومائتين وقيل سنة ثمان وستين وقيل سنة تسع وستين بطرسوس رحمه الله تعالى 794 يحيى بن معاذ الواعظ أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازي الواعظ أحد رجال الطريقة ذكره أبو القاسم القشيري في الرسالة وعده من جملة المشايخ وقال في حقه نسيج وحده في وقته له لسان في الرجاء خصوصا وكلام في المعرفة خرج إلى بلخ وأقام بها مدة ورجع إلى نيسابور ومات بها ومن كلامه كيف يكون زاهدا من لا ورع له تورع عما ليس لك ثم ازهد فيما لك وكان يقول الجوع للمريدين رياضة وللتائبين تجربة وللزهاد سياسة وللعارفين مكرمة والوحدة جليس الصديقين والفوت أشد من الموت لأن الفوت انقطاع عن الحق والموت انقطاع عن الخلق والزهدة ثلاثة أشياء القلة والخلوة والجوع ومن خان الله في السر هتك ستره في العلانية

166 وسمع إسحاق بن سليمان الرازي ومكي بن إبراهيم البلخي وعلي بن محمد الطنافسي وروى عنه الغرباء من أهل الري وهمذان وخراسان أحاديث مسندة قليلة وذكره الخطيب في تاريخ بغداد فقال قدم بغداد واجتمع إليه بها مشايخ الصوفية والنساک ونبوا له منصة وأقعدوه عليها وقعدوا بين يديه يتحاورون فتكلم الجنيد فقال له يحيى اسكت يا خروف ما لك والكلام إذا تكلم الناس وكان له إشارات وعبارات حسنة فمن كلامه الكلام الحسن حسن وأحسن من الكلام معناه وأحسن من معناه استعماله وأحسن من استعماله ثوابه وأحسن من ثوابه رضا من يعمل له ومن كلامه حقيقة المحبة أن لا تزيد بالبر ولا تنقص بالجفاء وكان يقول من لم يكن ظاهره مع العوام فضة ومع

المريدين ذهباً ومع العارفين المقربين درا وياقوتاً فليس من حكماء الله المريدين وكان يقول أحسن شيء كلام صحيح من لسان فصيح في وجه صبيح كلام دقيق يستخرج من بحر عميق على لسان رجل رفيع وكان يقول إلهي كيف أنساك وليس لي رب سواك إلهي لا أقول لا أعود لأنني أعرف من نفسي نقض العهود ولكني أقول لا أعود لا أعود لعلي أموت قبل أن أعود ومن دعائه اللهم إن كان ذنبي قد أخافني فإن حسن ظني بك قد أجارني اللهم سترت علي في الدنيا ذنوباً أنا إلى سترها في القيامة أحوج وقد أحسنت بي إذ لم تظهرها لعصابة من المسلمين فلا تفضحني في ذلك اليوم على رؤوس العالمين يا أرحم الراحمين

167 ودخل على علوي ببلخ زائراً له ومسلماً عليه فقال له العلوي أيد الله الأستاذ ما تقول فينا أهل البيت قال ما أقول في طين عجن بماء الوحي وغرس بماء الرسالة فهل يفوح منهما إلا مسك الهدى وعنبر التقى فحشا العلوي فاه بالدر ثم زاره من الغد فقال يحيى بن معاذ إن زرتنا فبفضلك وإن زرتنا فلفضلك فلك الفضل زائراً ومزوراً ومن كلامه ما بعد طريق إلى صديق ولا استوحش في طريق من سلك فيه إلى حبيب ومن كلامه مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة وقال ما صحت إرادة أحد قط فمات حتى حن إلى الموت واشتهاه اشتهاه الجائع إلى الطعام لارتداف الآفات واستيحاشه من الأهل والإخوان ووقوعه فيما يتحير فيه صريح عقله وقال من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يتصل إلى الجليل من العطاء وقال ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال إن لم تنفعه فلا تضره وإن لم تسره فلا تغمه وإن لم تمدحه فلا تدمه وقال عمل كالسراب وقلب من التقوى خراب وذنوب بعدد الرمل والتراب ثم تطمع في الكواعب الأتراب هيهات أنت سكران بغير شراب ما أكملك لو بادرت أملك ما أجلك لو بادرت أجلك ما أقواك لو خالفت هواك وله في هذا الباب كل كلام مليح وتوفي سنة ثمان وخمسين ومائتين بنيسابور رحمه الله تعالى وقال

168 محمد بن عبد الله قرأت على اللوح في قبر يحيى بن معاذ الرازي مات حكيم الزمان يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى وبيض وجهه وألحقه بنبيه محمد يوم الاثنين لست عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين ومائتين 795 يحيى بن منده أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب ابن الإمام أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده بن الوليد بن منده بن بطه بن استندار بن جهار بخت ابن فيرزان واسم منده إبراهيم

ومنده لقب وقيل إن اسم الفيرزان استندار والله أعلم العبدى كان من الحفاظ المشهورين وأحد أصحاب الحديث المبرزين وقد سبق ذكر جده أبي عبد الله محمد في حرف الميم وهو أبو زكريا بن أبي عمرو بن أبي عبد الله بن أبي محمد بن أبي يعقوب من أهل أصبهان وهو محدث ابن محدث ابن محدث ابن محدث وكان جليل القدر وافر الفضل واسع الرواية ثقة حافظا فاضلا كثيرا صدوقا

169 كثير التصانيف حسن السيرة بعيد التكلف أوجد بيته في عصره خرج البخاري لنفسه ولجماعة من الشيوخ الأصبهانيين وسمع أبا بكر محمد بن عبد الله بن زيد الضبي وأبا طاهر محمد بن أحمد ابن محمد بن عبد الرحيم الكاتب وأبا منصور محمد بن عبد الله بن فضلوليه الأصبهاني وأباه أبا عمرو وعميه أبا الحسن عبيد الله وأبا القاسم عبد الرحمن وأبا العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن النعمان القضاعي وأبا عبد الله محمد ابن علي بن محمد الجصاص وأبا بكر محمد بن علي بن الحسين الجوزداني وأبا طاهر أحمد بن محمود الثقفي ورحل إلى نيسابور وسمع بها أبا بكر أحمد بن منصور بن خلف المقرئ وأبا بكر أحمد بن الحسين البيهقي وبهمذان أبا بكر محمد بن عبد الرحمن بن محمد النهاوندي وبالْبصرة أبا القاسم إبراهيم بن محمد بن أحمد الشاهد وعبد الله بن الحسين السعداني وجماعة كثيرة سواهم وصنف تاريخ أصبهان وغيره من الجموع ودخل بغداد حاجا وحدث بها وأملى بجامع المنصور وكتب عنه الشيوخ منهم أبو الفضل محمد بن ناصر وعبد القادر بن أبي صالح الجيلي وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن الخشاب النحوي في خلق كثير لشهرته وبيته وروى عنه أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك الأنماطي الحافظ وأبو الحسن علي بن أبي تراب الزيكوني الخياط البغدادي وأبو طاهر يحيى بن عبد الغفار بن الصباغ وأبو الفضل محمد بن هبة الله بن العلاء الحافظ وجماعة كثيرة وذكره الحافظ ابن السمعاني في كتاب الذيل وقال كتب لي الإجازة بجميع مسموعاته ثم قال سألت عنه أبا القاسم إسماعيل بن محمد الحافظ فأثنى عليه ووصفه بالحفظ والمعرفة والدراية ثم قال سمعت أبا بكر محمد

170 ابن أبي نصر بن محمد اللفتواني الحافظ يقول بيت ابن منده بدىء بيحيى وختم بيحيى يريد في معرفة الحديث والعلم والفضل وذكره الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي المقدم ذكره في مساق تاريخ نيسابور فقال أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب ابن منده رجل فاضل من بيت

العلم والحديث المشهور في الدنيا سافر وأدرك المشايخ وسمع منهم وصنف على الصحيحين وكان يروي بإسناده المتصل إلى بعض العلماء أنه قال كثرة الضحك أمانة الحمق والعجلة من ضعف العقل وضعف العقل من قلة الرأي وقلة الرأي من سوء الأدب وسوء الأدب يورث المهانة والمجون طرف من الجنون والحسد داء لا دواء له والنمائم تورث الضعائن وكان يروي بالإسناد المتصل إلى الأصمعي أنه قال دخلت في البادية إلى مسجد فقام الإمام يصلي فقرأ (^ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه) نوح 1 وأرتج عليه فجعل يردددها ويقول (^ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه) فقال أعرابي من ورائه وهو قائم يصلي يا هذا إن لم يذهب نوح فأرسل غيره وكان يحيى المذكور كثيرا ما ينشد لبعضهم (عجب لمبتاع الضلالة بالهدى * وللمشتري دنياه بالدين أعجب) (وأعجب من هذين من باع دينه * بدنيا سواه فهو من ذين أخيب) وكانت ولادته في غداة يوم الثلاثاء تاسع عشر شوال سنة أربع وثلاثين وأربعمئة وتوفي يوم عيد النحر سنة اثنتي عشرة وخمسمئة بأصبهان ومولده بها أيضا رحمه الله تعالى ولم يخلف في بيت ابن منده بعده مثله وقال ابن نقطة في كتابه إكمال الإكمال توفي يوم السبت ثاني عشر ذي الحجة من سنة إحدى عشرة وخمسمئة وذكر أن مولد أبيه عبد الوهاب

171 سنة ست وثمانين وثلثمائة وتوفي في جمادى الآخرة من سنة خمس وسبعين وأربعمئة رحمه الله تعالى وقد سبق الكلام على ضبط أسماء أجداده في ترجمة جده أبي عبد الله محمد رحمه الله تعالى 796 ابن سعدون القرطبي أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي الملقب سابق الدين أحد الأئمة المتأخرين في القراءات وعلوم القرآن الكريم والحديث والنحو واللغة وغير ذلك خرج من الأندلس في عنفوان شبابه وقدم ديار مصر فسمع بالإسكندرية أبا عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي وبمصر أبا صادق مرشد بن يحيى ابن القاسم المدني المصري وأبا طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني المعروف بالسلفي وغيرهم ودخل بغداد سنة سبع عشرة وخمسمئة وقرأ بها القرآن الكريم على الشيخ أبي محمد عبد الله بن علي المقرئ المعروف بابن بنت الشيخ أبي منصور الخياط وسمع عليه كتب كثيرة منها كتاب سيبويه وقرأ الحديث على أبي بكر محمد بن عبد الباقي البزار المعروف بقاضي المارستان وأبي القاسم ابن الحصين وأبي العز ابن كادش وغيرهم وكان ديناً ورعاً عليه وقار وهيبة وسكينة وكان ثقة صدوقاً ثبتاً نبيلاً

172 قليل الكلام كثير الخير مفيدا أقام بدمشق مدة واستوطن الموصل ورحل عنها إلى أصبهان ثم عاد إلى الموصل وأخذ عنه شيوخ ذلك العصر وذكره الحافظ ابن السمعاني في كتاب الذيل وقال إنه اجتمع به بدمشق وسمع منه مشيخة أبي عبد الله الرازي وانتخب عليه أجزاء وسأله عن مولده فقال ولدت في سنة ست وثمانين وأربعمائة بمدينة قرطبة من ديار الأندلس ورأيت في بعض الكتب أن مولده سنة سبع وثمانين والأول أصح وكان شيخنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد قاضي حلب رحمه الله تعالى يفتخر برؤيته وقراءته عليه وسيأتي ذلك في ترجمته إن شاء الله تعالى وقال كنا نقرأ عليه بالموصل ونأخذ عنه وكنا نرى رجلا يأتي إليه كل يوم فيسلم عليه وهو قائم ثم يمد يده إلى الشيخ بشيء ملفوف فيأخذه الشيخ من يده ولا نعلم ما هو ويتركه ذلك الرجل ويذهب ثم تقفينا ذلك فعلمنا أنها دجاجة مسمومة كانت برسم الشيخ في كل يوم يبتاعها له ذلك الرجل ويسمطها ويحضرها وإذا دخل الشيخ إلى منزله تولى طبخها بيده وذكر في كتابه الذي سماه دلائل الأحكام أنه لازم القراءة عليه إحدى عشرة سنة آخرها سنة سبع وستين وخمسمائة وكان الشيخ أبو بكر القرطبي المذكور كثيرا ما ينشد مسندا إلى أبي الخير الكاتب الواسطي رواهما بالإسناد المتصل إليه أنهما له (جرى قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون) جنون منك أن تسعى لرزق * ويرزق في غشاوته الجنين) وقال أنشدنا أبو الوفاء عبد الباقي بن وهب بن حسان قال أنشدنا أبو عبد الله محمد بن منيع بمصر لنفسه (لي حيلة فيمن ينم * وليس في الكذاب حيله)

173 (من كان يخلق ما يقول * فحيلتي فيه قليله) وتوفي الشيخ أبو بكر المذكور بالموصل في يوم عيد الفطر من سنة سبع وستين وخمسمائة رحمه الله تعالى 797 يحيى بن يعمر النحوي البصري كان تابعيا لقي عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ولقي غيرهما وروى عنه قتادة بن دعامة السدوسي وإسحاق بن سويد العدوي وهو أحد قراء البصرة وعنه أخذ عبد الله بن أبي إسحاق القراءة وانتقل إلى خراسان وتولى القضاء بمرو وكان عالما بالقرآن الكريم والنحو ولغات العرب وأخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي المقدم ذكره يقال إن أبا الأسود لما وضع باب الفاعل والمفعول به زاد فيه رجل من بني ليث أبوابا ثم نظر فإذا في كلام العرب ما لا يدخل فيه فأقصر عنه فيمكن أن يكون هو يحيى بن يعمر المذكور إذ كان عداه في بني ليث لأنه

حليف لهم وكان شيعيا من الشيعة الأولى القائلين بتفضيل أهل البيت من غير تنقيص لذي فضل من غيرهم

174 حكى عاصم بن أبي النجود المقرئ المقدم ذكره أن الحجاج بن يوسف الثقفي بلغه أن يحيى بن يعمر يقول إن الحسن والحسين رضي الله عنهما من ذرية رسول الله وكان يحيى يومئذ بخراسان فكتب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم والي خراسان وقد تقدم ذكره أيضا أن ابعت إلي يحيى بن يعمر فبعث به إليه فقام بين يديه فقال أنت الذي تزعم أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله والله لألقين الأكثر منك شعرا أو لتخرجن من ذلك قال فهو أماني إن خرجت قال نعم قال فإن الله جل ثناؤه يقول (^) ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى) الآية الأنعام 85 قال وما بين عيسى وإبراهيم أكثر مما بين الحسن والحسين ومحمد صلوات الله عليه وسلامه فقال له الحجاج ما أراك إلا قد خرجت والله لقد قرأتها وما علمت بها قط وهذا من الاستنباطات البديعة الغريبة العجيبة فله دره ما أحسن ما استخرج وأدق ما استنبط قال عاصم ثم إن الحجاج قال له أين ولدت فقال بالبصرة قال أين نشأت قال بخراسان قال فهذه العربية أنى هي لك قال رزق قال خبرني عني هل ألحن فسكت فقال أقسمت عليك فقال أما إذ سألتني أيها الأمير فإنك ترفع ما يوضع وتضع ما يرفع فقال ذلك والله اللحن السيء قال ثم كتب إلى قتيبة إذا جاءك كتابي هذا فاجعل يحيى بن يعمر على قضائك والسلام وروى ابن سلام عن يونس بن حبيب قال قال الحجاج ليحيى بن يعمر أتسمعني ألحن قال في حرف واحد قال في أي قال في القرآن قال ذلك أشنع ثم قال له ما هو قال تقول (^) قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم إلى قوله أحب إليكم) التوبة 24 فنقرؤها بالرفع

175 قال ابن سلام كأنه لما طال الكلام نسي ما ابتدأ به فقال الحجاج لا جرم لا تسمع لي لحننا قال يونس فألحقه بخراسان وعليها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة والله أعلم أي ذلك كان قال ابن الجوزي في كتاب شذور العقود في سنة أربع وثمانين للهجرة نفى الحجاج يحيى بن يعمر لأنه قال له هل ألحن فقال تلحن لحننا خفيا فقال أجلتك ثلاثا فإن وجدتك بعد بأرض العراق قتلتك فخرج وحكى أبو عمرو نصر بن علي عن نوح بن قيس قال حدثنا عثمان بن محسن قال خطب أمير بالبصرة فقال اتقوا الله فإنه من يتق الله فلا هورات عليه فلم يدروا ما قال الأمير فسألوا يحيى بن يعمر فقال الهورات الضياع

يقول من اتقى الله فليس عليه ضياع قال القزاز في كتاب الجامع الهورات المهالك واحدها هورة قال الراوي فحدثت بهذا الحديث الأصمعي فقال هذا شيء لم أسمع به قط حتى كان الساعة منك ثم قال إن كلام العرب لواسع لم أسمع بذا قط وحكى الأصمعي قال حدثنا أبي قال كتب يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وهو بخراسان إلى الحجاج بن يوسف كتابا يقول فيه إنا لقينا العدو فاضطررناهم إلى عرعره الجبل ونحن بالحضيض فقال الحجاج ما لابن المهلب ولهذا الكلام فليل له إن ابن يعمر عنده فقال فذاك إذا وكان يحيى بن يعمر يعمل الشعر وهو القائل (أبى الأقبام إلا بغض قومي * قديما أبغض الناس السمين) وقال خالد الحذاء كان لابن سيرين مصحف منقوط نقطه يحيى بن يعمر وكان ينطق بالعربية المحضة واللغة الفصحى طبيعة فيه غير متكلف وأخباره ونوادره كثيرة وتوفي سنة تسع وعشرين ومائة رحمه الله تعالى ويعمر بفتح الياء المثناة من تحتها والميم وبينهما عين مهملة وفي الأخير

176 راء وقيل بضم الميم والأول أصح وأشهر ويعمر بفتح الميم مضارع قولهم عمر الرجل بفتح العين وكسر الميم إذا عاش زمنا طويلا وإنما سمي بذلك تفاقولا بطول العمر كما سمي يحيى بذلك أيضا والعدواني بفتح العين المهملة والواو وبينهما دال مهملة ساكنة وبعد الألف نون هذه النسبة إلى عدوان واسمه الحارث بن عمرو بن قيس عيلان وإنما قيل له عدوان لأنه عدا على أخيه فهم فقتله والوشقي بفتح الواو وسكون الشين المعجمة وبعدها قاف هذه النسبة إلى وشقة بن عوف بن بكر بن يشكر بن عدوان المذكور 798 أبو زكريا الفراء أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمي المعروف بالفراء الديلمي الكوفي مولى بني أسد وقيل مولى بني منقر كان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب حكى عن أبي العباس ثعلب أنه قال لولا الفراء لما كانت عربية لأنه خلصها وضبطها ولولا الفراء لسقطت العربية لأنها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد ويتكلم الناس فيها على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب وأخذ النحو عن أبي الحسن الكسائي وهو والأحمر المقدم ذكره من

177 أشهر أصحابه وأخصهم به ولما عزم الفراء على الاتصال بالمأمون كان يتردد إلى الباب فبينما هو ذات يوم على الباب إذ جاء أبو بشر ثمامة بن الأشرس النميري المعتزلي وكان خصيصا بالمأمون قال ثمامة فرأيت أبهة أديب فجلست إليه ففاتشته عن اللغة فوجدته بحرا وفاتشته عن

النحو فشاهدته نسيج وحده وعن الفقه فوجدته رجلا فقيها عارفا باختلاف القوم وبالنجوم ماهرا وبالطب خبيرا وبأيام العرب وأشعارها حاذقا فقلت له من تكون وما أظنك إلا الفراء فقال أنا هو فدخلت فأعلمت أمير المؤمنين المأمون فأمر بإحضاره لوقته وكان سبب اتصاله به وقال قطرب دخل الفراء على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه مرات فقال جعفر بن يحيى البرمكي إنه قد لحن يا أمير المؤمنين فقال الرشيد للفراء أتلحن فقال الفراء يا أمير المؤمنين إن طباع أهل البدو الإعراب وطباع أهل الحضر اللحن فإذا تحفظت لم ألحن وإذا رجعت إلى الطبع لحننت فاستحسن الرشيد قوله وقال الخطيب في تاريخ بغداد إن الفراء لما اتصل بالمأمون أمره أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العربية وأمر أن يفرد في حجرة من حجر الدار ووكل به جواري وخداما يقمن بما يحتاج إليه حتى لا يتعلق قلبه ولا تتشوف نفسه إلى شيء حتى إنهم كانوا يؤذونه بأوقات الصلوات وصير له الوراقين وألزمه الأمانة والمنفقين فكان يملئ الوراقون يكتبون حتى صنف الحدود في سنتين وأمر المأمون بكتبه في الخزائن فبعد أن

178 فرغ من ذلك خرج إلى الناس وابتدأ بكتاب المعاني قال الراوي وأردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا لإملاء كتاب المعاني فلم نضبطهم فعددنا القضاة فكانوا ثمانين قاضيا فلم يزل يملئه حتى أتمه ولما فرغ من كتاب المعاني خزنه الوراقون عن الناس ليكسبوا به وقالوا لا نخرجه إلا لمن أراد أن ننسخه له على خمس أوراق بدرهم فشكا الناس إلى الفراء فدعا الوراقين فقال لهم في ذلك فقالوا إنما صحبتناك لننتفع بك وكل ما صنفته فليس بالناس إليه من الحاجة ما بهم إلى هذا الكتاب فدعنا نعيش به فقال قاربوهم تنتفعوا وتنفعوا فأبوا عليه فقال سأريكم وقال للناس إني ممل كتاب معان أتم شرحا وأبسط قولاً من الذي أمليت فجلس يملئ فأملئ الحمد في مائة ورقة فجاء الوراقون إليه وقالوا نحن نبلغ الناس ما يحبون فنسخوا كل عشرة أوراق بدرهم وكان سبب إملائه كتاب المعاني أن أحد أصحابه وهو عمر بن بكير كان يصحب الحسن بن سهل المقدم ذكره فكتب إلى الفراء إن الأمير الحسن لا يزال يسألني عن أشياء من القرآن لا يحضرني عنها جواب فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً وتجعل ذلك كتاباً يرجع إليه فعلت فلما قرأ الكتاب قال لأصحابه اجتمعوا حتى أملي عليكم كتاباً في القرآن وجعل لهم يوماً فلما حضروا خرج إليهم وكان في المسجد رجل يؤذن فيه وكان من القراء فقال له اقرأ فقرأ فاتحة الكتاب ففسرها حتى مر في القرآن كله على ذلك يقرأ الرجل والفراء يفسره وكتابه هذا نحو

ألف ورقة وهو كتاب لم يعمل مثله ولا يمكن أحدا أن يزيد عليه وكان المأمون قد وكل الفراء يلقن ابنه النحو فلما كان يوما أراد الفراء

179 أن ينهض إلى بعض حوائجه فابتدرا إلى نعل الفراء يقدمانه له فتنازعا أيهما يقدمه فاصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردا فقدمها وكان المأمون له على كل شيء صاحب خبر فرفع ذلك الخبر إليه فوجه إلى الفراء فاستدعاه فلما دخل عليه قال من أعز الناس قال ما أعرف أعز من أمير المؤمنين قال بلى من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين حتى رضي كل واحد أن يقدم له فردا قال يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك ولكن خشيت أن أذفعهما عن مكرمة سبقا إليها أو أكسر نفوسهما عن شريعة حرصا عليها وقد روي عن ابن عباس أنه أمسك للحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين ركابيهما حين خرجا من عنده فقال له بعض من حضر أتمسك لهذين الحديثين ركابيهما وأنت أسن منهما فقال له اسكت يا جاهل لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل فقال له المأمون لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوما وعتبا وألزمتك ذنبا وما وضع ما فعلاه من شرفهما بل رفع من قدرهما وبين عن جوهرهما ولقد ظهرت لي مخيلة الفراسة بفعلهما فليس يكبر الرجل وإن كان كبيرا عن ثلاث عن تواضعه لسلطانه ووالده ومعلمه العلم وقد عوضتهما بما فعلاه عشرين ألف دينار ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما وقال الخطيب أيضا كان محمد بن الحسن الفقيه ابن خالة الفراء وكان الفراء يوما جالسا عنده فقال الفراء قل رجل أنعم النظر في باب من العلم فأراد غيره إلا سهل عليه فقال له محمد يا أبا زكريا قد أنعمت النظر في العربية فنسألك عن باب من الفقه فقال هات على بركة الله تعالى قال ما تقول في رجل صلى فسها فسجد سجدة للسهو فسها فيهما ففكر الفراء ساعة ثم قال لا شيء عليه فقال له محمد ولم قال لأن التصغير عندنا لا تصغير له وإنما السجدة تمام الصلاة فليس للتمام تمام فقال محمد ما ظننت آدميا يلد مثلك

180 وقد سبقت هذه الحكاية في ترجمة الكسائي ونبهت عليها ثم بما ذكرته ها هنا وكان الفراء لا يميل إلى الاعتزال وحكى سلمة بن عاصم عن الفراء قال كنت أنا وبشر المريسي المقدم ذكره في بيت واحد عشرين سنة ما تعلم مني شيئا ولا تعلمت منه شيئا وقال الجاحظ دخلت بغداد حين قدمها المأمون في سنة أربع ومائتين وكان الفراء يحبني وأشتهي أن يتعلم شيئا من علم الكلام فلم يكن له فيه طبع وقال أبو العباس ثعلب كان الفراء يجلس للناس

في مسجده إلى جانب منزله وكان يتفلسف في تصانيفه حتى يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة وقال سلمة بن عاصم إنني لأعجب من الفراء كيف كان يعظم الكسائي وهو أعلم بالنحو منه وقال الفراء أموت وفي نفسي شيء من حتى لأنها تخفض وترفع وتنصب ولم ينقل من شعره غير هذه الأبيات وقد رواها أبو حنيفة الدينوري عن أبي بكر الطوال وهي (يا أميرا على جريب من الأرض * له تسعة من الحجاب) (جالسا في الخراب يحجب فيه * ما سمعنا بحاجب في خراب) (لن تراني لك العيون بباب * ليس مثلي يطيق رد الحجاب) ثم وجدت هذه الأبيات لابن موسى المكفوف والله أعلم بالصواب ومولد الفراء بالكوفة وانتقل إلى بغداد وجعل أكثر مقامه بها وكان شديد طلب المعاش لا يستريح في بيته وكان يجمع طول السنة فإذا كان في

181 آخرها خرج إلى الكوفة فأقام بها أربعين يوما في أهله يفرق عليهم ما جمعه ويبرهم وله من التصانيف الكتابان المقدم ذكرهما وهما الحدود والمعاني وكتابان في المشكل أحدهما أكبر من الآخر وكتاب البهي وهو صغير الحجم ووقفت عليه بعد أن كتبت هذه الترجمة ورأيت فيه أكثر الألفاظ التي استعملها أبو العباس ثعلب في كتاب الفصيح وهو في حجم الفصيح غير أنه غيره ورتبه على صورة أخرى وعلى الحقيقة ليس لثعلب في الفصيح سوى الترتيب وزيادة يسيرة وفي كتاب البهي أيضا ألفاظ ليست في الفصيح قليلة وليس في الكتابين اختلاف إلا في شيء قليل لا غير وله كتاب اللغات وكتاب المصادر في القرآن وكتاب الجمع والتنثية في القرآن وكتاب الوقف والابتداء وكتاب المفاهير وكتاب آلة الكاتب وكتاب النوادر وكتاب الواو وغير ذلك من الكتب وقال سلمة بن عاصم أملى الفراء كتبه كلها حفظا لم يأخذ بيده نسخة إلا في كتابين كتاب ملازم وكتاب يافع ويفعة قال أبو بكر الأنباري ومقدار الكتابين خمسون ورقة ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة وقد مدحه محمد بن الجهم بقصيدة على روي الواو الموصولة بالهاء المكسورة أضربت عن ذكرها خوف الإطالة وتوفي الفراء سنة سبع ومائتين في طريق مكة وعمره ثلاث وستون سنة رحمه الله تعالى والفراء بفتح الفاء وتشديد الراء وبعدها ألف ممدودة وإنما قيل له فراء ولم يكن يعمل الفراء ولا يبيعه لأنه كان يفري الكلام ذكر ذلك الحافظ السمعاني في كتاب الأنساب وعزاه إلى كتاب الألقاب

182 وذكر أبو عبيد الله المرزباني في كتابه أن زيادا والد الفراء كان أقطع لأنه حضر وقعة الحسين بن علي رضي الله عنهما فقطعت يده في تلك الحرب وهذا عندي فيه نظر لأن الفراء عاش ثلاثا وستين سنة فتكون ولادته

سنة أربع وأربعين ومائة وحرب الحسين كانت سنة إحدى وستين للهجرة فبين حرب الحسين وولادة الفراء أربع وثمانون سنة فكم قد عاش أبوه فإن كان الأقطع جده فيمكن والله أعلم ومنظور بفتح الميم وسكون النون وضم الظاء المعجمة وسكون الواو وبعدها راء وقد تقدم الكلام على الديلمي وبني أسد وأما بنو منقر فهو بكسر الميم وسكون النون وفتح القاف وبعدها راء وهو منقر بن عبيد بن مقاعس واسمه الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد ابن زيد مناة بن تميم بن مر وهي قبيلة كبيرة ينسب إليها خلق كثير من الصحابة رضوان الله عليهم وغيرهم ومنها خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه وصفوان وشيبه ابنا عبد الله بن عمرو بن الأهثم المنقري وهما أعني خالدا وشيبيا المشهوران بالفصاحة والبلاغة والخطابة ولخالد مجالس مشهورة مع أمير المؤمنين السفاح ولشبيب مع المنصور والمهدي وغيرهما وقد تقدم ذكر خالد وشبيب في ترجمة البحتري في حرف الواو

183 799 أبو محمد اليزيدي أبو محمد يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوي المعروف باليزيدي المقرئ النحوي اللغوي صاحب أبي عمرو بن العلاء المقرئ البصري وهو الذي خلفه في القيام بالقراءة بعده سكن بغداد وحدث بها عن أبي عمرو بن العلاء وابن جريج وغيرهما وروى عنه محمد ابنه وأبو عبيد القاسم بن سلام وإسحاق بن إبراهيم الموصلية وجماعة من أولاده وحفدته وأبو عمرو الدوري وأبو حمدون الطيب بن إسماعيل وأبو شعيب السوسي وعامر بن عمر الموصلية وأبو خلاد سليمان بن خلاد وغيرهم وخالف أبا عمرو في حروف يسيرة من القراءة اختارها لنفسه وكان يؤدب أولاد يزيد بن منصور بن عبد الله بن يزيد الحميري خال المهدي وإليه كان ينتسب ثم اتصل بهارون الرشيد فجعل ولده المأمون في حجره فكان يؤدبه وكان ثقة وهو أحد القراء الفصحاء العالمين بلغات العرب والنحو وكان صدوقا وله التصانيف الحسنة والنظم الجيد وشعره مدون وصنف كتاب نواذر في اللغة على مثال كتاب نواذر الأصمعي الذي صنفه لجعفر البرمكي وفي مثل عدد ورقه وأخذ علم العربية وأخبار الناس عن أبي عمرو

184 والخليل بن أحمد ومن كان معاصرهما وحكي عن أبي حمدون الطيب بن إسماعيل قال شهدت ابن أبي العتاهية وقد كتب عن أبي محمد اليزيدي قريبا من ألف جلد عن أبي عمرو بن العلاء خاصة ويكون ذلك عشرة آلاف ورقة لأن تقدير الجلد عشر ورقات وأخذ عن الخليل من اللغة أمرا عظيما وكتب عنه العروض في ابتداء وضعه له إلا أن اعتماده على أبي

عمرو لسعة علم أبي عمرو باللغة وكان أبو محمد المذكور يعلم الصبيان بحذاء دار أبي عمرو بن العلاء وكان أبو عمرو يدينه ويميل إليه لذكائه وكان أبو محمد المذكور صحيح الرواية وله من التصانيف كتاب النوادر المقدم ذكره وكتاب المقصور والممدود ومختصر في النحو وكتاب النقط والشكل وقال ابن المنادي أكثر من السؤال عن أبي محمد اليزيدي ومحلّه من الصدق ومنزلته من الثقة لعدة من شيوخنا بعضهم أهل عربية وبعضهم أهل قرآن وحديث فقالوا هو ثقة صدوق لا يدفع عن سماع ولا يرغب عنه في شيء غير ما يتوهم عليه من الميل إلى المعتزلة وقد روى عنه الغريب أبو عبيد القاسم بن سلام وكفى به وما ذاك إلا عن معرفة منه به وكان يجلس في أيام الرشيد مع الكسائي في مجلس واحد ويقرئان الناس وكان الكسائي يؤدب الأمين وهو يؤدب المأمون فأما الأمين فإن أباه أمر الكسائي أن يأخذ عليه بحرف حمزة وأما المأمون فإن أباه أمر أبا محمد أن يأخذ عليه بحرف أبي عمرو وقال الأثرم دخل اليزيدي يوما على الخليل بن أحمد وهو جالس على وسادة فأوسع له وأجلسه معه فقال له اليزيدي أحسبني ضيقت عليك فقال الخليل ما ضاق موضع على اثنين متحابين والدنيا لا تسع متباغضين

185 وسأل المأمون اليزيدي عن شيء فقال لا وجعلني الله فداك يا أمير المؤمنين فقال لله درك ما وضعت الواو قط في موضع أحسن من موضعها في لفظك هذا ووصله وحمله وقال اليزيدي دخلت على المأمون يوما والدنيا غضة وعنده نعم تغنيه وكانت من أجمل أهل دهرها فأنشدت (وزعمت أني ظالم فهجرتني * ورميت في قلبي بسهم نافذ) (فنعم هجرتك فاغفري وتجاوزي * هذا مقام المستجير العائد) (هذا مقام فتى أضرب به الهوى * قرح الجفون بحسن وجهك لائذ) (ولقد أخذتم من فؤادي أنسه * لا شل ربي كف ذاك الأخذ) فاستعادها المأمون الصوت ثلاث مرات ثم قال يا يزيدي أيكون شيء أحسن مما نحن فيه قلت نعم يا أمير المؤمنين قال وما هو قلت الشكر لمن خولك هذا الإنعام العظيم الجليل فقال أحسنت وصدقته ووصلني وأمر بمائة ألف درهم يتصدق بها فكأنني أنظر إلى البدر وقد أخرجت والمال يفرق وشكا اليزيدي إلى المأمون حاجة أصابته وديننا لحقه فقال ما عندنا في هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغت به ما تريد فقال يا أمير المؤمنين إن الأمر قد ضاق علي وإن غرمائي قد أرهقوني فاحتل لي فأفكر المأمون واستقر الأمر على أن يحضر اليزيدي إلى الباب إذا جلس المأمون في مجلس الأئمة وعنده

ندماؤه ويكتب رقعة يطلب فيها الدخول أو إخراج بعض الندماء إليه فلما جلس المأمون حضر اليزيدي إلى الباب ودفع للخادم رقعة مختومة فأدخلها إلى المأمون ففضها فإذا فيها مكتوب (يا خير إخوان وأصحاب * هذا الطفيلي على الباب) (فصيروني واحدا منكم * أو أخرجوا لي بعض أصحابي) فقرأها المأمون على من حضر وقال ما ينبغي أن يدخل مثل هذا الطفيلي على مثل هذا الحال فأرسل إليه المأمون يقول له دخولك في مثل هذا الوقت متعذر فاختر لنفسك من أحببت أن تتادمه فلما وقف على الرسالة قال ما أرى لنفسي اختيارا سوى عبد الله بن طاهر فقال له المأمون قد وقع الاختيار عليك فصر إليه فقال يا أمير المؤمنين فأكون شريك الطفيلي فقال ما يمكنني رد أبي محمد عن أمره فإن أحببت أن تخرج إليه وإلا فافتد نفسك منه فقال على عشرة آلاف درهم فقال لا أحسب ذلك يفتعه منك ومن مجالستك فلم يزل يزيده عشرة آلاف على عشرة آلاف والمأمون يقول لا أَرْضَى له بذلك حتى بلغ مائة ألف درهم فقال له المأمون فعجلها له فكتب له بها إلى وكيله ووجه رسولا وأرسل إليه المأمون وهو يقول قبض هذا المبلغ في مثل هذه الحال أصلح لك من منادمته على مثل حاله فقبل ذلك منه وكان ظريفا في جميع أحواله وحكى أبو أحمد ابن جعفر البلخي في كتابه أن اليزيدي المذكور سأل الكسائي عن قول الشاعر (ما رأينا خربا نقر * عنه البيض صقر) (لا يكون العير مهرا * لا يكون المهر مهر) الخرب بفتح الخاء المعجمة والراء وفي آخرها الباء الموحدة الذكر من

187 الحبارى والعير بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء وهو الذكر من حمر الوحش فقال الكسائي يجب أن يكون مهر منصوبا على أنه خبر كان ففي البيت على هذا التقدير إقواء فقال اليزيدي الشعر صواب لأن الكلام قد تم عند قوله لا يكون الثانية وهي مؤكدة للأولى ثم استأنف الكلام فقال المهر مهر وضرب بقلنسوته الأرض وقال أنا أبو محمد فقال له يحيى بن خالد البرمكي أتكتني بحضرة أمير المؤمنين والله إن خطأ الكسائي مع حسن أدبه لأحسن من صوابك مع سوء أدبك فقال اليزيدي إن حلاوة الظفر أذهبت عني التحفظ قلت أنا قول الكسائي في البيت إقواء ليس بجيد فإن اصطلاح أرباب علم القوافي أن الإقواء يختص باختلاف الإعراب في حرف الروي بالرفع والجر لا غير بأن يكون أحد البيتين مرفوعا والآخر مجرورا فأما إذا كان الاختلاف بالنصب مع الرفع والجر فإن ذلك يسمى إصرافا لا إقواء وإلى هذا أشار أبو العلاء المعري في قوله من جملة قصيدة

طويلة يرثي بها الشريف الطاهر والد الرضي والمرضى المقدم ذكرهما وهو في صفة نعيب الغراب (بنيت على الإيطاء سالمة من الإقواء * والإكفاء والإصراف) وهذا البيت متعلق بما قبله ولا يظهر معناه إلا بذكر ما تقدم ولا حاجة بنا إلى ذكره هاهنا بل ذكرنا موضع الاستشهاد لا غير وقد قيل إن الإصراف من جملة أنواع الإقواء فعلى هذا يستقيم ما قاله الكسائي وهذا الفصل وإن كان دخيلا لكنه ما خلا من فائدة وغالب شعر اليزيدي جيد وقد ذكره هارون بن المنجم المقدم ذكره

188 في كتاب البارع وأورد له عدة مقاطيع فمن ذلك قوله يهجو الأصمعي الباهلي المقدم ذكره (أبن لي دعي بني أصم * متى كنت في الأسرة الفاضله) (ومن أنت هل أنت إلا امرؤ * إذا صح أصلك من باهله) ثم قال ابن المنجم وهذا البيت من نادر أبيات المحدثين في الهجاء قلت أنا وهذا مأخوذ من قول حماد عجرد في بشار بن برد يهجو (نسبت إلى برد وأنت لغيره * وهب أن بردا ناك أمك من برد) وله في الهجاء أيضا (استبق ود أبي المقاتل * حين تدنو من طعامه) (سيان كسر رغيه * أو كسر عظم من عظامه) (ويصوم كرها ضيفه * لم ينو أجرا في صيامه) وقد سبق في ترجمة أبي العباس المبرد مقطوع من شعره في شيبة بن الوليد وكان له أخبار ونوادير فمن ذلك ما رواه أنه أخذ رجل ادعى النبوة فأتى به إلى المهدي فقال له أنت نبي فقال نعم فقال وإلى من بعثت فقال وهل تركتموني أذهب إلى أحد ساعة بعثت وضعثموني في الحبس فضحك المهدي واستتابه وكان لليزيدي خمسة بنين وكلهم علماء أدباء شعراء رواة لأخبار الناس وهم أبو عبد الله محمد وإبراهيم وأبو القاسم إسماعيل وأبو عبد الرحمن عبد الله وأبو يعقوب إسحاق وكلهم ألف في اللغة والعربية (316) وكان محمد أسنهم وأشعرهم وهو القائل فيما رواه دعبل بن علي الخزاعي المقدم ذكره من جملة أبيات (أنظعن والذي تهوى مقيم * لعمرك إن ذا خطر عظيم)

189 (إذا ما كنت للحدثان عونا * علي مع الزمان فمن ألوم) (شقيت به فما أنا عنه سال * ولا هو إذ شقيت به رحيم) وهو القائل (يا بعيد الدار موصولا * بقلبي ولساني) (ربما باعدك الدهر * فأدنتك الأماني) وله أشعار كثيرة جيدة وكان يؤدب المأمون مع أبيه وثقل سمعه في آخر عمره فانقطع فاستحضره المأمون فقال لم أرك منذ أيام فقال وجدت في سمعي ثقلا وأنا أكره أن أتعبك استفهاما إذا سمعت عن غير فهم فقال أنت الآن أطيب ما تكون فما شئت أن نسمعك أسمعاك وما احتشمتناك فيه أسرناه عنك فأنت

غائب شاهد وكان قد خرج مع المأمون إلى خراسان وأقام بخدمته في مدينة مرو ثم بقي إلى أيام المعتصم وخرج معه إلى مصر فتوفي بها رحمه الله تعالى وأما والده أبو محمد المذكور فإنه توفي سنة اثنتين ومائتين رحمه الله تعالى بخراسان والظاهر أنه كان بمرو فإنه كان قد خرج في صحبة المأمون من بغداد وكانت إقامة المأمون بمرو ثم وجدت في طبقات القراء لأبي عمرو الداني أنه توفي في التاريخ المذكور بمرو ثم قال بعد ذلك وقال ابن المنادي وقيل أنه بلغ من السن دون المائة بأعوام يسيرة ومات بالبصرة ودفن بها والأول أصح والله أعلم وقد تقدم في حرف الميم ذكر حفيده أبي عبد الله محمد بن العباس بن أبي محمد اليزيدي المذكور وشرح طرف من أخباره وفضله وتاريخ وفاته والعدوي بفتح العين والداد المهملتين والواو هذه النسبة إلى عدي بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وهي قبيلة كبيرة مشهورة ولم يكن أبو محمد المذكور منهم وإنما كان من

190 موالِيهم كان جده المغيرة مولى لامرأة من بني عدي فنسب إليهم وقد سبق في أول هذه الترجمة ذكر سبب نسبته إلى يزيد ومن هو يزيد فأغنى عن الإعادة وفي ذريته جماعة كثيرة أفاضل مشاهير أصحاب تصانيف وأشعاره رائقة مشهورة ولولا خوف الإطالة لذكرت شيئا منها (317) واليزيديون يفتخرون بالكتاب الذي وضعه إبراهيم بن أبي محمد المذكور في اللغة وسماه كتاب ما اتفق لفظه واقترق معناه جمع فيه كل الألفاظ المشتركة في الاسم المختلفة في المسمى ورأيته في أربع مجلدات وهو من الكتب النفيسة يدل على غزارة علم مؤلفه وسعة اطلاعه وله غير ذلك تواليف حسنة نافعة وكذلك بقية اليزيديين صنفوا كتباً مشهورة مشكورة (318) وكان يزيد الحميري خال المهدي مقدما في دولة بني العباس ولي للمنصور البصرة واليمن ومات في سنة خمس وستين ومائة بالبصرة وفيه قال بشار بن برد الشاعر المقدم ذكره (أبا خالد قد كنت سباح غمرة * صغيرا فلما شبت خيمت بالشاطي) (وكنت جوادا سابقا ثم لم تنزل * تأخر حتى جئت تخطو مع الخاطي) (فأنت بما تزداد من طول رفعة * وتنقص من مجد كذاك بإفراط) (كسنور عبد الله بيع بدرهم * صغيرا فلما شب بيع بغيراط) قلت لقد كشفت عن سنور عبد الله المظان وسألت أهل المعرفة بهذا الشأن فما عرفت الخبر عن ذلك ولا عثرت له على أثر والله أعلم ثم ظفرت بقول الفرزدق وهو (رأيت الناس يزدادون يوما * ويوما في الجميل وأنت تنقص)

191 (كمثل الهر في صغر يغالى * به حتى إذا ما شب يرخص)
ومن هاهنا أخذ بشار قوله وليس المراد هرا بعينه بل كل هر تكون قيمته في
صغره وينقص منها في كبره والله أعلم 800 الخطيب التبريزي اللغوي أبو
زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني التبريزي
المعروف بالخطيب أحد أئمة اللغة كانت له معرفة تامة بالأدب من النحو
واللغة وغيرهما قرأ على الشيخ أبي العلاء المعري وأبي القاسم عبيد الله بن
علي الرقي وأبي محمد الدهان اللغوي وغيرهم من أهل الأدب وسمع الحديث
بمدينة صور من الفقيه أبي الفتح سليم بن أيوب الرازي ومن أبي القاسم عبد
الكريم ابن محمد بن عبد الله بن يوسف الدلال السيارى البغدادي وأبي القاسم
عبيد الله بن علي وغيرهم وروى عنه الخطيب الحافظ أبو بكر أحمد بن علي
بن ثابت صاحب تاريخ بغداد والحافظ أبو الفضل محمد بن ناصر وأبو
منصور موهوب بن أحمد الجواليقي وأبو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل
الأندلسي وغيرهم من الأعيان وتخرج عليه خلق كثير وتعلمذوا له وذكره
الحافظ أبو سعد السمعاني في كتاب الذيل وكتاب الأنساب

192 وعدد فضائله ثم قال سمعت أبا منصور محمد بن عبد الملك بن
الحسن بن خيرون المقرئ يقول أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي ما كان
بمرضي الطريقة وذكر عنه أشياء ثم قال وذاكرت أنا مع أبي الفضل محمد بن
ناصر الحافظ بما ذكره ابن خيرون فسكت وكأنه ما أنكر ما قال ثم قال ولكن
كان ثقة في اللغة وما كان ينقله وصنف في الأدب كتباً مفيدة منها شرح
الحماسة وكتاب شرح ديوان المتنبي وكتاب شرح سقط الزند وهو ديوان أبي
العلاء المعري وشرح المعلقات السبع وشرح المفضليات وله تهذيب غريب
الحديث وتهذيب إصلاح المنطق وله في النحو مقدمة حسنة والمقصود منها
أسرار الصنعة وهي عريضة الوجود وله كتاب الكافي في علم العروض
والقوافي وكتاب في إعراب القرآن سماه الملخص رأيت في أربع مجلدات
وشروحه لكتاب الحماسة ثلاثة أكبر وأوسط وأصغر وله غير ذلك من
التوالمف وقد سبق في ترجمة الخطيب أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ
ذكره وما دار بينهما عند قراءته عليه بدمشق فليُنظر هناك ودرس الأدب
بالمدرسة النظامية ببغداد وكان سبب توجهه إلى أبي العلاء المعري أنه
حصلت له نسخة من كتاب التهذيب في اللغة تأليف أبي منصور الأزهرى في
عدة مجلدات لطاف وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن رجل عالم باللغة فدل
على المعري فجعل الكتاب في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة

ولم يكن له ما يستأجر به مركوبا فننذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها البلل وهي ببعض الوقوف ببغداد وإذا رآها من لا يعرف صورة الحال فيها ظن أنها غريقة وليس بها سوى عرق الخطيب المذكور هكذا وجدت هذه الحكاية مسطورة في كتاب

193 أخبار النحاة الذي ألفه القاضي الأكرم ابن القفطي الوزير بمدينة حلب كان رحمه الله تعالى والله أعلم بصحة ذلك وكان الخطيب المذكور قد دخل مصر في عنفوان شبابه فقرأ عليه بها الشيخ أبو الحسن طاهر بن بابشاذ النحوي المقدم ذكره شيئا من اللغة ثم عاد إلى بغداد واستوطنها إلى الممات وكان يروي عن أبي الحسن محمد بن المظفر ابن تحرير البغدادي جملة من شعره فمن ذلك قوله على ما حكاه السمعاني في كتاب الذيل في ترجمة الخطيب وهي من أشهر أشعاره (خليلي ما أحلى صبوحى بدجلة * وأطيب منه بالصراة غبوقي) (شربت على الماءين من ماء كرمة * فكانا كدر ذائب وعقيق) (على قمري أفق وأرض تقابلا * فمن شائق حلو الهوى ومشوق) (فما زلت أسقيه وأشرب ريقه * وما زال يسقيني ويشرب ريقى) (وقلت لبدر التم تعرف ذا الفتى * فقال نعم هذا أخي وشقيقي) وهذه الأبيات من ملح الشعر وأطرفه والبيت الأخير منها يستمد من معنى قول أبي بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانة الأندلسي في مدح المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية المقدم ذكره من جملة قصيدة طويلة (سألت أخاه البحر عنه فقال لي * شقيقي إلا أنه الساكن العذب) ما كفاه أنه جعله شقيق البحر حتى رجحه عليه فقال الساكن العذب والبحر مضطرب ملح وهذا من خالص المدح وأبدعه وأول هذه القصيدة

194 (بكت عند توديعي فما علم الركب * أذاك سقيط الطل أم لؤلؤ رطب) (وتابعها سرب وإني لمخطيء * نجوم الدياجي لا يقال لها سرب) وهي قصيدة طويلة ولولا خوف الإطالة والخروج عما نحن بصدد ذكرتها كلها ولكن يكفي منها هذا النموذج وكان الخطيب أيضا يروي عن ابن تحرير المذكور من شعره قوله (يا نساء الحي من مضر * إن سلمى ضرة القمر) (إن سلمى لا فجعت بها * أسلمت طرفي إلى السهر) (فهي إن صدت وإن وصلت * مهجتي منها على خطر) (وبياض الشعر أسكنها * من سواد القلب والبصر) وللخطيب المذكور شعر فمن ذلك قوله (فمن يسأم من الأسفار يوما * فإني قد سئمت من المقام) (أقمنا بالعراق على رجال * لنأمن ينتمون إلى لنأمن) وقال الخطيب المذكور كتب إلي العميد الفياض (قل ليحيى

بن علي * والأقاول فنون) (غير أني لست من يكذب * فيها ويخون) (أنت عين الفضل إن مد * إلى الفضل عيون) (أنت من عز به الفضل * وقد كاد يهون) (فقت من كان وأتعبت * لعمرى من يكون) (قد مضى فيك قران * ومضت فيه قرون) (وإذا قيس بك الكل * فصحو ودجون)
195 (وإذا فتش عنهم * فالأحاديث شجون) (قد سمعنا ورأينا * فسهول وحزون) (ووزنا بك من كان * فقيل وقيون) (أين شيبان وأزد * كل ما زال ظنون) (إنك الأصل ومن دونك * في العلم غصون) (إنك البحر وأعيان * ذوي الفضل عيون) (ليس كالسيف وإن حلي * في الحكم الجفون) (ليس كالفذ المعلى * ليس كالبيت الحجون) (ليس كالجد وإن أنس * هزل ومجون) (ليس في الحسن سواء * أبدا بيض وجون) (ليس كالأبكار في اللطف * وإن راقتك عون) (قلت للحساد كونوا * كيف شئتم أن تكونوا) (سبق الزائد بالفضل * فعزوا أو فهونوا) (دمت ما خالف في الحد * حراك وسكون) (وتلقاك المنى ما * قر بالطير الوكون) (إن ودي لك عما * يصم الود مصون) (ليس لي فيه ظهور * تتنافى أو بطون) (بل لقلبي فيك صب * بالمصافاة يكون) (غلق الرهن وقد تغلق * في الحب رهون) (ومن الناس أمين * في هواه وخؤون)

196 وقال ابن الجواليقي قال لنا شيخنا الخطيب أبو زكريا فكتبت أنا إلى العميد الفياض المذكور هذه الأبيات (قل للعميد أخي العلا الفياض * أنا قطرة من بحرك الفياض) (شرفنتي ورفعت ذكرى بالذي * ألبستيه من الثنا الفضايف) (ألبستني حلل القريض تفضلا * فرفلت منها في علا ورياض) (إنني أتيتك بالحصى عن لؤلؤ * أبرزته من خاطر مرتاض) (وبخاطري عن مثل ذاك توقف * ما إن يكاد وجود بالأبعاض) (أيعارض البحر الغمامط جدول * أم درة تنقاس بالرضراض) (يا فارس النظم المرصع جوهر * والنثر يكشف غمة الأمراض) (يرمي به الغرض البعيد وقد غدا * فكري يقصر عن مدى الأغراض) (لا تلزمني من ثنائك موجبا * حقا فلست لحقه بالقاضي) (فلقد عجزت عن القريض وربما * عرضت عنه أيما إعراض) (أنعم علي ببسط عذري إنني * أقررت عند نداك بالإنفاض) (وكانت ولادته سنة إحدى وعشرين وأربعمائة وتوفي فجأة يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسمائة ببغداد ودفن في مقبرة باب أبرز رحمه الله تعالى وبسطام بكسر الباء الموحدة وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وبعد الألف ميم وقد تقدم الكلام على الشيباني والتبريزي فأغنى عن الإعادة

197 801 الزواوي أبو الحسين يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور
الزواوي الملقب زين الدين النحوي الحنفي كان أحد أئمة عصره في النحو
واللغة وسكن دمشق زمانا طويلا واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به وصنف
تصانيف مفيدة منها الألفية في النحو ومنها الفصول في النحو أيضا ثم إن
الملك الكامل أرغبه في الانتقال إلى مصر فسافر إليها وتصدر بالجامع العتيق
بمصر لإقراء الأدب وقرر له على ذلك جار ولم يزل إلى أن توفي سلخ ذي
القعدة سنة ثمان وعشرين وستمائة بالقاهرة ودفن من الغد على شفير الخندق
بقرب تربة الإمام الشافعي رضي الله عنه وقبره هناك ظاهر ومولده سنة أربع
وستين وخمسائة رحمه الله تعالى والزواوي بفتح الزاي وبين الواوين ألف
هذه النسبة إلى زواوة وهي قبيلة كبيرة بظاهر بجاية من أعمال إفريقية ذات
بطون وأفخاذ والله أعلم

198 802 يحيى بن المنجم النديم أبو أحمد يحيى بن علي بن يحيى بن
أبي منصور المعروف بالمنجم واسمه أبان حسيب بن وريد بن كاد بن مهابنداد
حسيب بن فروخ داد بن أساد ابن مهر حسيب بن يزيد بن كاد بن مهابنداد
نديم الموفق أبي أحمد طلحة ابن المتوكل على الله والموفق المذكور هو والد
المعتضد بالله ولم يل الموفق الخلافة بل كان نائبا عن أخيه المعتمد على الله
ولم يزل في محاربة القرامطة وأمره في ذلك مشهور وقصته طويلة وليس هذا
موضع ذكرها ثم إن يحيى المذكور نادم الخلفاء بعد الموفق واختص بمنادمة
المكتفي بالله ابن المعتضد وعلت رتبته عنده وتقدم على خواصه وجلسائه
وكان متكلمًا معتزلي الاعتقاد وله في ذلك كتب كثيرة وكان له مجلس يحضره
جماعة من المتكلمين بحضرة المكتفي وصنف كتبًا كثيرة فمن ذلك كتاب
الباهر في أخبار شعراء مخضرمي الدولتين ابتداءً فيه ببشار بن برد وآخر من
أثبت فيه مروان بن أبي حفصة ولم يتمه وتممه ولده أبو الحسن أحمد بن يحيى
وعزم على أن يضيف إلى كتاب أبيه سائر الشعراء المحدثين فذكر منهم أبا
دلامة ووالبة بن الحباب ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس وأبا علي البصير ()
318) وكان أبو الحسن أحمد المذكور متكلمًا فقيها على مذهب أبي جعفر

199 الطبري وله كتب صنفها منها كتاب أخبار أهله ونسبهم في الفهرس
وكتاب الإجماع في الفقه على مذهب أبي جعفر الطبري وكتاب المدخل إلى
مذهب الطبري ونصرة مذهبه وكتاب الأوقات وغير ذلك وليحيى المذكور مع
المعتضد وقائع ونوادير فمن ذلك ما حكاه أبو الحسن علي بن الحسين بن علي
المسعودي في كتاب مروج الذهب عن يحيى المذكور أنه قال كنت يوما بين

يدي المعتضد وهو مغضب فأقبل بدر مولاه وكان شديد الغرام به فلما رآه من بعيد ضحك وقال يا يحيى من الذي يقول من الشعراء (في وجهه شافع يمحو إساءته * من القلوب وجيه حيثما شفعا) فقلت يقوله الحكم بن عمرو الشاري فقال لله دره أنشدني هذا الشعر فأنشدته (ويلي على من أطار النوم فامتعا * وزاد قلبي على أوجاعه وجعا) (كأنما الشمس من أعطافه لمعت * حسنا أو البدر من أزراره طلعا) (مستقبل بالذي يهوى وإن كثرت * منه الذنوب ومعدور بما صنعا) (في وجهه شافع يمحو إساءته * من القلوب وجيه حيثما شفعا) وذكر أبو الفتح كشاجم الشاعر المشهور في كتابه الذي سماه المصايد والمطارد في الفصل الذي ذكر فيه صيد الأسد بالنشاب ما مثاله حدث أبو أحمد يحيى بن علي بن يحيى المنجم النديم نديم المكتفي بالله قال وجد علي أمير المؤمنين المكتفي بالله منصرفه من الرقة لركوبي الماء منها إلى المرحلة الأولى قبل أن يركبه هو وذلك أن أبا العباس أحمد بن عبد الصمد حملني على ذلك

200 وسألني أن أكون معه في سفينة ففعلت ولم أظن أن المكتفي ينكر ذلك ولا يحتمل تأخيري عنه وإخلالي به فلما صرنا إلى الدالية أمر بأن أرد منها إلى قرقيسيا وأقيم بها حتى أصيد سبعا وأحدره إليه فردني ورد معي عدة من المغنين كانوا قد ركبوا الماء فكتبت إليه بأبيات فلم تعطفه فرجعت إلى الرحبة وأقمت عند أبي محمد عبد الله بن الحسين بن سعد القطرلي في قصف وشرب وصبوح وغبوق وهو على غاية السرور بمقامي عنده وكان معنا أبو جعفر محمد بن سليمان بن محمد بن عبد الملك الزيات فكتبت من الرحبة كتابا إلى الوزير أبي الحسين القاسم بن عبيد الله وأنفذت فيه شعرا أسأله أن يقرأه على المكتفي وهو (نفس الدهر أن نسر وأن يسعدنا * بالأحبة الاجتماع) (فرماني وإخوة لي بسهم * نفر النفس فهي منه شعاع) (فرددنا إلى وراء ومر الناس * قدما فاشتدت الأوجاع) (لو سمعنا بمثل ما نالنا أفرعنا * منه في سوانا السماع) (كلفونا صيد السباع وإنا * لبخير إن لم تصدنا السباع) (إن عصينا فواجب أي قوم * كلفوا فوق طوقهم فأطاعوا) (كل شيء يجوز تكليفه الإنسان * إلا ما كان لا يستطيع) (لم تزل تمزح الملوك ولكن * مع ذاك المزاح جود وساع) (وتواني الوزير عنا فضعنا * في سبيل الإله حق مضاع) (قد مددنا الأيدي إليه وأضحت * عائدات بفضلها الأطماع) (شافع لا يخاف ردا إذا ما * رد عما تريده الشفاع) (عبثات الملوك ينبعها الأانس * وأثمارها عطايا تباع)

201 (أولنا يا ولي دولته خيرا * لديه فالخير النفاع) وأنفذ الكتاب مع محمد بن سليمان الخرائطي في الخرائط فلم يضعه القاسم من يده حتى دخل على المكتفي فقرأه عليه وأنشده الأبيات فاستحسنها وقال يكتب الساعة بتخلية سبيله وحمله إلينا فلم يكن أسرع من أن وافاني الرسول فوافيت وأنشدت المكتفي ببغداد (عاد ليلي القصير في كرخ بغداد * بقرقيسيا علي طويلا) (أجميلا أن تتركوني وتمضون * رهينا بها غريبا ذليلا) (مفردا بالعقاب مشترك الذنب * فصبرا حسبي بربي وكيلا) (إن قضى الله لي رجوعا إلى بغداد * لا هالكا بغمي قتيلا) (وأراني الخليفة المكتفي بالله * وابن الخلائف المأمولا) (كالذي قد عهدت لا معرضا عني * ولا واجدا ولا مستحيلا) (كل شيء أسامه هين عندي * إذا الرأي منه كان جميلا) فاستحسنها ورق لشكواي بها حتى تبينت ذلك في وجهه وكلامه وأخبار يحيى ومحاسنه كثيرة وكانت ولادته سنة إحدى وأربعين ومائتين وتوفي ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثلثمائة رحمه الله تعالى وقد تقدم ذكر والده علي وأخيه هارون وابن أخيه علي ولم أرفع في نسبهم إلا في هذه الترجمة لأنني لم أظفر بالنسب على هذه الصورة إلا لما وصلت إلى هذا الموضع فنقلته كما وجدته من كتاب الفهرست لأبي الفرج محمد بن إسحاق النديم ولم أضبط شيئا من أسماء أجداده لأنني لم أتحقق فيها شيئا فنقلتها كما وجدت

202 803 أبو بكر ابن بقي الشاعر أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن بقي الأندلسي القرطبي الشاعر المشهور صاحب الموشحات البديعة قال الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي في كتاب مطمح الأنفس في حق أبي بكر المذكور إنه كان نبيل النثر والنظام كثير الارتباط في سلكه والانتظام أحرز خصالا وطرز محاسنه بكرا وأصالا وجرى في ميدان الإحسان إلى أبعد أمد وبنى من المعارف على أثبت عمد إلا أن الأيام حرمته وقطعت حبل رعايته وصرمته ولم تتم له وطرا ولم تسجم عليه من الحظوة مطرا ولا نولته من الحرمة نصيبا ولا أنزلته مرعى خصيبا فصار راكب سهوات وقاطع فلوات لا يستقر يوما ولا يستحسن قوما مع توهم لا يظفره بأمان وتقلب ذهن كواهي الجمان إلا أن يحيى بن علي بن القاسم نزعه عن ذلك الطيش وأقطعه جانبا من العيش وأرقاه إلى سمائه وسقاه صوب نعمائه وفيأه ظلاله وبوأه أثر النعمة يجوس خلاله فصرف فيه أقواله وشرف بقوافيه نواله وأفرده منها

بأنفس در وقد لبته منها بقصائد غر وذكر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي المذكور في حقه أيضا في كتاب

203 قلائد العقيان هو رافع راية القريض وصاحب آية التصريح فيه والتعريض أقام شرائعه وأظهر روائعه وصار عصيه طائعه إذا نظم أزرى بنظم العقود وأتى بأحسن من رقم البرود ضفا عليه حرمانه وما صفا له زمانه انتهى كلام الفتح وقد أثبت لأبي بكر المذكور هذا المقطوع من الشعر ولم أر الفتح ذكره في واحد من كتابيه المذكورين مع أنه من أحسن شعره وأشهره وهو (بأبي غزال غزلته مقلتي * بين العذيب وبين شطي بارق) (وسألت منه زيارة تشفي الجوى * فأجابني منها بوعد صادق) (بتنا ونحن من الدجى في خيمة * ومن النجوم الزهر تحت سراق) (عاطيته والليل يسحب ذيله * صهباء كالمسك الفتيق لناشق) (وضممته ضم الكمي لسيفه * وذؤابتاه حمائل في عاتقي) (حتى إذا مالت به سنة الكرى * زحزحته عني وكان معانقي) (أبعدته عن أضلع تشتاقه * كي لا ينام على وساد خافق) (لما رأيت الليل آخر عمره * قد شاب في لم له ومفارق) (ودعت من أهوى وقلت تأسفا * أعزز علي بأن أراك مفارقي) وقد ذكر بعض هذه الأبيات الحافظ أبو الخطاب ابن دحية في كتابه الذي سماه المطرب من أشعار أهل المغرب ومن شعره قصيدة يمدح بها يحيى بن علي بن القاسم المذكور في هذه الترجمة وهي طويلة ومن مديحها قوله (نوران ليسا يحجبان عن الورى * كرم الطباع ولا جمال المنظر) (وكلاهما جمعا ليحيى فليدع * كتمان نور علائه المتشهر)

204 (في كل أفق من جميل ثنائيه * عرف يزيد على دخان المجرم) (رد في شمائله ورد في جوده * بين الحديقة والغمام الممطر) (ندب عليه من الوقار سكينة * فيها حفيظة كل ليث مخدر) (مثل الحسام إذا انطوى في غمده * ألقى المهابة في نفوس الحضر) (أربى على الغيث الملت لأنه * أعطى كما أعطى ولم يستعبر) (أزرى على البحر الخضم لأنه * في كل كف منه خمسة أبحر) (أقبلت مرتادا لجودك إنه * صوب الغمامة بل زلال الكوثر) (ورأيت وجه النجح عندك أبيض * فركبت نحوك كل لج أخضر) (يجري إليك بنا سفين أتلع * مثل البعير مخزم في المنخر) (وبنات أعوج قد برمن بصحبتني * مما قطعن من اليباب المقفر) (وأورد له صاحب قلائد العقيان مقطوعا وهو (يا أقتل الناس أحاظا وأطيبهم * ريقا متى كان فيك الصاب والعسل) (في صحن خدك وهو الشمس طالعة * ورد يزيدك فيه

الراح والخلج) (إيمان حبك في قلبي يجده * من خذك الكتب أو من لحظك
الرسل) (إن كنت تجهل أني عبد مملكة * مرني بما شئت آتية وأمتل) (لو
اطلعت على قلبي وجدت به * من فعل عينيك جرحا ليس يندمل) وذكره
العماد الكاتب في الخريدة وأورد له عدة مقاطيع ثم أعاد ذكره في آخر الكتاب
وأورد له (ومشمولة في الكأس تحسب أنها * سماء عقيق رصعت بالكواكب
(

205 (بنت كعبة اللذات في حرم الصبا * فحج إليها اللهو من كل جانب
(ومحاسنه في الشعر كثيرة وتوفي سنة أربعين وخمسمائة رحمه الله تعالى
وبقي بفتح الباء الموحدة وكسر القاف وتشديد الياء 804 الخطيب الحصكفي
أبو الفضل يحيى بن سلامة بن الحسين بن محمد الملقب معين الدين المعروف
بالخطيب الحصكفي صاحب الديوان الشعر والخطب والرسائل ولد بطنزة
ونشأ بحصن كيفا وقدم بغداد فاشتغل بالأدب على الخطيب أبي زكريا
التبريزي المقدم ذكره وأتقنه حتى مهر فيه وقرأ الفقه على مذهب الإمام
الشافعي رضي الله عنه وأجاد فيه ثم رحل عن بغداد راجعا إلى بلاده ونزل
ميفارقين واستوطنها وتولى بها الخطابة وكان إليه أمر الفتوى بها واشتغل
عليه الناس وانتفعوا بصحبته وذكره العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة فقال
في حقه كان علامة الزمان في علمه ومعري العصر في نثره ونظمه له
الترصيع البديع والتجنيس النفيس والتطبيق والتحقيق واللفظ الجزل الرقيق
والمعنى السهل

206 العميق والتقسيم المستقيم والفضل السائر المقيم ثم قال العماد بعد
كثرة الثناء عليه وتعداد محاسنه وكنت أحب لقاءه وأحدث نفسي عند وصولي
إلى الموصل به وأنا شغف بالاستفادة كلف بمجالسة الفضلاء للاستزادة فعاق
دون لقائه بعد الشقة وضعفي عن تحمل المشقة ثم ذكر له عدة مقاطيع فمن ذلك
قوله (وخليع بت أعذله * ويرى عذلي من العبث) (قلت إن الخمر مخبئة *
قال حاشاها من الخبث) (قلت فالأرفاث تتبعها * قال طيب العيش في الرفث
(قلت منها القيء قال أجل * شرفت عن مخرج الحدث) (وسأجفوها
فقلت متى * قال عند الكون في الجذب) قلت أنا ولقد أخذ الخطيب المذكور
قوله (شرفت عن مخرج الحدث *) من قول بعضهم ولا أعرفه لكنها أبيات
سائرة وهي (ولائم لأمني في الخمر قلت له * إني سأشربها حيا وفي جدثي)
(فأسقتني قهوة حمراء صافية * صرفا حراما فإني غير مكترث) (فإن يكن
حللوا بالطبخ ففي * حشاي نار تبقئها على الثلث) (قالوا فلم تتقايها فقلت

لهم * إني أنزهها عن مخرج الحدث) ثم قال العماد الأصبهاني وأنشدني له بعض الفضلاء ببغداد خمسة أبيات كالخمسة السيارات مستحسنات مطبوعات مصنوعات وهي (أشكو إلى الله من نارين واحدة * في وجنتيه وأخرى منه في كبدي)

207 (ومن سقامين سقم قد أحل دمي * من الجفون وسقم حل في جسدي) (ومن نومين دمعي حين أذكره * يذيع سرى وواش منه بالرصد) (ومن ضعيفين صبري حين أذكره * ووده ويراه الناس طوع يدي) (مهفهف رق حتى قلت من عجب * أخصره خنصري أم جلده جلدي) (ومن مليح شعره أبيات في هجو مغن وهي (ومسمع غناؤه * يبذل بالفقر الغنى) (شهدته في عصابة * رضيتهم لي قرنا) (أبصرته فلم تخب * فراستي لما دنا) (وقلت من ذا وجهه * كيف يكون محسنا) (ورمت أن أروح للظن * به ممتحنا) (فقلت من بينهم * هات أخي غن لنا) (ويوم سلع لم يكن * يومي بسلع هينا) (فانشال منه حاجب * وحاجب منه انحنى) (وامتلأ المجلس من * فيه نسима منتنا) (أوقع إذ وقع في الأنفس * أسباب العنا) (وقال لما قال من * يسمع في ظل الفنا) (وما اكتفى باللحن والتخليط * حتى لحننا) (هذا وكم تكشخن الوغد * وكم تقرننا) (يوهم زمرا أنه * قطعه وددنا)

208 (وصاح صوتا نافرا * يخرج عن حد البنا) (وما درى محضره * ماذا على القوم جنى) (فذا يسد أنفه * وذا يسد الأذنا) (ومنهم جماعة * تستر عنه الأعينا) (فاغتنظت حتى كدت من * غيظ أبث الشجنا) (وقلت يا قوم اسمعوا * إما المغني أو أنا) (أقسمت لا أجلس أو * يخرج هذا من هنا) (جروا برجل الكلب إن * السقم هذا والضنا) (قالوا لقد رحمتنا * وذدت عنا المحنا) (فحزت في إخراج * راحة نفسي والثنا) (وحين ولى شخصه * قرأت فيهم معلنا) (الحمد لله الذي * أذهب عنا الحزنا) (ولم أسمع مع كثرة ما قيل في هذا الباب مثل هذا المقطوع في هذا المعنى وللخطيب المذكور أيضا في هذا المعنى) (ومسمع قوله بالكره مسموع * محجب عن بيوت الناس ممنوع) (غنى فبرق عينيه وحرك لحييه * فقلنا الفتى لا شك مصروع) (وقطع الشعر حتى ود أكثرنا * أن اللسان الذي في فيه مقطوع) (لم يأت دعوة أقوام بأمرهم * ولا مضى قط إلا وهو مصفوع) (وقد سبق له في ترجمة الشيخ الشاطبي في حرف القاف مقطوع لغز في نعش وهو معنى مليح وأكثر شعره على هذا الأسلوب في اللطافة وجودة المقاصد

209 وكان يتشيع وهو في شعره ظاهر وكان بمدينة آمد شابان بينهما مودة أكيدة ومعاشرة كثيرة فركب أحدهما ظاهر البلد وطرد فرسه فتقنطر فمات وقعد الآخر يستعمل الشراب فشرق فمات في ذلك النهار فعمل فيهما بعض الأدباء (تقاسما العيش صفوا والردي كدرا * وما عهدنا المنايا قط تقتسم) (وحافظا الود حتى في حمامهما * وقلما في المنايا تحفظ الذمم) فلما وقف الخطيب المذكور على البيتين قال هذا الشاعر قصر إذ لم يذكر سبب موتها وقد قلت فيهما (بنفسي أخيان من آمد * أصيبا بيوم مشوم عبوس) (دهى ذا كميت من الصافنات * وهذا كميت من الخندريس) قلت ولو قال (دهى ذا كميت من الصافنات * وهذا كميت من الصافيات) لكان أحسن لأجل المجانسة وكان يجعل البيت الأول (بنفسي أخيان من آمد * أصيبا بيوم شديد الأداة) أو ما يناسب هذا ثم وجدت البيتين الأولين في كتاب الجنان تأليف القاضي الرشيد ابن الزبير المقدم ذكره في حرف الهمزة وقد نسبهما إلى الفقيه أبي علي الحسن بن أحمد المعلم المعري لكن هكذا وجدت الحكاية بخط

210 بعض المتأدبين والله أعلم وللخطيب المذكور الخطب المليحة والرسائل المنتقاة ولم يزل على رياسته وجلالته وإفادته إلى أن توفي سنة إحدى وقيل ثلاث وخمسين وخمسمائة وكانت ولادته في حدود سنة ستين وأربعمائة رحمه الله تعالى والحصكفي بفتح الحاء وسكون الصاد المهملة وفتح الكاف وفي آخرها فاء هذه النسبة إلى حصن كيفا وهي قلعة حصينة شاهقة بين جزيرة ابني عمر وميافارقين وكان القياس أن ينسبوا إليه الحصني وقد نسبوا إليه أيضا كذلك لكن إذا نسبوا إلى اسمين أضيف أحدهما إلى الآخر ركبوا من مجموع الاسمين اسما واحدا ونسبوا إليه كما فعلوا هاهنا وكذلك نسبوا إلى رأس عين رسعني وإلى عبد الله وعبد شمس وعبد الدار عبدلي وعبشمي وعبدري وكذلك كل ما هو نظيره وأما طنزة بفتح الطاء المهملة وسكون النون وفتح الزاي في آخرها هاء ساكنة فهي بليدة صغيرة بديار بكر فوق الجزيرة العمرية خرج منها جماعة من المحدثين وغيرهم ونسبوا إليها (319) قال عماد الدين الأصبهاني الكاتب في كتاب الخريدة منها إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم الطنزي وهو القائل (وإني لمشتاق إلى أرض طنزة * وإن خائني بعد التفرق إخواني) (سقى الله أرضا لو ظفرت بتربها * كحلت به من شدة الشوق أجفاني) ثم قال عماد الدين المذكور بعد هذا كان الشاعر حيا في شهر رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة

211 805 يحيى بن تميم الصنهاجي أبو طاهر يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الحميري الصنهاجي صاحب إفريقية وما والاها قد تقدم ذكر والده ورفعت نسبه هناك وتقدم ذكر جماعة من أجداده في هذا الكتاب وكانت ولاية الأمير يحيى المذكور بالمهدية خلافة عن أبيه تميم يوم الجمعة لأربع بقين من شهر ذي الحجة سنة سبع وتسعين وأربعمائة والطاق الدرجة السابعة من الجدي ثم استقل بالأمر يوم وفاة والده وقد سبق ذلك في ترجمته وكان عمر الأمير يحيى يوم الاستقلال ثلاثا وأربعين سنة وستة أشهر وعشرين يوما وركب على العادة وأهل دولته محتفون به ورجع إلى قصره فغير لباس جميع أهل الدولة من الخواص والجند بخلع سنية وكانوا قد غيروا لباسهم لموت أبيه ووهب للأجناد والعيبد أموالا كثيرة ووعدهم مواعد سارة ورأيت في كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان الذي ألفه ولد أخيه عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس أن الأمير تميما قبل وفاته بمدة يسيرة دعا ولده يحيى المذكور وكان في دار الإمارة مع خاصته وجلسائه فمضى يحيى ومن معه إليه فوجدوا تميما في بيت المال فأمرهم بالجلوس ثم قال لأحدهم قم فادخل ذلك البيت وخذ منه الكتاب الذي صفته كذا في مكان كذا فقام وأتى به فإذا هو كتاب ملحمة فقال له

212 عد من أوله كذا وكذا ورقة واقرا الصفحة التي تنتهي إليها فقرأها وإذا فيها الملك المغدور وهو الطويل القامة الذي على وركه الأيمن خال وفي جنبه الأيسر شامة فقال الأمير تميم أطبق الكتاب وارده إلى موضعه ففعل ثم قال تميم أما العلامتان فقد رأيتهما وبقيت علي الثالثة قم أنت يا شريف وأنت يا فلان حتى تحققا عندي خبر العلامة الثالثة فقاموا وقام يحيى معهم إلى موضع مستور عن تميم فكشف لهم عن جسمه فرأوا شامة على جنبه الأيسر هلالية الشكل فأتوا تميما فعرفوه فقال لم أعطه أنا شيئا الله تعالى الذي أعطاه ثم قال إني أخبركم بحديث عجيب وذلك أنه عرض علي النخاس والدته فاستحسنتها ومالت نفسي إليها فاشتريتها وسلمتها إلى خدام القصر وأمرت النخاس أن يرجع إلى قبض الثمن ثم دبرت في مال طيب حلال أخرج ثمنها منه فبينما أنا مفكر في ذلك إذ سمعت السائل يصيح ويرفع صوته في الإذن على مطالعتي فأخرجت رأسي من الطاق وقلت له ما شأنك فقال كنت الساعة أحفر في قصر المهدي إذ وجدت صندوقا عليه قفل فتركته على حاله وجئت مطالعا بأمره فأنفذت معه من أثق به فإذا فيه أثواب مذهبات الأعلام قد أفناها الدهر فأمرت بسبك أعلامها فلم تزد ولم تنقص عن ثمن الجارية فتعجب الحاضرون من ذلك

ودعوا له ثم أمر لهم بدنانير وكساء وانصرفوا قال عبد العزيز المذكور وقد أدركت هذا الكتاب المشار إليه عند السلطان الحسن رحمه الله تعالى يعني الحسن بن علي بن يحيى المذكور وحكى عن الكتاب أموراً وقضايا ذكر أنها ستكون وكانت كما ذكر رجعنا إلى حديث يحيى ولما جلس في الملك قام بالأمر وعدل في الرعية وفتح قلاعاً لم يتمكن أبوه من فتحها قال عبد العزيز المذكور في تاريخه وفي أيامه يعني يحيى

213 وصل إلى المهديّة من طرابلس المهدي محمد بن تومرت المقدم ذكره قادماً من الحج فنزل بمسجد قبلي مسجد السبت فاجتمع إليه جماعة من أهل المهديّة وقرأوا عليه كتباً في علم أصول الدين وشرع في تغيير المنكر فرفع أمره إلى يحيى فأحضره وجماعته من الفقهاء فرأى ما هو عليه من الخشوع والتقشف والعلم فسأله الدعاء فقال له أصلحك الله لرعيّتك ونفع بها ذريّتك وأقام مدة يسيرة بالمهديّة ثم انتقل إلى المنستير فأقام بها مدة ثم انتقل إلى بجاية وقد تقدم في ترجمة والده الأمير تميم أن محمد بن تومرت المذكور اجتاز بتلك البلاد في أيامه والله تعالى أعلم أي ذلك كان ثم قال عبد العزيز وفي سنة سبع وخمسمائة أتى إلى المهديّة قوم غرباء فقصدوا يحيى بمطالعة زعموا فيها أنهم من أهل الصناعة الكبيرة من الواصلين إلى نهايتها فأذن لهم بالدخول عليه فلما مثلوا بين يديه طالبهم بأن يظهروا له من الصناعة ما يقف عليه فقالوا نحن نزيل من القصدير التدخين والصرير حتى يرجع لا فرق بينه وبين الفضة لمولانا من السروج والقصب والبنود والأواني قناطر من الفضة يجعل عوضاً منها ما يريد ويستعمل جميع ذلك في مهماته وسألوه أن يكون ذلك في خلوة فأجابهم وأحضرهم للعمل ولم يكن عند الأمير يحيى سوى الشريف أبي الحسن علي والقائد إبراهيم قائد الأعنة وكانوا هم ثلاثة وكانت بينهم أمانة فأمكنهم الفرصة فقال أحدهم دارت البوتقة فتواثبوا وقصد كل واحد منهم واحداً بسكاكينهم فأما الذي قصد الأمير يحيى فقال أنا سراج وكان يحيى جالساً على مصطبة فضربه فجاءت على أم رأسه فقطعت طاقات في العمامة ولم تؤثر في رأسه واسترخت يده بالسكين على صدره فخدشته وضربه يحيى برجله فألقاه على ظهره فسمع الخدم الجلبة ففتحوا باب القصر من عندهم فدخل يحيى وأغلق الباب دونهم وأما الشريف فلم يزل به الذي قصده حتى قتله وأما القائد إبراهيم فإنه شهر سيفه ولم يزل يقاتل الثلاثة وكسر الجند الباب الذي كان بينهم ودخلوا فقتلوه وكان زيهم زي أهل الأندلس فقتل في البلد جماعة ممن

214 يلبس ذلك الزي وخرج الأمير يحيى في الحال ومشى في البلد وسكن الفتنة وكان يحيى عادلاً في دولته ضابطاً لأمر رعيته عارفاً بخرجه ودخله مدبراً في جميع ذلك على ما يوجبه النظر العقلي ويقتضيه الرأي الحكمي ونعته في الملاحم الملك المغدور وتحقق له هذا النعت بهذه الواقعة التي ذكرناها وكان كثير المطالعة لكتب الأخبار والسير عارفاً بها رحيماً للضعفاء شفيقاً على الفقراء يطعمهم في الشدائد فيرفق بهم ويقرب أهل العلم والفضل من نفسه وساس العرب في بلاده فهابوه وانكفت أطماعهم وكان له نظر حسن في صناعة النجوم والأحكام وكان حسن الوجه على حاجبه شامة أشهل العينين مائلاً في قده إلى الطول دقيق الساقين وكان عنده جماعة من الشعراء قصوده ومدحوه وخلدوا مديحه في دواوينهم ومن جملة شعرائه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الشاعر المقدم ذكره أقام تحت كنفه بعد أن جاب الأرض وتقاذفت به البلدان وله صنف الرسالة المشهورة التي وصف فيها مصر وعجائبها وشعراءها وغير ذلك وله فيه مدائح كثيرة أجاد فيها وأحسن وله أيضاً مدائح في ولده أبي الحسن علي وولد ولده الحسن بن علي ومن جملة قوله من مديحه قصيدة (وارغب بنفسك إلا عن ندى ووغى * فالمجد أجمع بين البأس والجود) (كدأب يحيى الذي أحيت مواهبه * ميت الرجاء بإنجاز المواعيد) (معطي الصوارم والهياف النواعم والجرد * الصلادم والبزل الجلاعيد) (أشم أشوس مضروب سراقده * على أشم بفرع النجم معقود) (إذا بدا بسرير الملك محتبياً * رأيت يوسف في محراب داوود) (من أسرة تخذوا الماذي لبسهم * واستوطنوا سهوات الضمر القود) (محسدون على أن لا نظير لهم * وهل رأيت عظيماً غير محسود)

215 (وإن تكن جمعتمكم أسرة كرمتم * فليس في كل عود نفة العود) (أقول للراكب المزجي مطيته * يطوي بها الأرض من بيد إلى بيد) (لا تترك الماء عدا في مشارعه * وتطلب الري من صم الجلاميد) (هذي موارد يحيى غير ناضبة * وذا الطريق إليها غير مسدود) (حكم سيوفك فيما أنت طالبه * فللسيوف قضاء غير مردود) وله فيه غير ذلك ولما كان يوم الأربعاء وهو عيد النحر سنة تسع وخمسمائة توفي يحيى فجأة وذلك أن منجمه قال يوماً له إن في تسيير مولدك في هذا النهار عليك عكسا فلا تركب فامتنع من الركوب وخرج أولاده ورجال دولته إلى المصلى فلما انقضت الصلاة حضر رجال الدولة على ما جرت به العادة للسلام وقرأ القراء القرآن وأنشد الشعراء وانصرفوا إلى الإيوان فأكل الناس وقام يحيى إلى مجلس الطعام فلما

وصل إلى باب المجلس أشار إلى جارية من حظاياها فاتكأ عليها فما خطا من باب البيت سوى ثلاث خطوات حتى وقع ميتا وكان ولده علي نائبه على سفاقس وهي بلدة من أعمال إفريقية وللشعراء فيها شعر فمن ذلك قول بعضهم وهو علي بن حبيب يصف بحرهما في مده وجزره (سقيا لأرض سفاقس * ذات المصانع والمصلى) (بلد يكاد يقول حين * وروده أهلا وسهلا) (وكان ماء البئر حين * تراه ينضب ثم يملا) (صب يريد زيارة * فإذا رأى الرقباء ولي) فأحضر وعقدت له الولاية ودفن يحيى في القصر على ما جرت به العادة ثم نقل بعد سنة إلى قصر السيدة بالمنستير وهي بلدة بأفريقية أيضا وخلف ثلاثين ولدا ذكورا

216 (320) وأما علي المذكور القائم مقام أبيه يحيى فإن مولده بمدينة المهديّة صبيحة يوم الأحد لخمس عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع وتسعين وأربعمائة وكان أبوه قد ولاه سفاقس فلما مات أبوه اجتمع أعيان دولته على كتاب كتبوه عن أبيه إليه يأمره بالوصول إليه مسرعا فوصله الكتاب ليلا فخرج لوقته ومعه طائفة من أمراء العرب وجد في السير فوصل الظهر من يوم الخميس الثاني من يوم العيد ودخل القصر ولم يقدم شيئا على تجهيز أبيه والصلاة عليه ودفنه وفي صبيحة يوم الجمعة ثالث عشر ذي الحجة جلس للناس فدخلوا عليه وسلموا بالإمارة ثم ركب في جيوشه وجموعه ثم عاد إلى قصره وفي أيامه توجه أخوه أبو الفتوح ابن يحيى إلى الديار المصرية ومع زوجته بلارة بنت القاسم وولده العباس صغير على الثدي فوصل إلى الإسكندرية فأنزل وأكرم بأمر الأمر صاحب مصر يومئذ فأقام بها مدة يسيرة وتوفي فتزوجت بعده زوجته بلارة بالعدل بن السلار واسمه علي المقدم ذكره في هذا الكتاب في حرف العين وشب العباس وقدمه الحافظ صاحب مصر وولي الوزارة بعد العدل المذكور وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه في حوادث سنة اثنتين وخمسمائة حديث الثلاثة الذين جاءوا إلى يحيى في معنى الكيمياء فقال كان مجيئهم في هذه السنة وأنهم لما وثبوا على يحيى وجرى ما ذكرته قبل هذا صادف ذلك مجيء أبي الفتوح المذكور وأصحابه إلى القصر وعليهم السلاح فمنعوا من الدخول وثبت عند يحيى أن ذلك كان باتفاق بينهم فأخرج أبو الفتوح وزوجته وهي ابنة عمه إلى قصر زياد ووكل بهما إلى أن مات يحيى وملك ابنه علي فسيرهما في البحر إلى الديار المصرية فوصلا إلى الإسكندرية انتهى كلامه ولم تنزل أمور علي بن يحيى جارية على السداد إلى

أن توفي يوم الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وخمسمائة ودفن في القصر

217 بعد أن فوض الأمر من بعده إلى ولده أبي يحيى الحسن بن علي بن يحيى (321) ومولد الحسن المذكور بمدينة سوسة في رجب سنة اثنتين وخمسمائة فكان عمره يوم ولايته اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر ولما كان ثاني يوم وفاة أبيه خرج للناس فسلموا عليه وهنئوه بما صار إليه ثم ركب والجيوش محتقة به وجرت في أيامه وقائع وأمور يطول شرحها فمن ذلك أن رجار الفرنجي صاحب صقلية أخذ طرابلس الغرب عنوة بالسيف في يوم الثلاثاء سادس المحرم سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وقتل أهلها وسبى الحرير والأطفال وأخذ الأموال ثم شرع في عمارتها وتحصينها بالرجال والعدد ثم أخذ المهديّة يوم الاثنين ثاني عشر صفر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وذلك أن الحسن بن علي لما علم عجزه عن مقاومته خرج من المهديّة هاربا وقد استصحب ما خف عليه حمله من النفائس وخرج أهل البلد أيضا هاربين إلا من أقعده العجز عن الهرب فدخل إليه الفرنج وملكوه وصادفوا فيه من الأموال والذخائر ما لا يعد ولا يحصى وكان عدة من ملك من أهل بيتهم وأولهم زيري المقدم ذكره في حرف الزاي إلى هذا الحسن بن علي تسعة ملوك ومدة ولايتهم مائتا سنة وثمان سنين وانقرضت دولة بني باديس ثم إن الحسن بن علي توجه نحو المعلقة وهي قلعة حصينة بإفريقية تجاور تونس وكان صاحبها أبا محفوظ محرز بن زياد أحد أمراء العرب فأقام عنده قليلا ثم ظهر له منه الضجر والسامة فعزم على قصد الديار المصرية ليكون عند الحافظ العبيدي صاحبها يومئذ فمني خبره إلى نائب رجار بالمهديّة فجعل عليه العيون وعمل عشرين شينيا ليمسكه في البحر فبلغ الحسن ذلك فرجع عن هذا الرأي ثم قصد أن يتوجه إلى جهة عبد المؤمن بن علي بمراكش وأنفذ ثلاثة من أولاده إلى صاحب بجاية وهي آخر أعمال إفريقية ليستأذنه في الوصول إليه وبعد ذلك يتوجه إلى عبد المؤمن فأضمر له الغدر وخاف من اجتماعه

218 بعبد المؤمن أن يتفقا على ما فيه ضرره فكتب إليه كتابا على يد أولاده يقول له لا حاجة لك في الرواح إلى عبد المؤمن ونحن نفعل معك ونصنع وأجزل له من المواعيد الحسنة فتوجه إليه فلما قرب من بجاية لم يخرج للقائه وعدل به إلى الجزائر وهي بلدة فوق بجاية من جهة الغرب وأنزلوه بها في مكان لا يليق بمثله ورتبوا له من الإقامة ما لا يصلح لبعض أتباعه ومنعوه من التصرف وكان وصوله إلى الجزائر في المحرم سنة أربع

وأربعين وخمسمائة ثم إن عبد المؤمن فتح بجاية في سنة سبع وأربعين وهرب صاحبها إلى القسطنطينية (322) ثم إن رجار صاحب صقلية هلك في العشر الأخير من ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة (323) ولما هلك رجار ملك بعده ابنه غنيم بن رجار وعليه قدم أبو الفتوح نصر الله بن قلاقس الشاعر المقدم ذكره ومدحه وأجازه وذلك في سنة ثلاث وستين وخمسمائة (324) ولما هلك غنيم ملكت ابنته وهي أم الأنبرور ملك ألمانية في زماننا ثم هلكت أم الأنبرور وخلفته صغيرا فملك واستمر ملكه وكان عاقلا فاضلا وبينه وبين الملك الكامل صاحب مصر مراسلات وغيرها

219 ثم إن عبد المؤمن وصل إلى المهديّة وملكها بعد جهد جهيد وكان دخوله إليها بكرة يوم عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمائة فولى بها نائبا وكان الحسن بن علي قد وصل صحبته فرتبته مع النائب لتدبير أمورها لكونه عارفا بأحوالها وأقطعه بها ضيعتين وأعطاه دورا سكنها هو وأولاده وأتباعه ولم أقف على تاريخ وفاة الحسن بن علي المذكور (325) ثم قتل محرز بن زياد المذكور في وقعة سطيف يوم الخميس في العشر الأوسط من ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وخمسمائة وهذا الحسن بن علي هو الذي صنف له أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت كتاب الحديقة 806 يحيى بن خالد البرمكي أبو الفضل يحيى بن خالد بن برمك وزير هارون الرشيد وقد تقدم ذكر ولديه جعفر والفضل كل واحد منهما في بابيه وكان جدهم برمك من مجوس بلخ وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران واشتهر برمك المذكور وبنوه بسدائنه وكان برمك عظيم المقدار عندهم ولم أعلم هل أسلم أم لا (326) وساد ابنه خالد وتقدم في الدولة العباسية وتولى الوزارة لأبي

220 العباس السفاح بعد أبي سلمة حفص الخلال المقدم ذكره وقد ذكرته في ترجمة جعفر وذكرت هناك تاريخ وفاته وقال أبو الحسن المسعودي في كتاب مروج الذهب لم يبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جوده ورأيه وبأسه وعلمه وجميع خلاله لا يحيى في رأيه ووفور عقله ولا الفضل ابن يحيى في جوده ونزاهته ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحة لسانه ولا محمد بن يحيى في سروه وبعد همته ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبأسه ولما بعث أبو مسلم الخراساني قحطبة بن شبيب الطائي لمحاربة يزيد بن عمر ابن هبيرة الفزاري عامل مروان بن محمد على العراقيين وكان خالد بن برمك في جملة من كان معه فنزلوا في طريقهم بقريّة فبينما هم على سطح بعض دورها

يتغدون إذ نظروا إلى الصحراء وقد أقبل منها أقاطيع الوحش من الظباء وغيرها حتى كادت تخالط العسكر فقال خالد لقحطبة أيها الأمير ناد في الناس ومرهم أن يسرجوا ويلجموا قبل أن تهجم عليهم الخيل فقام قحطبة مذعورا فلم ير شيئا يروعه فقال يا خالد ما هذا الرأي فقال قد نهد إليك العدو أما ترى أقاطيع الوحش قد أقبلت إن وراءها لجمعا كثيفا فما ركبوا حتى رأوا الغبار ولولا خالد لهلكوا

221 وأما يحيى فإنه كان من النبل والعقل وجميع الخلال على أكمل حال وكان المهدي بن أبي جعفر المنصور قد ضم إليه ولده هارون الرشيد وجعله في حجره فلما استخلف هارون عرف له حقه وقال له يا أبت أنت أجلسني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك وقد قلدتك الأمر ودفع له خاتمه وفي ذلك يقول الموصلي وأظنه إبراهيم النديم أو ابنه إسحاق (ألم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولي هارون أشرق نورها) (بيمن أمين الله هارون ذي الندى * فهارون واليها ويحيى وزيرها) وكان يعظمه وإذا ذكره قال أبي وجعل إصدار الأمور وإيرادها إليه إلى أن نكب البرامكة فغضب عليه وخلده في الحبس إلى أن مات فيه وقتل ابنه جعفرا حسبما تقدم شرحه في ترجمته وكان من العقلاء الكرماء البلغاء ومن كلامه ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها الهدية والكتاب والرسول وكان يقول لولده اكتبوا أحسن ما تسمعون واحفظوا أحسن ما تكتبون وتحدثوا بأحسن ما تحفظون وكان يقول الدنيا دول والمال عارية ولنا بمن قبلنا أسوة وبمن بعدنا عبرة وقال الفضل بن مروان المقدم ذكره سمعت يحيى بن خالد يقول من لم أحسن إليه فأنا مخير فيه ومن أحسنت إليه فأنا مرتهن به وقال القاضي يحيى بن أكثم سمعت المأمون يقول لم يكن كـيحيى بن خالد وكولده أحد في الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة ولقد صدق القائل حيث يقول (أولاد يحيى أربع * كأربع الطبائع) (فهم إذا اختبرتهم * طبائع الصنائع) قال القاضي فقلت له يا أمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسماحة

222 فنعرفها فيهم ففي من الشجاعة فقال في موسى بن يحيى وقد رأيت أن أوليه ثغر السند وقال إسحاق بن إبراهيم النديم الموصلي المقدم ذكره حدثني أبي قال أتيت يحيى بن خالد بن برمك فشكوت إليه ضيقة فقال ويحك ما أصنع بك ليس عندنا في هذا الوقت شيء ولكن هاهنا أمر أدلك عليه فكن فيه رجلا قد جاءني خليفة صاحب مصر يسألني أن أستهدي صاحبه شيئا وقد أبيت ذلك عليه فألح علي وقد بلغني أنك قد أعطيت بجاريتك فلانة ثلاثة آلاف دينار

فهو ذا أستهديه إياها وأخبره أنها قد أعجبتني فأياك أن تنقصها من ثلاثين ألف دينار وانظر كيف تكون قال فوالله ما شعرت إلا بالرجل وافاني فساومني بالجارية فقلت له لا أنقصها من ثلاثين ألف دينار فلم يزل يساومني حتى بذل لي عشرين ألف دينار فلما سمعتها ضعف قلبي عن ردها فبعتها وقبضت العشرين ألفا ثم صرت إلى يحيى بن خالد فقال لي كيف صنعت في بيعك الجارية فأخبرته وقلت والله ما ملكت نفسي أن أجبت إلى العشرين ألفا حين سمعتها فقال إنك لخسيس فخذ جاريتك بارك الله لك فيها وهذا خليفة صاحب فارس قد جاءني في مثل هذا فإذا ساومك بها فلا تنقصها من خمسين ألف دينار فإنه لا بد أن يشتريها منك بذلك فجاءني الرجل فاستمت عليه خمسين ألف دينار فلم يزل يساومني حتى أعطاني ثلاثين ألف دينار فضعف قلبي عن ردها ولم أصدق بها فأوجبتها ثم صرت إلى يحيى بن خالد فقال لي بكم بعث الجارية فأخبرته فقال ويحك ألم تؤدبك الأولى عن الثانية قال فقلت والله ضعفت عن رد شيء لم أطمع فيه قال فقال هذه جاريتك فخذها إليك قال فقلت جارية أفدت بها خمسين ألف دينار ثم أملكها أشهدك أنها حرة وأني قد تزوجتها هكذا رأيت هذه الحكاية ثم نظرت في كتاب أخبار الوزراء تأليف الجهشيارى فقال إن يحيى قال لإبراهيم الموصلي لا تقبل أقل من مائة ألف دينار وأنه باعها بخمسين ألف دينار وقال له في المرة الثانية

223 لا تقبل أقل من خمسين ألف دينار فباعها بثلاثين ألف دينار وقال الأصمعي دخلت على يحيى يوما فقال يا أصمعي هل لك زوجة فقلت لا فقال فجارية فقلت لكم منة فأمر بإخراج جارية غاية في الحسن والجمال والظرف فقال لها قد وهبتك لهذا وقال يا أصمعي خذها فشكرته ودعوت له فلما رأت الجارية ذلك بكت وقالت يا سيدي تدفني إلى هذا فما ترى من سماجته وقبحه فقال لي هل لك أن أعوضك عنها ألفي دينار قلت ما أكره ذلك ودخلت الجارية إلى داره فقال لي أنكرت على هذه الجارية أمرا فأردت أن أعاقبها بك ثم رحمتها فقلت له هلا أعلمتني حتى كنت لحقت بالباب على صورتى الأصلية من غير أن أسرح لحيتي وأصلح عمتي وأطيب وأتجمل فضحك وأمر لي بألف دينار أخرى وحكى إسحاق النديم أيضا قال كانت صلات يحيى بن خالد إذا ركب لمن تعرض له مائتي درهم فركب ذات يوم فتعرض له أديب شاعر وأنشده (يا سمي الحصور يحيى أتاحت * لك من فضل ربنا جنتان) (كل من مر في الطريق عليكم * فله من نوالكم مائتان) (مائتا درهم لمثلي قليل * هي منكم للقباس العجلان) قال له يحيى صدقت وأمر بحمله إلى داره فلما

رجع من دار الخلافة سأله عن حاله فذكر أنه تزوج وقد أخذ بواحدة من ثلاث إما أن يؤدي المهر وهو أربعة آلاف وإما أن يطلق وإما أن يقيم جارياً للمرأة يكفيها إلى أن يتهياً له نقلها فأمر له يحيى بأربعة آلاف للمهر وبأربعة آلاف لثمن منزل وبأربعة آلاف لما يحتاج إليه المنزل وبأربعة آلاف للبنية وبأربعة آلاف يستظهر بها فأخذ عشرين ألفاً وانصرف

224 وقال محمد بن منذر الشاعر حج هارون الرشيد ومعه ابنه الأمين محمد والمأمون عبد الله وحج معه يحيى بن خالد وابنائه الفضل وجعفر فلما صاروا بالمدينة جلس الرشيد ومعه يحيى بن خالد فأعطى الناس عطاءهم ثم جلس الأمين ومعه الفضل فأعطاهم العطاء ثم جلس المأمون ومعه جعفر بن يحيى فأعطاهم عطاياهم وكان أهل المدينة يسمون ذلك العام عام الأعطية الثلاثة ولم يروا مثل ذلك قط فقلت في ذلك (أتانا بنو الأملاك من آل برمك * فيا طيب أخبار ويا حسن منظر) (لهم رحلة في كل عام إلى العدى * وأخرى إلى البيت العتيق المطهر) (إذا نزلوا بطحاء مكة أشرفت * بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر) (فتظلم بغداد وتجلو لنا الدجى * بمكة ما حجوا ثلاثة أقر) (فما خلقت إلا لجدد أكفهم * وأقدامهم إلا لأعواد منبر) (إذا راض يحيى الأمر ذلت صعابه * فناهيك من راع له ومدبر) (تري الناس إجلالاً له وكانهم * غرائيق ماء تحت باز مصرصر) وذكر الخطيب في تاريخ بغداد في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي أنه قال كنت حناطاً بالمدينة في يدي مائة ألف درهم للناس أضراب بها فتلفت الدراهم فشخصت إلى العراق فقصدت يحيى بن خالد فجلست في دهليزه وأنست بالخدم والحجاب وسألتهم أن يوصلوني إليه فقالوا إذا قدم الطعام إليه لم يحجب عنه أحد ونحن ندخلك عليه ذلك الوقت فلما حضر طعامه أدخلوني فأجلسوني معه على المائدة فسألني من أنت وما قصتك فأخبرته فلما رفع الطعام وغسلنا أيدينا دنوت منه لأقبل رأسه فاشمأز من ذلك فلما صرت إلى الموضع الذي يركب منه لحقتني خادم معه كيس فيه ألف دينار فقال الوزير يقرأ عليك السلام ويقول لك استعن بهذا على أمرك

225 وعد إلينا في اليوم الثاني فأخذته وانصرفت وعدت في اليوم الثاني فجلست معه على المائدة فأنشأ يسألني كما سألتني في اليوم الأول فلما رفع الطعام دنوت منه لأقبل رأسه فاشمأز مني فلما صرت إلى الموضع الذي يركب منه لحقتني خادم معه كيس فيه ألف دينار فقال لي الوزير يقرأ عليك السلام ويقول لك استعن بهذا على أمرك وعد إلينا في غد فأخذته وانصرفت

وعدت في اليوم الثالث كما أمر فأعطيت مثل الذي أعطيت في اليوم الأول والثاني فلما كان في اليوم الرابع أعطيت الكيس كما أعطيت قبل ذلك وتركني بعد ذلك أقبل رأسه وقال إنما منعتك ذلك لأنه لم يكن وصل إليك من معروفى ما يوجب هذا فالآن قد لحقك بعض النفع منى يا غلام أعطه الدار الفلانية يا غلام افرش له الفرش الفلاني يا غلام أعطه مائتي ألف درهم يقضى دينه بمائة ألف ويصلح شأنه بمائة ألف ثم قال لي الزمنى وكن في دارى فقلت أعز الله الوزير لو أدنت لي بالشخوص إلى المدينة لأقضى الناس أموالهم ثم أعود إلى حضرتك كان ذلك أرفق بي قال قد فعلت وأمر بتجهيزى فشخصت إلى المدينة فقضيت دينى ثم رجعت إليه فلم أزل فى ناحيته ودخل عليه يوما أبو قابوس الحميرى فأنشده (رأيت يحيى أتم الله نعمته * عليه يأتى الذى لم يأته أحد) (ينسى الذى كان من معروفه أبدا * إلى الرجال ولا ينسى الذى يعد) فقضى حوائجه ووصله بجملة من المال قلت قد حل هذا البيت الثانى شرف الدولة مسلم بن قريش وقد قال له رجل لا تنس أيتها الأمير حاجتى فقال إذا قضيتها أنسيته

226 ولمسلم بن الوليد الأنصارى فى يحيى بن خالد (أجدك هل تدرين إن رب ليلة * كأن دجاها من قرونك ينشر) (صبرت لها حتى تجلت بغرة * كغرة يحيى حين يذكر جعفر) وكان يحيى يقول إذا أقبلت الدنيا فأنفق فإنها لا تفنى وإذا أدبرت فأنفق فإنها لا تبقى وقال ذكر النعمة من المنعم تكدير ونسيان المنعم عليه كفر وتقصير وقال النية الحسنة مع العذر الصادق يقومان مقام النجاح وقال إذا أدبر الأمر كان العطب فى الحيلة وقال الحسن بن سهل المقدم ذكره من غيرته الولاية لإخوانه علمنا أن الولاية أكبر منه أخذنا ذلك عن صاحب ديوان المكارم أبى على يحيى بن خالد بن برمك ولما عزم جعفر على بناء قصره شاور أباه يحيى بن خالد فيه فقال هو قميصك إن شئت فوسعه وإن شئت فضيقه وأتاه وهو يبني داره فإذا الصناعات يبيضون حيطانها فقال إنك تعطى الذهب بالفضة فقال جعفر ليس كل أوان يكون ظهور الذهب أصلح ولكن هل ترى عيبا قال نعم مخالطتها لدور السفلى والسوقه وكان ليحيى كاتب يختص بخدمته ويقرب من حضرته فعزم على ختان ولده فاحتفل له الناس على طبقاتهم وهاداه أعيان الدولة ووجوه الكتاب والرؤساء على اختلاف منازلهم وكان له صديق قد اختلت أحواله وضاقته يده عما يريد له لذلك مما دخل فيه غيره فعمد إلى كيسين كبيرين نظيفين فجعل فى أحدهما ملحا وفى الآخر أشنانا مكفرا وكتب معهما رقعة نسختها لو تمت الإرادة لأسعفت بالعادة

ولو ساعدت المكنة على بلوغ الهمة لاتبعنا السابقين إلى برك وتقدمت
المجتهدين في كرامتك لكن قعدت القدرة عن البغية وقصرت الجدة عن مباراة
أهل النعمة وخفت أن تطوى صحائف البر

227 وليس لي فيها ذكر فأنفذت المبتدأ بيمينه وبركته والمختتم بطيبه
ونظافته صابرا على ألم التقصير ومتجرعا غصص الاقتصار على اليسير فأما
ما لم أجد إليه السبيل في قضاء حقك فالقائم فيه بعذري قول الله عز و جل (^
ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون
حرج) التوبة 91 والسلام فلما حضر يحيى بن خالد الوليمة عرض عليه
كاتبه الهدايا جميعها حتى الكيسين والرقعة فاستظرفها وأمر أن يملأ الكيسان
مالا ويردا عليه فكان ذلك أربعة آلاف دينار وقال رجل ليحيى والله لأنت
أحلم من الأحنف بن قيس فقال له لا تقرب إلي من أعطاني فوق حقي ونادى
إسحاق بن إبراهيم الموصللي أحد غلماناه فلم يجبه فقال سمعت يحيى بن خالد
يقول يدل على حلم الرجل سوء أدب غلماناه وكان يحيى يساير الرشيد يوما
فوقف له رجل فقال يا أمير المؤمنين عطبت دابتي فقال الرشيد يعطى
خمسمائة درهم فغمزه يحيى فلما نزلوا قال له الرشيد يا أبت أمأت إلي بشيء
ولم أعرفه فقال مثلك لا يجري هذا القدر على لسانه إنما يذكر مثلك خمسة
آلاف ألف عشرة آلاف ألف فقال إذا سئلت مثل هذا كيف أقول فقال تقول
يشترى له دابة وبالجملة فإن أخبارهم كثيرة ولا يحتمل هذا المختصر الإطالة
أكثر من هذا ولما قتل هارون الرشيد جعفر بن يحيى البرمكي كما ذكرناه في
حرف الجيم من هذا الكتاب نكب البرامكة وحبس يحيى وابنه الفضل كما
ذكرناه في حرف الفاء من هذا الكتاب وكان حبسهما في الرافقة وهي الرقة
القديمة تجاور الرقة الجديدة وهي البلد المشهور الآن على شاطئ الفرات
ويقال لهما الرقتان تغلبا لأحد الاسمين على الآخر كما قيل العمران والقمران
وغير ذلك

228 وحكى الجهشياري في كتاب أخبار الوزراء أن يحيى بن خالد
اشتفى في وقت من الأوقات في محبسه وهو مضيق عليه سكباجة فلم يطلق له
اتخاذها إلا بمشقة فلما فرغ منها سقطت القدر من يد المتخذ لها فانكسرت فأنشد
يحيى أبياتا يخاطب بها الدنيا ومضمونها اليأس وقطع الأطماع ولم يزل يحيى
في حبس الرافقة إلى أن مات في الثالث من المحرم سنة تسعين ومائة فجأة من
غير علة وهو ابن سبعين سنة وقيل أربع وسبعين وصلى عليه ابنه الفضل
ودفن في شاطئ الفرات في ربح هرثمة ووجد في جيبه رقة فيها مكتوب

بخطه قد تقدم الخصم والمدعي عليه في الأثر والقاضي هو الحكم العدل الذي لا يجوز ولا يحتاج إلى بيعة فحملت الرقعة إلى الرشيد فلم يزل يبكي يومه كله وبقي أياما يتبين الأسى في وجهه رحمهما الله تعالى وكان يحيى يجري على سفیان الثوري رضي الله عنه في كل شهر ألف درهم وكان سفیان يقول في سجوده اللهم إن يحيى كفاني أمر دنياي فاكفه أمر آخرته فلما مات يحيى رآه بعض إخوانه في النوم فقال له ما صنع الله بك قال غفر لي بدعاء سفیان وقيل إن صاحب هذه القضية هو سفیان ابن عيينة لا سفیان الثوري والله تعالى أعلم قال الجهشياري ندم الرشيد على ما كان منه في أمر البرامكة وتحسر على ما فرط منه في أمرهم وخاطب جماعة من إخوانه بأنه لو وثق منهم بصفاء النية منهم لأعادهم إلى حالهم وكان الرشيد كثيرا ما يقول حملونا على نصحائنا وكفائنا وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم فلما صرنا إلى ما أرادوا لم يغنوا عنا وأنشد

229 (أقلوا علينا لا أبا لأبيكم * من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا)
قلت هذا البيت للحطيئة الشاعر وبعده (أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا * وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا) قلت وذكر الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار ما مثاله إنه وجد تحت فراش يحيى بن خالد البرمكي رقعة فيها مكتوب (وحق الله إن الظلم لوم * وإن الظلم مرتعه وخيم) (إلى ديان يوم الدين نمضي * وعند الله تجتمع الخصوم)

230 807 الوزير ابن هبيرة أبو المظفر الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة بن سعد بن الحسين بن أحمد بن الحسن بن جهم بن عمرو بن هبيرة بن علوان بن الحوفزان وهو الحارث بن شريك بن عمرو بن قيس بن شرحبيل بن مرة بن همام ابن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صععب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط ابن هذب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان الشيباني الملقب عون الدين هكذا ساق نسبه جماعة منهم ابن الدبب في تاريخه وابن القادسي في كتاب الوزراء وغيرهما وإنما أخرج له هذا النسب بعد سنين من وزارته وذكره الشعراء في مدائحهم وهو من قرية من بلاد العراق تعرف بقرية بني أوقر بالقاف من أعمال دجيل وهي دور عرمانيا بالعين المهملة والياء المثناة من تحت وتعرف الآن بدور الوزير نسبة إليه وكان والده من أجنادها

231 ودخل بغداد في صباه واشتغل بالعلم وجالس الفقهاء والأدباء وكان على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وسمع الحديث وحصل من

كل فن طرفا وقرأ الكتاب العزيز وختمه بالقراءات والروايات وقرأ النحو واطلع على أيام العرب وأحوال الناس ولازم الكتابة وحفظ ألفاظ البلغاء وتعلم صناعة الإنشاء وكانت قراءته الأدب على أبي منصور ابن الجواليقي وتفقه على أبي الحسين محمد بن محمد الفراء وصحب الشيخ أبا عبد الله محمد ابن يحيى بن علي بن مسلم بن موسى بن عمران الزبيدي الواعظ وسمع الحديث النبوي من أبي عثمان إسماعيل بن محمد بن قيلة الأصبهاني ومن أبي القاسم هبة الله بن محمد بن الحسين الكاتب ومن بعدهما وحدث عن الإمام المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين وعن غيره وسمع منه خلق كثير منهم الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي وأول ولايته الإشراف بالأقرحة الغربية ثم نقل إلى الإشراف على الإقامات المخزنية ثم قلد الإشراف بالمخزن ولم يطل في ذلك مكثه حتى قلد في سنة اثنتين وأربعين كتابة ديوان الزمام ثم ترقى إلى الوزارة وكان سبب توليته الوزارة ما حكاه الذي جمع سيرته أنه قال من جملة ما رفع قدر الوزير ونقله إلى الوزارة ما جرى من مسعود البلالي شحنة بغداد نيابة عن السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وكان مسعود أحد الخدم الخصيان الحبشيين الكبار من أمراء دولته من سوء أدبه في الحضرة وخروجه عن معتاد الواجب وانتشار مفسدي أصحابه وكان وزير الخليفة إذ ذاك قوام الدين أبو القاسم علي بن صدقة ابن علي بن صدقة قد كتب عن الخليفة إلى السلطان مسعود عدة كتب يعتمد الإنكار على مسعود البلالي على ما صدر منه فلم يرجع بجواب فلما قلد عون الدين ابن هبيرة كتابة ديوان الزمام خاطب الخليفة في مكاتبة السلطان مسعود بالقضية فوقع إليه قد كان الوزير كتب في ذلك عدة كتب فلم يجيبوه فراجع عون الدين في ذلك سؤاله إلى أن أجيب فكتب من إنشائه رسالة وهي طويلة فأضربت عن ذكرها وحاصل الأمر فيها أنه دعا له وأذكره ما كان أسلافه

232 يعاملون الخلفاء به من حسن الطاعة والتأدب معهم والذب عنهم ممن يفتات عليهم وشكا من مسعود البلالي وأنه كاتب في ذلك عدة دفعات وما جاءه جواب وأطال القول في ذلك وكان هذا في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة في شهر ربيع الآخر فما مضى على هذا إلا قليل حتى عاد الجواب بالاعتذار والذم لمسعود البلالي والإنكار لما اعتمده فاستبشر المقتفي بإشارة عون الدين وعظم سروره بذلك وحسن موقع عون الدين من قلبه ولم يزل عنده مكينا حتى استوزره قال مصنف السيرة وكان أيضا من جملة أسباب وزارته أنه في سنة ثلاث وأربعين وصل إلى بغداد الأمير ابن ألقش المسعودي صاحب اللحف

وهو صقع بالعراق ويلدكر السلطاني وقصداها في جموع كثيرة وصدر منهم فتن عظيمة تضمنتها التواريخ فشرع الوزير قوام الدين بن صدقة في تدبير الحال فأخفق مسعاه فحينئذ استأذن عون الدين الخليفة في أمرهم فأذن له في ذلك فخاطب هؤلاء الخارجين على الخليفة وأحسن التدبير في ذلك حتى كف شرهم ثم قوي عليهم حتى نهبت العامة أموالهم وجرت المقادير بهذه الأحوال لرفع ابن هبيرة ووضع الوزير ابن صدقة فإنه عند انقضاء هذا المهم استدعى الخليفة المقتفي عون الدين بمطالعة على يد أميرين من أمراء الدولة فتبين بقرائه لها التباشير في أسرته فركب إلى دار الخليفة في جماعته وتسامع الناس بوزارته ولما وصل إلى باب الحجرة استدعي فدخل وقد جلس له المقتفي بميمنة التاج فقبل الأرض وسلم وتحدثا ساعة بما لم يحط به غيرهما علما ثم خرج وقد جهزوا له التشريف على عادة الوزراء فلبسه ثم استدعي ثانيا فقبل الأرض ودعا بدعاء أعجب الخليفة ثم أنشده (سأشكر عمرا ما تراخت منيتي * أيادي لم تمنن وإن هي جلت) (رأى خلتي من حيث يخفى مكانها * فكانت بمرأى منه حتى تجلت) قلت وهذان البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي المقدم ذكره وهي

233 ثلاثة أبيات والثاني منهما بعد الأول (فتى غير محبوب الغنى عن صديقه * ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت) ولما أنشد عون الدين هذين البيتين غير نصف البيت الثاني منهما فإن الشاعر قال (فكانت قذى عينيه حتى تجلت *) فما رأى أنه يخاطب الخليفة بهذه العبارة فغيره تأدبا ثم إن عون الدين خرج فقدم له حصان أدهم سائل الغرة محجل وعليه من الحلوى ما جرت به عادتهم مع الوزراء والشرح في ذلك يطول فاختصرته وخرج بين يديه أرباب المناصب وأعيان الدولة وأمراء الحضرة وجميع خدام الخلافة وسائر حجاب الديوان والطبول تضرب أمامه والمسند وراءه محمول على عادتهم في ذلك حتى دخل الديوان ونزل على طرف الديوان وجلس في الدست وقام لقراءة عهده الشيخ سديد الدولة أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم ابن الأنباري ولولا خوف الإطالة لذكرت العهد فإنه بديع في بابيه لكن قصدي الاقتصار فأعرضت عن ذكره وهو مشهور في أيدي الناس فلما فرغ من قراءته قرأ القراء وأنشد الشعراء وتولى الوزارة يوم الأربعاء ثالث عشر ربيع الآخر من سنة أربع وأربعين وخمسمائة وكان لقبه جلال الدين فلما ولي الوزارة لقبوه عون الدين وكان عالما فاضلا ذا رأي صائب وسريرة صالحة وظهر منه في أيام ولايته ما شهد له بكفايته وحسن مناصحته فشكر له ذلك

ولحظه بعين الرعاية وتوفرت له أسباب السعادة وكان مكرما لأهل العلم يحضر مجلسه الفضلاء على اختلاف فنونهم ويقرأ عنده الحديث عليه وعلى الشيوخ بحضوره ويجري من البحث والفوائد ما يكثر ذكره وصنف كتباً فمن ذلك كتاب الإفصاح عن شرح معاني الصحاح وهو يشتمل على تسعة عشر كتاباً شرح الجمع بين الصحيحين وكشف عما فيه من الحكم النبوية وكتاب المقتصد بكسر الصاد المهملة وشرحه أبو

234 محمد ابن الخشاب النحوي المشهور في أربع مجلدات شرحاً مستوفى واختصر كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت وله كتاب العبادات في الفقه على مذهب الإمام أحمد وأرجوزة في المقصور والممدود وأرجوزة في علم الخط وغير ذلك وذكر شيخنا عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري في تاريخه الصغير الأتابكي في فصل حصار الملك محمد وزين الدين بغداد وذلك في ذي القعدة من سنة ثلاث وخمسين وخمسائة أن المقتفي لأمر الله جد في حفظ بغداد وقام وزيره عون الدين بن هبيرة في هذا الأمر المقام الذي يعجز عنه غيره قال وأمر المقتفي فنودي ببغداد من جرح وقت القتال فله خمسة دنانير فكان كل من جرح يوصل ذلك إليه فحضر بعض العامة عند الوزير مجروحاً فقال الوزير هذا جرح صغير لا تستحق عليه شيئاً فعاد إلى القتال فضرب في جوفه فخرجت أمعاؤه فعاد إلى الوزير فقال يا مولانا الوزير يرضيك هذا فضحك منه وأمر له بصلة وأحضر له من يعالجه انتهى كلام ابن الأثير قلت وهذا محمد هو ابن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وزين الدين هو أبو الحسن علي بن بكتكين المعروف بكجك والد مظفر الدين صاحب إربل وقال غير ابن الأثير إن الملك اسمه محمد شاه وإن هذه القضية كانت في سنة اثنتين وخمسين والله أعلم ذلك ابن الجوزي في كتاب شذور العقود وهو أخبر لأنها بلده وهو بها وقد ذكرت محمد شاه في ترجمة أبيه وتوفي الإمام المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر ليلة الأحد ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسائة وبويع ولده المستجد بالله أبو

235 المظفر يوسف فدخل عليه وبايعه وأقره على وزارته وأكرمه وكان خائفاً منه أن يعزله فلم يعزله ولم يتعرض له ولم يزل مستمراً في وزارته إلى حين وفاته ومدحه جماعة من أمثال شعراء عصره منهم أبو الفوارس سعد بن محمد المعروف بابن صيفي الملقب حيص بيص المقدم ذكره وله فيه مدائح منتخبة فمن ذلك قوله (يهز حديث الجود ساكن عطفه * كما هز شرب الحي

صهباء قرقف) (ويرسو إذا طاشت حبا القوم واغتدت * صعاب الذرا من زرع الخطب ترجف) (صروم الدنيايا هاجر كل سبة * ولكنه بالمجد صب مكلف) (يضيق بأدنى العار ذرعا وصدرة * بأهوال ما يدني من الحمد نفنف) (إذا قيل عون الدين يحيى تآلق الغمام * وماس السمهري المثقف) وكانت عوائدهم في بغداد في شهر رمضان أن الأعيان يحضرون سماط الخليفة عند الوزير وهم يسمون السماط الطبق وكان حيص بيص في جملة من يحضر الطبق وكانت نفسه أبية وهمته عربية وإذا أحضروا الطبق تخطاه وقعد فوقه من أرباب المراتب جماعة ليس فيهم فضل فيجد في نفسه لذلك مشقة عظيمة فكتب إلى الوزير عون الدين يستعفيه من الحضور (يا باذل المال في عدم وفي سعة * ومطعم الزاد في صبح وفي غسق) (وحاشر الناس أغنتهم فواضله * إلى مزيد من النعماء مندقق) (في كل بيت خوان من مكارمه * يميزهم وهو يدعوهم إلى الطبق) (فاض النوال فلولا خوف منعمة * من بأس عدلك نادى الناس بالغرق) (وكل أرض بها صوب وساكبة * حتى الوغى من نجيع الخيل والعرق)

236 (صن منكبي عن زحام إن غضبت له * تمكن الطعن من عرضي ومن خلقي) (وإن رضيت به فالذل منقصة * فكم تكلفته حملا فلم أطق) (أنا المريض بأحداث وسورتها * وليس غير إبائي حافظ رمقي) (وهبه لي كعطاياك التي كثرت * فالجود بالعز فوق الجود بالورق) (إن اصفرار مجن الشمس من حزن * على علاها لمرماها إلى الأفق) (وإن توهم قوم أنه حمق * فربما اشتبه التوقير بالحمق) وأهدي إلى الوزير عون الدين دواة بلور مرصعة بمرجان وفي مجلسه جماعة منهم حيص بيص فقال الوزير يحسن أن يقال في هذه الدواة شيء من الشعر فقال بعض الحاضرين وكان ضريرا ولم أقف على اسمه (ألين لداود الحديد كرامة * يقدره في السرد كيف يريد) (ولان لك البلور وهي حجارة * ومعطفه صعب المرام شديد) فقال حيص بيص إنما وصفت صانع الدواة ولم تصفها فقال الوزير من غير غير فقال الحيص بيص (صيغت دواتك من يوميك فاشتبتها * على الأنام ببلور ومرجان) (فيوم سلمك مبيض ببيض ندى * ويوم حربك قان بالدم القاني) ثم وجدت البيتين الأولين في كتاب الجنان تأليف القاضي الرشيد أحمد ابن الزبير الغساني المذكور في أوائل هذا الكتاب ونسبهما إلى القاضي الرشيد أحمد بن قاسم الصقلي قاضي مصر وذكر أنه دخل على الأفضل شاهان شاه أمير الجيوش بمصر وقد تقدم ذكره أيضا فرأى بين يديه دواة من

237 عاج محلاة بمرجان فقال بديها (ألين لداود الحديد كرامة * يقدره
في السرد كيف يريد) (ولان لك المرجان وهو حجارة * على أنه صعب
المرام شديد) ومدحه أبو عبد الله محمد بن بختيار المعروف بالأبله الشاعر
المقدم ذكره بقصائد عديدة منها وهي أحسنها فلهذا ذكرتها (ولع النسيم وبانة
الجرعا * وصفاك إلا الحلي والودعا) (يا دمية ضاقت خلاخلها * عنها
وضقت بحبها ذرعا) (قد كنت ذا دمع وذا جلد * فبقيت لا جلدا ولا دمعا) ()
صيرت جسمي للضنى سكنا * وسكنت بعد تبالة الجزعا) (يا من رأى أدماء
سانحة * قلبي لها لا المنحنى مرعى) (لاثت بمثل الغصن مئزرها * وجلت
بعود أراكة طلعا) (وإذا تراجعك الكلام فلا * تعدد لأيام الصبار جعى) ()
ولقد سعت بالكأس تصبطني * سكرى اللواظ وعثة المسعى) (في مستنير
الزهر ما صنعت * أبراده عدن ولا صنعا) (باكرت مفترعا ثراه وما *
ركب الحمام لبانة فرعا) (سلت عليه البارقات ظبا * لبس الغدير لخوفها
درعا) (يا عاذلي إن شئت تسمعي * عذلا فشق لصخرة سمعا) (طبعا
جبلت على الغرام كما * جبل الوزير على الندى طبعا)

238 وخرج بعد هذا إلى المديح فأضربت عنه ولولا خوف الإطالة
لذكرته ومدحه أبو الفتح محمد بن عبد الله سبط ابن التعاويذي المقدم ذكره
بقصيدة واحدة وهي (سقاها الحيا من أربع وطلول * حكمت دنفي من بعدهم
ونحولي) (ضمنت لها أجفان عين قريحة * من الدمع مدرار الشؤون همول
(لئن حال رسم الدار عما عهدته * فعهد الهوى في القلب غير محيل) ()
خليلي قد هاج الغرام وشاقتني * سنا بارق بالأجر عين كليل) (ووكل طرفي
بالسهاد تنظري * قضاء ملي بالديون مطول) (إذا قلت قد أنحلت جسمي
صباة * تقول وهل حب بغير نحول) (وإن قلت دمعي بالأسى فيك شاهدي
* تقول شهود الدمع غير عدول) (فلا تعذلاني إن بكيت صباة * على
ناقض عهد الوفاء ملول) (فأبرح ما يمني به الصب في الهوى * ملال حبيب
أو ملام عدول) (ودون الكتيب الفرد بيض عقال * لعين بالباب لنا وعقول)
(غداة التقت ألاحظها وقلوبنا * فلم تجل إلا عن دم وقتيل) (ألا حبذا وادي
الأراك وقد وشت * برياك ريحا شمأل وقبول) (وفي أبرديه كلما اعتلت
الصبا * شفاء فؤاد بالغرام عليل) (دعوت سلوا فيك غير مساعدي *
وحاولت صبورا عنك غير جميل) (تعرفت أسباب الهوى وحملته * على
كاهل للنائبات حمول) (فلم أحظ في حب الغواني بطائل * سوى رعي ليل

بالغرام طويل) ومنها (إلى كم تمنيني الليالي بماجد * رزين وقار اللحم غير
عجول)

239 (أهز اختيالا في هواه معاطفي * وأسحب تيتها في ثراه ذيولي) ()
لقد طال عهدي بالنوال وإنني * لصب إلى تقبيل كف منيل) (وإن ندى يحيى
الوزير لكافل * بهالي وعون الدين خير كفيل) وكان عون الدين كثيرا ما
ينشد (ما ناصحتك خبايا الود من أحد * ما لم ينلك بمكروه من العذل) ()
مودتي لك تأبى أن تسامحني * بأن أراك على شيء من الزلل) وذكر الشيخ
شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزغلي بن عبد الله سبط الشيخ جمال الدين
أبي الفرج ابن الجوزي في تاريخه الذي سماه مرآة الزمان ورأيته بدمشق في
أربعين مجلدا وجميعه بخطه وكان أبوه قزغلي مملوك عون الدين ابن هبيرة
المذكور وزوجه بنت الشيخ جمال الدين أبي الفرج المذكور فأولدها شمس
الدين فولأوه له أنه سمع مشايخه ببغداد يحكون أن عون الدين قال كان سبب
ولايتي المخزن أنني ضاق ما بيدي حتى فقدت القوت أياما فأشار علي بعض
أهلي أن أمضي إلى قبر معروف الكرخي رضي الله عنه فأسأل الله تعالى
عنده فإن الدعاء عنده مستجاب قال فأتيت قبر معروف فصليت عنده ودعوت
ثم خرجت لأقصد البلد يعني بغداد فاجتزت بقطفتا قلت وهي محلة من محال
بغداد قال فرأيت مسجدا مهجورا فدخلت لأصلي فيه ركعتين وإذا بمريض
ملقى على بارية فقعدت عند رأسه وقلت ما تشتهي فقال سفرجلة قال فخرجت
إلى بقال هناك فرهنت عنده منزري على سفرجلتين وتفاحة وأتيته بذلك فأكل
من السفرجلة ثم قال أغلق باب المسجد فأغلقتة فتنحى عن البارية وقال احفر
ها هنا فحفرت وإذا بكوز فقال خذ هذا فأنت أحق به فقلت أما لك وارث فقال لا
وإنما كان لي أخ وعهدي به بعيد وبلغني أنه مات ونحن من الرصافة

240 قال وبيننا هو يحدثني إذ قضى نحبه فغسلته وكفنته ودفنته ثم أخذت
الكوز وفيه مقدار خمسمائة دينار وأتيت إلى دجلة لأعبرها وإذا بملاح في
سفينة عتيقة وعليه ثياب رثة فقال معي معي فنزلت معه وإذا به من أكثر
الناس شباها بذلك الرجل فقلت من أين أنت فقال من الرصافة ولي بنات وأنا
صلوك قلت فما لك أحد قال لا كان لي أخ ولي عنه زمان ما أدري ما فعل
الله به قال فقلت ابسط حرك فبسطه فصبيت المال فيه فبهت فحدثته الحديث
فسألني أن آخذ نصفه فقلت لا والله ولا حبة ثم صعدت إلى دار الخليفة وكتبت
رقعة فخرج عليها إشراف المخزن ثم تدرجت إلى الوزارة وقال جدي الشيخ
أبو الفرج في كتاب المنتظم وكان الوزير يسأل الله تعالى الشهادة ويتعرض

لأسبابها وكان صحيحا يوم السبت ثاني عشر جمادى الأولى من سنة ستين وخمسائة فنام ليلة الأحد في عافية فلما كان في وقت السحر قاء فأحضر طبيبا كان يخدمه فسقاه شيئا فيقال إنه سمه فمات وسقي الطبيب بعده بنحو ستة أشهر سما فكان يقول سقيت كما سقيت ومات الطبيب وقال في المنتظم أيضا وكنت ليلة مات الوزير نائما على سطح مع أصحابي فرأيت في المنام كأنني في دار الوزير وهو جالس فدخل رجل بيده حربة قصيرة فضربه بها بين أنثييه فخرج الدم كالقوارة فضرب الحائط فالتفت فإذا بخاتم من ذهب ملقى فأخذته وقلت لمن أعطيه أنتظر خادما يخرج فأعطيه إياه وانتبهت وحدثت أصحابي بالرؤيا فلم أستتم الحديث حتى جاء رجل فقال مات الوزير فقال بعض الحاضرين هذا محال أنا فارقت أمس العصر وهو في كل عافية وجاء آخر وصح الحديث وقال لي ولده لا بد أن تغسله فأخذت في غسله ورفعت يده لأغسل مغابنه قلت

241 المغابن مطاوي البدن مثل الإبط وغيره واحدها مغبن بفتح الميم وكسر الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة قال فسقط الخاتم من يده فحين رأيت الخاتم تعجبت من المنام قال ورأيت في وقت غسله آثارا في وجهه وجسده تدل على أنه مسموم فلما خرجت جنازته غلقت أسواق بغداد ولم يتخلف عن جنازته أحد وصلي عليه في جامع القصر وحمل إلى باب البصرة فدفن في مدرسته التي أنشأها وقد دثرت الآن وراثه جماعة من الشعراء انتهى كلام أبي الفرج ابن الجوزي وقال مؤلف سيرة الوزير المذكور إن سبب موته كان بلغما ثار بمزاجه وقد خرج مع المستنجد للصيد فسقي مسهلا فقصر عن استفرغه فدخل إلى بغداد يوم الجمعة سادس جمادى الأولى راكبا متحاملا إلى المقصورة لصلاة الجمعة فصلى بها وعاد إلى داره فلما كان وقت صلاة الصبح عاوده البلغم فوقع مغشيا عليه فصرخ الجوارى فأفاق فسكتهن وبلغ الخبر ولده عز الدين أبا عبد الله محمدا وكان ينوب عنه في الوزارة فبادر إليه فلما دخل عليه قال له قد بث أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء المعروف بابن المسلمة جماعة ليستعلم ما هذا الصياح فتبسم الوزير على ما هو عليه من تلك الحال وأنشد (وكم شامت بي عند موتي جهالة * بظلم يسلم السيف بعد وفاتي) (ولو علم المسكين ما ذا يناله * من الضر بعدي مات قبل مماتي) ثم تناول مشروبا فاستفرغ به ثم استدعى بماء فتوضأ للصلاة وصلى قاعدا فسجد فأبطأ عن القعود من السجود فحركه فإذا هو ميت فطولع به الإمام المستنجد فأمر بدفنه

242 وخلف ولدين أحدهما عز الدين المذكور والآخر شرف الدين أبو الوليد مظفر وأما مولده فقد ذكر أبو عبد الله محمد بن القادسي في تاريخ الوزراء أنه ولد في سنة سبع وتسعين وأربعمائة على ما ذكره من لفظه رحمه الله تعالى قال بعضهم رأيت في المنام بعد موته فسألته عن حاله فقال (قد سئلنا عن حالنا فأجبنا * بعد ما حال حالنا وحجبنا) (فوجدنا مضاعفا ما كسبنا * ووجدنا محصا ما اكتسبنا) ولما بلغ خبر موته عضد الدين ابن المظفر أستاذ الدار المذكور كان بحضرته سبط ابن التعاويذي المذكور قبل هذا وهو من موالي بني المظفر فإن أباه كان مملوكا لبعض بني المظفر واسمه نشكين فسماه ابنه عبد الله فأراد سبط ابن التعاويذي أن يتقرب إلى عضد الدين لعلمه ما بينه وبين الوزير فأنشد مرتجلا (قال لي والوزير قد مات قوم * قم لنبكي أبا المظفر يحيى) (قلت أهون عندي بذلك رزأ * ومصابا وابن المظفر يحيا) وقال آخر ولا أذكر اسمه الآن لكنه من الشعراء المشاهير (أيا رب مثل الماجد ابن هبيرة * يموت ويحيا مثل يحيى بن جعفر) (يموت يحيى كل فضل وسؤدد * ويحيا يحيى كل جهل ومنكر) والمقصود أن محاسنه كانت كثيرة وقد أطلت هذه الترجمة حتى استوفيت مقاصدها ورأيت في كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس تأليف أبي الخطاب ابن دحية غلطة أحببت التنبيه عليها في هذا الكتاب كي لا يقف عليها

243 أحد فيظنه مصيبا فيما ذكره وهو أنه قال في خلافة المقتفي لأمر الله ما مثاله وسعد بوزيره أبي المظفر عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة من ولد الأمير الكبير أبي حفص عمر بن هبيرة وقد ذكر المؤرخون فضائل جده التي حازها عون الدين من بعده ثم ذكر مكرمة جرت لعمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقيين في دولة بني أمية وظن ابن دحية المذكور أن الوزير المذكور من ذرية ذلك المتقدم وعجبت منه من ذلك فإن الوزير شيباني النسب كما شرحناه في أول الترجمة وذاك فزاري النسب كما يأتي في ترجمة ولده يزيد بن عمر ابن هبيرة إن شاء الله تعالى وأين شيبان من فزارة ولا شك أنه ما أوقعه في هذا الأمر إلا ما رآه في نسب الوزير فقد جاء فيه عمر بن هبيرة فتوهم أن هذا هو ذاك وليس الأمر كما توهمه ومثل ابن دحية لا يعذر فقد كان حافظا ومطلعا على أمور الناس وهذا الأمر واضح لكن الخطأ موكل بالإنسان (327) قلت وأكثر من جرى ذكره في هذه الترجمة قد تقدم ذكره في هذا التاريخ وأفردت لكل واحد منهم بترجمة مستقلة سوى الشيخ الزبيدي فإنه كان كبير القدر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وما انتفع الوزير إلا بصحبته

وما ذكرته في هذا التاريخ فينبغي التنبيه عليه إذ مثله لا يهمل وكان دخوله بغداد في سنة تسع وخمسمائة وتوفي في شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة رحمه الله تعالى وقال أبو عبد الله ابن النجار في تاريخ بغداد كان مولده بزبيد في ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من المحرم سنة ستين وأربعمائة وتوفي ليلة الاثنين مستهل شهر ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وخمسمائة ودفن بمقبرة جامع المنصور ببغداد رحمه الله تعالى وقول الآخر (أيارب مثل الماجد ابن هبيرة * يموت ويحيا مثل يحيى بن جعفر) (328) فالمراد به أبو الفضل يحيى بن أبي القاسم عبد الله بن محمد بن المعمر ابن جعفر الملقب زعيم الدين تولى النظر بالمخزن في جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة إلى سنة سبع وستين ففيها ناب في الوزارة بعد عزل

244 أبي الفرج ابن المظفر ولم يزل على ذلك إلى أن توفي وكان مشكورا محمود الطريقة محبا لأهل العلم وكانت ولادته ليلة الجمعة بعد العشاء الأخير التاسع والعشرين من صفر سنة إحدى عشرة وخمسمائة وتوفي ليلة العشرين من شهر ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائة ببغداد ودفن من الغد في الحربية بتربة له رحمه الله تعالى 808 ابن زبادة أبو طالب يحيى بن أبي الفرج سعيد بن أبي القاسم هبة الله بن علي بن فرغلي ابن زبادة الشيباني الكاتب المنشيء الواسطي الأصل البغدادي المولد والدار والوفاة الملقب قوام الدين وقيل عميد الدين كان من الأعيان الأمثال والصدور الأفاضل انتهت إليه المعرفة بأمور الكتابة والإنشاء والحساب مع مشاركته في الفقه وعلم الكلام والأصول وغير ذلك وله النظم الجيد جالس أبا منصور ابن الجواليقي وقرأ عليه وعلى من بعده وسمع الحديث من جماعة وخدم الديوان من صباه إلى أن توفي عدة خدمات وكان مليح العبارة في الإنشاء جيد الفكرة حلو الترصيع لطيف الإشارة وكان الغالب عليه في رسائله العناية بالمعاني أكثر من طلب التسجيع وله رسائل بليغة وشعر رائع وفضله أشهر من أن يذكر

245 وتولى النظر بديوان البصرة وواسط والحلة ولم يزل على ذلك إلى أن طلب من واسط والحلة ولم يزل على ذلك إلى المحرم سنة خمس وسبعين وخمسمائة ورتب حاجبا بباب النوبي وقلد النظر في المظالم ثم عزل عن ذلك في شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين ثم أعيد إليه في جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين فلما قتل أستاذ الدار وهو مجد الدين أبو الفضل هبة الله بن علي بن هبة الله بن محمد بن الحسن المعروف بابن صاحب وكان قتله يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ترتب ابن زبادة المذكور

مكانه ثم عزل في سنة خمس وثمانين وعاد إلى واسط فأقام بها إلى أن استدعي في شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين وقلد ديوان الإنشاء في يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر رمضان ثم رد إليه النظر في ديوان المقاطعات فكان على ذلك إلى حين وفاته وكان حسن السيرة محمود الطريقة متدينا حدث بشيء يسير وكتب الناس عنه كثيرا من نظمه ونثره فمن ذلك قوله (باضطراب الزمان ترتفع الأنذال فيه حتى يعم البلاء *) (وكذا الماء ساكنا فإذا حرك ثارت من قعره الأقداء *) وله أيضا (إني لأعظم ما تلقونني جلدا * إذا توسطت هول الحادث النكد) (كذلك الشمس لا تزداد قوتها * إلا إذا حصلت في زبرة الأسد) وكتب إلى الإمام المستنجد يهنيه بالعيد (يا ماجدا جل قدرا أن نهنيه * لنا الهناء بظل منك ممدود)

246 (الدهر أنت ويوم العيد منك وما * في العرف أنا نهني الدهر بالعيد) وله أيضا (إن كنت تسعى للسعادة فاستقم * تنل المراد ولو سموت إلى السما) (ألف الكتابة وهو بعض حروفها * لما استقام على الجميع تقدما) وله أيضا (لا تغبطن وزيرا للملوك وإن * أناله الدهر منهم فوق همته) (واعلم بأن له يوما تمور به الأرض * الوقور كما مارت لهيبته) (هرون وهو أخو موسى الشقيق له * لولا الوزارة لم يأخذ بلحيته) وله كل معنى مليح وله ديوان رسائل وفتت عليه في بلادنا ولم يحضرني شيء منه كي أثبتته هاهنا وقال أبو عبد الله محمد بن سعيد الديبشي في تاريخه أنشدنا أبو طالب يحيى ابن سعيد بن هبة الله يعني ابن زيادة المذكور من حفظه قال أنشدني أبو بكر أحمد بن محمد الأرجاني لما قدم بغداد علينا في سنة ثمان وثلاثين وخمسائة لنفسه قلت وهو ناصح الدين أبو بكر أحمد الأرجاني المقدم ذكره قوله (ومقسومة العينين من دهش النوى * وقد راعها بالعيس رجع حذاء) (تجيب بإحدى مقلتيها تحيتي * وأخرى تراعي أعين الرقباء) (رأت حولها الواشين طافوا فغيضت * لهم دمعها واستعصمت بحياء) (فلما بكت عيني غداة وداعهم * وقد روعتني فرقة القرناء) (بدت في محياها خيالات أدمعي * فغاروا وظنوا أن بكت لبكائي)

247 وكتب إليه أبو الغنائم محمد بن علي المعروف بابن المعلم الهرثي الشاعر المقدم ذكره وقد عزل عن نظر واسط (ولأنت إن لم يبيل الغيث الثرى * تروي الورى بسماحك الهتان) (لم يعزلوك عن البلاد لحالة * تدعو إلى النقصان والشنآن) (بل مذ رأوا آثار جودك زاخرا * حفظوا بلادهم من الطوفان) قلت وحكى لي الوجيه أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي طالب

المعروف باب سويد التاجر التكريتي قال كان الشيخ محيي الدين أبو المظفر يوسف بن الحافظ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي الواعظ المشهور قد توجه رسولا من بغداد إلى الملك العادل بن الملك الكامل ابن الملك العادل بن أيوب سلطان مصر في ذلك الوقت وكان أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محبوسا في قلعة الكرك يومئذ وقد شرحت ذلك في ترجمة الكامل في هذا التاريخ قال الوجيه فلما عاد محيي الدين راجعا إلى بغداد وقدم دمشق كنت بها فدخلت عليه أنا والشيخ أصيل الدين أبو الفضل عباس بن عثمان ابن نيهان الإربلي وكان رئيس التجار في عصره وجلسنا نتحدث معه فقال قد حلفت الملك الناصر داود صاحب الكرك أن لا يخرج الملك الصالح من الحبس إلا بأمر أخيه الملك العادل قال فقال له الأصيل يا مولانا هذا بأمر الديوان العزيز فقال محيي الدين وهل هذا يحتاج إلى إذن هذا اقتضته المصلحة ولكن أنت تاريخ يا أصيل فقال يعني مولانا أنني قد كبرت وما أدري ما أقول وأنا أحكي لمولانا حكاية في هذا المعنى أعرفها من غرائب الحكايات قال هات فقال كان ابن رئيس الرؤساء ناظر واسط يحمل في كل شهر حمل واسط وهو ثلاثون ألف دينار لا يمكن أن يتأخر يوما واحدا عن العادة فتعذر في بعض الأشهر كمال الحمل فضاقت صدره لذلك وذكره

248 لنوابه فقالوا له يا مولانا هذا ابن زيادة عليه من الحقوق أضعاف ذلك ومتى حاسبته قام بما يتم الحمل وزيادة فاستدعاه وقال له لم لا تؤدي كما يؤدي الناس فقال أنا معي خط الإمام المستنجد بالمسامحة قال هل معك خط مولانا الإمام الناصر قال لا قال قم واحمل ما يجب عليك قال ما ألتفت إلى أحد ولا أحمل شيئا ونهض من المجلس فقال النواب لابن رئيس الرؤساء أنت صاحب الوسادتين وناظر النظار وما على يدك يد ومن هو هذا حتى يقابلك بمثل هذا القول ولو كبست داره وأخذت ما فيها ما قال لك أحد شيئا وحملوه عليه حتى ركب بنفسه وأجناده وكان ابن زيادة يسكن قبالة واسط وقدموا إلى ابن رئيس الرؤساء السفن حتى يعبر إليه وإذا بزبذب قد قدم من بغداد فقال ما قدم هذا إلا في مهم ننظر ما هو ثم نعود إلى ما نحن بسببه فلما دنا من الزبذب فإذا فيه خدم من خدام الخليفة فصاحوا به الأرض الأرض فقبل الأرض وناولوه مطالعة وفيها قد بعثنا خلعة ودواة لابن زيادة فتحمل الخلعة على رأسك والدواة على صدرك وتمشي راجلا إليه وتلبسه الخلعة وتجهزه إلينا وزيراً فحمل الخلعة على رأسه والدواة على صدره ومشى إليه راجلا فلما رآه ابن زيادة أنشده ابن رئيس الرؤساء (إذا المرء حي فهو يرجي ويتقي * وما

يعلم الإنسان ما في المغيب) وأخذ يعتذر إليه فقال له ابن زبادة لا تثريب عليكم اليوم وركب في الزبذب إلى بغداد وما علموا أن أحدا أرسلت إليه الوزارة غيره فلما وصل إلى بغداد كان أول ما نظر فيه أن عزل ابن رئيس الرؤساء عن نظر واسط قال هذا ما يصلح لهذا المنصب ثم قال الأصيل ولا يأمن مولانا أن يخرج الملك الصالح ويملك ويعود إليه رسولا ويقع وجهك في وجهه وتستحي منه فأنشده محيي الدين قوله (وحتى يؤوب القارطان كلاهما * وينشر في الموتى كليب لوائل) فما كان إلا مديدة حتى خرج الملك الصالح من حبس الكرك وملك مصر وكان ما كان قلت وكنت بمصر ومحيي الدين بها رسول إلى الملك

249 العادل وقبض العادل وجاء الصالح فخرج محيي الدين التقاه وشاهدت ذلك هكذا ذكر لي الوجيه هذه الحكاية وفيها غلط إما من الوجيه أو من الأصيل فإن ابن زبادة ما ولي الوزارة ولا تولى إلا ما ذكرته في أوائل ترجمته فإن كان هذا صحيحا فيكون ذلك لما طلب للإنشاء كما شرحته والله أعلم بالصواب قال ابن الديبثي المذكور سألت أبا طالب ابن زبادة عن مولده فقال ولدت يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من صفر سنة اثنتين وعشرين وخمسائة وتوفي ليلة الجمعة السابع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وتسعين وخمسائة وصلي عليه بجامع القصر ودفن بالجانب الغربي بمشهد الإمام موسى بن جعفر رضي الله عنهما يعني ببغداد بفتح الزاي هو القطعة من الزباد الذي يتطيب النسوان به والله أعلم 809 يحيى بن نزار المنبجي أبو الفضل يحيى بن نزار بن سعيد المنبجي ذكره الحافظ أبو سعد عبد الكريم بن السمعاني في كتاب الذيل على تاريخ الخطيب المختص ببغداد فقال له شعر مطبوع غير متكلف وكتب لي أبياتا من شعره وسمعت منه وسألته عن مولده فقال ولدت في المحرم من سنة ست وثمانين وأربعمائة بمنبج وأورد له مقاطيع أنشده إياها فمن ذلك قوله

250 (وأغيد غض زاد خط عذاره * لعاشقه في همه والبلابل)
تموج بحار الحسن في وجناته * فتقذف منها عنبرا في السواحل) (وتجري بخديه الشيبية ماءها * فتنبت ريحانا جنوب الجداول) قلت وقد خطر لي على هذا مأخذ وهو أنه جعل في البيت الثاني بحار الحسن تموج في وجناته فكيف يقول في البيت الثالث وتجري بخديه الشيبية ماءها وما مقدار ماء الشيبية بالنسبة إلى بحار الحسن وما كفى هذا حتى جعلها جداول والجداول الأنهار وأين الأنهار من البحار ثم إنه في البيت الثاني قد شبه العذار بالعنبر فكيف

يجعله في البيت الثالث ريحانا وأين العنبر من الريحان وإن كان كل واحد من العنبر والريحان قد جرت عادة الشعراء أن يشبهوا به العذار ولكن في مقطوع واحد من الشعر ما لهم عادة يجمعون بينهما وكنت قد سمعت في زمن الاشتغال بالأدب بيتين استحسنتهما ولم أعرف قائلهما وهما (يا عاذلي في حب ذي عارض * ما البلد المخصب كالماحل) (يموج بحر الحسن في خده * فيقذف العنبر في الساحل) فلما كان في أوائل سنة اثنتين وسبعين وستمائة وقفت بالقاهرة المحروسة على مجلد من كتاب السيل والذيل تأليف عماد الدين الكاتب الأصبهاني وقد جعله ذيلاً على كتابه خريدة القصر فرأيت فيه ترجمة يحيى بن نزار المنبجي المذكور وقد ذكر له مقدار عشرة أبيات يمدح بها السلطان نور الدين محمود ابن زكي رحمه الله تعالى وفي جملة الأبيات البيت الثاني من هذين البيتين فعلمت أن الذي نظم ذلك المعنى في البيت الثاني من الثلاثة هو الذي نظم هذين البيتين في هذه الأبيات التي ذكرها في كتاب السيل ثم بعد ذلك بقليل جاءني صاحبنا جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمد المعروف بالحافظ اليعموري

251 فتذاكرنا وجرى ذكر البيتين وقال إنهما لعماد الدين أبي المناقب حسام ابن عزي بن يونس المحلي نزيل دمشق وذكر أنه سمعها منه وادعاهما لنفسه فقلت له البيت الذي فيه المعنى ليس له بل هو ليحيى بن نزار المنبجي ويكون العماد المحلي قد نظم البيت الأول وجعله توطئةً للثاني واستعمله على وجه التضمين كما جرت العادة في مثله لكنه كان ينبغي أن ينبه على أنه تضمين كي لا يعتقد من يقف عليهما أنهما له فإن البيت الأول ليس في جملة أبيات يحيى المنبجي التي مدح بها نور الدين رحمه الله تعالى ثم من بعد ذلك خطرت لي مؤاخذة على العماد المحلي فإنه قال في بيته الذي جعله توطئةً للثاني (ما البلد المخصب كالماحل *) والخصب والمحل إنما يكون بسبب النبات وعدمه والبيت الثاني الذي هو التضمين شبه العذار بالعنبر وأين النبات من العنبر فالتوطئة بين البيتين ليست بملائمة وهذه المؤاخذة مثل المؤاخذة المتقدمة على الأبيات الثلاثة وكنت وقفت على بيتين للعماد المحلي المذكور أيضاً أنشدنيهما عنه جماعة وهما (قيل لي من هويت قد عبث الشعر * بخديه قلت ما ذاك عاره) (جمرة الخد أحرقت عنبر الخال * فمن ذلك الدخان عذاره) وسنح لي عليهما مؤاخذة مثل المؤاخذة المذكورة وهي أنه لما قيل له إن الشعر عبث بخديه ما أنكر ذلك بل قال ما ذاك عاره فقد وافق على أنه شعر غاية ما في الباب أنه قال هذا الشعر ما هو عاره فكيف يقول بعد هذا جمرة

الخد أحرقت عنبر الخال إلى آخره فجعل العذار دخان العنبر وأين دخان العنبر من الشعر بل كان ينبغي أن يقول لهم هذا ما هو شعر بل هو دخان العنبر حتى يتم له المعنى وقد نظم صاحبنا ورفيقنا في الاشتغال بحلب عون الدين أبو الربيع سليمان ابن بهاء الدين عبد المجيد ابن العجمي الحلبي بيتين ألم فيهما بهذا المعنى وهما

252 (لهيب الخد حين بدا لعيني * هوى قلبي عليه كالفراس)
فأحرقه فصار عليه خالا * وها أثر الدخان على الحواشي) وقد أحسن في هذا المعنى وخلص من تلك المؤاخذة لكن وقع في مؤاخذة أخرى وهي أنه جعل العذار دخان احتراق قلبه والعماد جعله دخان عنبر الخال وبين الدخانين بون كبير فهذا طيب الرائحة وذاك كريحه الرائحة وقد سبق في ترجمة عبد الله بن صارة الشنتريني بيتان أبدع فيهما وهما (ومهفهف رقت حواشي حسنه * فقلوبنا وجدا عليه رقاق) (لم يكس سالفه العذار وإنما * نفضت عليه صباغها الأحداق) والأصل في هذا الباب كله قول أبي إسحاق إبراهيم الصابي الكاتب في غلامه الأسود واسمه يمن وقد سبق ذكر الأبيات في ترجمته من هذا الكتاب والمقصود منها ها هنا قوله في أولها (لك وجه كأن يمناي خطته * بلفظ تمله آمالي) (فيه معنى من البدور ولكن * نفضت صبغها عليه الليالي) وبيتا عون الدين فيهما إمام بقول أبي الحسين أحمد بن منبر الطرابلسي المقدم ذكره (لا تخالوا الخال يعلو خده * قطرة من دم جفني نطفت) (ذاك من نار فؤادي جذوة * فيه ساخت وانطفت ثم طفت) قلت وقد خرجنا عن المقصود وانتشر الكلام لكن ما خلا من فائدة

253 وقال أبو سعد السمعاني أيضا أنشدني يحيى بن نزار المنبجي لنفسه (لو صد عني دلالا أو معاتبة * لكنت أرجو تلافيه وأعتذر) (لكن ملالا فلا أرجو تعطفه * جبر الزجاج عسير حين ينكسر) وله غير هذا نظم مليح ومعان لطيفة وقال أبو الفرج صدقة بن الحسين بن الحداد في تاريخه المرتب على السنين ما مثاله سنة أربع وخمسين وخمسمائة في ليلة الجمعة سادس ذي الحجة مات يحيى بن نزار المنبجي ببغداد ودفن بالوردية قيل إنه وجد في أذنه ثقلا فاستدعى إنسانا من الطرقية فامتص أذنه فخرج شيء من مخه فكان سبب موته رحمه الله تعالى وقال السمعاني هو أخو أبي الغنائم التاجر المعروف وذكر أبا الغنائم ووصفه وأثنى عليه في ترجمة مستقلة في كتاب الذيل أيضا رحمه الله تعالى (329) وأما العماد المحلي فإنه كان أديبا لطيفا على ما يحكى عنه من النوادر وله نظم مليح في المقطعات دون القصائد

وكان يحفظ المقامات وشرحها وتوفي ليلة الأربعاء عاشر شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وستمئة بدمشق ودفن بمقابر الصوفية وعرف بابن الجمال وولد في سنة ستين وخمسائة تقديرا بقوص ونشأ بالمحلة فنسب إليها ثم وجدت في مسوداتي بخطي بيتا منسوباً إلى الوجيه أبي الحسن علي بن يحيى بن الحسين بن أحمد المعروف بابن الذروي الأديب الشاعر وهو (عذاره دخان ند خاله * وريقه من ماء ورد خده) ثم وجدت منسوباً إلى ابن سناء الملك المقدم ذكره والصحيح أنها لأسعد

254 ابن مماتي المقدم ذكره أيضا (سمراء قد أزررت بكل أسمر * بلونها ولينها وقدها) (أنفاسها دخان ند خالها * وريقها من ماء ورد خدها) (لو كتب البدر إلى خدمتها * ملطفا ترجمه بعدها) ورأيت للمهذب أبي نصر محمد بن محمد بن إبراهيم بن الخضر الحلبي المعروف بابن البرهان الحاسب المنجم الطبري (ومهفهف راقته نضارة وجهه * فالعين تنتظر منه أحسن منظر) (أصلى بنار الخد عنبر خاله * فبدا العذار دخان ذاك العنبر) فعلمت أن العماد المحلى إنما أخذ ذلك المعنى من أحد هؤلاء والله سبحانه وتعالى أعلم 810 تاج الدين ابن الجراح أبو الحسين يحيى بن أبي علي منصور بن الجراح بن الحسين بن محمد بن داود بن الجراح المصري وهذه الزيادة في نسبه وجدتها بخط بعض الأدباء ولا أتحققها والأول أصح الكاتب المنعوت تاج الدين كتب في ديوان

255 الإنشاء بالديار المصرية مدة طويلة وكتب الكثير وكان خطه في غاية الجودة وكان فاضلا أديبا متقنا له فطرة حسنة وشعر فائق ورسائل أنيقة سمع الحديث بثغر الإسكندرية المحروسة على الحافظ أبي طاهر السلفي وأبي الثناء حماد بن هبة الله الحراني وحدث وسمع الناس عليه وله لغز في الدمج الذي تلبسه النساء وهو بديع في بابه فأحببت ذكره وهو نثر ما شيء قلبه حجر ووجه قمر إن نبذته صبر واعتزل البشر وإن أجعته رضي بالنوى وانطوى على الخوى وإن أشبعته قبل قدمك وصحب خدمك وإن غلفته ضاع وإن أدخلته السوق أبي أن يباع وإن أظهرته جمل المتاع وأحسن الإمتاع وإن شددت ثانيه وحذفت منه القافية كدر الحياة وأوجب التخفيف في الصلاة وأحدث في وقت العصر الضجر ووقت الفجر الخدر وجمع بين حسن العقبى وقبح الأثر هذا وإن فصلته دعا لك وأبقى ما إن ركبته هالك وربما بلغك أمالك وكثر مالك وأحسن بعون المساكين مالك والسلام قلت وهذا اللغز قد يقف عليه من لا يعرف طريق حله فيعسر عليه تفسيره فيحتاج إلى الإيضاح فأقول أما قول ما

شيء قلبه حجر فمراده قلب حروف دملج فإننا إذا قلبنا هذه الحروف يخرج منها جلمد وهو الحجر وقوله ووجهه قمر يريد أنه مستدير كالقمر وقوله إن نبذته صبر واعتزل البشر فالبشر جمع بشرة فالإنسان إذا ألقى الدملج عنه صبر واعتزل بشرته إذ ليس فيه أهلية المنع فهو يصبر ويعتزل المكان الذي كان فيه وقوله وإن أجمته رضي بالنوى فالنوى لفظ مشترك يقع على البعد وعلى نوى التمر وعادتهم في بلاد العراق أن يطحنوا نوى التمر والرطب والبسر ويعلفوا به البقر وقصد هاهنا هذه التورية فإن الدملج إذ أخرج من العضد أو من الساق فقد جاع لأنه يكون فارغ الجوف ويرضى بالنوى الذي هو البعد عن عضو صاحبه ويقولون فلان يرضى بالنوى إذا كان فقيرا لا يجد ما يتبلغ به فهو يجتريء بمص النوى وهذا يفعله أهل

256 الحجاز والبلاد المجذبة كثيرا لقلة الأقوات عندهم فقد استعمل صاحب هذا اللغز لفظة النوى في هذين المعنيين وهذه هي التورية وقوله وانطوى على الخوى فالخوى هو الخلو وإذا كان فارغ الجوف فهو خاو وقوله وإن أشبعته قبل قدمك مراده بالإشباع هنا لبس الدملج فإن صاحبه إذا لبسه فقد ملأ جوفه ويكون فوق القدم فكأنه يقبله وقوله وصحب خدمك فيه تورية أيضا فإن الخدم جمع خادم وهذا الجمع قليل الاستعمال لهذا الواحد فإنه لا يقال فاعل وجمعه فعل إلا في ألفاظ مسموعة مثل خادم وخدم وغائب وغيب وحارس وحرس وجامد وجمد وغير ذلك فهو موقوف على السماع وخدم جمع خدمة أيضا وهو سير يشد في رسغ البعير تشد إليه سريحة النعل وبه سمي الخخال خدمة لأنه ربما كان من سيور يركب فيه الذهب والفضة ويجمع على خدام أيضا وقوله وإن غلفته ضاع هذا فيه تورية أيضا فإن التغليف أن يجعل للشيء غلافا والتغليف استعمال الطيب أيضا وقوله ضاع فيه تورية أيضا فإنه يقال ضاع الشيء من الضياع وضاع الطيب إذا عبقت رائحته وقوله وإن أدخلته السوق أبي أن يباع فالسوق جمع ساق وفيه التورية أيضا لأن السوق موضع البيع والشراء والسوق كما ذكرناه وقوله أبي أن يباع لأن العادة أنه لا يباع إلا إذا أخرج من العضو الذي هو فيه ولا يباع قبل إخراجه فكأنه قبل الإخراج أبي البيع وقوله وإن أظهرته جمل المتاع وأحسن الإمتاع فهذا ظاهر لا حاجة له إلى تفسير وقوله وإن شددت ثانيه وهو الميم وحذفت منه القافية وهي الجيم فيبقى الدملم وهو يكدر الحياة بألمه ويوجب التخفيف في الصلاة للألم أيضا وقوله وأحدث في وقت العصر الضجر فالعصر فيه التورية أيضا لأنه اسم للصلاة وهو مصدر لفعل عصر وكذلك الفجر لأنه اسم للصبح وهو

مصدر لفعل فجر فالإنسان في وقت عصر الدمّل يحصل له الضجر والقلق وإذا فجره وخلص منه حصل له الخدر والراحة وقوله وجمع بين حسن العقبي وقبح الأثر فقصد المقابلة بين الحسن والقبح ولا شك أن عقبي انفجار الدمّل حسنة وإن كان الأثر الذي يبقى في المكان قبيحا وقوله

257 وإن فصلته دعاء لك معناه أنك إذا فصلت أحد النصفين من لفظ الدمّلج من النصف الآخر فالنصف الأول منه دم وهو دعاء للإنسان بالدوام وقوله وأبقى ما إن ركبته هالك فالباقي منه لج واللج هو لج البحر وإن كان النصف من الدمّلج مخففا ولج البحر مشددا لكنهم يغتفرون مثل هذا في الألباز والتصاحيف والأحاجي ولا يباليون به ولا شك أن ركوب البحر أمر هائل فلهذا قال هالك وربما بلغك أمالك لأنه يوصل الإنسان إلى الموضع الذي يقصده وقوله وكثر مالك معناه إذا ركبه الإنسان للتجارة وقوله وأحسن بعون المساكين مالك فعون المساكين هو السفينة كما قال الله تعالى (^ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر) الكهف 79 فهي عون لهم على حاجتهم وسد خلتهم ومأل الشيء عاقبة أمره والله تعالى أعلم قلت وفي اللغز ثمانى لغات لغز بضم اللام وسكون الغين ولغز بضمهما ولغز بضم اللام وفتح الغين ولغز بفتح اللام وسكون الغين ولغز بفتحهما وألغوزة بضم الهمزة وسكون اللام وضم الغين ولغيزي بضم اللام وتشديد الغين مع القصر ولغيزاء مثل الأول إلا أن الغين مخففة ومفتوحة والألف ممدودة والله أعلم وقد طال الكلام لكن الحاجة دعت إليه كي لا يبقى فيه التباس على سامعه ورأيت في مجموع بخط بعض الفضلاء بيتين منسوبين إليه وهما هذان (أمد كفي إلى البيضاء أقلعها * من لحيتي فنقديها بسوداء) (هذي يدي وهي مني لا تطاوعني * على مرادي فما ظني بأعدائي) وكانت ولادة المذكور في ليلة السبت خامس عشر شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وتوفي في خامس شعبان سنة ست عشرة وستمائة بدمياط والعدو المخذول محاصرها رحمه الله تعالى وجراح بفتح الجيم وتشديد الراء وبعد الألف حاء مهمله ثم إن العدو ملك دمياط يوم الثلاثاء السابع والعشرين من الشهر المذكور والله أعلم

258 ونقلت من خط الشيخ مهذب الدين أبي طالب محمد بن علي اللغوي المعروف بابن الخيمي الحلبي نزيل مصر أن العدو نزل قبالة دمياط يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الأول سنة خمس عشرة وستمائة ونزل البر الشرقي يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة من السنة وأخذ الثغر يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة واستعيدت منهم يوم

الأربعاء تاسع عشر رجب سنة ثمان عشرة وستمئة ومدة نزولهم عليها إلى أن انفصلوا عنها ثلاث سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما ومن الاتفاق العجيب نزولهم عليها يوم الثلاثاء وإحاطتهم بها يوم الثلاثاء وملكهم لها يوم الثلاثاء وقد جاء في الخبر أن الله تعالى خلق المكروه يوم الثلاثاء ولفظة دمياط سريانية وأصلها بالذال المعجمة ويقولونه ذمط وتفسيره القدرة الربانية وكأنه إشارة إلى مجمع البحرين العذب والملح والله تعالى أعلم 811 جمال الدين ابن مطروح أبو الحسن يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين بن علي بن حمزة بن إبراهيم بن الحسين بن مطروح الملقب جمال الدين من أهل صعيد مصر ونشأ هناك وأقام بقوص مدة وتنقلت به الأحوال في الخدم والولايات ثم اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح أبي الفتح أيوب الملقب نجم الدين ابن السلطان

259 الملك الكامل ابن السلطان الملك العادل بن أيوب وكان إذ ذاك نائبا عن أبيه الملك الكامل بالديار المصرية ولما اتسعت مملكة الكامل بالبلاد المصرية بل بالبلاد الشرقية فصار له أمد وحصن كيفا وحران والرها والرقه ورأس عين وسروج وما انضم إلى ذلك سير إليها ولده الملك الصالح المذكور نائبا عنه وذلك في سنة تسع وعشرين وستمئة فكان ابن مطروح المذكور في خدمته ولم يزل يتنقل في تلك البلاد إلى أن وصل الملك الصالح إلى مصر مالكا لها وكان دخوله القاهرة يوم الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمئة ثم وصل ابن مطروح بعد ذلك إلى الديار المصرية في أوائل سنة تسع وثلاثين وستمئة فرتبه السلطان ناظرا في الخزانة ولم يزل يقرب منه ويحظى عنده إلى أن ملك الملك الصالح دمشق في الدفعة الثانية وكان ذلك في جمادى الأولى من سنة ثلاث وأربعين وستمئة ثم إن السلطان بعد ذلك رتب لدمشق نوابا فكان ابن مطروح في صورة وزير لها ومضى إليها وحسنت حالته وارتفعت منزلته ثم إن الملك الصالح توجه إلى دمشق فوصلها في شعبان سنة ست وأربعين ووجه عسكرا إلى حمص لاستنقاذها من يدي نواب الملك الناصر أبي المظفر يوسف الملقب صلاح الدين ابن الملك العزيز ابن الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب فإنه كان قد انتزعها من صاحبها الملك الأشرف مظفر الدين أبي الفتح موسى ابن الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه عنوة وكان منتميا إلى الملك الصالح فخرج من مصر لاسترداد حمص له فعزل ابن مطروح عن ولايته بدمشق وسيره مع العسكر المتوجه إلى حمص وأقام الملك الصالح بدمشق إلى أن ينكشف له ما يكون من أمر حمص فبلغه أن الفرنج قد اجتمعوا

بجزيرة قبرص على عزم قصد الديار المصرية فسير إلى عسكره المحاصرين بحمص وأمرهم أن يتركوا ذلك المقصد ويعودوا لحفظ الديار المصرية فعاد بالعسكر وابن مطروح في الخدمة والملك

260 الصالح متغير عليه متتكر له لأمر نقمها عليه وطرق الفرنج البلاد في أوائل سنة سبع وأربعين وملكوا دمياط يوم الأحد الثاني والعشرين من صفر من السنة وخيم الملك الصالح بعسكره على المنصورة وابن مطروح مواظب على الخدمة مع الإعراض عنه ولما مات الملك الصالح ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين بالمنصورة وصل ابن مطروح إلى مصر وأقام بها في داره إلى أن مات هذه جملة حاله على الإجمال وكانت أدواته جميلة وخلاله حميدة جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق الرضية وكان بيني وبينه مودة أكيدة ومكاتبات في الغيبة ومجالس في الحضرة تجري فيها مذاكرات أدبية لطيفة وله ديوان شعر أنشدني أكثره فمن ذلك قوله في أول قصيدة طويلة (هي رامة فخذوا يمين الوادي * وذروا السيوف تفر في الإغماد) (وحذار من لحظات أعين عينها * فلکم صرعن بها من الآساد) (من كان منكم واثقا بفؤاده * فهناك ما أنا واثق بفؤادي) (يا صاحبي ولي بجرعاء الحمى * قلب أسير ما له من فادي) (سلبته مني يوم بانوا مقلّة * مكحولة أجفانها بسواد) (وبحي من أنا في هواه ميت * عين على العشاق بالمرصاد) (وأغن مسكي اللمی معسوله * لولا الرقيب بلغت منه مرادي) (كيف السبيل إلى وصال محجب * ما بين بيض ظبا وسمر صعاد) (في بيت شعر نازل من شعره * فالحسن منه عاكف في بادي) (حرسوا مهفهف قده بمثقف * فتشابه المياس بالمياد) (قالت لنا ألف العذار بخده * في ميم مبسمه شفاء الصادي) وهي طويلة اقتصرت منها على هذا القدر للاختصار

261 ومن ذلك قوله (علقتة من آل يعرب لحظه * أمضى وأفتك من سيوف عريبه) (أسكنته في المنحنى من أضلعي * شوقا لبارق ثغره وعذيبه) (يا عائبي ذاك الفتور بطرفه * خلوه لي أنا قد رضيت بعيبه) (لدن وما مر النسيم بعطفه * أرج وما نفح العبير بجيبه) (وكان في بعض أسفاره قد نزل في طريقه بمسجد وهو مريض فقال (يا رب إن عجز الطبيب فداوني * بلطيف صنعك واشفني يا شافي) (أنا من ضيوفك قد حسبت وإن من * شيم الكرام البر بالأضياف) (ووجدت بعد موته رقعة فيها مكتوب هذان البيتان وأخبرني أنه جرى بينه وبين أبي الفضل جعفر بن شمس الخلافة الشاعر المقدم ذكره منازعة في بيت هو من جملة قصيدته التي أولها (من لي بغصن

بالحافظ ممنطق * حلو الشمائل واللمى والمنطق (مثري الروادف مملق من
خصره * أسمعت في الدنيا بمثر مملق) والبيت الذي قد وقع فيه النزاع قوله
(وأقول يا أخت الغزال ملاحه * فتقول لا عاش الغزال ولا بقي) فزعم ابن
شمس الخلافة أن هذا البيت له من جملة قصيدة هي في ديوانه وعمل كل واحد
منهما محضرا شهد فيه جماعة بأن البيت له وحلف لي ابن مطروح أن البيت
له وكان محترزا في أقواله ولم تعرف منه الدعوى بما ليس له والله المطلع
على السرائر وأنشدني له بعض أصحابنا قال أنشدني لنفسه

262 (يا من لبت عليه أثواب الضنى * صفرا موشعة بحمر الأدمع)
(أدرك بقية مهجة لو لم تذب * أسفا عليك نفيتها عن أضلعي) وكان في مدة
انقطاعه في داره وضيق صدره بسبب عطلته وكثرة كلفه قد حدث في عينيه
ألم انتهى به إلى مقاربة العمى وكنت أجمع به في كل وقت فتأخرت عنه مديدة
لعذر أوجب ذلك وكنت في ذلك الوقت أنوب في الحكم بالقاهرة المحروسة عن
قاضي القضاة بدر الدين أبي المحاسن يوسف بن الحسن ابن علي الحاكم
بالديار المصرية المعروف بقاضي سنجار فكتب إلي ابن مطروح يقول (يا
من إذا استوحش طرفي له * لم يخل قلبي منه من أنس) (والطرف والقلب
على ما هما * عليه مأوى البدر والشمس) وله من جملة قصيدة طويلة ()
ملك الملاح ترى العيون * عليه دائرة يطق () ومخيم بين الضلوع * وفي
الفؤاد له سبق) والبيت الأول مأخوذ من قول المتنبي (وخصر تثبت
الأبصار فيه * كأن عليه من حدق نطاقا) واليطلق بفتح الياء المثناة من تحتها
والطاء المهملة وبعدها قاف وهو عبارة عن جماعة من الجند يبيتون كل ليلة
حول خيمة الملك محيطين به يحرسونه إذا كان مسافرا وهو لفظ تركي
والسبق بفتح السين المهملة والباء الموحدة وبعدها قاف وهي خيمة الملك إذا
كان مسافرا فإنه تقدم له خيمة إلى المنزلة التي يتوجه إليها حتى إذا جاءها
كانت مجهزة له ينزل فيها ولا يتوقف على انتظار وصول الخيمة التي

263 كان بها في تلك المنزلة التي رحل منها وله بيتان ضمنهما بيت
المتنبي وأحسن فيهما وهما (إذا ما سقاني ريقه وهو باسم * تذكرت ما بين
العذيب وبارق) (ويذكرني من قده ومدامعي * مجر عوالينا ومجرى
السوابق) وهذا المعنى للمتنبى في أول قصيدة بديعة طويلة وهي (تذكرت
ما بين العذيب وبارق * مجر عوالينا ومجرى السوابق) وكانت بينه وبين
بهاء الدين زهير المقدم ذكره في حرف الزاي صحبة قديمة من زمن الصبا
وإقامتهما ببلاد الصعيد حتى كانا كالأخوين وليس بينهما فرق في أمور الدنيا

ثم اتصلا بخدمة الملك الصالح وهما على تلك المودة وبينهما مكاتبات بالأشعار فيما يجري لهما فأخبرني بهاء الدين زهير أن جمال الدين ابن مطروح كتب إليه بعض الأيام يطلب منه درج ورق وكان قد ضاق به الوقت وأظنهما كانا ببلاد الشرق معا (أفلست يا سيدي من الورق * فجد بدرج كعرضك اليقق) (وإن أتى بالمداد مقترنا * فمرحبا بالخدود والحدق) قال بهاء الدين زهير وقد فتح الرءاء من الورق وكسرها تنبيها على حاله فكتبت إليه (مولاي سيرت ما رسمت به * وهو يسير المداد والورق) (وعز عندي تسيير ذاك وقد * شبهته بالخدود والحدق)

264 وقد سبق في ترجمة بهاء الدين ذكر بيتين كتبهما ابن مطروح إلى بهاء الدين وذكرت السبب في نظم ذينك البيتين على ما حكاه لي بهاء الدين ثم بعد ذلك وصل إلى الديار المصرية من الموصل بعض الأدباء وجرى حديث ما ذكره لي بهاء الدين زهير وأنه أنشدني بيت ابن الحلوي وهو قوله (تجيزها وتجز المادحين بها * فقل لنا أزهير أنت أم هرم) فقال ذلك الأديب هذه القصيدة أنشدنيها ناظمها ابن الحلوي ونحن بالموصل وأروي عنه هذا البيت على خلاف هذه الرواية فإنه أنشدني (تجيدها ثم تجدو من أتاك بها * فقل لنا أزهير أنت أم هرم) فما أدري هل ابن الحلوي أنشدها أولا كما رواه بهاء الدين زهير ثم غير البيت كما رواه هذا الأديب أم حصل الغلط لأحدهما والله تعالى أعلم مع أن كل واحد من الطريقين حسن وقصة زهير بن أبي سلمى المزني الشاعر الجاهلي المشهور معلومة فلا حاجة إلى شرحها والخروج عما نحن بصدده فإنه كان يمدح هرم بن سنان المري أحد أمراء العرب في الجاهلية وكان هرم كثير العطاء له حتى آلى على نفسه أنه لا يسلم عليه زهير إلا أعطاه غرة من ماله فرسا أو بعيرا أو عبدا أو أمة فأجحف ذلك بهرم فجعل زهير يمر بالجماعة فيهم هرم فيقول عموا صباحا خلا هرما وخيركم تركت

265 ونعود إلى ما كنا فيه من حديث ابن مطروح بلغني أنه كتب قبل ارتفاع درجته رقعة تتضمن شفاعا في قضاء شغل بعض أصحابه أرسلها إلى بعض الرؤساء فكتب ذلك الرئيس في جوابه هذا الأمر فيه علي مشقة فكتب جوابه ثانيا لولا المشقة فلما وقف عليها ذلك الرئيس قضى شغله وفهم ما قصده وهو قول المتنبي (لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يفقر والإقدام قتال) وهذا من لطيف الإشارات وأنشدني الأديب الفاضل جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم ابن يحيى بن محمد بن علي المعروف بالجزار المصري

قصيدة بديعة مدح بها جمال الدين ابن مطروح المذكور وهي بديعة طويلة
فاقتصرت منها على ذكر غزلها وهو هذا (هو ذا الربيع ولي نفس مشوقه *
فاحبس الركب عسى أقضي حقوقه) (فقبيح بي في شرع الهوى * بعد ذاك
البر أن أرضى عقوقه) (لست أنسى فيه ليالات مضت * مع من أهوى
وساعات أنيقه) (ولئن أضحي مجازا بعدهم * فغرامي فيه ما زال حقيقه)
(يا صديقي والكريم الحر في * مثل هذا الوقت لا ينسى صديقه) (ضع يدا
منك على قلبي عسى * أن تهدي بين جنبي حقوقه) (فاض دمعي مذ رأى
ربيع الهوى * ولكم فاض وقد شام بروقه) (نغد اللؤلؤ من أدمعه * فغدا ينثر
في التراب عقيقه) (قف معي واستوقف الركب فإن * لم يقف فاتركه يمضي
وطريقه)

266 (فهي أرض قلما يلحقها * أمل والركب لم أعدم لحوقه) (طالما
استجلبت في أرجائها * من يتيه البدر إذ يدعى شقيقه) (يفضح الورد
احمرارا خده * وتود الخمر لو تشبه ريقه) (فبه الحسن خليق لم يزل *
والمعالي بابن مطروح خليقه) وكانت ولادته يوم الاثنين ثامن رجب سنة
اثننتين وتسعين وخمسمائة بأسيوط وتوفي ليلة الأربعاء مستهل شعبان سنة تسع
وأربعين وستمائة بمصر ودفن بسفح الجبل المقطم وحضرت الصلاة عليه
ودفنه وأوصى أن يكتب عند رأسه دوبيت نظمه في مرضه وهو (أصبحت
بقر حفرة مرتها * لا أملك من دنياي إلا كفنا) (يا من وسعت عبادته رحمة
* من بعض عبادك المسيئين أنا) ومما ذكر أنه وجد في رقعة مكتوبة تحت
رأسه بعد موته (أتزع م الموت هذا الجزع * ورحمة ربك فيها الطمع) ()
ولو بذنوب الوري جنته * فرحمته كل شيء تسع) (رحمه الله تعالى) (330)
(وتوفي قاضي القضاة بدر الدين يوسف المذكور يوم السبت رابع عشر رجب
سنة ثلاث وستين وستمائة بالقاهرة ودفن في تربته المجاورة لمدرسته بالقرافة
الصغرى وأخبرني مرارا عديدة أنه ولد في شهر ربيع الأول سنة ثمان
وخمسمائة في جبال إربل وهو زرزاري النسب رحمه الله تعالى وأسيوط
بضم الهمزة وسكون السين المهملة وضم الياء المثناة من تحتها وبعدها واو
ساكنة ثم طاء مهملة وهي بليدة بالصعيد الأعلى من ديار مصر ومنهم من
يسقط الهمزة ويضم السين فيقول سيوط والله تعالى أعلم

267 812 ابن جزلة صاحب المنهاج أبو علي يحيى بن عيسى بن جزلة
الطبيب صاحب كتاب المنهاج الذي رتبته على الحروف وجمع فيه أسماء
الحشائش والعقاقير والأدوية وغير ذلك شيئا كثيرا كان نصرانيا ثم أسلم

وصنف رسالة في الرد على النصارى وبيان عوار مذاهبهم ومدح فيها الإسلام وأقام الحجة على أنه الدين الحق وذكر فيها ما قرأه في التوراة والإنجيل من ظهور النبي وأنه نبي مبعوث وأن اليهود والنصارى أخفوا ذلك ولم يظهره ثم ذكر فيها معائب اليهود والنصارى وهي رسالة حسنة أجاد فيها وقرئت عليه في ذي الحجة سنة خمس وثمانين وأربعمائة وكان سبب إسلامه أنه كان يقرأ على أبي علي ابن الوليد المعتزلي ويلزمه فلم يزل يدعو إلى الإسلام ويذكر له الدلائل الواضحة حتى هداه الله تعالى وحسن إسلامه وهو تلميذ أبي الحسن سعيد ابن هبة الله بن الحسن وبه انتفع في الطب وكان له نظر في علم الأدب وكتب الخط الجيد وصنف للإمام المقتدي بأمر الله كثيرا من الكتب فمن ذلك كتاب تقويم الأبدان وكتاب منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان وكتاب الإشارة قي تلخيص العبارة ورسالة في مدح الطب وموافقته للشرع والرد على من طعن عليه ورسالة كتبها إلى إلبا القس لما أسلم وغير ذلك من التصانيف وهو من المشاهير في علم الطب وعمله وذكره أبو المظفر يوسف سبط أبي الفرج ابن الجوزي في تاريخه الذي سماه مرآة الزمان فقال إنه لما أسلم استخلفه أبو الحسن القاضي ببغداد في كتب السجلات وكان يطب

268 أهل محلته ومعارفه بغير أجره ويحمل إليهم الأشرطة والأدوية بغير عوض ويتفقد الفقراء ويحسن إليهم ووقف كتبه قبل وفاته وجعلها في مشهد أبي حنيفة رضي الله عنه ذكر هذا كله في سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة وعادته أن يذكر الإنسان ويشرح أحواله في سنة وفاته فإن كتابه مرتب على السنين وذكر صاحب كتاب البستان الجامع لتواريخ الزمان أن ابن جزلة مات سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة وزاد أبو الحسن الهمداني في أواخر شعبان نقله عنه ابن النجار في تاريخ بغداد وذكر غيره أن إسلامه كان في سنة ست وستين وأربعمائة زاد ابن النجار في تاريخه يوم الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة رحمه الله تعالى وجزلة بفتح الجيم وسكون الزاي وفتح اللام وبعدها هاء ساكنة والله تعالى أعلم 813 السهروردي المقتول أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك الملقب شهاب الدين السهروردي الحكيم المقتول بحلب وقيل اسمه أحمد وقيل كنيته اسمه وهو أبو الفتوح وذكر أبو العباس أحمد بن أبي أصيبعة الخزرجي الحكيم في كتاب طبقات الأطباء أن اسم السهروردي المذكور عمر ولم يذكر اسم أبيه والصحيح الذي ذكرته أولا فلهذا بنيت الترجمة عليه فإني وجدته بخط جماعة من أهل المعرفة بهذا الفن وأخبرني به جماعة أخرى لا أشك في معرفتهم

269 فقوي عندي ذلك فترجمت عليه والله أعلم كان المذكور من علماء عصره قرأ الحكمة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلي بمدينة المراغة من أعمال أذربيجان إلى أن برع فيهما وهذا مجد الدين الجيلي هو شيخ فخر الدين الرازي وعليه تخرج وبصحبه انتفع وكان إماما في فنونه وقال في طبقات الأطباء كان السهروردي المذكور أوجد أهل زمانه في العلوم الحكيمة جامعا للفنون الفلسفية بارعا في الأصول الفقهية مفرط الذكاء فصيح العبارة وكان علمه أكثر من عقله ثم ذكر أنه قتل في أواخر سنة ست وثمانين وخمسائة والصحيح ما سنذكره في أواخر هذه الترجمة إن شاء الله تعالى وعمره نحو ست وثلاثين سنة ثم قال ويقال إنه كان يعرف علم السيمياء وحكى بعض فقهاء العجم أنه كان في صحبته وقد خرجوا من دمشق قال فلما وصلنا إلى القابون القرية التي على باب دمشق في طريق من يتوجه إلى حلب لقينا قطيع غنم مع تركماني فقلنا للشيخ يا مولانا نريد من هذه الغنم رأسا نأكله فقال معي عشرة دراهم خذوها واشتروا بها رأس غنم وكان هناك تركماني فاشترينا منه رأسا بها ومشينا قليلا فلاحقنا رفيق له وقال ردوا هذا الرأس خذوا أصغر منه فإن هذا ما عرف ببيعكم يساوي هذا الرأس أكثر من ذلك وتناولنا نحن وإياه فلما عرف الشيخ ذلك قال لنا خذوا الرأس وامشوا وأنا أقف معه وأرضيه فتقدمنا نحن وبقي الشيخ يتحدث معه ويطيب قلبه فلما أبعدنا قليلا تركه وتبعنا وبقي التركماني يمشي خلفه ويصيح به وهو لا يلتفت إليه فلما لم يكلمه لحقه بغیظ وجذب يده اليسرى وقال أين تروح وتخليني وإذا بيد الشيخ قد انخلعت من عند كتفه وبقيت في يد التركماني ودمها يجري فبهت التركماني وتحير في أمره فرمى اليد وخاف فرجع الشيخ وأخذ تلك اليد بيده اليمنى ولحقنا وبقي التركماني راجعا وهو يتلفت

270 إليه حتى غاب عنه ولما وصل الشيخ إلينا رأينا في يده اليمنى منديلا لا غير قلت ويحكى عنه مثل هذا أشياء كثيرة والله أعلم بصحتها وله تصانيف فمن ذلك كتاب التنقيحات في أصول الفقه وكتاب التلويحات وكتاب الهياكل وكتاب حكمة الإشراق وله الرسالة المعروفة بالغربة الغربية على مثال رسالة الطير لأبي علي ابن سينا ورسالة حي بن يقظان لابن سينا أيضا وفيها بلاغة تامة أشار فيها إلى حديث النفس وما يتعلق بها على اصطلاح الحكماء ومن كلامه الفكر في صورة قدسية يتلطف بها طالب الأريحية ونواحي القدس دار لا يطؤها القوم الجاهلون وحرام على الأجساد المظلمة أن تلج ملكوت السموات فوحد الله وأنت بتعظيمه ملآن واذكره وأنت من ملابس

الأكوان عريان ولو كان في الوجود شمسان لانطمست الأركان فأبى النظام أن يكون غير ما كان (فخفيت حتى قلت لست بظاهر * وظهرت من سعتي على الأكوان) آخر (لو علمنا أننا ما نلتقي * لقضينا من سليمى وطرا) اللهم خلص لطيفي من هذا العالم الكثيف وتنسب إليه أشعار فمن ذلك ما قاله في النفس على مثال أبيات ابن سينا العينية وهي مذكورة في ترجمته في حرف الحاء واسمه الحسين فقال هذا الحكيم (خلعت هياكلها بجرعاء الحمى * وصبت لمغناها القديم تشوقا)

271 (وتلفتت نحو الديار فشاقتها * ربع عفت أطلاله فتمزقا) (وقفت تسائله فرد جوابها * رجع الصدى أن لا سبيل إلى اللقا) (فكأنما برق تألق بالحمى * ثم انطوى فكأنه ما أبرقا) (ومن شعره المشهور (أبدا تحن إليكم الأرواح * ووصالكم ريحانها والراح) (وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم * وإلى لذيذ لقائكم ترتاح) (وارحمة للعاشقين تكلفوا * ستر المحبة والهوى فضاح) (بالسر إن باحوا تباح دماؤهم * وكذا دماء البائحين تباح) (وإذا هم كتموا تحدث عنهم * عند الوشاة المدمع السفاح) (وبدت شواهد للسقام عليهم * فيها لمشكل أمرهم إيضاح) (خفض الجناح لكم وليس عليكم * للصب في خفض الجناح جناح) (فإلى لقاكم نفسه مرتاحة * وإلى رضاكم طرفه طماح) (عودوا بنور الوصل من غسق الجفا * فالهجر ليل والوصال صباح) (صافاهم فصفوا له فقلوبهم * في نورها المشكاة والمصباح) (وتمتعوا فالوقت طاب بقربكم * راق الشراب ورقت الأقداح) (يا صاح ليس على المحب ملامة * إن لاح في أفق الوصال صباح) (لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى * كتمانهم فنما الغرام وباحوا) (سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها * لما دروا أن السماح رباح)

272 (ودعاهم داعي الحقائق دعوة * فغدوا بها مستأنسين وراحوا) (ركبوا على سنن الوفا فدموعهم * بحر وشدة شوقهم ملاح) (والله ما طلبوا الوقوف ببابه * حتى دعوا وأتاهم المفتاح) (لا يطربون بغير ذكر حبيبهم * أبدا فكل زمانهم أفرح) (حضروا وقد غابت شواهد ذاتهم * فتهتكوا لما رأوه وصاحوا) (أفناهم عنهم وقد كشفت لهم * حجب البقا فتلاشت الأرواح) (فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم * إن التشبه بالكرام فلاح) (قم يا نديم إلى المدام فهاتها * في كاسها قد دارت الأقداح) (من كرم إكرام بدن ديانة * لا خمرة قد داسها الفلاح) (وله في النظم والنثر أشياء لطيفة لا حاجة إلى الإطالة بذكرها وكان شافعي المذهب ويلقب بالمؤيد بالملكوت وكان يتهم بانحلال

العقيدة والتعطيل ويعتقد مذهب الحكماء المتقدمين واشتهر ذلك عنه فلما وصل إلى حلب أفتى علماءها بإباحة قتله بسبب اعتقاده وما ظهر لهم من سوء مذهبه وكان أشد الجماعة عليه الشيخين زين الدين ومجد الدين ابني جهبل وقال الشيخ سيف الدين الأمدى المقدم ذكره في حرف العين اجتمعت بالسهروردي في حلب فقال لي لا بد أن أملك الأرض فقلت من أين لك هذا قال رأيت في المنام كأني شربت ماء البحر فقلت لعل هذا يكون اشتهاه العلم وما يناسب هذا فرأيت لا يرجع عما وقع في نفسه ورأيت كثير العلم قليل العقل ويقال إنه لما تحقق القتل كان كثير ما ينشد (أرى قدمي أراق دمي * وهان دمي فيها ندمي) والأول مأخوذ من قول أبي الفتح علي بن محمد البستي المقدم ذكره (إلى حنفي مشى قدمي * أرى قدمي أراق دمي)

273 (فلم أنفك من ندم * وليس بنافعي ندمي) وكان ذلك في دولة الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين رحمه الله فحبسه ثم خنقه بإشارة والده السلطان صلاح الدين وكان ذلك في خامس رجب سنة سبع وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب وعمره ثمان وثلاثون سنة وذكره القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد قاضي حلب في أوائل سيرة صلاح الدين وقد ذكر حسن عقيدته فقال كان كثير التعظيم لشعائر الدين وأطال الكلام في ذلك ثم قال ولقد أمر ولده صاحب حلب بقتل شاب نشأ يقال له السهروردي قيل عنه إنه معاند للشرائع وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فأمر بقتله فقتله وصلبه أياما ونقل سبط ابن الجوزي في تاريخه عن ابن شداد المذكور أنه قال لما كان يوم الجمعة بعد الصلاة سلخ ذي الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة أخرج الشهاب السهروردي ميتا من الحبس بحلب ففترق عنه أصحابه قلت وأقمت بحلب سنين للاشتغال بالعلم الشريف ورأيت أهلها مختلفين في أمره وكل واحد يتكلم على قدر هواه فمنهم من ينسبه إلى الزندقة والإلحاد ومنهم من يعتقد فيه الصلاح وأنه من أهل الكرامات ويقولون ظهر لهم بعد قتله ما يشهد له بذلك وأكثر الناس على أنه كان ملحدا لا يعتقد شيئا نسأل الله تعالى العفو العافية والمعافة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة وأن يتوفانا على مذهب أهل الحق والرشاد وهذا الذي ذكرته في تاريخ قتله هو الصحيح وهو خلاف ما نقلته في أول هذه الترجمة وقد قيل إن ذلك كان في سنة ثمان وثمانين وليس بشيء أيضا وحبش بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة وبالشين المعجمة وأميرك بفتح الهمزة وبعدها ميم مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها ساكنة

274 وبعدها راء مفتوحة ثم كاف وهو اسم أعجمي معناه أمير تصغير أمير وهم يلحقون الكاف في آخر الاسم للتصغير وقد تقدم الكلام على سهرورد في ترجمة الشيخ أبي النجيب عبد القاهر السهروردي فليطلب منه إن شاء الله تعالى 814 يزيد بن القعقاع القارىء أبو جعفر يزيد بن القعقاع القارىء مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي عتاقة ويعرف أبو جعفر المذكور بالمدني أخذ القراءة عرضا عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وعن مولاة عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وعن أبي هريرة رضي الله عنه وسمع عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ومروان بن الحكم ويقال قرأ على زيد بن ثابت رضي الله عنه وروى القراءة عنه عرضا نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم وسليمان ابن مسلم بن جمار وعيسى بن وردان الحذاء وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وله قراءة قال أبو عبد الرحمن النسائي يزيد بن القعقاع ثقة وكان يقرئ الناس بالمدينة قبل وقعة الحرة وقال محمد بن القاسم المالكي أبو جعفر يزيد بن القعقاع مولى أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي قال ويقال إنه جندب بن فيروز مولى عبد الله بن عياش المخزومي وكان من أفضل الناس وقال سليمان بن مسلم أخبرني أبو جعفر يزيد بن القعقاع أنه كان يقرئ في مسجد رسول الله قبل الحرة وكانت الحرة على

275 رأس ثلاث وستين سنة من مقدم رسول الله المدينة وأخبرني أنه كان يمسك المصحف على مولاة عبد الله بن عياش وكان من أقرأ الناس وكنت أرى كل يوم ما يقرأ وأخذت عنه قراءته وأخبرني أنه أتني به إلى أم سلمة رضي الله عنها وهو صغير فمسحت على رأسه ودعت له بالبركة قال سليمان المذكور وسألته متى أقرأت القرآن فقال أقرأت أو قرأت فقلت لا بل أقرأت فقال هيهات قبل الحرة في زمان يزيد بن معاوية وكانت الحرة بعد وفاة رسول الله بثلاث وخمسين سنة وقال نافع بن أبي نعيم لما غسل أبو جعفر يزيد بن القعقاع القارىء بعد وفاته نظروا ما بين نحره إلى فؤاده مثل ورقة المصحف فما شك أحد ممن حضره أنه نور القرآن وقال سليمان بن مسلم أخبرني أبو جعفر يزيد بن القعقاع حين كان نافع يمر به فيقول أترى هذا كان يأتيني وهو غلام له ذؤابة فيقرأ علي ثم كفرني وهو يضحك قال سليمان وقالت أم ولد أبي جعفر إن ذلك البياض الذي كان بين نحره وفؤاده صار غرة بين عينيه وقال سليمان رأيت أبا جعفر بعد موته في المنام وهو على الكعبة فقلت له أبا جعفر قال نعم اقرئني إخواني عني السلام وأخبرهم أن الله تعالى جعلني من الشهداء

الأحياء المرزوقين واقريء أبا حازم السلام وقل له يقول لك أبو جعفر الكيس الكيس فإن الله عز و جل وملائكته يتراءون مجلسك بالعشيات وقال مالك بن أنس رحمه الله تعالى كان أبو جعفر القارىء رجلا صالحا بفتي الناس بالمدينة وقال خليفة بن خياط مات أبو جعفر يزيد بن القعقاع سنة اثنتين وثلاثين ومائة بالمدينة وقال غيره مات سنة ثمان وعشرين ومائة وقال أبو علي الأهوازي في أول كتاب الإقناع في القراءات قال ابن جمار ولم يزل أبو جعفر إمام الناس في القراءة إلى أن توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة بالمدينة

276 وقيل إنه توفي في سنة ثلاثين ومائة والله أعلم قلت وقد تكرر ذكر الحرة في هذه الترجمة في مواضع وقد يتشوف إلى الوقوف على معرفة ذلك من لا علم له به والحرة في الأصل اسم لكل أرض ذات حجارة سود فمتى كانت بهذه الصفة قيل لها حرة والحرار كثيرة والمراد بهذه الحرة حرة واقم بالقاف المكسورة وهي بالقرب من المدينة في جهتها الشرقية كان يزيد بن معاوية بن أبي سفيان في مدة ولايته قد سير إلى المدينة جيشا مقدمه مسلم بن عقبة المري فنهبها وخرج أهلها إلى هذه الحرة فكانت الواقعة بها وجرى فيها ما يطول شرحه وهو مسطور في التواريخ حتى قيل إنه بعد وقعة الحرة ولدت أكثر من ألف بكر من أهل المدينة ممن ليس لهم أزواج بسبب ما جرى فيها من الفجور ثم إن مسلم بن عقبة المري لما قتل أهل المدينة وتوجه إلى مكة نزل به الموت بموضع يقال له ثنية هرشى فدعا حصين بن نمير السكوني وقال له يا بردعة الحمار إن أمير المؤمنين عهد إلي إن نزل بي الموت أن أوليك وأكره خلافه عند الموت ثم إنه أوصى إليه بأمر يعتمدها ثم قال لئن دخلت النار بعد قتلي أهل الحرة إني إذا لشقي وأما واقم فإنه اسم أطم من أطام المدينة والأطم بضم الهمزة والطاء المهملة شبيه بالقصر وكان مبنيا عند هذه الحرة فأضيفت الحرة إليه فقيل حرة واقم والله أعلم

277 815 يزيد بن رومان أبو روح يزيد بن رومان القارىء مولى آل الزبير بن العوام المدني أخذ القراءة عرضا عن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي وسمع ابن عباس وعروة بن الزبير رضي الله عنهم وروى القراءة عنه عرضا نافع ابن أبي نعيم قال يحيى بن معين يزيد بن رومان ثقة وقال وهب بن جرير حدثنا أبي قال رأيت محمد بن سيرين ويزيد بن رومان يعقدان الآي في الصلاة وقال يزيد بن رومان كنت أصلي إلى جنب نافع بن جبير بن مطعم فيغمرني فأفتح عليه ونحن نصلي وروى يزيد أنه كان الناس يقومون في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بثلاث وعشرين ركعة في

شهر رمضان وتوفي يزيد في سنة ثلاثين ومائة رحمه الله تعالى ورومان
بضم الراء وسكون الواو وبعدها ميم ثم ألف ونون

278 816 يزيد بن المهلب أبو خالد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة
الأزدي قد تقدم ذكر أبيه في حرف الميم ورفعت نسبه وتكلمت عليه فأغنى عن
الإعادة هاهنا ذكر ابن قتيبة في كتاب المعارف وجماعة من المؤرخين أنه لما
مات أبوه في التاريخ المذكور في ترجمته كان قد استخلف ولده يزيد مكانه
ويزيد ابن ثلاثين سنة يومئذ فعزله عبد الملك بن مروان برأي الحجاج بن
يوسف الثقفي وولى مكانه في خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي قلت وقد تقدم
ذكره في حرف القاف وصار يزيد في يد الحجاج قلت وكان الحجاج زوج
أخته هند بنت المهلب وكان الحجاج يكره يزيد لما يرى فيه من النجاسة فيخشى
منه لا يترتب مكانه فكان يقصده بالمكروه في كل وقت كي لا يثب عليه وكان
الحجاج في كل وقت يسأل المنجمين ومن يعاني هذه الصناعة عمن يكون
مكانه فيقولون رجل اسمه يزيد فلا يرى من هو أهل لذلك سوى يزيد المذكور
والحجاج يومئذ أمير العراقيين وكذا وقع فإنه لما مات الحجاج ولي يزيد مكانه
هذا قول المؤرخين نعود إلى تنمة ما ذكره في المعارف قال فعذبه الحجاج
وهرب يزيد من حبسه إلى الشام يريد سليمان بن عبد الملك فأتاه فشفع له إلى
أخيه

279 الوليد بن عبد الملك فأمنه وكف عنه ثم ولاه سليمان خراسان حين
أفضت إليه الخلافة فافتتح جرجان ودهستان وأقبل يريد العراق فتلقيه موت
سليمان ابن عبد الملك فصار إلى البصرة فأخذه عدي بن أرطاة فأوثقه وبعث
به إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فحبسه عمر فهرب من حبسه وأتى
البصرة ومات عمر فخالف يزيد وخلع يزيد بن عبد الملك فوجه إليه أخاه
مسلمة فقتله وقال الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في تاريخه الكبير
يزيد بن المهلب ولي إمرة البصرة لسليمان بن عبد الملك ثم نزع عمر بن عبد
العزيز وولى عدي بن أرطاة وقدم به على عمر مسخوطا عليه حكى عن أنس
بن مالك وعمر بن عبد العزيز وأبيه المهلب وروى عنه ابنه عبد الرحمن وأبو
عينة ابن المهلب وأبو إسحاق السبيعي وغيرهم وقال الأصمعي إن الحجاج
قبض على يزيد وأخذه بسوء العذاب فسأله أن يخفف عنه العذاب على أن
يعطيه كل يوم مائة ألف درهم فإن أداها وإلا عذبه إلى الليل قال فجمع يوما
مائة ألف درهم ليشتري بها عذابه في يومه فدخل عليه الأخطل الشاعر فقال (
أبا خالد بادت خراسان بعدكم * وصاح ذوو الحاجات أين يزيد) (فلا مطر

المروان بعدك مطرة * ولا اخضر بالمروين بعدك عود) (فما لسرير الملك بعدك بهجة * ولا لجواد بعد جودك جود) قوله في البيت الثاني فلا مطر المروان ولا اخضر بالمروين هما تثنية مرو إحداهما مرو الشاهجان وهي العظمى والأخرى مرو الروذ وهي الصغرى وكلتاها مدينتان مشهورتان بخراسان وقد تكرر ذكرهما في هذا الكتاب قال فأعطاه مائة الألف فبلغ ذلك الحجاج فدعا به وقال يا مروزي أكل هذا الكرم وأنت بهذه الحالة قد وهبت لك عذاب اليوم وما بعده

280 قلت هكذا ذكر ابن عساكر والمشهور أن صاحب هذه الواقعة والأبيات هو الفرزدق ثم إنني رأيت هذه الأبيات في ديوان زياد الأعجم والله أعلم بالصواب وذكر الحافظ أيضا أن يزيد لما هرب من الحجاج قاصدا سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ بالرملة فاجتاز في طريقه بالشام على أبيات عرب فقال لغلامه استقنا هؤلاء لبنا فأتاه بلبن فشربه فقال أعطهم ألف درهم فقال الغلام إن هؤلاء لا يعرفونك قال لكني أعرف نفسي أعطهم ألف درهم فأعطاهم وقال الحافظ أيضا حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقا فجاء فحلق رأسه فأمر له بألف درهم فتحير ودهش وقال هذا الألف أمضي إلى أمي فلانة اشتريها فقال أعطوه ألفا آخر فقال امرأتي طالق إن حلفت رأس أحد بعدك فقال أعطوه ألفين آخرين وقال المدائني وكان سعيد بن عمرو بن العاص مؤاخيا ليزيد بن المهلب فلما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد منع الناس من الدخول إليه فأتاه سعيد فقال يا أمير المؤمنين لي على يزيد خمسون ألف درهم وقد حلت بيني وبينه فإن رأيت أن تأذن لي فأقتضيه فأذن له فدخل عليه فسر به يزيد وقال كيف دخلت إلي فأخبره سعيد فقال والله لا تخرج إلا وهي معك فامتنع سعيد فحلف يزيد ليقبضنها فوجه إلى منزله حتى حمل إلى سعيد خمسون ألف درهم وزاد ابن عساكر فقال وفي ذلك قال بعضهم (فلم أر محبوسا من الناس ماجدا * حبا زائرا في السجن غير يزيد) (سعيد بن عمرو إذ أتاه أجازة * بخمسين ألفا عجلت لسعيد) وذكر أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني في كتاب الجليس والأنيس عن عبد الله الكوفي قال أغرم سليمان بن عبد الملك عمر بن هبيرة عن غزاة

281 في البحر ألف ألف درهم فمشى إلى يزيد بن المهلب وقد ولي العراق عثمان بن حيان المري والقعقاع بن خالد العبسي والهديل بن زفر بن الحارث الكلابي وغيرهم من قيس فلما انتهوا إلى باب سرادق يزيد أذن لهم الحاجب في دخولهم وأعلمهم أنه يغسل رأسه فلما فرغ خرج في مستقاة فألقى

نفسه على فراشه ثم قال ما ألف بينكم فقال عثمان هذا ابن هبيرة شيخنا وسيدنا كان الوليد حمل معه مالا حيث وجه إلى البحر فأعطاه جنده فخرج عليه من غرمه ألف ألف درهم فقلنا يزيد سيد أهل اليمن ووزير لسليمان وصاحب العراق ومن قد يحمل أمثالها عن ليس بأمثالنا ووالله لو وسعتها أموال قيس لاحتملناها ثم تكلم القعقاع فقال يا ابن المهلب هذا خير ساقه الله إليك وليس أحد أولى به منك فافعل به كبعض فعلاتك الأولى فلن يصدقك عن قضاء هذا الحق ضيق ولا تبخل وقد أتيناك مع ابن هبيرة فيما حمل فهب لنا أموالنا واستر في العرب عورتنا ثم تكلم الهذيل بن زفر فقال يا ابن المهلب إني لو وجدت من الممشى إليك بدا لما مشيت إليك لأن أموالك بالعراق وإنما أتينا خائفا ثم أقمت فينا ضيفا ثم تخرج من عندنا محروسا وإيم الله لنن تركناك بالشام لناأتيناك بالعراق وما هاهنا أقرب في الحظوة وأوجب للذمام ثم تكلم ابن خيثمة فقال إني لأقول لك يا ابن المهلب ما قال هؤلاء أخبرني إن أنت عجزت عن احتمال ما على ابن هبيرة فعلى من المعول لا والله ما عند قيس له مكيال ولا في أموالهم متسع ولا عند الخليفة له فرج ثم تكلم ابن هبيرة فقال أما أنا فقد قضيت حاجتي رددت أم أنجحت لأنه ليس لي أمامك متقدم ولا خلفك متأخر وهذه حاجة كانت في نفسي فقضيتها فضحك يزيد بن المهلب وقال إن التعذر أخو البخل ولا اعتذار فاحتكموا فقال القعقاع نصف المال فقال يزيد قد فعلت يا غلام غداءك قال فجيء بالطعام

282 فأبقينا أكثر مما أفرغنا فلما فرغنا أمر بتطيينا وأجاد الكسوة لنا قال ثم خرجنا حتى إذا مررنا قال ابن هبيرة فأخبروني عما بقي من يحمله بعد ابن المهلب لقد صغر الله أقداركم وأخطاركم والله ما يدري يزيد ما بين النصف والتمام وما هما عنده إلا سواء ارجعوا إليه فكلموه في الباقي قال وقد كان يزيد ظن بهم أن سيرجعون إليه في التمام فقال للحاجب إذا عادوا فأدخلهم فلما عادوا أدخلهم فقال لهم يزيد إن ندمتم أقلناكم وإن استقلتم زدناكم فقال له ابن هبيرة يا ابن المهلب إن البعير إذا أوقر أثقلته أذناه وأنا بما بقي مثقل فقال قد حملتها عنك ثم ركب إلى سليمان فقال يا أمير المؤمنين إنك إنما رشحتني لتبلغ بي وإني لا أضيق عن شيء اتسع له مالك وما في أيدينا فواضلك يصطنع بها الناس وتبنى بها المكارم ولولا مكانك قلقتنا بالصغير ثم قال له أنه أتاني ابن هبيرة بوجوه أصحابه فقال له سليمان أمسك إياك في مال الله عنده خب ضب جموع ممنوع جزوع هلوع هيه فصنعت ماذا قال حملتها عنه قال حملها إذن إلى بيت مال المسلمين قال والله ما حملتها خدعة وأنا حاملها بالغداة ثم حملها

فلما أخبر سليمان بذلك دعا يزيد فلما رآه ضحك وقال ذكت بك ناري ووريت بك زنادي غرمها علي وحمدتها لك قد وفيت لي يميني فأرجع المال إليك ففعل وقال يزيد يوما والله للحياة أحب من الموت ولثناء حسن أحب إلي من الحياة ولو أنني أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن يكون لي أذن أسمع غدا ما يقال في إذا مت كريما وقد سبق ذكر هذا الكلام في ترجمة أبيه المهلب وأنه من كلامه لا من كلام ابنه يزيد والله أعلم وقال أبو الحسن المدائني باع وكيل ليزيد بن المهلب بطيخا جاءه من مغل بعض أملاكه بأربعين ألف درهم فبلغ ذلك يزيد فقال له تركتنا بقالين

283 أما كان في عجائز الأزدي من تقسمه فيهن ومدحه عمر بن لجأ يشعر يقول فيه (آل المهلب قوم إن نسبتهم * كانوا الأكارم آباء وأجدادا) (كم حاسد لهم يعيا بفضلهم * وما دنا من مساعيهم ولا كادا) (إن العرانيين تلقاها محسدة * ولا ترى للناس حسادا) (لوقيل للمجد حد عنهم وخلهم * بما احتكمت من الدنيا لما حادا) (إن المكارم أرواح يكون لها * آل المهلب دون الناس أجسادا) وقال الأصمعي قدم على يزيد بن المهلب قوم من قضاة فقال رجل منهم (والله ما ندري إذا ما فاتنا * طلب لديك من الذي نتطلب) (ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد * أحدا سواك إلى المكارم ينسب) (فاصبر لعادتك التي عودتنا * أو لا فأرشدنا إلى من نذهب) فأمر له بألف دينار فلما كان في العام المقبل وفد عليه فأنشده (مالي أرى أبوابهم مهجورة * وكأن بابك مجمع الأسواق) (حابوك أم هابوك أم شاموا الندى * بيدك فانتجعوا من الأفاق) (إني رأيتك للمكارم عاشقا * والمكرمات قليلة العشاق) فأمر له بعشرة آلاف درهم وأجمع علماء التاريخ على أنه لم يكن في دولة بني أمية أكرم من بني المهلب كما لم يكن في دولة بني العباس أكرم من البرامكة والله أعلم وكان لهم في الشجاعة أيضا مواقف مشهورة وحكى ابن الجوزي في كتاب الأذكياء أن يزيد بن المهلب وقعت

284 عليه حية فلم يدفعها عن نفسه فقال له أبوه ضيعت العقل من حيث حفظت الشجاعة ولما خرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي على الحجاج وقصته مشهورة أتى تستر فاجتمع إليه جماعة فذكروا يوما آل المهلب ووقعوا فيهم فقال عبد الرحمن لحريش بن هلال القريعي وكان في القوم ما لك يا أبا قدامة لا تتكلم فقال والله ما أعلم أحدا أصون لنفسه في الرخاء ولا أبذل لها في الشدة منهم وقدم عبد الرحمن بن سليم الكلبي على المهلب فرأى بنيه قد ركبوا عن آخرهم فقال أنس الله الإسلام بتلاحقكم أما

والله لئن لم تكونوا أسباط نبوة إنكم لأسباط ملحمة ومات ابن لحبيب بن المهلب بن أبي صفرة فقدم أخاه يزيد ليصلي عليه فقيل له أتقدمه وأنت أسن منه والميت ابنك فقال إن أخي قد شرفه الناس وشاع فيهم له الصيت ورمته العرب بأبصارها فكرهت أن أضع منه ما رفعه الله تعالى ونظر مطرف بن عبد الله بن الشخير إلى يزيد بن المهلب وهو يمشي وعليه حلة يسحبها فقال له ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله فقال يزيد أما تعرفني فقال بلى أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت بين ذلك حامل عذرة قلت وقد نظم هذا المعنى أبو محمد عبد الله بن محمد البسامي الخوارزمي فقال (عجبت من معجب بصورته * وكان من قبل نطفة مزره) (وفي غد بعد حسن صورته * يصير في الأرض جيفة قذره) (وهو على عجبه ونخوته * ما بين ثوبيه يحمل العذره) (331) وذكر الحافظ المعروف بابن عساكر في تاريخه الكبير في ترجمة أبي خدّاش مخلد بن يزيد بن المهلب أن مخلداً أحد الأسخياء الممدوحين وقد على

285 عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يكلمه في أمر أبيه يزيد وقد حبسه عمر وكان أبوه قد ولاه جرجان فاجتاز في طريقه بالكوفة فأتاه حمزة بن بيض الحنفي الشاعر المشهور في جماعة من أهل الكوفة فقام بيد يديه وأنشده (أتيناك في حاجة فاقضها * وقل مرحبا يجب المرحب) (ولا لا تكلنا إلى معشر * متى يعدوا عدة يكذبوا) (فإنك في الفرع من أسرة * لهم خضع الشرق والمغرب) (وفي أدب فيهم ما نشأت * فنعم لعمرك ما أدبوا) (بلغت لعشر مضت من سنينك * ما بلغ السيد الأشيب) (فهمك فيها جسام الأمور * وهم لداتك أن يلعبوا) (وجدت فقلت ألا سائل * فيسأل أو راغب يرغب) (فمناك العطية للسائلين * وممن ببابك أن يطلبوا) فقال له هات حاجتك فقضاها وقيل أمر له بمائة ألف درهم وقدم على مخلد رجل كان قد زاره قبل ذلك فأجازه وقضى حقه فلما عاد إليه قال له مخلد ألم تكن أتيتنا فأجزناك قال بلى قال فماذا ردك قال قول الكميت فيك (سألناه الجزيل فما تلكا * وأعطى فوق منيتنا وزادا) (فأعطى ثم أعطى ثم عدنا * فأعطى ثم عدت له فعادا) (مرارا ما أعود إليه إلا * تبسم ضاحكا وثنى الوسادا) فأضعف له ما كان أعطاه وقال قبيصة بن عمر المهلب كان يزيد بن المهلب قد فتح جرجان وطبرستان وأخذ صول وهو رئيس من رؤسائهم قلت كان صاحب جرجان

286 وهو جد إبراهيم بن العباس الصولي وأبي بكر محمد بن يحيى الصولي الأديبين الشاعرين المشهورين قال فأصاب يزيد أموالا كثيرة وعروضا كثيرة فكتب إلى سليمان بن عبد الملك إنني قد فتحت طبرستان وجرجان ولم يفتحهما أحد من الأكاسرة ولا أحد ممن كان بعدهم غيري وإنني باعث إليك بقطران عليها الأموال والهدايا يكون أولها عندك وآخرها عندي فلما مات سليمان وأفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعده أخذ عمر بهذه العدة لسليمان فحبسه فقدم ابنه مخلد على عمر قال قبيصة المهلبى وهب مخلد من لدن خروجه من مرو الشاهجان إلى أن ورد دمشق ألف ألف درهم فلما أراد مخلد الدخول على عمر لبس ثيابا مستنكرة وقلنسوة لاطية فقال له عمر لقد شممت فقال له إذا شمرتم شمرنا وإذا أسبلتم أسبلنا ثم قال له ما بالك قد وسع الناس عفوك حبست هذا الشيخ فإن تكن عليه بينة عادلة فاحكم عليه وإلا فيمينه أو فصالحه على ضياعه فقال يزيد أما اليمين فلا تتحدث العرب أن يزيد بن المهلب صبر عليها ولكن ضياعي فيها وفاء لما يطلب ومات مخلد وهو ابن سبع وعشرين سنة فقال عمر لو أراد الله بهذا الشيخ خيرا لأبقى له هذا الفتى ويقال إن مخلد بن يزيد أصابه الطاعون فمات وصلى عليه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ثم قال اليوم مات فتى العرب وأنشد متمثلا (على مثل عمرو تذهب النفس حسرة * وتضحى وجوه القوم مغبرة سودا) ورثاه حمزة بن بيض الحنفي المقدم ذكره بأبيات منها (وعطلت الأسرة منك إلا * سريرك يوم تحجب بالثياب) (وآخر عهدنا بك يوم يحثى * عليك بدابق سهل التراب) وقال الفرزدق يرثيه (وما حملت أيديهم من جنازة * ولا ألبست أثوابها مثل مخلد)

287 (أبوك الذي تستهزم الخيل باسمه * وإن كان فيها قيد شهر مطرد) (وقد علموا إذ شد حقيقه أنه * هو الليث ليث الغاب لا بالمعرد) قلت وهذا يدل على أن مخلد بن يزيد مات في حدود سنة مائة للهجرة لأن عمر بن عبد العزيز ولي الخلافة في صفر سنة تسع وتسعين وتوفي في رجب سنة إحدى ومائة وقد مات عنده وصلى عليه ويدل على أن موت مخلد كان بدابق ما تقدم من مرثية حمزة بن بيض ودابق قرية من أعمال حلب من جانبها الشمالي وإليها ينسب المرج الذي يقال له مرج دابق وبه كانت وفاة سليمان بن عبد الملك وقبره هناك مشهور ونعود إلى ذكر يزيد قال أبو جعفر الطبري في تاريخه الكبير إن المغيرة بن المهلب كان نائبا عن أبيه بمرور وعمله كله ومات في رجب سنة اثنتين وثمانين كما ذكرناه في ترجمة المهلب فأتى الخبر يزيد

وعلم أهل المعسكر ولم يعلموا المهلب وأحب يزيد أن يعلمه من النساء
فصرخ فقال المهلب ما هذا فقيل مات المغيرة فاسترجع وجزع حتى ظهر
جزعه عليه فلامه بعض خاصته فدعا يزيد فوجه إلى مرو وجعل يوصيه بما
يعمل ودموعه تتحدر على لحيته وكتب الحجاج إلى المهلب يعزيه عن المغيرة
وكان سيديا (332) قلت وكان للمغيرة ابن اسمه بشر ذكره أبو تمام الطائي
في كتاب الحماسة في الباب الأول وأورد من شعره قوله في يزيد (جفاني
يزيد والمغيرة قد جفا * وأمسى يزيد لي قد أزور جانبه)

288 (وكلهم قد نال شبعاً لبطنه * وشبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه)
فيا عم مهلاً واتخذني لنوبة * تنوب فإن الدهر جم نوائبه) (أنا السيف إلا أن
للسيف نبوة * ومثلي لا تنبو عليك مضاربه) (على أي باب أبتغي الإذن بعد
ما * حجبت عن الباب الذي أنا حاجبه) رجعنا إلى تنمة كلام الطبري وكان
المهلب يوم مات المغيرة مقيماً بكش وراء النهر لحرب أهلها فسار يزيد في
ستين فارساً فلقبهم خمسمائة من الترك في المفازة وحاصل الأمر أنه جرى
بينهم قتال شديد ورمي يزيد في ساقه ثم إن المهلب صالح أهل كش على فدية
وانصرف عنهم متوجهاً إلى مرو فلما وصل إلى زاغول قرية من أعمال مرو
الروذ أصابته الشوصة فدعا ولده حبيبا ومن حضر من ولده ودعا بسهام
فحزمت وقال أفترونكم كاسريها مجتمعة فقالوا لا قال أفترونكم كاسريها
مفترقة قالوا نعم قال هكذا الجماعة ثم أوصاهم وصية طويلة لا حاجة إلى
ذكرها ثم قال في آخرها وقد استخلفت يزيد وجعلت حبيبا على الجند حتى يقدم
بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيد فقال له ولده المفضل لو لم تقدمه لقدمناه ومات
المهلب حسبما شرحناه في ترجمته وأوصى إلى حبيب فصلى عليه حبيب ثم
سار إلى مرو فكتب يزيد إلى عبد الملك بوفاة المهلب واستخلافه إياه فأقره
الحجاج ثم إنه عزله في سنة خمس وثمانين واستعمل أخاه المفضل وكان
سبب ذلك أن الحجاج وفد على عبد الملك فمر في منصرفه بدير فنزله فقيل له
إن بهذا الدير شيخاً من أهل الكتب عالماً فدعا به وقال يا شيخ هل تجدون في
كتبكم ما أنتم فيه ونحن فقال نعم نجد ما مضى

289 من أمركم وما أنتم فيه وما هو كائن قال أفمسمى أم موصوفا قال
كل ذلك موصوف بغير اسم واسم بغير صفة قال فما تجدون صفة أمير
المؤمنين قال نجده في زماننا الذي نحن فيه أنه ملك أقرع من يقيم لسبيله
يصرع قال ثم من قال رجل يقال له الوليد قال ثم ماذا قال رجل اسمه اسم نبي
يفتح به على الناس قلت وهو سليمان بن عبد الملك قال أفتعلم ما ألي قال نعم

قال فمن يليه بعدي قال رجل يقال له يزيد قال في حياتي أم بعد موتي قال لا أدري قال أفتعرف صفته قال يغدر غدرة لا أعرف غير هذا قال فوقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب وارتحل فسار سبعا وهو وجل من قول الشيخ وقدم فكتب إلى عبد الملك يستعفيه من العراق فكتب إليه قد علمت الذي تغزوه وأنك تريد أن تعلم رأيي فيك ثم إن الحجاج أجمع على عزل يزيد فلم يجد لذلك سببا حتى قدم الخيار بن سبرة وكان من فرسان المهلب وكان مع يزيد فقال له الحجاج أخبرني عن يزيد فقال حسن الطاعة لين السيرة قال كذبت اصدقني عنه فقال الله أجل وأعظم قد أسرج ولم يلجم قال صدقت واستعمل الخيار على عمان بعد ذلك ثم كتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب وخلاصة الأمر أنه كرر القول مع عبد الملك في ذلك إلى أن كتب إليه عبد الملك قد أكثرت في يزيد وآل المهلب فسم لي رجلا يصلح لخراسان فسمى له مجاعة بن سعد السعدي فكتب إليه عبد الملك إن رأيك الذي دعاك إلى استفساد آل المهلب هو الذي دعاك إلى مجاعة بن سعد السعدي فانظر لي رجلا حازما ماضيا لأمرك فسمى قتيبة بن مسلم الباهلي فكتب إليه وله فبلغ يزيد أن الحجاج عزله فقال لأهل بيته من ترون الحجاج يولي خراسان قالوا رجلا من ثقيف قال

290 كلا والله ولكنه يكتب إلى رجل منكم بعهدته فإذا قدمت عليه ولى غيره وأخلق بقتيبة بن مسلم قال فلما أذن عبد الملك للحجاج في عزل يزيد كره أن يكتب بعزله فكتب إليه أن استخلف أخاك المفضل وأقبل فاستشار يزيد حصين بن المنذر فقال له أقم واعتل فإن أمير المؤمنين حسن الرأي فيك وإنما أتيت من الحجاج فإن أقيمت ولم تعجل رجوت أن يكتب إليه أن يقر يزيد فقال إنا أهل بيت بورك لنا في الطاعة وأنا أكره المعصية والخلاف وأخذ في الجهاز فأبطأ ذلك على الحجاج فكتب إلى أخيه المفضل إني قد وليتكم خراسان فجعل المفضل يستحث يزيد فقال له يزيد إن الحجاج لا يقرك بعدي وإنما دعاه إلى ما صنع مخافة أن أمتنع عليه قال بل حسدتنني قال يزيد أنا لا أحسدك ولكن ستعلم وخرج يزيد في شهر ربيع الآخر سنة خمس وثمانين فعزل الحجاج المفضل وولى قتيبة بن مسلم الباهلي وقيل فيروز بن حصين وقال حصين بن منذر ليزيد المذكور (أمرتك أمرا حازما فعصيتني * فأصبحت مسلوب الإمارة نادما) (فما أنا بالباكي عليك صباية * وما أنا بالداعي لترجع سالما) فلما قدم قتيبة خراسان قال لحصين كيف قلت ليزيد قال قلت (أمرتك أمرا حازما فعصيتني * فنفسك ول اللوم إن كنت لائما) (فإن يبلغ الحجاج أن قد عصيته * فإنك تلقى أمره متفاقما) قال فماذا أمرته به فعصاك قال أمرته أن

لا يدع صفراء ولا بيضاء إلا حملها إلى الأمير وفي تولية قتيبة وعزل يزيد قال عبد الله بن همام السلولي (أقتيب قد قلنا غداة أتيتنا * بدل لعمرك من يزيد أعور) (إن المهلب لم يكن كأبيكم * هيهات شأنكم أدق وأحقر)

291 (شتان من بالصنج أدرك والذي * بالسيف شمر والحروب تسعر) (حولان باهلة الألى في ملكهم * مات الندى فيهم وعاش المنكر) قوله بدل أعور هذا مثل يضرب للمذموم يتولى بعد الرجل المحمود يقال بدل أعور وخلف أعور وقوله من بالصنج أدرك يقال إن قتيبة كان يضرب بالصنج في بدء أمره وقوله حولان باهلة جمع أحول وكان قتيبة أحول وهذا الجمع مثل قولهم أسود وسودان وأحمر وحمران وغير ذلك وقد قيل إن هذه الأبيات ليست لعبد الله بن همام وإنما لنهار بن توسعة اليشكري والله أعلم ثم ذكر الطبري في سنة تسعين أن الحجاج خرج إلى الأكراد الذين غلبوا على عامة أرض فارس فخرج بيزيد معه وأخويه المفضل وعبد الملك وجعل عليهم في العسكر كهيئة الخندق وجعلهم في فسطاط قريبا منه وجعل عليهم حرسا من أهل الشام وأغرمهم ستة آلاف ألف وأخذ يعذبهم وكان يزيد يصبر صبورا حسنا وكان الحجاج يغيظه ذلك فقبل له إنه رمي بنشابة فثبت أصلها في ساقه فهو لا يمسه شيء إلا صاح فإن حركت أدنى شيء سمعت صوته فأمر أن يعذب به ويرهق ساقه فلما فعل به ذلك صاح وأخته هند عند الحجاج فلما سمعت صياح يزيد صاحت وناحت فطلقها ثم إنه كف عنهم وأقبل يستأديهم فأخذوا يؤدون وهم يعملون في المخلص من مكانهم فبعثوا إلى مروان بن المهلب وهو بالبصرة يأمرونه أن يضم لهم الخيل ويرى الناس أنه إنما يريد بيعها ويعرضها على البيع ويغلي بها كي لا تشتري فتكون لنا عدة إن نحن قدرنا أن نجو من هاهنا ففعل ذلك مروان بن المهلب وحبيب بالبصرة يعذب أيضا فأمر يزيد بالحرس فصنع لهم طعام كثير فأكلوا وأمر لهم بشراب فسقوا وكانوا متشاغلين به ولبس

292 يزيد ثياب طباخه ووضع على لحيته لحية بيضاء وخرج فرآه بعض الحرس فقال كأن هذه مشية يزيد فجاء حتى استعرض وجهه ليلا فرأى بياض اللحية فانصرف عنه وقال هذا شيخ وخرج المفضل على أثره ولم يفتن له فجأوا إلى سفينة وقد هيئوها في البطائح وبينهم وبين البصرة ثمانية عشر فرسخا فلما انتهوا إلى السفينة أبطأ عليهم عبد الملك وشغل عنهم فقال يزيد للمفضل اركب فإنه لاحق فقال المفضل وكان عبد الملك أخاه لأمه لا والله لا أبرح حتى يجيء عبد الملك ولو رجعت إلى السجن فأقام يزيد حتى

جاءهم عبد الملك وركبوا في السفينة وساروا ليلتهم حتى أصبحوا ولما أصبح الحرس علموا بذهابهم فرفع ذلك إلى الحجاج ففرع لذلك الحجاج وذهب وهمه أنهم ذهبوا قبل خراسان وبعث البريد إلى قتيبة بن مسلم يحذره قدومهم ويأمره أن يستعد لهم وبعث إلى أمراء الثغور والكور أن يرصدوهم ويستعدوا وبعث إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بهم وأنه لا يراهم أرادوا إلا خراسان ولم يزل الحجاج يظن بيزيد ما صنع كان يقول إني لأظنه يحدث نفسه بمثل الذي صنع ابن الأشعث قلت ابن الأشعث هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي وكان قد خرج على عبد الملك بن مروان وقصته مشهورة مذكورة في التواريخ قال الطبري ولما دنا يزيد من البطائح استقبلته الخيل وقد هينت لهم فخرجوا عليهم ومعهم دليل فأخذ بهم على السماوة وأتى الحجاج بعد يومين فقيل له إنما أخذ الرجل طريق الشام وهذه الخيل حسرى في الطريق وقد أتى من رآهم متوجهين في البر فبعث إلى الوليد يعلمه بذلك ومضى يزيد حتى قدم فلسطين فنزل على وهيب بن عبد الرحمن الأزدي وكان كريما على سليمان بن عبد الملك وجاء وهيب حتى دخل على سليمان فقال إن يزيد وإخوته عندي وقد أتوا هرابا من الحجاج متعوذين بك فقال أتني بهم فهم آمنون لا يوصل

293 إليهم أبدا وأنا حي ف جاء بهم حتى دخلوا عليه فكانوا في مكان آمن وكتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك إن آل المهلب خانوا مال الله وهربوا مني ولحقوا بسليمان فلما بلغ الوليد مكانه عند سليمان أخيه هون عليه بعض ما كان في نفسه وطار غضبا للمال الذي ذهبوا به وكتب سليمان إلى أخيه الوليد إن يزيد بن المهلب عندي وقد آمنته وإنما عليه ثلاثة آلاف ألف كان الحجاج أغرمهم ستة آلاف فأدى ثلاثة آلاف ألف وبقيت ثلاثة آلاف ألف فهي علي فكتب إليه لا والله لا أؤمنه حتى تبعث به إلي فكتب إليه لئن أنا بعثت به لأجيين معه فأنشدك الله أن لا تفضحني ولا أن تخفرنني فكتب إليه الوليد والله لئن جننتي به لا أؤمنه فقال يزيد ابعتني إليه فوالله ما أحب أن أوقع بينك وبينه عداوة وحربا ولا أن يتشاءم بي لكما الناس ابعت إليه بي وأرسل معي ابنك وكتب إليه بالطف ما قدرت عليه فأرسل ابنه أيوب معه وكان الوليد أمره أن يبعث به إليه في وثاق فبعثه إليه وقال لابنه إذا أردت أن تدخل عليه فادخل أنت ويزيد في سلسلة على الوليد ففعل ذلك حتى انتهى إلى الوليد فدخلا عليه فلما رأى الوليد ابن أخيه مع يزيد في سلسلة قال والله لقد بلغنا من سليمان ثم إن الغلام دفع كتاب أبيه إلى عمه وقال يا أمير المؤمنين نفسي فداؤك لا تخفر ذمة أبي وأنت أحق من منعها ولا تقطع منا رجاء من رجا السلامة في جوارنا

لمكاننا منك ولا تذلل من رجا العز في الانقطاع إلينا لعزنا بك وقرأ الكتاب لعبد الله الوليد أمير المؤمنين من سليمان بن عبد الملك أما بعد يا أمير المؤمنين فوالله إني لأظن لو استجار بي عدو قد نابذك وجاهدك فأنزلته وأجرته فأنتك لا تذلل جاري ولا تخفر جوارى بل إني لم أجر إلا سامعا مطيعا حسن البلاء والأثر في الإسلام هو وأبوه وأهل بيته وبعد فقد بعثت به إليك فإن كنت إنما تغزو قطيعتي والإخفار لذمتي والإبلاغ في مساءتي فقد قدرت إن أنت فعلت ذلك وأنا أعيدك بالله من اجترار قطيعتي وانتهاك حرمتي وترك يدي وصلتي فوالله يا أمير المؤمنين ما تدري ما بقائي وبقاؤك ولا متى يفرق

294 الموت بيني وبينك فإن استطاع أمير المؤمنين أدام الله سروره أن لا يأتي علينا أجل الوفاة إلا وهو لي واصل ولحقي مؤد وعن مساءتي نازع فليفعل والله يا أمير المؤمنين ما أصبحت لشيء من أمور الدنيا بعد تقوى الله تعالى فيها بأسر مني برضاك وسرورك ولرضاك مما ألتمس به رضوان الله فإن كنت يا أمير المؤمنين تريد يوما من الدهر مسرتي وصلتي وكرامتي وإعظام حقي فتجاوز لي عن يزيد وكل ما طلبته به فهو علي فلما قرأ كتابه قال لقد شققنا على سليمان ثم دعا ابن أخيه فأدناه منه ثم تكلم يزيد فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال يا أمير المؤمنين إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء فمن ينس ذلك فلسنا ناسيه ومن يكفر فلسنا كافر به وقد كان من بلائنا أهل البيت في طاعتكم والطعن في أعين أعدائكم في المواطن العظام في المشارق والمغرب ما إن المنة فيه عظيمة فقال له اجلس فجلس فأمنه وكف عنه ورجع إلى سليمان وسعى إخوته في المال الذي عليه وكتب إلى الحجاج إني لم أصل إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان فاكفف عنهم واله عن الكتاب إلي فيهم فلما رأى ذلك الحجاج كف عنهم وكان أبو عيينة عند الحجاج عليه ألف ألف درهم فتركها له وكف عن حبيب بن المهلب وأقام يزيد عند سليمان تسعة أشهر في أرغد عيش وأنعم بال لا تأتي سليمان هدية إلا أرسل نصفها إليه وقال بعض جلساء يزيد له لم لا تتخذ لك دارا فقال وما أصنع بها ولي دار حاصلة مجهزة على الدوام فقال له وأين هي قال إن كنت متوليا فدار الإمارة وإن كنت معزولا فالسجن ومن كلام يزيد ما يسرني أن أكفى أمور دنياي كلها ولي الدنيا بحذاقيرها فقيل له ولم ذاك فقال لأنني أكره عادة العجز ثم إن الحجاج مات في شوال سنة خمس وتسعين للهجرة وقيل كانت وفاته لخمس ليال بقين من شهر رمضان من السنة وعمره ثلاث وخمسون سنة

295 وقيل أربع وخمسون ولما حضرته الوفاة استخلف يزيد بن أبي كبشة على الحرب والصلاة بالمصريين البصرة والكوفة وولى خراجهما يزيد بن أبي مسلم فأقرهما الوليد وكذلك فعل بكل من استخلف الحجاج وقيل بل الوليد هو الذي ولاهما وكانت ولاية الحجاج بالعراقين عشرين سنة ثم توفي الوليد بن عبد الملك يوم السبت النصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين للهجرة بدير مران قلت وهو بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق ودفن في مقابر باب الصغير ظاهر دمشق وبويع سليمان بن عبد الملك في اليوم الذي مات فيه أخوه الوليد وفي هذه السنة أعني سنة ست وتسعين عزل سليمان بن عبد الملك يزيد ابن أبي مسلم عن العراق وأمر عليه يزيد بن المهلب وقال خليفة بن خياط جمع ليزيد المصران يعني الكوفة والبصرة سنة سبع وتسعين والله أعلم وجعل صالح بن عبد الرحمن على الخراج وأمره أن يعذب آل أبي عقيل قلت هم رهط الحجاج قال ويبسط عليهم العذاب فأخذ صالح آل أبي عقيل فكان يعذبهم وكان يلي عذابهم عبد الملك بن المهلب وكان الوليد قد عزم على خلع أخيه سليمان عن ولاية العهد ويجعل ولي عهده ولده عبد العزيز بن الوليد وتابعه على ذلك الحجاج وقتيبة بن المسلم الباهلي والي خراسان الذي تولى بعد يزيد بن المهلب كما سبق ذكره قبل هذا فلما ولي سليمان الخلافة خافه قتيبة بن مسلم وتوهم أن يعزله ويولي خراسان يزيد ابن المهلب فكتب إلى سليمان كتابا يهنئه بالخلافة ويعزيه عن الوليد ويعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه على مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان وكتب إليه كتابا آخر يعلمه فيه فتوجه ومكانه وعظم قدره عند ملوك العجم وهيئته في صدورهم ويذم المهلب وآل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه وكتب كتابا ثالثا فيه

296 خلعه وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من باهلة وقال له ادفع إليه هذا الكتاب فإن كان يزيد بن المهلب حاضرا فقرأه ثم ألقاه إليه فادفع إليه هذا الكتاب وإن قرأ الأول فاحتبسه ولم يدفعه إلى يزيد فاحتبس الكتابين الآخرين قال فقدم رسول قتيبة بن مسلم على سليمان وعنده يزيد بن المهلب فدفع إليه الكتاب فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد فدفع إليه الكتاب الآخر فقرأه ثم رماه إلى يزيد فأعطاه الكتاب الثالث فقرأه فتمعر لونه ثم دعا بطين فختمه ثم أمسكه بيده وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى كان في الكتاب الأول وقية في يزيد بن المهلب وذكر غدره وكفره وقلة شكره وفي الكتاب الثاني ثناء على يزيد وفي الكتاب الثالث لئن لم تقرني على ما كنت عليه وتؤمنني لأخلعك خلع النعل

ولأملأنها عليك خيلا ورجلا ثم إن سليمان أمر برسول قتيبة أن ينزل بدار الضيافة فلما أمسى دعا به سليمان وأعطاه صرة فيها دنانير وقال هذه جائزتك وهذا عهد صاحبك على خراسان فسر وهذا رسول معك بعهد فخرج الباهلي ومعه رسول سليمان فلما كان بخلوان تلقاهم الناس بخلع قتيبة فرجع رسول سليمان ودفع العهد إلى رسول قتيبة فوصل به إليه فاستشار إخوته فقالوا لا يثق بك سليمان بعد هذا ثم إن قتيبة قتل كما ذكرته في ترجمته في حرف القاف مع الاختصار لأن الشرح في ذلك يطول ثم إن يزيد بن المهلب نظر في نفسه لما تولى العراق فقال إن العراق قد أخرجها الحجاج وأنا اليوم رحا أهل العراق ومتى قدمتها وأخذت الناس

297 بالخراج وعذبتهم عليه صرت مثل الحجاج أدخل على الناس الحرب وأعيد عليهم تلك الشجون التي قد عافاهم الله منها ومتى لم أت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل مني فأتى يزيد سليمان فقال أدلك على رجل بصير بالخراج توليه إياه وهو صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم فقال قد قبلنا رأيك فأقبل يزيد إلى العراق وكان صالح قدم العراق قبل قدوم يزيد ونزل واسطا ولما قدم يزيد خرج الناس يتلقونه فلم يخرج صالح حتى قرب يزيد من المدينة ثم خرج إليه وبين يديه أربعمائة من أهل الشام فلقى يزيد وسائره فلما دخل المدينة قال له صالح قد فرغت لك هذه الدار فنزل يزيد ومضى صالح حتى أتى منزله وضيق صالح على يزيد فلم يملكه شيئا واتخذ يزيد ألف خوان يطعم الناس عليها فأخذها صالح فقال له يزيد اكتب ثمنها علي واشترى متاعا كثيرا وصك صكاكا إلى صالح لباعتها منه فلم ينفذه فرجعوا إلى يزيد فغضب وقال هذا عملي بنفسي فلم يلبث أن جاء صالح فأوسع له يزيد فجلس وقال ليزيد ما هذه الصكاك إن الخراج لا يقوم لها ولقد أنفذت لك منذ أيام صكاكا بمائة ألف وعجلت لك أرزاقك وسألت مالا فأعطيتك فهذا لا يقوم له شيء ولا يرضي أمير المؤمنين وتؤخذ به فقال له يزيد يا أبا الوليد أجز هذه الصكاك هذه المرة وضاحكه فقال إني أجزه فلا تكثرن علي قال لا ولما ولي سليمان يزيد العراق لم يوله خراسان فقال سليمان لعبد الملك ابن المهلب كيف أنت يا عبد الملك إن وليتك خراسان قال يجدي أمير المؤمنين حيث يحب ثم عرض سليمان عن ذلك وكتب عبد الملك إلى رجال من خاصته بخراسان إن أمير المؤمنين عرض علي ولاية خراسان فبلغ الخبر إلى أخيه يزيد وقد ضجر بالعراق وقد ضيق عليه صالح بن عبد الرحمن فليس يصل معه إلى شيء فدعا

يزيد عبد الله بن الأهمتم فقال إني أريدك لأمر قد أهمني وقد أحببت أن تكفينيه
قال مرني بما أحببت قال أنا فيما

298 ترى من الضيق وقد أضجرتني ذلك وخراسان شاغرة وقد بلغني أن
أمير المؤمنين ذكرها لعبد الملك بن المهلب فهل من حيلة قال نعم سرحني إلى
أمير المؤمنين فإني أرجو أن أتيك بعهدة عليها قال فاكنتم ما أخبرتك به وكتب
إلى سليمان كتابين أحدهما يذكر له فيه أمر العراق وأثنى فيه على ابن الأهمتم
وذكر له علمه بها ووجه ابن الأهمتم وحمله على البريد وأعطاه ثلاثين ألفا
وسار سبعا فقدم بكتاب يزيد على سليمان فدخل عليه وهو يتغدى فجلس ناحية
فأتي بدجاجتين فأكلهما ثم قال له سليمان لك مجلس بعد هذا تعود إليه ثم دعا به
بعد ثلاثة فقال له سليمان إن يزيد بن المهلب كتب إلي يذكر علمك بالعراق
وبخراسان ويثني عليه فكيف علمك بها قال أنا أعلم الناس بها بها ولدت وبها
نشأت قال ما أحوج أمير المؤمنين إلى مثلك يشاوره في أمرها فأشر علي
برجل أوليه خراسان قال أمير المؤمنين أعلم بمن يريد يولي فإن ذكر منهم
أحدا أخبرته برأيي فيه هل يصلح أم لا فسمى سليمان رجلا من قریش فقال
ليس من رجال خراسان فسمى عبد الملك ابن المهلب فقال لا حتى عدد رجالا
فكان في آخر من ذكر وكيع ابن أبي سود فقال يا أمير المؤمنين وكيع رجل
شجاع صارم مقدام وليس بصاحبها ومع هذا إنه لم يقد ثلثمائة قط فرأى لأحد
عليه طاعة قال صدقت ويحك فمن لها قال رجل أعلمه لم تسمه قال فمن هو
قال لا أبوح باسمه إلا أن يضمن لي أمير المؤمنين ستر ذلك وأن يجيرني منه
إن علم قال نعم سمه لي قال يزيد بن المهلب قال ذلك بالعراق والمقام بها أحب
إليه من المقام بخراسان قال قد علمت يا أمير المؤمنين ولكن تكرهه فيستخلف
على العراق رجلا ويسير قال أصبت الرأي فكتب عهد يزيد ابن المهلب على
خراسان وكتب إليه إن ابن الأهمتم كما ذكرت من عقله ودينه وفضله ورأيه
ودفع الكتاب وعهد يزيد إليه فسار سبعا فقدم على يزيد فقال له ما وراءك
فأعطاه الكتاب فقال ويحك أعندك خبر فأعطاه العهد فأمر يزيد بالجهاز للمسير
من ساعته ودعا ابنه مخلدا فقدمه إلى خراسان فسار من يومه ثم سار يزيد
إلى خراسان فأقام بها ثلاثة أشهر أو أربعة ثم غزا جرجان

299 وطبرستان ودهستان وفتحها وذلك في سنة ثمان وتسعين وقتل من
أصحاب يزيد على حصار بعض قلاع جرجان خمسة آلاف رجل فحلف يزيد
يميناً مغلظة أنه ليقتلنهم حتى تطحن الرحي بدمائهم فأكثر من قتلهم وكانت
الدماء لا تجري حتى صب عليها الماء فجرت فطحنت وأكل مما طحنت

بدمائهم ثم مات سليمان بن عبد الملك يوم الجمعة لعشر ليال بقين من صفر سنة تسع وتسعين للهجرة وقيل لعشر ليال مضين من صفر والله أعلم بالصواب بدابق قرية من شمالي حلب وعهد إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فعزل عمر في هذه السنة يزيد بن المهلب عن العراق وجعل مكانه عدي بن أرطاة الفزاري فأخذ يزيد وأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز وقد كان عمر يبغض يزيد وأهل بيته ويقول هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم وكان يزيد يبغض عمر ويقول إني لأظنه مرثيا ولما وصل يزيد سأله عمر عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان فقال كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني بشيء مما سمعت ولا بأمر أكرهه فقال عمر ما أجد في أمرك إلا حبسك فاتق الله وأد ما قبلك فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها فرده إلى محبسه وذكر البلاذري في كتاب فتوح البلدان في الفصل المتضمن حديث جرجان وطبرستان أن يزيد بن المهلب لما فرغ من أمر جرجان سار إلى خراسان فتلقته الهدايا ثم ولى ابنه مخلدا خراسان وانصرف إلى سليمان فكتب إليه إن معه خمسة وعشرين ألف درهم فوقع الكتاب في يد عمر بن عبد العزيز فأخذ يزيد به وحبسه والله أعلم وبعث عمر إلى الجراح بن عبد الله الحكمي فسرجه إلى خراسان ثم قدم

300 مخلد بن يزيد على عمر وجرى بينهما ما سبق ذكره فلما خرج مخلد بن يزيد قال عمر هذا عندي خير من أبيه فلم يلبث مخلد إلا قليلا حتى مات ولما أبي يزيد أن يؤدي المال إلى عمر ألبسه جبة صوف وحمله على جمل ثم قال سيروا به إلى دهلك قلت وهي جزيرة في بحر عيذاب بالقرب من سواكن كان الخلفاء يحبسون بها من نقموا عليه قال فلما أخرج يزيد مروا به على الناس فجعل يزيد يقول مالي عشيرة يذهب بي إلى دهلك إنما يذهب إلى دهلك بالفاسق المريب سبحان الله أما لي عشيرة فدخل على عمر سلامة ابن نعيم الخولاني وقال يا أمير المؤمنين اردد يزيد إلى محبسه فإنني أخاف إن أمضيته أن ينتزعه قومه فإنني رأيت قومه قد غضبوا له فرده إلى محبسه ولم يزل في محبسه حتى بلغه مرض عمر وقيل إن عدي بن أرطاة سلمه إلى وكيع بن حسان بن أبي سود التميمي مغولا مقيدا في سفينة ليوصله إلى عين التمر حتى يحمل إلى عمر فعرض لو كيع ناس من الأزدي لينتزعوه منه فوثب وكيع وانتضى سيفه وقطع قلس السفينة وأخذ سيف يزيد بن المهلب وحلف بطلاق امرأته ليضربن عنقه إن لم يتفرقوا عنه فناداهم يزيد وأعلمهم بيمين

وكيع فتفرقوا ومضى به حتى سلمه إلى الجند الذين بعين التمر وحمله الجند إلى عمر فحبسه ولما كان يزيد في حبس عمر دخل عليه الفرزدق فرآه مقيدا فأنشده (أصبح في قيدك السماحة والجود * وحمل الديات والحسب) (لا بطر إن ترادفت نعم * وصابر في البلاء محتسب) فقال له يزيد ويحك ماذا صنعت أسأت إلي قال ولم ذاك قال تمدحني وأنا على هذه الحالة فقال له الفرزدق رأيتك رخيصة فأحببت أن أسلف فيك بضاعتي فرمى يزيد إليه بخاتمه وقال شراؤه ألف دينار وهو ربحك إلى أن يأتيتك رأس المال واستمر في حبسه إلى أن مرض عمر في سنة إحدى ومائة فخاف

301 يزيد بن المهلب من يزيد بن عبد الملك بن مروان أن يلي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز وكان يزيد بن المهلب لما ولي العراق قد عذب آل أبي عقيل وهم رهط الحجاج كما سبق ذكره وكانت أم الحجاج بنت محمد بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل عند يزيد بن عبد الملك وهي أم الوليد بن يزيد فاسق بني أمية وهي بنت أخي الحجاج وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهدها لئن أمكنه الله من يزيد بن المهلب ليقطعن منه طباقا فكان يخشى ذلك فأخذ يعمل في المهرب فبعث إلى مواليه فأعدوا له إبلا وكان مرض عمر في دير سمعان فلما اشتد مرض عمر نزل يزيد من محبسه وخرج حتى أتى المكان الذي فيه إبله وقد واعدهم إليه فاحتمل وخرج فلما جاز كتب إلى عمر إنني والله لو علمت أنك تبقى ما خرجت من محبسي ولكني لم آمن يزيد بن عبد الملك فقال عمر اللهم إن كان يريد بهذه الأمة شرا فاكفهم شره واردد كيده في نحره ومضى يزيد بن المهلب وزعم الواقدي أن يزيد بن المهلب إنما هرب من سجن عمر بعد موت عمر قلت وجدت في مسودة تاريخ القاضي كمال الدين ابن العديم الحلبي أن عمر حبس يزيد بن المهلب وابنه معاوية بطلب وهربا منها والله أعلم (333) ثم توفي عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة وقيل الأربعاء لخمس ليال بقين من رجب سنة إحدى ومائة رحمه الله تعالى بدير سمعان وقيل إنه مات لعشر بقين من رجب من السنة وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر وقيل إنه مات بخنصرة وأمّه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان يقال له أشج بني أمية وذلك أن دابة من

302 دواب أبيه كانت شجته قال نافع مولى ابن عمر كنت أسمع ابن عمر كثيرا يقول ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلا قال سالم الأقطس إن عمر بن عبد العزيز رمحته دابة وهو غلام بدمشق فأتى أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

فضمته إليها وجعلت تمسح الدم عن وجهه ودخل أبوه عليها على تلك الحال فأقبلت عليه تعذله وتلومه وتقول ضيعت ابني ولم تضم إليه خادما ولا حاضنا يحفظه من مثل هذا فقال لها اسكتي يا أم عاصم فطوبى لك إن كان أشج بني أمية وقال حماد بن زيد إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بعجوز تبيع لبنا معها في سوق اللبن فقال لها يا عجوز لا تغشي المسلمين وزوار بيت الله تعالى ولا تشوبي اللبن بالماء فقالت نعم يا أمير المؤمنين ثم مر بها بعد ذلك فقال لها يا عجوز ألم أتقدم إليك أن لا تشوبي اللبن بالماء فقالت والله ما فعلت فقالت ابنة لها من داخل الخباء أغشا وكذبا جمعت على نفسك فسمعها عمر رضي الله عنه فهم بمعاقبة العجوز فتركها لكلام ابنتها ثم التفت إلى بنيه فقال أيكم يتزوج هذه فلعن الله عز و جل يخرج منها نسمة طيبة مثلها فقال عاصم بن عمر أنا أتزوجها فزوجها إياه فولدت له أم عاصم فتزوج أم عاصم عبد العزيز بن مروان فولدت له عمر بن عبد العزيز ثم تزوج بعدها حفصة وفيها قيل ليست حفصة من نساء أم عاصم وذكر الشيخ شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزغلي بن عبد الله سبط الشيخ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي في كتاب جوهرة الزمان في تذكرة السلطان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال بينما أبي يعس بالمدينة إذ سمع امرأة وهي تقول لابنتها يا بنية قومي فشوبي اللبن بالماء فقالت يا أماه أما سمعت منادي أمير المؤمنين أنه نادى أن لا يشاب اللبن بالماء فقالت وأين أنت من مناديه الساعة فقالت إذا لم يرني مناديه ألم يرني رب مناديه وفي رواية أخرى قالت والله ما كنت لأطيعه في الملا وأعصيه في الخلا قال فبكى عمر رضي الله عنه فلما أصبح دعا بالمرأة وبابنتها وسأل هل لها زوج فقالت ليس لها زوج فقال يا عبد الله تزوج هذه فلو كانت

303 بي حاجة إلى النساء لتزوجتها فقلت أنا في غنى عنها فقال يا عاصم تزوجها فتزوجها فجاءت بابنة فحملت بعمر بن عبد العزيز ولما مات عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه ولي مكانه يزيد بن عبد الملك بن مروان ثم إن يزيد بن المهلب لحق بالبصرة فغلب عليها وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك وهو عدي بن أرطاة الفزاري فحبسه وخلع يزيد بن عبد الملك ورام الخلافة لنفسه فجاءته إحدى حظاياه وقبلت الأرض بين يديه وقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين فأنشدها (رويدك حتى تنظري عم تنجلي * عماية هذا العارض المتألق) قلت وهذا البيت من جملة أبيات لبشر بن قتيبة الأسدي قلت ولا حاجة إلى تفصيل الحال فيه فإن شرحه يطول وهذه خلاصته ثم إن

يزيد بن عبد الملك جهز لقتاله أخاه مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس ابن الوليد بن عبد الملك ومعهما الجيش وخرج يزيد بن المهلب للقائهم واستخلف على البصرة ولده معاوية بن يزيد وعنده الرجال والأموال والأسرى وقدم بين يديه أخاه عبد الملك بن المهلب وسار حتى نزل العقر قلت هي عقر بابل وهي عند الكوفة بالقرب من كربلاء الموضع الذي قتل فيه الحسين رضي الله عنه والعقر بفتح العين المهملة وسكون القاف وبعدها راء وهو في الأصل اسم القصر والمواضع المسماة بالعقر أربعة أحدها هذا ولا حاجة إلى ذكر الباقي وقد ذكرها ياقوت الحموي في كتابه الذي سماه المشترك وضعا قال الطبري ثم أقبل مسلمة بن عبد الملك حتى نزل على يزيد بن المهلب فاصطفوا ثم اقتتل القوم فشد أهل البصرة على أهل الشام فكشفوهم ثم إن أهل الشام كروا عليهم فكشفوهم وكان على مقدمة جيش يزيد أخوه

304 عبد الملك فلما انكشف جاء إلى أخيه يزيد وكان الناس يبايعون يزيد بن المهلب وكانت مبايعته على كتاب الله وسنة نبيه وأن لا تطأ الجنود بلادهم ولا يبيضتهم ولا تعاد عليهم سيرة الفاسق الحجاج وكان مروان بن المهلب بالبصرة يحرض الناس على حرب أهل الشام ويسرح الناس إلى أخيه يزيد وكان الحسن البصري رضي الله عنه يثبط الناس عن يزيد بن المهلب فقال يوما في مجلسه يا عجا لفاسق من الفاسقين ومارق من المارقين غبر برهة من دهره يهتك لله في هؤلاء القوم كل حرمة ويركب له فيهم كل معصية ويأكل ما أكلوا ويقتل من قتلوا حتى إذا منعه لمامة كان يتلمظها قال أنا لله غضبان فاغضبوا ونصب قسبا عليها خرق وتبعه رجراجة راع هباء ما لهم أفئدة وقال أدعوكم إلى سنة عمر بن عبد العزيز ألا وإن من سنة عمر أن توضع رجلاه في قيد ثم يوضع حيث وضعه عمر فقال له رجل أتعذر أهل الشام يا أبا سعيد يعني بني أمية فقال أنا أعذرهم لا أعذرهم الله والله لقد حدث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله قال اللهم إني حرمت المدينة بما حرمت به بلدك مكة فدخلها أهل الشام ثلاثا لا يغلق لها باب إلا أحرق بما فيه حتى إن الأقباط والأنباط ليدخلون على نساء قريش فينتزعون خمرهن من رؤوسهن وخالخلهن من أرجلهن سيوفهم على عواتقهم وكتاب الله تعالى تحت أرجلهم أنا أقتل نفسي لفاسقين تنازعا هذا الأمر والله لو ددت أن الأرض أخذتها خسفا جميعا فبلغ ذلك يزيد بن المهلب فأتى الحسن هو وبعض بني عمه إلى حلقتة في المسجد متتكرين فسلما عليه ثم خلوا به فاشرأب الناس ينظرون إليهم فلاحاه يزيد فدخل في ملاحاتهما ابن عم يزيد فقال له الحسن وما

أنت وذاك يا ابن اللخناء فاخترط سيفه ليضربه به فقال يزيد ما تصنع قال أقتله فقال له يزيد اغمد سيفك فوالله لو فعلت لانقلب من معنا علينا قلت ويزيد بن المهلب المذكور هو الذي عناه ابن دريد في مقصورته

305 المعروفة بالدريدية بقوله (وقد سما قبلي يزيد طالبا * سأو العلا فما وهى ولا ونى) وكل من شرح الدريدية تكلم على هذا البيت وشرح قصته وكانت إقامة يزيد بن المهلب منذ اجتمع هو ومسلمة بن عبد الملك ثمانية أيام حتى إذا كان يوم الجمعة لأربع عشرة مضت من صفر سنة اثنتين ومائة أمر مسلمة أن تحرق السفن فأحرقت والتقى الجمعان وشبت الحرب فلما رأى الناس الدخان وقيل لهم أحرق الجسر انهزموا فقبل ليزيد قد انهزم الناس فقال مم انهزموا فقبل له أحرق الجسر فلم يلبث أحد فقال قبهم الله بق دخن عليه فطار وكان يزيد لا يحدث نفسه بالفرار وجاءه من أخبره أن أخاه حبيبا قد قتل فقال لا خير في العيش بعد حبيب قد كنت والله أبغض الحياة بعد الهزيمة فوالله ما ازددت لها إلا بغضا امضوا قدما قال أصحابه فعلمنا أن الرجل قد استقتل وأخذ من يكره القتال ينكص وأخذوا يتسالون وبقيت معه جماعة حسنة وهو يزدلف فكلما مر بخيل كشفها أو جماعة من أهل الشام عدلوا عنه وعن سنن أصحابه فجاء أبو روبة المرجيء وقال ذهب الناس فهل لك أن تنصرف إلى واسط فإنها حصن تنزلها ويأتيك مدد أهل البصرة ويأتيك أهل عمان والبحرين في السفن وتضرب خندقا فقال له قبح الله رأيك ألي تقول ذا الموت أيسر علي من ذلك فقال له فإني أتخوف عليك أما ترى ما حولك من جبال الحديد فقال له فأنا أباؤها أجبال حديد كانت أو جبال نار اذهب عنا إن كنت لا تريد قتالا معنا وأقبل على مسلمة لا يريد غيره حتى إذا دنا منه دعا مسلمة بفرسه ليركبه فعطفت عليه خيول أهل الشام وعلى أصحابه فقتل يزيد بن المهلب وقتل معه أخوه محمد وجماعة من أصحابه وقال القحل بفتح القاف وسكون الحاء

306 المهملة وآخره لام ابن عياش الكلبي لما نظر إلى يزيد يا أهل الشام هذا والله يزيد لأقتلنه أو ليقتلني إن دونه ناسا فمن يحمل معي يكفيني أصحابه حتى أصل إليه فقال له ناس من أصحابه نحن نحمل معك فحملوا بأجمعهم فاضطربوا ساعة وسطع الغبار وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلا وعن القحل بن عياش بأخر رمق فأوماً إلى أصحابه يريهم مكان يزيد وجاء برأس يزيد مولى لبني مرة فقبل له أنت قتلته فقال لا وفي أثناء الواقعة نظر الحوارى بن زياد إلى بردون عائر فقال الله أكبر هذا بردون الفاسق ابن المهلب قد قتله الله إن

شاء الله فطلبوه فأتي مسلمة برأسه فلم يعرف الرأس فقال حسان النبطي مهما ظننتم فلا تظنوا أن الرجل هرب ولقد قتل فقال مسلمة وما علامة ذلك فقال إني سمعته أيام ابن الأشعث يقول قبح الله ابن الأشعث هبوه غلب على أمره أكان يغلب على الموت ألا مات كريما (334) قلت ذكر الأمير أبو نصر ابن ماكولا في باب الفحل والقحل والعجل ما مثاله وأما القحل فمثل الفحل إلا أن أوله قاف فهو القحل بن عياش بن حسان بن عثمير بن شراحيل بن عزيز قتل يزيد بن المهلب وقتله يزيد ضرب كل واحد منهما صاحبه فقتله فلما أتى به إلى مسلمة لم يعرف ولم ينكر فقبل له مر برأسه فليغسل ثم ليعمم ففعل به ذلك فعرفه فبعث به إلى أخيه يزيد بن عبد الملك مع خالد بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط وقال خليفة بن خياط ولد يزيد بن المهلب سنة ثلاث وخمسين وتوفي مقتولا يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر سنة اثنتين ومائة والله أعلم بالصواب ولما جاءت هزيمة يزيد واسط أخرج معاوية بن يزيد بن المهلب اثنين وثلاثين أسيرا كانوا في يديه فضربوا أعناقهم منهم عدي بن أرطاة ثم خرج

307 وقد قال له القوم ويحك إنا لا نراك تقتلنا إلا أن أباك قد قتل ثم أقبل حتى أتى البصرة معه المال والخزائن وجاء المفضل بن المهلب واجتمع جميع أهل المهلب بالبصرة وقد كانوا يتخوفون الذي كان فأعدوا السفن البحرية وتجهزوا بكل الجهاز وأراد معاوية بن يزيد أن يتأمر على آل المهلب فاجتمعوا وأمروا عليهم المفضل بن المهلب وقالوا المفضل أكبرنا سنا وإنما أنت غلام حدث السن كبعض فتیان أهلك فلم يزل المفضل عليهم حتى خرجوا إلى كرمان وبكرمان فلول كثيرة فاجتمعوا إلى المفضل وبعث مسلمة بن عبد الملك في طلب آل المهلب وطلب الفلول فأدركوهم في عقبة بفارس فاشتد قتالهم فقتل المفضل وجماعة من خواصه ثم قتل آل المهلب من عند آخرهم إلا أبا عيينة وعثمان بن المفضل فإنهما نجوا ولحقا بخاقان ورتبيل وبعث مسلمة برؤوسهم إلى أخيه يزيد وهو على حلب فلما نصبوا خرج لينظر إليهم فقال لأصحابه هذا رأس عبد الملك هذا رأس المفضل والله لكأنه جالس معي يحدثني وقال غير الطبري لما حمل رأس يزيد بن المهلب إلى يزيد بن عبد الملك نال منه بعض جلسائه فقال له مه إن يزيد طلب جسيما وركب عظيما ومات كريما ولما فرغ مسلمة من حرب آل المهلب جمع له أخوه يزيد ولاية الكوفة والبصرة وخراسان في هذه السنة ولما قتل يزيد بن المهلب رثاه شاعره ثابت قطنة بمرات كثيرة حسنة منها قوله (كل القبائل بايعوك على

الذي * تدعو إليه وتابعوك وساروا) (حتى إذا اشتجر القنا وتركتهم * رهن
الأسنة أسلموك وطاروا)

308 (إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن * عارا عليك ورب قتل عار) ()
335) قلت وهذا ثابت قطنة من شعراء خراسان وفرسانهم وذهبت عينه فكان
يحشوها قطنة فسمي ثابت قطنة وقد كان يزيد بن المهلب استعمله على بعض
كور خراسان فلما علا المنبر أرتج عليه فلم ينطق حتى نزل فدخل عليه الناس
فقال (فإن لا أقم فيكم خطيبا فإنني * بسيفي إذا جد الوغى لخطيب) فقالوا لو
كنت قلت هذا على المنبر لكنت أخطب الناس ذكره ابن قتيبة في كتاب طبقات
الشعراء وقال ابن الكلبي في جمهرة النسب هو ثابت بن كعب بن جابر بن
كعب بن كزمان بن طرفة بن وهب بن مازن بن يم بن الأسد بن الحارث بن
العتيك بن الأسد بن عمران بن عمرو مزيباء بن عامر ماء السماء وفيه يقول
صاحب الفيل الحنفي وكانا يتهاجيان (أبا العلاء لقد لاقيت معضلة * يوم
العروبة من كرب وتخنيق) (تلوي اللسان إذا رمت الكلام به * كما هوى
زلق من شاهق النيق) (لما رمتك عيون الناس ضاحية * أنشأت تجرض لما
قمت بالرقيق) وقال غير الطبري إن الذي قتل يزيد بن المهلب هو الهذيل بن
زفر بن الحارث الكلبي وقال الكلبي نشأت والناس يقولون ضحى بنو أمية
بالدين يوم كربلاء وبالكرم يوم العقر وقال محمد بن واسع لما جاء نعي يزيد
أشتهي باكية عمانية تندب لي قتلى آل المهلب وقال عباد بن عباد مكثنا نيفا
وعشرين سنة بعد قتلى آل المهلب لا تولد فينا جارية ولا يموت منا غلام وقال
خليفة بن خياط سنة اثنتين ومائة فيها قتل يزيد بن المهلب يوم

309 الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر وهو ابن تسع وأربعين
سنة رحمه الله تعالى فلقد كان من النجباء الكرماء العظماء الفرسان وروي
أن مسلمة بن عبد الملك دخل على أخيه يزيد بن عبد الملك حين خلعه يزيد بن
المهلب فرآه في ثوب مصبوغ فقال له أتلبس مثل هذا وأنت ممن قيل فيه (قوم
إذا حاربوا شدوا مآزرهم * دون النساء ولو باتت بأطهار) فقال مسلمة ذاك
ونحن نحارب أكفاءنا من قريش فأما إن نعق ناعق فلا ولا كرامة قلت وهذا
البيت للأخطل التغلبي النصراني الشاعر المشهور 817 يزيد بن أبي مسلم
الثقفي مولاهم أبو العلاء يزيد بن أبي مسلم دينار الثقفي مولاهم كان مولى
الحجاج ابن يوسف الثقفي وكتبه وكان فيه كفاية ونهضة قدمه الحجاج بسببهما
وقد تقدم في ترجمة يزيد بن المهلب أن الحجاج لما حضرته الوفاة استخلفه
على الخراج بالعراق فلما مات الحجاج أقره الوليد بن عبد الملك على حاله ولم

يغير عليه شيئاً وقيل إن الوليد هو الذي ولاه بعد موت الحجاج وقال الوليد يوماً مثلي ومثل الحجاج وابن أبي مسلم كرجل ضاع منه درهم فوجد ديناراً ولما مات الوليد وتولى أخوه سليمان عزل يزيد بن أبي مسلم وبعث مكانه

310 يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي المذكور قبله وأحضر إليه يزيد بن أبي مسلم في جامعة وكان رجلاً قصيراً دميماً قبيح الوجه عظيم البطن تحتقره العين فلما نظر إليه سليمان قال أنت يزيد بن أبي مسلم قال نعم أصلح الله أمير المؤمنين قال لعن الله من أشركك في أمانته وحكمك في دينه قال لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنك رأيتني والأمور مدبرة عني ولو رأيتني والأمور مقبلة علي لاستعظمت ما استصغرت ولا استجللت ما احتقرت فقال سليمان قاتله الله فما أسد عقله وأعضب لسانه ثم قال سليمان يا يزيد أتري صاحبك الحجاج يهوي بعد في نار جهنم أم قد استقر في قعرها فقال يزيد لا تقل ذلك يا أمير المؤمنين فإن الحجاج عادي عدوكم ووالى وليكم وبذل مهجته لكم فهو يوم القيامة عن يمين عبد الملك وعن يسار الوليد فاجعله حيث أحببت وفي رواية أخرى إنه يحشر غداً بين أبيك وأخيك فضعهما حيث شئت قال سليمان قاتله الله فما أوفاه لصاحبه إذا اصطنعت الرجال فلتصنع مثل هذا فقال رجل من جلساء سليمان يا أمير المؤمنين اقتل يزيد ولا تستبقه فقال يزيد من هذا فقالوا فلان بن فلان قال يزيد والله لقد بلغني أن أمه ما كان شعرها يوازي أذنيها فما تمالك سليمان أن ضحك وأمر بتخليته ثم كشف عنه سليمان فلم يجد عليه خيانة ديناراً ولا درهما فهم باستكتابه فقال له عمر بن عبد العزيز أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تحيي ذكر الحجاج باستكتابك كاتبه فقال يا أبا حفص إني كشفت عنه فلم أجد عليه خيانة فقال عمر أنا أوجدك من هو أعف عن الدينار والدرهم منه فقال سليمان من هذا فقال إبليس ما مس ديناراً ولا درهما بيده وقد أهلك هذا الخلق فتركه سليمان وحدث جويرية بن أسماء أن عمر بن عبد العزيز بلغه أن يزيد بن أبي مسلم في جيش من جيوش المسلمين فكتب إلى عامل الجيش أن يرده وقال إني

311 لأكره أن أستنصر بجيش هو فيهم ونقل الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في تاريخ دمشق في ترجمة يزيد المذكور عن يعقوب أنه قال في سنة إحدى ومائة أمر يزيد بن أبي مسلم على إفريقية ونزع إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم فسار أحسن سيرة وفي سنة اثنتين ومائة قتل يزيد وقال الطبري في تاريخه الكبير وكان سبب ذلك أنه كان فيما ذكر عزم أن يسير فيهم بسيرة الحجاج بن يوسف في أهل

الإسلام الذين سكنوا الأمصار ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة فأسلم بالعراق ممن ردهم إلى قرارهم ورساتيقهم ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم فلما عزم على ذلك توامروا فأجمع رأيهم على قتله فقتلوه وولوا على أنفسهم الوالي الذي كان قبل يزيد بن أبي مسلم وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك إنا لم نخلع أيدينا عن الطاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى به الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا عاملك فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك إنني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم وأقر محمد بن يزيد على إفريقية وكان ذلك في سنة اثنتين ومائة قال الوضاح بن خيثمة أمرني عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى بإخراج قوم من السجن وفيهم يزيد بن أبي مسلم فأخرجتهم وتركته فحقد علي وإني بإفريقية إذ قيل قدم يزيد واليا فهربت منه وعلم بمكاني وأمر بطلبي فظفر بي وحملت إليه فلما رأني قال طالما سألت الله تعالى أن يمكنني منك فقلت وأنا والله لطالما سألت الله أن يعيذني منك فقال ما أعاذك الله والله لأقتلنك والله لأقتلنك ولو سابقني فيك ملك الموت لسبقته ثم دعا بالسيف والنطع فأتي بهما وأمر بالوضاح فأقيم على النطع وكتف وقام وراءه رجل بالسيف وأقيمت الصلاة فخرج يزيد إليها فلما سجد أخذته السيوف ودخل إلى الوضاح من قطع كتافه وأطلقه وأعيد إلى الولاية محمد بن يزيد مولى الأنصار والله أعلم

312 قلت كان الوضاح حاجب عمر بن عبد العزيز فلما مرض أمر الوضاح بإخراج المحابيس فأخرجهم سوى يزيد المذكور فلما مات عمر هرب الوضاح إلى إفريقية خوفا من يزيد وجرى ما جرى وكان مرض عمر بخاصرة هكذا قاله الطبري محمد بن يزيد وابن عساكر قال إسماعيل بن عبيد الله والله أعلم بالصواب وقوله وأحضر إليه يزيد بن أبي مسلم في جامعة فالجامعة الغل لأنها تجمع اليدين إلى العنق وقوله وكان رجلا قصيرا دميما الدميم بالبدال المهملة القبيح المنظر ومنه قول عمر رضي الله عنه لا تزوجوا بناتكم من الرجل الدميم فإنه يعجبهن منهم ما يعجبهم منهن وأما الدميم بالذال المعجمة فإنه المذموم وكذا قول ابن الرومي الشاعر المشهور (كضرائر الحسنة قلن لوجهها * حسدا وبغيا إنه لدميم) بالبدال المهملة أيضا وإنما قيده بالضبط لأنه يتصحف على الناس كثيرا وخاصرة بضم الخاء المعجمة ثم نون وبعد الألف صاد مهملة مكسورة ثم راء بعدها هاء وهي بلدة قديمة من أعمال الأحص من ولاية حلب من جهتها القبلية بشرق بالقرب من قنسرين كان عمر بن عبد العزيز أميرا بها من جهة عبد الملك بن مروان ثم من جهة

سليمان بن عبد الملك وهي التي عناها المتتبي بقوله (أحب حمصا إلى
خناصرة * وكل نفس تحب محياها) وذكرها عدي بن الرقاع العاملي الشاعر
المشهور في قصيدته الدالية المشهورة فقال (وإذا الربيع تتابعت أنوؤه *
فسقى خناصرة الأحص وجادها)

313 818 يزيد بن عمر بن هبيرة أبو خالد يزيد بن أبي المثنى عمر بن
هبيرة بن معية بن سكين بن خديج ابن بغيض بن مالك بن سعد بن عدي بن
فزارة ونسب فزارة معروف فلا حاجة إلى الإطالة بذكره قال ابن دريد معية
تصغير معى وهو الواحد من أمعاء البطن وقد ردوا على ابن دريد هذا القول
فقالوا بل صوابه أنه تصغير معاوية وسكين بضم السين المهملة وفتح الكاف
وخديج بفتح الخاء المعجمة وبغيض بفتح الباء الموحدة والباقي معلوم لا حاجة
إلى ضبطه ذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه الكبير أن أصله من
الشام وأنه ولي قنسرين للوليد بن يزيد بن عبد الملك وكان مع مروان بن محمد
آخر ملوك بني أمية يوم غلب على دمشق وجمع له ولاية العراق مولده سنة
سبع وثمانين وذكره ابن عياش في تسمية من ولي العراق وجمع له المصران
وهما البصرة والكوفة وكذلك ذكره ابن قتيبة في كتاب المعارف في تسمية من
ولي العراقيين وعد الولاة الذين جمع لهم العراقان فكان أولهم زياد بن أبيه الذي
استلحقه معاوية بن أبي سفيان وآخرهم يزيد بن عمر بن هبيرة صاحب هذه
الترجمة ثم قال ولم يجمع العراقان لأحد بعد هؤلاء وذكره أيضا قبل هذا في
ترجمة أبيه عمر فقال وكان أبو جعفر المنصور حصر يزيد بواسط شهورا ثم
آمنه وافتتح البلد صلحا وركب إليه يزيد في أهل بيته وكان أبو جعفر يقول لا
يعز ملك هذا فيه ثم قتله

314 وقال خليفة بن خياط وفي سنة ثمان وعشرين ومائة وجه مروان
بن محمد يزيد بن عمر بن هبيرة واليا على العراق وذلك قبل قتل الضحاك
يعني ابن قيس الشيباني الخارجي فسار حتى نزل هيت وكان سخيا جسيما
طويلا خطيبا أكولا شجاعا وكان فيه حسد وذكره أبو جعفر الطبري في
تاريخه في سنة ثمان وعشرين ومائة فقال وفي هذه السنة وجه مروان بن
محمد يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق لحرب من بها من الخوارج ثم ذكر
في سنة اثنتين وثلاثين ومائة خروج قحطبة بن شبيب أحد دعاة بني العباس لما
أظهروا أمرهم بخراسان وتلك النواحي وكان أبو مسلم الخراساني المقدم ذكره
في حرف العين أعظم الأعوان وأصل تلك القضية حتى انتظمت أمورها كما
هو مشهور وقد سبق في ترجمة أبي مسلم طرف من هذا الحديث ولا حاجة

إلى التطويل فيه وكان خروج قحطبة بأرض العراق وقصد محاربة يزيد بن عمر بن هبيرة وجرت وقائع يطول شرحها وحاصل الأمر أن قحطبة خاض الفرات عند الفلوجة القرية المشهورة بالعراق ليقاتل ابن هبيرة وكان في قبالته فغرق قحطبة في عشية الأربعاء عند غروب الشمس لثمان خلون من المحرم من هذه السنة وقام ولده الحسن بن قحطبة مقامه في مقدمة الجيش وهي واقعة مشهورة طويلة وليس هذا موضع ذكرها وكان معن بن زائدة الشيباني المقدم ذكره من أتباع يزيد بن هبيرة المذكور ومن أكبر أعوانه في الحروب وغيرها فيقال إنه في تلك الليلة ضرب قحطبة ابن شبيب بالسيف على رأسه وقيل على عاتقه فوقع في الماء فأخرجوه حيا فقال إن مت فادفوني في الماء لئلا يقف أحد على خبري وقيل في غرقه غير ذلك والله أعلم

315 عدنا إلى حديث ابن هبيرة وكان من خبره أن جيوش خراسان التي كان مقدمها قحطبة ثم ولده الحسن من بعد استظهرت عليه فهزمت عسكره ولحق ابن هبيرة بمدينة واسط فتحصن فيها ثم وصل أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه الملقب بالسفاح وأخوه أبو جعفر عبد الله بن محمد الملقب بالمنصور من الحميمة بضم الحاء المهملة القرية التي كانت مسكن بني العباس في أطراف الشام من أرض البلقاء إلى الكوفة وبها جماعة من أشياعهم ونوابهم ومن قام معهم بإقامة دولتهم وإزالة دولة بني أمية التي أميرها إذ ذاك مروان ابن محمد بن مروان بن الحكم الأموي المعروف بالجعدي والمنبوز بالحمار آخر ملوكهم فلما وصلوا إلى الكوفة بويج أبو العباس السفاح بها يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة وقيل إن المبايعة كانت في شهر ربيع الأول والأول أصح وظهر أمر بني العباس وقويت شوكتهم وأدبرت دولة بني مروان فعند ذلك وجه السفاح أخاه أبا جعفر المنصور إلى واسط لحرب يزيد بن عمر بن هبيرة فجاء المنصور إلى المعسكر الذي مقدمه الحسن بن قحطبة وهو مقابل يزيد بن هبيرة بواسط فنزل فيه قال أبو جعفر الطبري في تاريخه الكبير وجرت السفراء بين أبي جعفر المنصور وبين ابن هبيرة حتى جعل له أمانا وكتب به كتابا فمكث يشاور فيه العلماء أربعين ليلة حتى رضيه ابن هبيرة ثم أخذه إلى أبي جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى أبي العباس السفاح فأمر بإمضائه له وكان رأى أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه وكان أبو العباس السفاح لا يقطع أمرا دون أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة وكان لأبي مسلم عين على السفاح يكتب إليه بأخباره كلها

316 فكتب أبو مسلم إلى السفاح إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا والله لا صلح طريق فيه ابن هبيرة ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلثمائة من البخارية فأراد أن يدخل الحجرة على دابته فقام إليه الحاجب فقال مرحبا أبا خالد انزل راشدا وقد أطاف بالحجرة عشرة آلاف من أهل خراسان فنزل ودعا له بوسادة ليجلس عليها ثم دعا له بالقواد فدخلوا ثم قال له الحاجب ادخل أبا خالد فقال أنا ومن معي فقال إنما استأذنت لك وحدك فقام فدخل ووضع له وسادة وحادثه ساعة ثم قام وأتبعه أبو جعفر بصره حتى غاب عنه ثم مكث يقيم عنه يوما ويأتيه يوما في خمسمائة فارس وثلثمائة راجل فقال يزيد بن حاتم لأبي جعفر أيها الأمير إن ابن هبيرة ليأتي فيتضع له العسكر وما نقص من سلطانه شيء فقال أبو جعفر للحاجب قل لابن هبيرة يدع الجماعة ويأتينا في حاشيته فقال له الحاجب ذلك فتغير وجهه وجاء في حاشيته نحو من ثلاثين فقال له الحاجب كأنك تأتي متأهبا فقال إن أمرتم أن نمشي إليكم مشينا فقال ما أردنا بك استخفافا ولا أمر الأمير بما أمر به إلا نظرا لك فكان بعد ذلك يأتي في ثلاثة وقال محمد بن كثير كلم ابن هبيرة يوما أبا جعفر فقال يا هياه أو يا أيها المرء ثم رجع فقال أيها الأمير إن عهدي بكلام الناس بمثل ما خاطبتك به حديث فسبقتني لساني بما لم أرده وألح أبو العباس السفاح على أبي جعفر يأمره بقتله وهو يراجعه فكتب إليه والله لتقتلنه أو لأرسلن إليه من يخرج من حجرتك ثم يقتله فأزمع على قتله فبعث أبو جعفر من ختم بيوت المال ثم بعث إلى وجوه من مع ابن هبيرة فحضروا وخرج الحاجب من عند أبي جعفر وطلب ابن الحوثره ومحمد بن نباتة وهما من الأعيان فقاما فدخلا وقد أجلس أبو جعفر ثلاثة من خواصه في مائة من جماعته في حجرة فنزعت

317 سيوفهما وكتفا ثم أدخلوا بعدهما اثنين ففعل بهما كذلك وبعدهم جماعة أخرى فعل بهم كذلك فقال موسى بن عقيل أعطيتمونا عهد الله ثم خستم به إنا لنرجو أن يدرككم الله وجعل ابن نباتة يضرب في لحية نفسه فقال له ابن الحوثره إن هذا لا يغني عنك شيئا فقال كأنني كنت أنظر إلى هذا فقتلوا وأخذت خواتيمهم وانطلق حازم والهيثم بن شعبة والأغلب ابن سالم في نحو من مائة فأرسلوا إلى ابن هبيرة إنا نريد هذا المال فقال ابن هبيرة لحاجبه انطلق فدلهم عليه فأقاموا عند كل بيت نفرا ثم جعلوا ينظرون في نواحي الدار ومع ابن هبيرة ابنه داود وكتابه عمرو بن أيوب وحاجبه وعدة من مواليه وبني له صغير في حجره فجعل ينكر نظرهم فقال أقسم بالله إن في وجوه القوم لشرا

فأقبلوا نحوه فقام حاجبه في وجوههم فقال وراءكم فضربه الهيثم بن شعبة على
حبل عاتقه فصرعه وقاتل ابنه داود فقتل وقتل مواليه ونحى الصبي من حجره
وقال دونكم هذا الصبي وخر ساجدا فقتل وهو ساجد ومضوا برؤوسهم إلى أبي
جعفر فنادى بالأمان للناس وقال أبو عطاء السندي واسمه مرزوق وقيل أفلح
مولى بني أسد يرثي ابن هبيرة (ألا إن عينا لم تجد يوم واسط * عليك بجاري
دمعها لجمود) (عشية قام النائحات وشققت * جيوب بأيدي ماتم وخدود) (
فإن تمس مهجور الفناء فر بما * أقام به بعد الوفود وفود) (وإنك لم تبعد على
متعهد * بلى كل من تحت التراب بعيد) قلت وهذه المرثية ذكرها أبو تمام
الطائي في كتاب الحماسة في باب المراثي قلت إلى هنا انتهى ما نقلته من
تاريخ الطبري مقتضبا فإنني جمعته من

318 عدة مواضع حتى انتظم على هذه الصورة وأما غير الطبري فإنه
قال لما قدم أبو جعفر على الحسن بن قحطبة تحول له الحسن من سرادقه
فأنزله فيه وأقاموا يقتتلون أياما وثبت معن بن زائدة مع ابن هبيرة وطال
الحصار عليهم وكان أبو جعفر المنصور يقول ابن هبيرة يخندق على نفسه
مثل النساء وبلغ ابن هبيرة ذلك فأرسل إليه أنت القائل كذا ابرز إلي لترى
فأرسل إليه المنصور ما أجد لك ولي مثلا إلا كأسد لقي خنزيرا فقال له
الخنزير بارزني فقال الأسد ما أنت لي بكفو فإن بارزتك فنالني منك سوء كان
عارا وإن قتلتك قتلت خنزيرا فلم أحصل على حمد ولا في قتلك فخر فقال له
الخنزير لئن لم تبارزني لأعرفن السباع أنك جينت عني فقال الأسد احتمال
عار كذبك أيسر من تلطيخ برائتي بدمك ثم إن المنصور كاتب القواد وفهم ابن
هبيرة فطلب الصلح فأجابه المنصور وكتبوا كتاب الصلح والأمان وبعثه
المنصور إلى أخيه السفاح فأمضاه وكتب فيه فإن غدر ابن هبيرة أو نكث فلا
عهد له ولا أمان وكان من رأي المنصور الوفاء له وقال أبو الحسن المدائني
لما كتب المنصور بينه وبين ابن هبيرة كتاب الصلح خرج إلى المنصور وبينه
وبينه ستر فقال ابن هبيرة أيها الأمير إن دولتكم بكر فأذيقوا الناس حلاوتها
وجنبوهم مرارتها تصل محبتكم إلى قلوبهم ويعذب ذكركم على ألسنتهم وما
زلنا منتظرين لدعوتكم قال فرجع المنصور الستر بينه وبينه وقال في نفسه
عجبا لمن يأمرني بقتل مثل هذا وصار ابن هبيرة يخرج إلى المنصور في
آخر أمره في ثلاثة من أصحابه يتغدى ويتعشى عنده وكان يثني له وساده
فيقال إنه كان يكتب عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب
رضي الله عنه ويدعو إليهم وإلى خلع السفاح وجاءه كتاب أبي مسلم يحثه على

قتل ابن هبيرة فكتب السفاح إلى المنصور يأمره بقتله فقال لا أفعل وله في عنقي بيعة وأيمان فلا أضيعها بقول أبي مسلم فكتب السفاح ما أقتله بقول أبي مسلم بل بنكته وغدره ودسيسته إلى آل أبي طالب وقد أبيح لنا

319 دمه فلم يجبه المنصور وقال هذا فساد الملك فكتب إليه السفاح لست مني ولست منك إن لم تقتله فقال المنصور للحسن بن قحطبة اقتله أنت فامتنع فقال خازم بن خزيمة أنا أقتله فدخل عليه في جماعة من قواد خراسان وهو في القصر وعنده ابنه داود وكاتبه ومواليه وعليه قميص مصري وملاءة موردة وعنده الحجام وهو يريد أن يحجمه فلما رآهم سجد فقتلوه وقتلوا ابنه وكاتبه ومن كان معه وحملوا رأسه إلى المنصور وكان معن بن زائدة غائبا عند السفاح فسلم وبعث المنصور برأسه إلى السفاح وكان ذلك في سنة اثنتين وثلاثين ومائة قال الهيثم بن عدي لما قتل ابن هبيرة قال بعض الخراسانيين لبعض أصحاب ابن هبيرة ما كان أكبر رأس صاحبكم فقال له الرجل أمانكم له كان أكبر وذكر الخطيب أبو زكريا التبريزي في كتاب شرح الحماسة في باب المراثي عند ذكره أبيات أبي عطاء السندي الدالية المقدم ذكرها التي رثى بها يزيد المذكور فقال وكان المنصور قد حلف له وأكد الأيمان فلما قتله وحمل رأسه إليه قال المنصور للحرسى أترى طينة رأسه ما أعظمها فقال الحرسى طينة أيمانه أعظم من طينة رأسه وهدم المنصور قصر واسط وقال الحافظ ابن عساكر في تاريخه الكبير كان ابن هبيرة إذا أصبح أتى بعس قلت العس بضم العين المهملة وبعدها سين مهملة مشددة هو القدح الكبير قال وفيه لبن قد حلب على عسل وأحيانا سكر فيشر به فإذا صلى الغداة جلس في مصلاه حتى تحل الصلاة فيصلي ثم يدخل فيحركه اللبن فيدعو بالغداء فيأكل دجاجتين وناهضين ونصف جدي وألوانا من اللحم والناهض بالنون وبعد الهاء المكسورة ضاد معجمة وهو الفرخ من الحمام قال ثم يخرج فينظر في أمور الناس إلى نصف النهار

320 ثم يدخل فيدعو جماعة من خواصه وأعيان الناس ويدعو بالغداء فيتغدى ويضع منديلا على صدره ويعظم اللقم ويتابع فإذا فرغ من الغداء تفرق من كان عنده ودخل إلى نسائه حتى يخرج إلى صلاة الظهر ثم ينظر بعد الظهر في أمور الناس فإذا صلى العصر وضع له سرير ووضعت الكراسي للناس فإذا أخذ الناس مجالسهم أتوهم بعساس اللبن والعسل وألوان الأشربة قلت والعساس بكسر العين جمع عس وقد تقدم الكلام عليه ثم توضع السفرة والطعام للعمامة ويوضع له ولأصحابه خوان مرتفع فيأكل معه الوجوه إلى

المغرب ثم يتفرقون للصلاة ثم تأتيه سماره فيحضرون مجلسا يجلسون فيه حتى يدعوهم فيسامروه حتى يذهب عامة الليل وكان يسأل في كل ليلة عشر حوائج فإذا أصبحوا قضيت وكان رزقه ستمائة ألف درهم فكان يقسم كل شهر في أصحابه من قومه ومن الفقهاء والوجوه وأهل البيوتات فقال عبد الله بن شبرمة الضبي القاضي الفقيه الكوفي وكان من سماره (إذا نحن أعتمنا ومال بنا الكرى * أتانا بإحدى الراحتين عياض) وعياض بوابه وإحدى الراحتين الدخول أو الانصراف ولم يكن له منديل فكان إذا دعا بالمنديل قام الناس وقال شيخ من قريش أذن يزيد بن عمر بن هبيرة في يوم صائف شديد الحر للناس فدخل عليه وعليه قميص خلق مرقوع الجيب فجعلوا ينظرون إليه ويعجبون منه ففطن لهم فتمثل بقول إبراهيم بن هرمة (قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه * خلق وجيب قميصه مرقوع) وحكي أن شريك بن عبد الله النميري سايره يوما فبدرت دابة شريك فقال له يزيد غض من لجامها فقال شريك إنها مكتوبة أصلح الله الأمير فقال

321 له يزيد ذهبت حيث أردت قول يزيد غض من لجامها يشير إلى قول جرير (فغض الطرف إنك من نمير * فلا كعبا بلغت ولا كلابا) فعرض له شريك بقول ابن دارة (لا تأمنن فزاريا خلوت به * على قلوصك واكتبها بأسيار) وكان بنو فزارة في العرب يرمون بإتيان الإبل وأخباره ومحاسنه كثيرة مشهورة وقال خليفة بن خياط قتل ابن هبيرة بواسط يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومائة رحمه الله تعالى وقال أبو جعفر الطبري في تاريخه توفي الحسن بن قحطبة في سنة إحدى وثمانين ومائة 819 يزيد بن حاتم المهلبى أبو خالد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي قد سبق ذكر بقية نسبه في ترجمة جده المهلب بن أبي صفرة وقد ذكرت أخاه روح ابن حاتم في حرف الراء وعم أبيه يزيد بن المهلب ومن ولده الوزير أبو

322 محمد الحسن بن محمد المهلبى المقدم ذكره وهم أهل بيت كبير اجتمع فيه خلق كثير من الأعيان الأمجاد النجباء ذكر ابن جرير الطبري في تاريخه أن الخليفة أبا جعفر المنصور عزل حميد ابن قحطبة عن ولاية مصر فولاهما نوفل بن الفرات ثم عزله وولى يزيد بن حاتم وذلك في سنة ثلاث وأربعين ومائة ثم إن المنصور عزله عن مصر في سنة اثنتين وخمسين ومائة وجعل مكانه محمد بن سعيد وقال أبو سعيد ابن يونس في تاريخه ولى يزيد بن حاتم مصر في سنة أربع وأربعين ومائة وزاد غيره في منتصف ذي القعدة ثم

إن المنصور خرج إلى الشام وزيارة بيت المقدس في سنة أربع وخمسين ومن هناك سير يزيد بن حاتم إلى إفريقية لحرب الخوارج الذين قتلوا عامله عمر ابن حفص وجهاز معه خمسين ألف مقاتل واستقر يزيد المذكور واليا بإفريقية من يومئذ وكان وصوله إليها واستظهاره على الخوارج في سنة خمس وخمسين ودخل مدينة القيروان في هذا التاريخ وكان جوادا سريا مقصودا مدحا قصده جماعة من الشعراء فأحسن جوائزهم وكان أبو أسامة ربيعة بن ثابت الأسدي الرقي وقيل إنه من موالي سليم قد قصد يزيد بن أسيد بضم الهمزة وفتح السين المهملة ابن زافر ابن أسماء بن أسيد بن قنفذ بن جابر بن قنفذ بن مالك بن عوف بن امرئ القيس ابن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وهو يومئذ وال على أرمينية وكان قد وليها زمانا طويلا لأبي جعفر المنصور ثم من بعده لولده المهدي وكان يزيد المذكور من أشرف قيس وشجعانهم ومن ذوي الآراء الصائبة ومدحه ربيعة المذكور بشعر أجاد فيه فقصر في حقه ومدح يزيد بن حاتم المذكور فبالغ في الإحسان إليه فقال ربيعة قصيدة يفضل فيها يزيد بن حاتم على يزيد بن أسيد وكان

323 في لسان يزيد بن أسيد تمتمة فعرض بذكرها في هذه الأبيات فقال (حلفت يمينا غير ذي مثنوية * يمين امرئ آل بها غير آثم) (لشتان ما بين اليزيديين في الندى * يزيد سليم والأغر ابن حاتم) (يزيد سليم سالم المال والفتى * أمحو الأزدي للأموال غير مسالم) (فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله * وهم الفتى القيسي جمع الدراهم) (فلا يحسب التمتام أني هجوته * ولكنني فضلت أهل المكارم) (فيا أيها الساعي الذي ليس مدركا * بسماته سعي البحور الخضارم) (سميت ولم تدرك نوال ابن حاتم * لفك أسير واحتمال العظام) (كفاك بناء المكرمات ابن حاتم * ونمت وما الأزدي عنها بنائم) (فيا ابن أسيد لا تسام ابن حاتم * فتفرغ إن ساميته سن نادم) (هو البحر إن كلفت نفسك خوضه * تهافكت في أذيه المتلاطم) (تمنيت مجدا في سليم سفاهة * أماني خال أو أماني حالم) (ألا إنما آل المهلب غرة * وفي الحرب قادات لكم بالخزائم) (هم الأنف في الخرطوم والناس بعدهم * مناسم والخرطوم فوق المناسم) (قضيت لكم آل المهلب بالعلا * وتفضيلكم حق على كل حالم) (لكم شيم ليست لخلق سواكم * سماح وصدق البأس عند الملاحم) (مهينون للأموال فيما ينوبكم * منا عيش دفاعون عن كل جارم) قال دعبل بن علي الخزاعي المقدم ذكره قلت لمروان بن أبي حفصة الشاعر

وقد تقدم ذكره أيضا يا أبا السمط من أشعركم جماعة المحدثين قال أسيرنا بيتنا
قلت ومن هو قال الذي يقول (لستان ما بين اليزيديين في الندى * يزيد سليم
والأغر ابن حاتم)

324 وكنت قد ذكرت بعض هذه الأبيات في ترجمة أخيه روح بن حاتم
ثم إنني ظفرت بها أكمل من تلك فأحببت أن أفرد له ترجمة وأذكر ما جرى له
لأن مثله لا يصلح لأن يكون ضميمة في ترجمة أخيه وكان ربيعة بن ثابت
الرقبي قد قصده قبل هذه المرة فلم ير منه من الإحسان ما كان يرجوه فنظم
أبياتا من جملتها (أراني ولا كفران لله راجعا * بخفي حنين من نوال ابن
حاتم) ولما عقد أبو جعفر المنصور ليزيد المهلبى المذكور على بلاد إفريقية
وليزيد السلمي المذكور على ديار مصر خرجا معا فكان يزيد المهلبى يقوم
بكفاية الجيشين فقال ربيعة الرقبي المذكور (يزيد الخير إن يزيد قومي *
سميك لا وجود كما تجود) (تقود كتيبة ويقود أخرى * فترزق من تقود ومن
يقود) قلت وهذا يدل على أن ربيعة المذكور مولى بني سليم لقوله يزيد قومي
والله أعلم وقد قدم أشعب المشهور بالطمع على يزيد وهو بمصر فجلس في
مجلسه ودعا بغلامه فساره فقام أشعب فقبل يده فقال له يزيد لم فعلت هذا فقال
إني رأيتك تسار غلامك فظننت أنك قد أمرت لي بشيء فضحك منه وقال ما
فعلت هذا ولكنني أفعل ووصله وأحسن إليه وقال الطرطوشي في كتاب سراج
الملوك قال سحنون بن سعيد كان يزيد بن حاتم حكيما يقول والله ما هبت شيئا
قط هيبتي لرجل ظلمته وأنا أعلم أنه لا ناصر له إلا الله تعالى فيقول حسبك
الله بيني وبينك وذكر أبو سعد السمعاني في كتاب الأنساب أن المشهر
التميمي الشاعر وفد على يزيد بن حاتم بإفريقية فأنشده

325 (إليك قصرنا النصف من صلواتنا * مسيرة شهر ثم شهر نواصله
(فلا نحن نخشى أن يخيب رجائنا * لديك ولكن أهنا البر عاجله) فأمر
يزيد بوضع العطاء في جنده وكان معه خمسون ألف مرتزق فقال من أحب أن
يسرني فليضع لزائري هذا من عطائه درهمين فاجتمع له مائة ألف درهم
وضم يزيد إلى ذلك مائة ألف درهم أخرى ودفعها إليه قلت ثم وجدت البيتين
المذكورين لمروان بن أبي حفصة والله أعلم وقد ذكره الحافظ أبو القاسم
المعروف بابن عساكر في تاريخ دمشق فقال بعد ذكر أحواله وولاياته إن يزيد
بن حاتم قال لجلسائه استنقوا لي ثلاثة أبيات فقال صفوان بن صفوان من بني
الحارث بن الخزرج أفيك فقال فيمن شئتم فكأنها كانت في كفه (لم أدر ما
الجود إلا ما سمعت به * حتى لقيت يزيدا عصمة الناس) (لقيت أجود من

يمشي على قدم * مفضلاً برداء الجود والباس) (لو نيل بالجود مجد كنت صاحبه * وكنت أولى به) ثم كفت فقال أتم من آل عباس فقلت لا يصلح فقال لا يسمع هذا منك أحد وقال يموت بن المزرع قال لي الأصمعي يوماً وقد جنته مسلماً إلى أن ذكر الشعراء المحسنين المداحين من المولدين فقال لي يا أبا عثمان ابن المولى من المحسنين المداحين ولقد أسهرني في ليلتي هذه حسن مديحه يزيد بن حاتم حيث يقول (وإذا تباع كريمة أو تشتري * فسواك بائعها وأنت المشتري) (وإذا تخيل من سحابك لامع * سبقت مخيلته يد المستمطر)

326 (وإذا صنعت صنعة أتمتها * بيدين ليس نداهما بمكدر) (وإذا الفوارس عدت أبطالها * عدوك في أبطالهم بالخنصر) ولما قدم عليه ابن المولى المذكور أنشده وهو أمير مصر (يا واحد العرب الذي * أضحى وليس له نظير) (لو كان مثلك آخر * ما كان في الدنيا فقير) فدعا يزيد بخازنه وقال كم في بيت مالي قال فيه من العين والورق ما مبلغه عشرون ألف دينار فقال ادفعها إليه ثم قال يا أخي المعذرة إلى الله تعالى وإليك والله لو أن في ملكي غيرها لما أدرتها عنك وهذا ابن المولى هو أبو عبد الله محمد بن مسلم وعرف بابن المولى وروى الأصمعي أيضاً أن يزيد لما كان بإفريقية جاءه البشير يخبره أنه ولد له مولود بالبصرة فقال قد سميتة المغيرة وكان عنده المشهر التميمي فقال بارك الله لك أيها الأمير فيه وبارك له في بنيه كما بارك لجدته في أبيه ولم يزل يزيد واليا بإفريقية إلى أن توفي بها يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة سبعين ومائة بالقيروان ودفن بباب سلم واستخلف على إفريقية ولده داود بن يزيد فعزله هارون الرشيد في سنة اثنتين وسبعين ومائة وولاها عمه روح بن حاتم المقدم ذكره

327 820 يزيد بن يزيد الشيباني أبو خالد وأبو الزبير يزيد بن يزيد بن زائدة وهو ابن أخي معن ابن زائدة الشيباني المقدم ذكره وقد استوفيت ذكر نسبه هناك فلا حاجة إلى إعادته هاهنا كان يزيد المذكور من الأمراء المشهورين والشجعان المعروفين كان واليا بأرمينية فعزله عنها هارون الرشيد سنة اثنتين وسبعين ومائة ثم ولاه إياها وضم إليها أذربيجان في سنة ثلاث وثمانين وقد سبق طرف من خبره في ترجمة الوليد بن طريف الشيباني الخارجي فإنه الذي تولى محاربتة وقتله ذكر أرباب التاريخ أن الوليد بن طريف الشيباني لما خرج على هارون الرشيد ببلاد الجزيرة وهي فيما بين الفرات وشط الموصل وذلك في سنة ثمان وسبعين ومائة وكثر جمعه من

الشرارة حتى انتشروا في تلك البلاد ونهض إليهم عامل ديار ربيعة فقتلوه وصاروا إلى ديار مضر فحصروا عبد الملك بن صالح بن علي العباسي بالرقعة فاستشار هارون الرشيد يحيى بن خالد البرمكي فيمن يوجهه لحرب الوليد بن طريف فقال له يحيى بن خالد البرمكي وجه موسى بن حازم التميمي فإن فرعون كان اسمه الوليد فغرقه موسى عليه السلام فوجهه إليه الرشيد في جيش كثيف فلاقاه الوليد في أصحابه فهزمه الوليد وقتله فلما بلغ الرشيد ذلك وجه إليه معمر بن عيسى العبدي فكانت بينهما عدة وقائع بناحية دارا من ديار ربيعة فلما اتصل ذلك وكثرت جموع الوليد وظهر هذا الظهور العظيم قال الرشيد ليس لها إلا الأعرابي يزيد بن مزيد الشيباني فقال بكر بن النطاح الشاعر

328 (لا تبعثن إلى ربيعة غيرها * إن الحديد بغيره لا يفلح) فوجه الرشيد إليه يزيد المذكور في عسكر ضخم وأمره بمناجزته فقصده يزيد وجعل الوليد يراوغه ويزيد يتبعه وكان الوليد ذا مكر ودهاء ثم كانت بينهما حرب صعبة وبلغ الرشيد مما طلة يزيد بن مزيد له فوجه إليه خيلا بعد خيل ثم بعث إليه من يعنفه فسار يزيد في طلبه ثم نزل يصلي الصبح فلم يستتم صلاته حتى طلع الوليد عليه في عسكره واصطفت الخيلان وتزاحف الناس فلما شبت الحرب ناداه يزيد يا وليد ما حاجتك إلى التستر بالرجال ابرز إلي قال نعم والله فبرز الوليد وبرز إليه يزيد ووقف العسكران فلم يتحرك منهما أحد فتطاردا ساعة وكل واحد منهما لا يقدر على صاحبه حتى مضت ساعات من النهار فأمكن يزيد فيه الفرصة فضرب رجله فسقط وصاح بخيله فسقطوا عليه واحتزوا رأسه ذكر أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم المعروف بابن القراب الهروي في تاريخه أن الوليد بن طريف قتله يزيد بن مزيد بالحديثة من أرض الجزيرة قلت وهذه الجزيرة هي الجزيرة الفراتية والحديثة بالقرب من عانة وتعرف بحديثة النورة وهي على فراسخ من الأنبار وهي غير حديثة الموصل ووجه يزيد برأس الوليد إلى الرشيد وبكتاب الفتح مع ابنه أسد بن يزيد وفي ذلك يقول أبو الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر المشهور وكان منقطعا إلى يزيد ومختصا به (سل الخليفة سيفا من بني مطر * يمضي فيخترق الأجسام والهاما) (لولا يزيد ومقدار له سبب * عاش الوليد مع العامين أعواما) (أكرم به وبآباء له سلفوا * أبقوا من المجد أياما وأياما)

329 ولما انصرف يزيد إلى باب الرشيد قدمه ورفع مرتبته وقال له يا يزيد ما أكثر أمراء المؤمنين في قومك قال نعم إلا أن منابرهم الجدوع يعني

الجدوع التي يصلبون عليها إذا قتلوا وكان قتل الوليد في سنة تسع وسبعين ومائة كما سبق ذكره في ترجمته وورثته أخته بتلك الأبيات الفائية المذكورة هناك وقالت أخته الفارعة فيه أيضا (يا بني وائل لقد فجعتكم * من يزيد سيوفه بالوليد) (لو سيوف سوى سيوف يزيد * قاتلته لاقت خلاف السعود) (وائل بعضها يقتل بعضا * لا يفل الحديد غير الحديد) وقد روي أن هارون الرشيد لما جهز يزيد بن يزيد إلى حرب الوليد بن طريف أعطاه ذا الفقار سيف النبي وقال له خذه يا يزيد فإنك ستنصر به فأخذه ومضى وكان من هزيمة الوليد وقتله ما قد شرحناه وفي ذلك يقول مسلم بن الوليد الأنصاري من جملة قصيدة يمدح بها يزيد بن يزيد المذكور (أذكرت سيف رسول الله سنته * وبأس أول من صلى ومن صاما) يعني بأس علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ كان هو الضارب به وقد ذكر هشام بن الكلبي في كتاب جمهرة النسب شيئا يتعلق بذي الفقار وهي فائدة يحسن ذكرها ها هنا فإنه قال في نسب قريش منبه ونبيه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم القرشي كانا سيدي بني سهم في الجاهلية قتلا يوم بدر كافرين وكانا من المطعمين والعاص ابن نبيه قتل مع أبيه وكان له ذو الفقار قتله علي بن أبي طالب رضي الله

330 عنه يوم بدر وأخذه منه وقال غير ابن الكلبي إن ذا الفقار أعطاه النبي لعلي رضي الله عنه والفقار بفتح الفاء جمع فقارة الظهر يقال في جمعها فقار وفقارات ويقال ذو الفقار بكسر الفاء أيضا والفقار جمع فقرة بكسر الفاء وسكون القاف ولم يأت مثله في الجموع إلا قولهم إبرة وإبار رجعا إلى حديث ذي الفقار وكان سبب وصوله إلى هارون الرشيد فيما ذكره أبو جعفر الطبري بإسناد متصل إلى عمر بن المتوكل عن أمه وكانت أمه تخدم فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قالت كان ذو الفقار مع محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم قتل في محاربتة لجيش أبي جعفر المنصور العباسي والواقعة مشهورة فلما أحس محمد بالموت دفع ذا الفقار إلى رجل من التجار كان معه وكان له عليه أربعمائة دينار وقال له خذ هذا السيف فإنك لا تلقى أحدا من آل أبي طالب إلا أخذه منك وأعطاك حقك فكان السيف عند ذلك التاجر حتى ولي جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه اليمن والمدينة فأخبر عنه فدعا بالرجل فأخذ منه السيف وأعطاه أربعمائة دينار فلم يزل عنده حتى قام المهدي ابن المنصور واتصل خبره به فأخذه ثم صار إلى موسى الهادي ثم إلى أخيه هارون الرشيد وقال الأصمعي رأيت الرشيد

بطوس متقلدا سيفاً فقال يا أصمعي ألا أريك ذا الفقار قلت بلى جعلني الله فداك
فقال استل سيفي هذا فاستلته فرأيت فيه ثماني عشرة فقارة

331 قلت خرجنا عن المقصود فلنرجع إلى تنمة حديث يزيد بن يزيد
ذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي في تاريخ بغداد أن يزيد
المذكور دخل على الرشيد فقال له الرشيد يا يزيد من الذي يقول فيك (لا
يعبق الطيب كفيه ومفرقه * ولا يمسح عينيه من الكحل) (قد عود الطير
عادات وثقن بها * فهن يتبعنه في كل مرتحل) فقال لا أدري يا أمير المؤمنين
قال أفيقال فيك مثل هذا الشعر ولا تعرف قائله فانصرف خجلاً فقال لحاجبه
من الباب من الشعراء فقال مسلم بن الوليد الأنصاري قال ومنذ كم هو مقيم
بالباب قال منذ زمان طويل منعت من الوصول إليك لما عرفته من إضاقتك
قال أدخله فأدخله فأنشده هذه القصيدة حتى ختمها فقال للوكيل بع ضيعتي
الفلانية وأعطه نصف ثمنها واحتبس نصفاً لنفقتنا فباعها بمائة ألف درهم
فأعطى مسلماً خمسين ألفاً ورفع الخبر إلى الرشيد فاستحضر يزيد وسأله عن
الخبر فأعلمه الحديث فقال قد أمرت لك بمائتي ألف درهم لتسترجع الضيعة
بمائة ألف درهم وتزيد الشاعر خمسين ألفاً وتحبس خمسين ألفاً لنفسك قال أبو
بكر ابن الأنباري قال أبي سرق مسلم بن الوليد هذا المعنى من قول النابغة
الذبياني حيث يقول (إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم * عصائب طير تهتدي
بعصائب) (يصاحبهم حتى يغرن مغارهم * من الضاريات بالدماء الدوارب
(جوانح قد أيقن أن قبيله * إذا ما التقى الجمعان أول غالب) (لهن عليهم
عادة قد عرفنها * إذا عرض الخطي فوق الكواثب)

332 الكواثب بالثاء المثلثة وبعدها الباء الموحدة جمع كاثبة وهي ما
يقرب من منسج الفرس أمام قربوس السرج قلت وأول قصيدة مسلم بن الوليد
الأنصاري (أجزرت حبل خليع في الصبا غزل * وقصرت همم العذال عن
عذلي) ومن مديحها (حاط الخلافة سيف من بني مطر * أقام قائمه من كان
ذا ميل) (كم صائل في ذرا علياء مملكة * لولا يزيد بني شيبان لم يصل) (
ناب الإمام الذي يفتر عنه إذا * ما افترت الحرب عن أنيابها العصل) (يفتر
عند افترار الحرب مبتسماً * إذا تغير وجه الفارس البطل) (ينال بالرفق ما
يعيا الرجال به * كالموت مستعجلاً يأتي على مهل) (لا يرحل الناس إلا عند
حجرتة * كالبيت يضحى إليه ملتقى السبل) (يكسو السيوف نفوس الناكثين
به * ويجعل الهام تيجان القنا الذبل) (يغدو فتغدو المنايا في أسنته * شوارعا
تتحدى الناس بالأجل) (إذا طغت فنة عن عب طاعته * عبالها الموت بين

البيض والأسل) (تراه في الأمن في درع مضاعفة * لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل) وذكر أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني في ترجمة مسلم بن الوليد الأنصاري قال يزيد بن مزيد أرسل إلي الرشيد يوما في وقت لا يرسل فيه إلي مثلي فأتيته لابسا سلاحي مستعدا لأمر إن أراده فلما رأني ضحك إلي وقال من الذي يقول فيك

333 (تراه في الأمن في درع مضاعفة * لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل) (لله من هاشم في أرضه جبل * وأنت وابنك ركننا ذلك الجبل) فقلت لا أعرفه يا أمير المؤمنين فقال سواة لك من سيد قوم يمدح بمثل هذا الشعر ولا يعرف قائله وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله هو مسلم بن الوليد فانصرفت ودعوت به ووصلته ووليته قلت وهذا البيتان من جملة القصيدة التي ذكرت منها الأبيات التي قبلها وقد روي أن عمه معن بن زائدة كان يقدمه على أولاده فعاتبته امرأته في ذلك وقالت له كم تقدم يزيد ابن أخيك وتؤخر بنيك ولو قدمتهم لتقدموا ولو رفعتهم لارتفعوا فقال لها إن يزيد قريب مني وله علي حق الولد إذ كنت عمه وبعد فإن بني ألوط بقلبي وأدنى من نفسي ولكني لا أجد عندهم من الغناء ما عنده ولو كان ما يضطلع به يزيد في بعيد لصار قريبا أو عدو لصار حبيبا وسأريك في هذه الليلة ما تبسطين به عذري يا غلام اذهب فادع جساسا وزائدة وعبد الله وفلانا وفلانا حتى أتى على جميع أولاده فلم يلبثوا أن جاءوا في الغلائل المطيبة والنعال السندية وذلك بعد هدأة من الليل فسلموا وجلسوا ثم قال معن يا غلام ادع يزيد فلم يلبث أن دخل عجلا وعليه سلاحه فوضع رمحه بباب المجلس ثم دخل فقال له معن ما هذه الهيئة يا أبا الزبير فقال جاءني رسول الأمير فسبق وهمي إلي أنه يريدني لمهم فلبست سلاحي وقلت إن كان الأمر كذلك مضيت ولم أعرج وإن كان على غير ذلك فنزع هذه الآلة عني من أيسر شيء فقال معن انصرفوا في حفظ الله فلما خرجوا قالت زوجته قد تبين لي عذرك فأنشده متمثلا (نفس عصام سودت عصاما * وعلمته الكر والأقدام) (وصيرته ملكا هماما *) وإلى هذه الحالة أشار مسلم بن الوليد بقوله تراه في الأمن في درع مضاعفة

334 وقد روي أن مسلم بن الوليد لما انتهى في إنشاء هذه القصيدة إلى هذا البيت قال له يزيد بن مزيد الممدوح هلا قلت كما قال أعشى بكر بن وائل في مديح قيس بن معدي كرب (وإذا تجيء كتيبة ملموسة * شهباء تجتنب الكماة نزالها *) (كنت المقدم غير لابس جنة * بالسيف تضرب معلما

أبطالها) فقال مسلم قولي أحسن من قوله لأنه وصفه بالخرق وأنا وصفتك بالخرم الخرق بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وبعدها قاف وهو الاسم من عدم معرفة العمل قلت وقيس الذي مدحه الأعشى هو والد الأشعث بن قيس الكندي أحد الصحابة رضوان الله عليهم قلت وقد تقدم الكلام على قوله (قد عود الطير عادات وثقن بها *) وأنه أخذ هذا المعنى من أبيات النابغة البائية التي تقدم ذكرها وقد وافقه في أخذ هذا المعنى جماعة منهم أبو نواس قال عمر الوراق سمعت أبا نواس ينشد قصيدته الرائية التي أولها (أيها المنتاب من عفره * لست من ليلي ولا سمره) (لا أذود الطير عن شجر * قد بلوت المر من ثمره) فحسدته عليها فلما بلغ إلى قوله (وإذا مج القنا علقا * وتراءى الموت في صوره) (راح في ثنبي مفاضته * أسد يدمى شبا ظفره)

335 (تتأي الطير غدوته * ثقة بالشبع من جزره) قلت له ما تركت للنابغة شيئا حيث يقول (إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم * عصائب طير تهتدي بعصائب) فقال اسكت فلئن أحسن الاختراع لما أسأت الاتباع وأخذ هذا المعنى أبو تمام حبيب بن أوس الطائي فقال (وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى * بعقبان طير في الدماء نواهل) (أقامت على الرايات حتى كأنها * من الجيش إلا أنها لم تقاتل) وقال المتنبي أيضا (يطمع الطير فيهم طول أكلهم * حتى تكاد على أحيائهم تقع) وللمتنبي أيضا في صفة جيش وقد ألم بهذا المعنى (وذي لجب لا ذو الجناح أمامه * بناج ولا الوحش المثار بسالم) (تمر عليه الشمس وهي ضعيفة * تطالعه من بين ريش القشاعم) (إذا ضوءها لاقى من الطير فرجة * تدور فوق البيض مثل الدراهم) ولما كان يزيد واليا على اليمين قصده أبو الشمقمق مروان بن محمد مولى مروان بن محمد الجعدي آخر ملوك بني أمية الشاعر المشهور الكوفي وكنيته أبو محمد وكان مشهورا بأبي الشمقمق وهو في حال رثة وكان راجلا فمدحه وشرح حاله بقوله (رحل المطي إليك طلاب الندى * ورحلت نحوك ناقة نعليه)

336 (إذا لم تكن لي يا يزيد مطية * فجعلتها لي في السفار مطيه) (تخدي أمام اليعملات وتغتلي * في السير تترك خلفها المهريه) (من كل طاوية الصوى مزورة * قطعا لكل تنوفة دويه) ومنها (تنتاب أكرم وائل في بيتها * حسبا وقبة مجدها مبنيه) (أعني يزيدا سيف آل محمد * فراج كل شديدة مخشيه) (يوماه يوم للمواهب والجداء * خضل ويوم دم وخطف منيه) (ولقد أتيتك واثقا بك عالما * أن لست تسمع مدحة بنسيه) فقال صدقت يا شمقمقي ولست أقبل مدحه بنسيئة أعطوه ألف دينار ومدحه أبو الفضل

منصور بن سلمة النمري الشاعر المشهور بقصيدة طويلة بائية أحسن فيها كل الإحسان منها قوله (لو لم يكن لبني شيبان من حسب * سوى يزيد لفاتوا الناس بالحسب) (ما أعرف الناس أن الجود مدفعة * للذم لكنه يأتي على النشب) وذكر أبو العباس المبرد في كتاب الكامل أن يزيد بن مزيد المذكور نظر إلى رجل ذي لحية عظيمة وقد تلففت على صدره وإذا هو خاضب فقال له إنك من لحيتك في مؤنة فقال أجل ولذلك أقول (لها درهم للدهن في كل ليلة * وآخر للحناء بيتدران) (ولولا نوال من يزيد بن مزيد * لصوت في

حافاتها الجلمان) قلت الجلمان بفتح الجيم واللام تثنية جلم وهو المقص 337 وقال له هارون الرشيد يوما يا يزيد إني قد أعددتك لأمر كبير فقال يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قد أعد لك مني قلبا معقودا بنصيحتك ويدا مبسوطة لطاعتك وسيفا مشحودا على عدوك فإذا شئت فقل وذكر المسعودي في كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر أن هذه المقالة دارت بين هارون الرشيد ومعن بن زائدة عم يزيد المذكور ثم قال بعد هذا وقيل إن هذا الكلام من كلام يزيد بن مزيد قلت أنا وهذا لا يمكن أن يكون بين الرشيد ومعن أصلا لأن معنا قتل في خلافة أبي جعفر المنصور حسبما تقدم ذكره في ترجمته على الاختلاف في السنة وهو بعد الخمسين ومائة فكيف يمكن أن يقول له الرشيد ذلك والرشيد ولي الخلافة في سنة سبعين ومائة وذكر ابن أبي عون في كتاب الأجوبة المسكتة أن الرشيد قال ليزيد المذكور في لعب الصوالة كن مع عيسى بن جعفر فأبى يزيد فغضب الرشيد وقال تأنف أن تكون معه فقال قد حلفت لأمير المؤمنين أن لا أكون عليه في جد ولا هزل ورأيت في بعض المجاميع حكاية عن بعضهم أنه قال كنت مع يزيد بن مزيد فإذا صائح في الليل يا يزيد بن مزيد فقال يزيد علي بهذا الصائح فلما جيء به قال له ما حملك على أن ناديت بهذا الاسم فقال نفقت دابتي ونفدت نفقتي وسمعت قول الشاعر فتيمنت به فقال وما قال الشاعر فأنشد (إذا قيل من للمجد والجود والندى * فناد بصوت يا يزيد بن مزيد) فلما سمع يزيد مقالته هش له وقال له أتعرف يزيد بن مزيد قال لا والله قال أنا هو وأمر له بفرس أبلق كان معجبا به وبمائة دينار

338 وقد أطلنا القول في هذه الترجمة لكن الكلام شجون يتعلق بعضه ببعض ومحاسن يزيد كثيرة وتوفي في سنة خمس وثمانين ومائة ورثاه أبو محمد عبد الله ابن أيوب التيمي الشاعر المشهور وقيل بل هذه المرثية لأبي الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر المذكور والصحيح أنها للتيمي

المذكور وهي (أحقا أنه أودى يزيد * تبين أيها الناعي المشيد) (أتدري من نعتت وكيف فاهت * به شفتاك كان بها الصعيد) (أحامي المجد والإسلام أودى * فما للأرض ويحك لا تميد) (تأمل هل ترى الإسلام مالت * دعائمه وهل شاب الوليد) (وهل شيمت سيوف بني نزار * وهل وضعت عن الخيل اللبود) (وهل تسقي البلاد ثقال مزن * بدرتها وهل يخضر عود) (أما هدت لمصرعه نزار * بلى وتقوض المجد المشيد) (وحل ضريحه إذ حل فيه * طريف المجد والحسب التليد) (أما والله ما تنفك عيني * عليك بدمعها أبدا تجود) (وإن تجمد دموع لئيم قوم * فليس لدمع ذي حسب جمود) (أبعد يزيد تختزن البواكي * دموعا أو يسان لها خدود) (لتبكك قبة الإسلام لما * وهت أطنابها ووهى العمود) (ويكي شاعر لم يبق دهر * له نشبا وقد كسد القصيد) (فإن يهلك يزيد فكل حي * فريس للمنية أو طريد) (لقد عزى ربعة أن يوما * عليها مثل يومك لا يعود) قلت وهذا البيت الأخير قد استعمله الشعراء كثيرا فمن ذلك قول مطيع ابن إياس يرثي يحيى بن زياد الحارثي من جملة أبيات (فاذهب بمن شئت إذ ذهبت به * ما بعد يحيى في الرزء من ألم)

339 وقول أبي نواس يرثي الأمين (وكنت عليه أحذر الموت وحده * فلم يبق لي شيء عليه أحذر) وقول إبراهيم بن العباس الصولي يرثي ابنه (أنت السواد لمقلة * تبكي عليك وناظر) (من شاء بعدك فليمت * فعليك كنت أحاذر) وذكر أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني في ترجمة مسلم بن الوليد بإسناد متصل إلى أحمد بن أبي سعد قال أهديت إلى يزيد بن مزيد جارية وهو يأكل فلما رفع يده من الطعام وطئها فلم ينزل عنها إلا ميتا وهو ببردعة فدفن في مقابر بردعة وكان مسلم بن الوليد معه في جملة أصحابه فقال يرثيه (قبر ببردعة استمر ضريحه * خطرا تقاصر دونه الأخطار) (أبقى الزمان على ربعة بعده * حزنا لعمر الله ليس بعار) (سلكت بك العرب السبيل إلى العلا * حتى إذا سبق الردى بك حاروا) (نفضت بك الأحلاس آمال الغنى * واسترجعت زوارها الأمصار) (فاذهب كما ذهبت غواذي مزنة * أثنى عليها السهل والأوعار) قد قيل إن هذا البيت الأخير أبلغ شيء قيل في المراثي وهذه الأبيات في كتاب الحماسة في باب المراثي وبردعة بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وبعدها دال مهملة ثم عين مهملة وهي مدينة من أقصى بلاد أذربيجان قلت هكذا رأيت في التواريخ

340 وأهل تلك البلاد يقولون بردعة من إقليم إيران والله أعلم ويقال بردعة أيضا بالذال المعجمة وكذلك بردعة الدابة يقال بالذال والذال وقد قيل إن مسلم بن الوليد إنما رثى بهذه الأبيات يزيد بن أحمد السلمي وقيل بل رثى بها مالك بن علي الخزاعي وإن أول الأبيات (قبر بطلوان استسر ضريحه * لأن الذي قيلت فيه مات بطلوان بضم الحاء المهملة وهي آخر مدينة بأرض السواد من أعمال العراق والله أعلم بالصواب في ذلك كله وذكر أبو عبيد الله المرزباني في كتاب معجم الشعراء أن أبا البلهاء عمير بن عامر مولى يزيد بن مزيد الشيباني هو القائل (نعم الفتى فجعت به إخوانه * يوم البقيع حوادث الأيام) (سهل الفناء إذا حلت ببابه * طلق اليمين مؤدب الخدام) (وإذا رأيت صديقه وشقيقه * لم تدر أيهما ذو الأرحام) وذكر أبو تمام الطائي هذه الأبيات في كتاب الحماسة في باب المراثي لمحمد بن بشير الخارجي وقيل ابن يسير بالسین المهملة وهو فعيل من اليسر وبشير من البشارة وهو من خارجة عدوان قبيلة وليس من الخوارج والله أعلم بالصواب في ذلك كله ورثاه منصور النمري وهي في كتاب الحماسة بقوله (أبا خالد ما كان أدهى مصيبة * أصابت معدا يوم أصبحت ثاويا) (لعمرى لئن سر الأعادي فأظهروا * شماتا لقد مروا بربعك خاليا) (فإن يك أفنته الليلي وأوشكت * فإن له ذكرا سيفني اللياليا)

341 وكان ليزيد ولدان نجيبان جليلان سيدان (336) أحدهما خالد بن يزيد وهو ممدوح أبي تمام الطائي وله فيه أحسن المدائح وقد تضمنها ديوانه فلا حاجة إلى ذكر شيء منها لشهرة ديوانه (337) والآخر محمد بن يزيد كان موصوفا بالكرم وأنه لا يرد طالبا فإن لم يحضره مال لم يقل لا بل يعد ثم يعجل العدة ومدحه أحمد بن أبي فنن صالح بن سعيد بقوله ثم وجدت هذه الأبيات لأبي الشيص الخزاعي في كتاب البارع (عشق المكارم فهو مشتغل بها * والمكرمات قليلة العشاق) (وأقام سوقا للثناء ولم تكن * سوق الثناء تعد في الأسواق) (بث الصنائع في البلاد فأصبحت * تجبى إليه محامد الأفاق) وكان خالد بن يزيد قد تولى الموصل من جهة المأمون فوصل إليها وفي صحبته أبو الشمقمق الشاعر الذي ذكرته في هذه الترجمة فلما دخل خالد إلى الموصل نشب اللواء الذي لخالد في سقف باب المدينة فاندق فتطير خالد من ذلك فأنشده أبو الشمقمق ارتجالا (لما كان مندق اللواء لريبة * تخشى ولا سوء يكون معجلا) (لكن هذا الرمح أضعف متنه * صغر الولاية فاستقل الموصلا) فبلغ الخليفة ما جرى فكتب إلى خالد بن يزيد قد زدنا في ولايتك

ديار ربيعة كلها لكون رمحك استقل الموصل ففرح بذلك وأجزل جائزة أبي الشمقمق ولما انتقض أمر أرمينية في أيام الوثائق جهز إليها خالد بن يزيد المذكور في

342 جيش عظيم فاعتل في الطريق ومات في سنة ثلاثين ومائتين ودفن بمدينة دبيل أرمينية رحمهم الله أجمعين 821 يزيد ابن مفرغ الحميري أبو عثمان يزيد بن زياد بن ربيعة بن مفرغ بن ذي العشيرة بن الحارث ابن دلال بن عوف بن عمرو بن يزيد بن مرة بن مرثد بن مسروق بن زيد ابن يحصب الحميري وبقية النسب من يحصب معروفة فلا حاجة إلى ذكرها هكذا ساق هذا النسب ابن الكلبي في كتاب جمهرة النسب غير أنه لم يذكر كنية يزيد بل ذكرها صاحب الأغاني وأكثر العلماء يقولون هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ ويسقطون زيادا (338) وقال صاحب الأغاني إنما لقب جده مفرغا لأنه راهن على سقاء من لبن يشربه كله فشربه حتى فرغه فسمي مفرغا وذكر في ترجمة حفيده السيد الحميري في كتاب الأغاني أيضا أن ابن عائشة قال مفرغ هو ربيعة ومفرغ لقبه ومن قال ربيعة بن مفرغ فقد أخطأ والله أعلم وقال الفضل ابن عبد الرحمن النوفلي كان مفرغ المذكور حدادا باليمن فعمل لامرأة قفلا وشرط عليها عند فراغه منه أن تجيئه بلبن كرش ففعلت فشرب منه ووضعها فقالت له رد علي الكرش فقال ما عندي شيء أفرغه فيه قالت لا بد منه ففرغه في جوفه فقالت إنك لمفرغ فعرف به وهو

343 من حمير فيما يزعم أهله وذكر ابن الكلبي وأبو عبيدة أن مفرغا كان شعابا بتبالة قلت تبالة بفتح التاء المثناة من فوقها وبعدها باء موحدة ثم ألف ولام وفي آخرها هاء وهي بليدة على طريق اليمن للخارج من مكة وهذا المكان كثير الخصب له ذكر في الأخبار والأمثال والأشعار وهي أول ولاية وليها الحجاج بن يوسف الثقفي ولم يكن رآها قبل ذلك فخرج إليها فلما قرب منها سأل عنها فقيل له إنها وراء تلك الأكمة فقال لا خير في ولاية تسترها أكمة ورجع عنها محتقرا لها وتركها فضربت العرب بها المثل وقالت للشيء الحقيير أهون من تبالة على الحجاج قال الراوي فادعى يزيد أنه من حمير وهو حليف آل خالد بن أسيد بن أبي العيص الأموي وقيل إنه كان عبدا للضحاك بن عبد عوف الهلالي فأنعم عليه وكان يزيد شاعرا غزلا محسنا (339) والسيد الحميري الشاعر المشهور من ولده وهو إسماعيل بن محمد بن بكار بن يزيد المذكور كذا ذكره ابن ماکولا في كتاب الإكمال ولقبه السيد وكنيته أبو هاشم وهو من كبار الشيعة وله في ذلك أخبار وأشعار مشهورة

ومن محاسن شعر يزيد المذكور قوله من جملة قصيدة يمدح بها مروان بن الحكم الأموي وكان قد أحسن مروان إليه (وأقمت سوق الثناء ولم تكن * سوق الثناء تقام في الأسواق) (فكأنما جعل الإله إليكم * قبض النفوس وقسمة الأرزاق) والبيت الأول من هذين البيتين تقدم ذكره في ترجمة يزيد بن يزيد بن زائدة الشيباني منسوباً إلى أحمد بن أبي فنن يمدح به خالد بن يزيد بن يزيد المذكور من جملة أبيات والله أعلم بالصواب في ذلك ولما ولي سعيد بن عثمان بن عفان رضي الله عنه خراسان عرض على

344 يزيد بن مفرغ أن يصحبه فأبى ذلك وصحب عباد بن زياد بن أبيه فقال له سعيد أما إذ أبيت أن تصحبني وآثرت صحبة عباد فاحفظ ما أوصيك به إن عباداً رجل لنيم فإياك والذالة عليه وإن دعاك إليها من نفسه فإنها خدعة منه لك عن نفسك وأقل زيارته فإنه ملول ولا تفاخره وإن فاخره فإنه لا يحتمل لك ما كنت أحتمله ثم دعا سعيد بمال فدفعه له وقال له استعن به على سفرك فإن صح لك مكانك من عباد وإلا فمكانك عندي ممهد فائتني ثم سار سعيد إلى خراسان وخرج ابن مفرغ مع عباد فلما بلغ عبيد الله بن زياد أمير العراقيين صحبة يزيد أخاه عباداً شق عليه فلما سار عباد شيعه أخوه عبيد الله وشيعه الناس وجعلوا يودعونهم فلما أراد عبيد الله أن يودع أخاه دعا ابن مفرغ فقال له إنك سألت عباداً أن يصحبك فأجابك وقد شق علي فقال له ولم أصلحك الله قال لأن الشاعر لا يقنعه من الناس ما يقنع بعضهم من بعض لأنه يظن فيجعل الظن يقينا ولا يعذر في موضع العذر وإن عباداً يقدم على أرض حرب فيشتغل بحروبه وخراجه عنك فلا تعذره أنت وتكسونا شراً وعارا فقال له لست كما ظن الأمير وإن لمعروفه عندي لشكرا كثيراً وإن عندي إن أغفل أمري عذرا ممهدا فقال لا ولكن تضمن لي إن أبطأ عنك ما تحبه أن لا تعجل عليه حتى تكتب إلي قال نعم قال امض إذا على الطائر الميمون قال فقدم عباد خراسان وقيل سجستان فاشتغل بحروبه وخراجه فاستبطأ ابن مفرغ ولم يكتب لأخيه عبيد الله بن زياد يشكوه كما ضمن له ولكنه بسط لسانه فذمه وهجاه وكان عباد كبير اللحية كأنها جوالق فسار ابن مفرغ مع عباد فدخلت الريح فيها فنفشتها فضحك ابن مفرغ وقال لرجل من لحم كان إلى جنبه (ألا ليت اللحي كانت حشيشا * فنعلفها خيول المسلمين) فسعى به اللخمي إلى عباد فغضب من ذلك غضبا شديداً وقال لا تجمل بي عقوبته في هذه الساعة مع صحبته لي وما أؤخرها إلا لأشفي نفسي

345 منه فإنه كان يقوم فيشتم أبي في عدة مواضع وبلغ الخبر ابن مفرغ فقال إني لأجد ريح الموت من عباد ثم دخل عليه فقال أيها الأمير إني قد كنت مع سعيد بن عثمان وقد بلغك رأيه في وجميل أثره علي وقد اخترتك عليه فلم أحظ منك بطائل وأريد أن تأذن لي بالرجوع فلا حاجة لي في صحبتك فقال له أما اختيارك إياي فقد اخترتك كما اخترتني واستصحبتك حين سألتني وقد أعجلتني عن بلوغ حجتى فيك وطلبت الإذن لترجع إلى قومك فتفضحني فيهم وأنت على الإذن قادر بعد أن أقضي حقاك وبلغ عبادا أنه يسبه ويذكره وينال من عرضه فدرس إلى قوم كان لهم عليه دين أن يقدموه إليه ففعلوا فحبسه وأضر به ثم بعث إليه بعني الأراكة وبردا وكانت الأراكة قينة لابن مفرغ وبرد غلامه رباهما وكان شديد الضن بهما فبعث إليه ابن مفرغ مع الرسول أبيبيع المرء نفسه وولده فأخذهما عباد منه وقيل إنه باعهما عليه فاشتراهما رجل من أهل خراسان فلما دخلا منزله قال له برد وكان داهية أديبا أتدري ما اشتريت قال نعم اشتريتك وهذه الجارية قال لا والله ما اشتريت إلا العار والدمار والفضيحة أبدا ما حييت فجزع الرجل وقال له كيف ذاك ويليك قال نحن ليزيد ابن مفرغ ووالله ما أصاره إلى هذه الحال إلا لسانه وشره أفتراه يهجو عبادا وهو أمير خراسان وأخوه عبيد الله أمير العراقيين وعمه الخليفة معاوية بن أبي سفيان في أن استبطأه ويمسك عنك وقد ابتعتني وابتعت هذه الجارية وهي نفسه التي بين جنبيه ووالله ما أرى أحدا أدخل بيته أشأم على نفسه وأهله مما أدخلته منزلك فقال أشهدك أنك وإياها له فإن شئتما أن تمضيا إليه فامضيا وعلى أنني أخاف على نفسي إن بلغ ذلك ابن زياد وإن شئتما أن تكونا له عندي فافعلا قال فاكتب إليه بذلك فكتب الرجل إلى ابن مفرغ إلى الحبس بما فعله فكتب إليه يشكر فعله وسأله أن يكونا عنده حتى يفرج الله عنه وقال عباد لحاجبه ما أرى هذا يعني ابن مفرغ يبالى بالمقام في الحبس

346 فبع فرسه وسلاحه وأثائه واقسم ثمنها بين غرمائه ففعل ذلك وبقيت عليه بقية حبسه بها فقال ابن مفرغ في بيعهما (شريت بردا ولو ملكت صفقته * لما تطلبت في بيع له رشدا) (لولا الدعي ولولا ما تعرض لي * من الحوادث ما فارقتة أبدا) (يا برد ما مسنا دهر أضر بنا * من قبل هذا ولا بعنا له ولدا) معنى شريت بعته وهو من الأضداد يقع على الشراء والبيع والأبيات أكثر من هذا فتركت الباقي وعلم ابن مفرغ أنه إن أقام على ذم عباد وهجائه وهو في حبسه زاد نفسه شرا فكان يقول للناس إذا سألوه عن حبسه ما سببه رجل أدبه أميره ليقوم من أوده ويكف من غربه وهذا لعمرى خير من

جر الأمير ذيله على مداهنة صاحبه فلما بلغ ذلك عبادا رق له وأخرجه من السجن فهرب حتى أتى البصرة ثم خرج منها إلى الشام وجعل يتنقل في مدنها هاربا ويهجو زيادا وولده فمن ذلك قوله في ترك سعيد بن عثمان بن عفان رضي الله عنه واتباعه عباد بن زياد وذكر بيع برد عليه (أصرمت حبلك من أمامه * من بعد أيام برامه) (فالريح تبكي شجوها * والبرق يضحك في الغمامه) (لهفي على الأمر الذي * كانت عواقبه ندامه) (تركي سعيدا ذا الندى * والبيت ترفعه الدعامة) (ليثا إذا شهد الوغى * ترك الهوى ومضى أمامه) (فتحت سمرقند له * وبني بعرضتها خيامه) (وتبعت عبد بني علاج * تلك أشراط القيامة) (جاءت به حبشية * سكاء تحسبها نعمامه) (من نسوة سود الوجوه * ترى عليهن الدمامه) (وشريت بردا ليتني * من بعد برد كنت هامه)

347 (هامة إذ تدعو صدى * بين المشقر واليمامه) (فالهول يركبه الفتى * حذر المخازي والسامة) (والعبد يقرع بالعصا * والحر تكفيه الملامه) قلت قوله وتبعت عبد بني علاج بنو علاج بطن من ثقيف وسيأتي ذكره عند ذكر الحارث بن كلدة في هذه الترجمة إن شاء الله تعالى قاله أبو بكر ابن دريد في كتاب الاشتقاق وأنشد عليه (أل أبي بكرة استفيقوا * هل تعدك الشمس بالسراج) (إن ولاء النبي أعلى * من دعوة في بني علاج) وهذا القول له سبب يذكر عند ذكر أبي بكرة نفيح بن الحارث في هذه الترجمة إن شاء الله تعالى وقوله في البيت الآخر سكاء تحسبها نعامة يقال أذن سكاء إذا كانت صغيرة والسكاء أيضا التي لا أذن لها والعرب تقول كل سكاء تبيض وكل شرفاء تلد والشرفاء التي لها أذن طويلة والسكاء بفتح السين المهملة وتشديد الكاف والشرفاء بفتح الشين المعجمة وسكون الراء وبعدها فاء والضابط عندهم فيه أن كل حيوان له أذن ظاهرة فإنه يلد وكل حيوان ليست له أذن ظاهرة فإنه يبيض قال الراوي ثم إن ابن مفرغ لجح في هجاء بني زياد حتى تغنى أهل البصرة في أشعاره فطلبه عبيد الله طلبا شديدا حتى كاد يؤخذ فلحق بالشام واختلف الرواة فيمن رده إلى ابن زياد فقال بعضهم رده معاوية بن أبي سفيان وقال بعضهم بل رده يزيد بن معاوية والصحيح أنه يزيد لأن عبادا إنما ولي سجستان في أيام يزيد

348 قلت ثم ذكر صاحب الأغاني عقيب هذا الفصل أن سعيد بن عثمان ابن عفان رضي الله عنه دخل على معاوية بن أبي سفيان فقال له علام جعلت ولدك يزيد ولي عهدك دوني فوالله لأبى خير من أبيه وأمي خير من أمه وأنا

خير منه وقد وليناك فما عزلناك وبنا نلت ما نلت فقال له معاوية أما قولك إن أباك خير من أبيه فقد صدقت لعمر الله إن عثمان لخير مني وأما قولك إن أمك خير من أمه فحسب المرأة أن تكون في بيت قومها وأن يرضاهها بعلمها وينجب ولدها وأما قولك إنك خير من يزيد فوالله يا بني ما يسرني أن لي بيزيد ملء الغوطة مثلك وأما قولك إنكم وليتموني فما عزلتموني فما وليتموني وإنما ولاني من هو خير منكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأقررتموني وما كنت بئس الوالي لكم لقد قمت بشاركم وقتلت قتلة أبيكم وجعلت الأمر فيكم وأغنيت فقيركم ورفعت الوضيع منكم فكلمه يزيد في أمره فولاه خراسان رجعنا إلى حديث ابن مفرغ قال الراوي ولم يزل ينتقل في قرى الشام ويهجو بني زياد وأشعاره تنقل إلى البصرة فكتب عبيد الله بن زياد أمير العراق إلى معاوية وقيل إلى يزيد وهو الأصح يقول إن ابن مفرغ هجا زيادا وبني زياد بما هتكه في قبره وفضح بنيه طول الدهر وتعدى إلى أبي سفيان فقفزه بالزنا وسب ولده وهرب من سجستان وطلبته حتى لفظته الأرض وهرب من الشام يتمضغ لحومنا ويهتك أعراضنا وقد بعثت إليك بما قد هجانا به لتتصف لنا منه ثم بعث بجميع ما قاله ابن مفرغ فيهم فأمر يزيد بطلبه فجعل ينتقل في البلاد حتى لفظته الشام فأتى البصرة ونزل على الأحنف بن قيس قلت وهو الذي يضرب به المثل في اللحم وقد سبق ذكره واسمه الضحاك قال فاستجار

349 به فقال له الأحنف إنني لا أجير على ابن سمية فأغرك وإنما يجير الرجل على عشيرته وأما على سلطانه فلا ثم إنه مشى على غيره فلم يجره أحد فأجاره المنذر بن الجارود العبدى وكانت ابنته تحت عبيد الله بن زياد وكان المنذر من أكرم الناس عليه فاغتر بذلك وأدل بموضعه منه وطلبه عبيد الله وقد بلغه وروده البصرة فقبل له أجاره المنذر بن الجارود فبعث عبيد الله إلى المنذر فأتاه فلما دخل عليه بعث عبيد الله بالشرط فكسبوا داره وأتوه بابن مفرغ فلم يشعر ابن الجارود إلا بابن مفرغ قد أقيم على رأسه فقام ابن الجارود إلى عبيد الله فكلمه فيه فقال أذكرك الله أيها الأمير أن تخفر جوارى فإني قد أجرته فقال عبيد الله يا منذر الله ليمدحن أباك ويمدحنك وقد هجاني وهجا أبي ثم تجيره علي لاها الله لا يكون ذلك أبدا ولا أغفرها له فغضب المنذر فقال له لعلك تدلي بكريمتك عندي إن شئت والله لأبيتها بتطبيق البتة فخرج المنذر من عنده وأقبل عبيد الله على ابن مفرغ فقال له بئس ما صحبت به عبادا فقال بل بئس ما صحبتني عباد اخترته على سعيد بن عثمان وأنفقت على صحبتته جميع ما أملكه وظننت أنه لا يخلو من عقل زياد وحلم معاوية وسماحة قريش فعدل

عن ظني كله ثم عاملني بكل قبيح وتناولني بكل مكروه من حبس وغرم وشتم وضرب فكنت كمن شام برقا خلبا في سحاب جهام فأراق ماءه طمعا فيه فمات عطشا وما هربت من أخيك إلا لما خفت أن يجري في ما يندم عليه وقد صرت الآن في يديك فشأنك فاصنع بي ما شئت فأمر بحبسه وكتب إلى يزيد بن معاوية يسأله أن يأذن له في قتله فكتب إليه يزيد إياك وقتله ولكن تناوله بما ينكله ويشد سلطانك ولا يبلغ نفسه فإن له عشيرة هي جندي وبطانتي ولا ترضى بقتله مني ولا تقنع إلا بالقود منك فاحذر ذلك واعلم أنه الجد منهم ومني وأنت مرتهن بنفسه ولك في دون تلفها مندوحة تشفي من الغيظ فورد الكتاب على عبيد الله فأمر بابين مفرغ فسقي نبيذا حلوا قد خلط معه الشبرم وقيل التربذ فأسهل بطنه فطيف به وهو على

350 تلك الحال وقرن بهرة وخنزيرة فجعل يسلخ والصبيان يتبعونه ويصيحون وألح عليه ما يخرج منه حتى أضعته فسقط فقيل لعبيد الله لا نأمن أن يموت فأمر به أن يغسل ففعلوا فلما اغتسل قال (يغسل الماء ما فعلت وقولي * راسخ منك في العظام البوالي) فرده عبيد الله إلى الحبس وقيل لعبيد الله كيف اخترت له هذه العقوبة فقال لأنه سلخ علينا فأحببت أن تسلخ الخنزيرة عليه وكان فيما قاله ابن مفرغ في عباد بن زياد من جملة أبيات عديدة (إذا أودى معاوية بن حرب * فبشر شعب قفيك بانصداع) (فأشهد أن أمك لم تباشر * أبا سفيان واضعة القناع) (ولكن كان أمرا فيه لبس * على وجل شديد وارتياح) وقال أيضا (ألا أبلغ معاوية بن صخر * مغلغلة عن الرجل اليماني) (أتغضب أن يقال أبوك عف * وترضى أن يقال أبوك زاني) (فأشهد أن رحمك من زياد * كرحم الفيل من ولد الأتان) (وأشهد أنها ولدت زيادا * وصخر من سمية غير دان) قلت قوله فأشهد أن رحمك من زياد البيت الثالث أخذه من قول أبي الوليد وقيل أبي عبد الرحمن حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه في بيت من جملة أبيات وهي قوله (لعمرك إن إلك من قریش * كال السقب من رأل النعام) الإل بكسر الهمزة وتشديد اللام وهو الرحم والسقب بفتح السين

351 المهملة وسكون القاف وبعدها باء موحدة وهو الذكر من ولد الناقة والرأل بفتح الراء وبعدها همزة وفي آخره لام وهو ولد النعام (340) وهذه الأبيات قالها حسان في أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن هاشم وهو ابن عم النبي وكان أخاه من الرضاعة أرضعتها حليلة ابنة أبي ذؤيب السعدية وكان من أكثر الناس شبها برسول الله وكان له فيه هجاء وكان حسان

يجابوب عنه فمن ذلك هذه الأبيات الميمية المقدم ذكره ومنها قوله (ألا أبلغ أبا سفيان عني * مغلغة فقد برح الخفاء) (هجوت محمدا فأجبت عنه * وعند الله في ذاك الجزاء) (أتتهجوه ولست له بكفاء * فشركما لخيركما الفداء) (فإن أبي ووالده وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء) وقوله فشركما لخيركما الفداء فيه كلام لأهل العلم لأجل شر وخير لأنهما من أداة التفضيل وتقتضي المشاركة وإنما أجابه حسان بأمر النبي له في ذلك قلت والجماعة الذين كانوا يشبهون رسول الله من أهله خمسة أبو سفيان المذكور والحسن بن علي بن أبي طالب وجعفر بن أبي طالب وقثم بن العباس بن عبد المطلب والسائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم ابن المطلب بن عبد مناف وهو جد الإمام الشافعي رضي الله عنهم أجمعين ثم إن أبا سفيان أسلم عام الفتح وكان ذلك في السنة الثامنة من الهجرة وحسن إسلامه وخرج مع النبي إلى الطائف وحنين ولما انهزم المسلمون يوم حنين كان أبو سفيان أحد السبعة الذين ثبتوا مع النبي حتى رجع إليهم المسلمون وكانت النصره لهم وكسبوا من الغنائم ستة آلاف رأس من الرقيق ثم من النبي عليهم فأطلقهم والشرح في ذلك يطول وليس هذا موضعه وكان أبو سفيان

352 المذكور يومئذ ممسكا لجام بغلة النبي ولم يفارقها وكان النبي يقول إني لأرجو أن يكون فيه خلف من حمزة بن عبد المطلب وشهد له بالجنة فقال أبو سفيان بن الحارث من شباب أهل الجنة أو سيد فتیان أهل الجنة والله أعلم وأكثر العلماء يقولون اسمه كنيته ليس له اسم سواها وقيل إن اسمه المغيرة وقيل المغيرة أخوه وهو أبو سفيان لا غير ويقال إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله منذ أسلم حياء منه لما تقدم من هجائه رجعنا إلى حديث ابن مفرغ وهو من شعراء الحماسة وهو القائل (ألا طرقتنا آخر الليل زينب * عليك سلام هل لما فات مطلب) قيل أراد بالليل الشباب (وقالت تجنبننا ولا تقربننا * فكيف وأنتم حاجتي أتجنب) (يقولون هل بعد الثلاثين ملعب * فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب) (لقد جل خطب الشيب إن كان كلما * بدت شيبة يعرى من اللهو مركب) وذكر المظفري الأندلسي في تاريخه الكبير في جملة هذه الأبيات (فلو أن لحمي إذ وهى لعبت به * كرام ملوك أو أسود وأنؤب) (لهون من وجدي وسلى مصيبيتي * ولكنما أودى بلحمي أكلب)

353 (341) ولما بلغ الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وفاة معاوية ابن أبي سفيان وبيعة ولده يزيد بن معاوية عزم على قصد الكوفة بمكاتبة جماعة من أهلها كما هو مشهور في هذه الواقعة التي قتل فيها الحسين

رضي الله عنه فكان في تلك المدة يتمثل كثيرا بقول يزيد بن مفرغ المذكور من جملة أبيات (لا ذعرت السوام في غلس الصبح * مغيرا ولا دعيت يزيدا) (يوم أعطي على المخافة ضيما * والمنايا يرصدنني أن أحيدا) فعلم من سمع ذلك منه أنه سينازع يزيد بن معاوية في الأمر فخرج الحسين إلى الكوفة وأميرها يومئذ عبيد الله بن زياد فلما قرب منها سير إليه جيشا مقدمه عمر بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقتل الحسين رضي الله عنه بالطرف وجرى ما جرى وروي أن معاوية بن أبي سفيان كتب إلى الحسين رضي الله عنه إنني لأظن في رأسك نزوة ولا بد لك من إظهارها وددت لو أدركتها فأغترها لك وروي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه قال لو كنت من قتلة الحسين وغفر الله لي وأدخلني الجنة لما دخلتها حياء من رسول الله وقال عبيد الله بن زياد لحارثة بن بدر الغداني ما تقول في وفي الحسين يوم القيامة قال يشفع له أبوه وجده ويشفع لك أبوك وجدك فاعرف من هاهنا ما تريد نقلت من كتاب تاريخ شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزغلي المعروف بسبط الحافظ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي الواعظ الذي سماه مرآة الزمان ورأيته بخطه في أربعين مجلدا بدمشق وقد رتبته على السنين فقال في السنة التاسعة والخمسين للهجرة بعد أن قص حديث يزيد بن مفرغ مع بني

354 زياد فقال في آخر الحديث ومات يزيد بن مفرغ في سنة تسع وستين يعني للهجرة والله أعلم وقال أبو اليقظان في كتاب النسب مات عباد بن زياد في سنة مائة للهجرة بجرود قلت وجرود بفتح الجيم وضم الراء وسكون الواو وبعدها دال مهملة وهي قرية من أعمال دمشق من جهة حمص ويكون في أرضها من حمير الوحش شيء كثير يجاوز الحصر ولما وصل بعض عسكر الديار المصرية إلى الشام في أثناء سنة ستين وستمائة وتوجهوا بعسكر الشام إلى أنطاكية وكنت يومئذ بدمشق أقاموا عليها قليلا ثم عادوا فدخلوا دمشق في سلخ شعبان من السنة وأخبرني بعضهم بقضية غريبة يصلح أن تذكر هاهنا لغرابتها وهي أنهم نزلوا على جرود المذكورة واصطادوا من الحمر الوحشية شيئا كثيرا على ما قالوا فذبح واحد من الجماعة حمارا وطبخ لحمه الطبخ المعتاد فلم ينضج ولا قارب النضج فزاد في الحطب والإيقاد فلم يؤثر فيه شيئا ومكث يوما كاملا يفعل ذلك وهو لا يفيد فقام شخص من الجند وأخذ الرأس يقلبه فوجد على أذنه وسما فقرأه فإذا هو بهرام جور فلما وصلوا إلى دمشق أحضروا تلك الأذن عندي فوجدت الوسم ظاهرا وقد رق شعر الأذن إلى أن بقي كالهباء وبقي موضع الوسم أسود وهو بالقلم الكوفي (342)

(وهذا بهرام جور من ملوك الفرس وكان قبل مبعث النبي بزمان طويل وكان من عاداته أنه إذا كثر عليه ما يصطاده وسمه وأطلقه والله أعلم كم كان عمر الحمار لما وسمه والله يعلم لو تركوه ولم يذبحوه كم كان يعيش وعلى الجملة فإن حمار الوحش من الحيوانات المعمرة وهذا الحمار لعله عاش ثمانمائة سنة أو أكثر وهذه جرود في أرضها جبل المدخن المشهور وقد ذكره أبو نواس في قصيدته التي ذكر فيها المنازل لما قصد الخصيب بمصر فقال

355 (ووافين إشراقا كنائس تدمر * وهن إل رعن المدخن صور)
والمدخن بضم الميم وبالذال المهملة وفتح الخاء المعجمة المشددة وبعدها نون وسمي المدخن لأنه لا يزال عليه مثل الدخان من الضباب ثم بعد هذا وجدت في كتاب مفاتيح العلوم تأليف محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الخوارزمي أن بهرام جور بن بهرام بن سابور الجنود بن سابور ذي الأكتاف سمي بهرام جور لأنه كان مولعا بصيد العير وهو الحمار الوحشي والأهلي أيضا انتهى كلامه ثم إنني حسبت مدة ملكهم بعد هذا فكانت إلى سنة الهجرة النبوية مقدار مائتين وست عشرة سنة فقد عاش هذا الحمار منذ وسمه بهرام جور إلى أن ذبح في سنة سنتين وستمائة مقدار ثمانمائة سنة وأكثر والله أعلم قلت وقد تكرر في هذه الترجمة حديث زياد وبنيه وسمية وأبي سفيان ومعاوية وهذه الأشعار التي قالها يزيد بن مفرغ فيهم ومن لا يعرف هذه الأسباب قد يتشوف إلى الاطلاع عليها فنورد منها شيئا مختصرا فأقول (343) إن أبا الجبر الملك الذي ذكره أبو بكر ابن دريد في المقصورة المشهورة في البيت الذي يقوله فيها وهو (وخامرت نفس أبي الجبر الجوى * حتى حواه الحتف فيمن قد حوى) كان أحد ملوك اليمن واسمه كنيته وقيل هو أبو الجبر يزيد بن شرحبيل الكندي وقيل أبو الجبر بن عمرو وتغلب عليه قومه فخرج إلى بلاد فارس يستجيش كسرى عليهم فبعث معه جيشا من الأساورة فلما صاروا إلى كاظمة ونظروا إلى وحشة بلاد العرب وقلة خيرها قالوا إلى أين نمضي مع هذا

356 فعمدوا إلى سم فدفعوه إلى طباخه ووعدوه بالإحسان إليه أن ألقى ذلك السم في طعام الملك ففعل ذلك فما استقر الطعام في جوفه حتى اشتد وجعه فلما علم الأساورة ذلك دخلوا عليه فقالوا له إنك قد بلغت إلى هذه الحالة فاكتب لنا إلى الملك كسرى أنك قد أذنت لنا في الرجوع فكتب لهم بذلك ثم إن أبا الجبر خف ما به فخرج إلى الطائف البليدة التي بالقرب من مكة وكان بها الحارث بن كلدة طبيب العرب الثقفي فعالجه فأبرأه فأعطاه سمية بضم السين

المهملة وفتح الميم وتشديد الياء المثناة من تحتها وفي آخره هاء وعبيدا بضم العين المهملة تصغير عبد وكان كسرى قد أعطاهما أبا الجبر في جملة ما أعطاه ثم ارتحل أبو الجبر يريد اليمن فانتقضت عليه العلة فمات في الطريق (344) ثم إن الحارث بن كلدة الثقفي زوج عبيدا المذكور سمية المذكورة فولدت سمية زيادا على فراش عبيد وكان يقال له زياد بن عبيد وزياد بن سمية وزياد ابن أبيه وزياد ابن أمه وذلك قبل أن يستلحقه معاوية كما سيأتي إن شاء الله تعالى وولدت سمية أيضا أبا بكره نفيح بن الحارث بن كلدة المذكور ويقال نفيح بن مسروح وهو الصحابي المشهور بكنيته رضي الله عنه وولدت أيضا شبل بن معبد ونافع بن الحارث وهؤلاء الإخوة الأربعة هم الذين شهدوا على المغيرة بن شعبة بالزنا وسيأتي خبر ذلك بعد الفراغ من حديث زياد إن شاء الله تعالى وكان أبو سفيان صخر بن حرب الأموي والد معاوية بن أبي سفيان يتهم في الجاهلية بالترداد إلى سمية المذكورة فولدت سمية زيادا في تلك المدة لكنها ولدت على فراش زوجها عبيد ثم إن زيادا كبر وظهرت منه النجابة والبلاغة وهو أحد الخطباء المشهورين في العرب بالفصاحة والدهاء والعقل الكثير حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد استعمل أبا موسى الأشعري رضي الله عنه على البصرة فاستكتب زياد ابن أبيه ثم إن زيادا قدم على عمر رضي الله عنه من عند أبي موسى فأعجب به عمر رضي الله عنه فأمر له بألف درهم ثم تذكرها بعدما مضى فقال لقد ضاع ألف أخذها زياد فلما قدم عليه بعد ذلك قال له ما فعل ألفك يا زياد قال اشتريت بها عبيدا فأعتقته يعني أباه قال ما ضاع ألفك يا زياد هل أنت حامل كتابي إلى أبي موسى في عزلك عن كتابته قال نعم يا أمير المؤمنين إن لم يكن ذلك عن سخطه قال ليس عن سخطه قال فلم تأمره بذلك قال كرهت أن أحمل على الناس فضل عقلك واستكتب أبو موسى بعد زياد أبا الحصين ابن أبي الحر العنبري فكتب إلى عمر رضي الله عنه كتابا فلحن في حرف منه فكتب إليه أن قنع كاتبك سوطا وكان عمر رضي الله عنه إذا وفد إليه من البصرة رجل أحب أن يكون زيادا ليشفيه من الخبر وكان عمر رضي الله عنه قد بعثه في إصلاح فساد وقع باليمن فرجع من وجهه وخطب خطبة لم يسمع الناس مثلها فقال عمرو ابن العاص أما والله لو كان هذا الغلام من قریش لساق العرب بعصاه فقال أبو سفيان والله إنني لأعرف الذي وضعه في رحم أمه فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن هو يا أبا سفيان قال أنا قال مهلا أبا سفيان فقال أبو سفيان (أما والله لولا خوف شخص * يراني يا علي من

(الأعاذي) (لأظهر سره صخر بن حرب * ولم يكن المقالة عن زياد) (وقد طالت مجاملتي ثقيفا * وتركي فيهم ثمر الفؤاد) فلما صار الأمر إلى علي رضي الله عنه وجه زيادا إلى فارس فضبط البلاد وحمى وجبى وأصلح الفساد فكاتبه معاوية يروم إفساده على علي رضي الله عنه فلم يفعل ووجه بكتابه إلى علي وفيه شعر تركته فكتب إليه علي إنما وليتك ما وليتك وأنت أهل لذلك عندي ولن تدرك ما تريده مما أنت فيه إلا بالصبر واليقين وإنما كانت من أبي سفيان فلتة زمن عمر رضي الله عنه لا تستحق بها نسبا ولا ميراثا وإن معاوية يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه فاحذره ثم احذره والسلام فلما قرأ زياد الكتاب قال شهد لي أبو الحسن

358 ورب الكعبة فذلك الذي جرأ زيادا ومعاوية على ما صنعا فلما قتل علي رضي الله عنه وتولى ولده الحسن رضي الله عنه ثم فوض الأمر إلى معاوية كما هو مشهور أراد معاوية استمالة زياد إليه وقصد تأليف قلبه ليكون معه كما كان مع علي رضي الله عنه فتعلق بذلك القول الذي صدر من أبيه بحضرة علي وعمر بن العاص فاستلحق زيادا في سنة أربع وأربعين للهجرة فصار يقال له زياد بن أبي سفيان فلما بلغ أخاه أبا بكر أن معاوية استلحقه وأنه رضي ذلك حلف يمينا أن لا يكلمه أبدا وقال هذا زنى أمه وانتفى من أبيه والله ما علمت سمية رأت أبا سفيان قط ويله ما يصنع بأب حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي أيريد أن يراها فإن حجبته فضحته وإن رآها فيا لها مصيبة يهتك من رسول الله حرمة عظيمة وحج زياد في زمن معاوية ودخل المدينة فأراد الدخول على أم حبيبة لأنها أخته على زعمه وزعم معاوية ثم ذكر قول أخيه أبي بكر فأنصرف عن ذلك وقيل إن أم حبيبة حجبته ولم تأذن له في الدخول عليها وقيل أنه حج ولم يزر من أجل قول أبي بكر وقال جرى الله أبا بكر خيرا فما يدع النصيحة على حال وقدم زياد على معاوية وهو نائب عنه

359 وحمل معه هدايا جليلة من جملتها عقد نفيس فأعجب به معاوية فقال زياد يا أمير المؤمنين دوخت لك العراق وجبيت لك برها وبحرها وحملت إليك لبها وسرها وكان يزيد بن معاوية جالسا فقال له أما إنك إذ فعلت ذلك فإننا نفلناك من ثقيف إلى قریش ومن عبيد إلى أبي سفيان ومن القلم إلى المنابر فقال له معاوية حسبك وريت بك زنادي وقال أبو الحسن المدائني أخبرنا أبو الزبير الكاتب عن ابن إسحاق قال اشترى زياد أباه عبيدا فقدم زياد على عمر رضي الله عنه فقال له ما صنعت بأول شيء أخذت من عطائك قال اشتريت به أبي قال فأعجب ذلك عمر رضي الله عنه وهذا ينافي استلحاق معاوية إياه والله

أعلم ولما ادعى معاوية زيادا دخل عليه بنو أمية وفيهم عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم الأموي فقال يا معاوية لو لم تجد إلا الزنج لاستكثرت بهم علينا قلة وذلة فأقبل معاوية على أخيه مروان بن الحكم وقال أخرج عنا هذا الخليع فقال مروان والله إنه لخليع ما يطاق قال معاوية والله لولا حلمي وتجاوزي لعلمت أنه يطاق ألم يبلغني شعره في وفي زياد ثم قال لمروان أسمعيه فقال (ألا أبلغ معاوية بن صخر * لقد ضاقت بما تأتي اليدان) (أتغضب أن يقال أبوك عف * وترضى أن يقال أبوك زان) وقد تقدم ذكر بقية هذه الأبيات منسوبة إلى يزيد بن مفرغ وفيها خلاف هل هي ليزيد بن مفرغ أم لعبد الرحمن بن الحكم فمن رواها لابن مفرغ روى البيت الأول على تلك الصورة ومن رواها لعبد الرحمن رواها على هذه الصورة ولما استلحق معاوية زيادا وقربه وأحسن إليه وولاه صار من أكبر الأعوان على بني علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى قيل إنه لما كان أمير العراقيين طلب رجلا من أصحاب الحسن بن علي رضي الله عنهما يعرف بابن سرح وكان في الأمان الذي كتب لأصحاب الحسن رضي الله عنه لما نزل

360 عن الخلافة لمعاوية فكتب الحسن إلى زياد من الحسن إلى زياد أما بعد فقد علمت ما كنا أخذنا لأصحابنا من الأمان وقد ذكر لي ابن سرح أنك عرضت له فأحب أن لا تعرض له إلا بخير والسلام فلما أتاه الكتاب وقد بدأ فيه بنفسه ولم ينسبه إلى أبي سفيان غضب وكتب إليه من زياد ابن أبي سفيان إلى الحسن أما بعد فإنه أتاني كتابك في فاسق تؤويه الفساق من شيعتك وشيعة أبيك وإيم الله لأطلبه ولو كان بين جلدك ولحمك وإن أحب الناس إلي لحم أن آكله للحم أنت منه فلما قرأه الحسن رضي الله عنه بعث به إلى معاوية فلما قرأه غضب وكتب إلى زياد من معاوية بن أبي سفيان إلى زياد أما بعد فإن الحسن بن علي بعث إلي كتابك إليه جواب كتابه كان إليك في ابن سرح فأكثر التّعجب منه وقد علمت أن لك رأيين رأي من أبي سفيان ورأي من سمية فأما رأيك من أبي سفيان فحلم وحزم وأما رأيك من سمية فكما يكون رأي مثلها ومن ذلك كتابك إلى الحسن تسميه وتعرض له بالفسق ولعمري لأنت أولى بذلك منه فإن كان الحسن بدأ بنفسه ارتفعا عنك فإن ذلك لن يضعك وأما تركك تشفيعه فيما شفع فيه إليك فحظ دفعته عن نفسك إلى من هو أولى به منك فإذا أتاك كتابي فخل ما بيدك لابن سرح ولا تعرض له فيه فقد كتبت إلى الحسن يخيره إن شاء أقام عنده وإن شاء رجع إلى بلده وإنه ليس لك عليه سبيل بيد ولا لسان وأما كتابك إلى الحسن باسمه ولا تنسبه إلى أبيه فإن الحسن

ويحك ممن لا يرمى به الرجوان أفاستصغرت أباه وهو علي ابن أبي طالب أم إلى أمه وكتته وهي فاطمة بنت رسول الله فذلك أفر له إن كنت عقلت والسلام قوله لا يرمى به الرجوان بفتح الراء الجيم وهو لفظ مثنى ومعناه المهالك قلت وقد رويت هذا الحكاية على صورة أخرى وهي كان سعيد

361 ابن سرح مولى كريز بن حبيب بن عبد شمس من شيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه فلما قدم زياد ابن أبيه الكوفة واليا عليها أخافه وطلبه فأتى المدينة فنزل على الحسين بن علي رضي الله عنه فقال له الحسين ما السبب الذي أشخصك وأزعجك فذكر له قضيته وصنيع زياد به فكتب إليه الحسين أما بعد فإنك عمدت إلى رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم فهدمت داره وأخذت ماله وعياله فإذا أتاك كتابي هذا فابن له داره واردد عليه ماله وعياله فإني قد أجرته فشفعني فيه فكتب إليه زياد من زياد بن أبي سفيان إلى الحسين بن فاطمة أما بعد فقد أتاني كتابك تبدأ فيه باسمك قبل اسمي وأنت طالب حاجة وأنا سلطان وأنت سوقة وكتابك إلي في فاسق لا يؤويه إلا فاسق مثله وشر من ذلك توليه أباك وقد أويته إقامة منك على سوء الرأي ورضى بذلك وايم الله لا تسبقني إليه ولو كان بين جلدك ولحمك فإن أحب لحم إلي أن آكله للحم أنت منه فأسلمه بجريرته إلى من هو أولى به منك فإن عفوت عنه لم أكن شفعتك وإن قتلته لم أقتله إلا بحبه أباك فلما قرأ الحسين رضي الله عنه الكتاب كتب إلى معاوية يذكر له حال ابن سرح وكتابه إلى زياد فيه وإجابة زياد إياه ولف كتابه في كتابه وبعث به إليه وكتب الحسين إلى زياد من الحسين بن فاطمة بنت رسول الله إلى زياد بن سمية عبد بني ثقيف الولد للفراس وللعاهر الحجر فلما قرأ معاوية كتاب الحسين رضي الله عنه ضاقت به الشام وكتب إلى زياد أما بعد فإن الحسين بن علي بعث إلي بكتابك جواب كتابه إليك في ابن سرح فأكثرته التعجب منه وعلمت أن لك رأيين أحدهما من أبي سفيان وآخر من سمية فأما الذي من أبي سفيان فحلم وحزم وأما الذي من سمية فكما يكون رأي مثلها ومن ذلك كتابك إلى الحسين تشتم أباه وتعرض له بالفسق ولعمري لأنت أولى بالفسق من الحسين ولأبوك إذ كنت تنسب إلى عبيد أولى بالفسق من أبيه وإن كان الحسين بدأ بنفسه ارتفاعا عنك فإن ذلك لم يضعك وأما تشفيعه فيما شفع إليك فيه فحظ دفعته عن نفسك إلى من هو أولى به منك فإذا قدم عليك كتابي هذا فخل ما في يدك لسعيد بن سرح وابن له

362 داره ولا تعذر له واردد عليه ماله فقد كتبت إلى الحسين أن يخبر صاحبه بذلك فإن شاء أقام عنده وإن شاء رجع إلى بلده فليس لك عليه سلطان

بيد ولا لسان وأما كتابك إلى الحسين باسمه واسم أمه لا تنسبه إلى أبيه فإن الحسين ويملك ممن لا يرمى به الرجوان ألى أمه وكنته لا أم لك فهي فاطمة بنت رسول الله فتلك أفخر له إن كنت تعقل والسلام وقال عبيد الله بن زياد ما هجيت بشيء أشد على من قول ابن مفرغ (فكر ففي ذاك إن فكرت معتبر * هل نلت مكرمة إلا بتأمير) (عاشت سمية ما عاشت وما علمت * أن ابنها من قریش في الجماهير) وقال قتادة قال زياد لبنيه وقد احتضر ليت أباكم كان راعيا في أدناها وأقصاها ولم يقع بالذي وقع به قلت فبهذا الطريق كان ينظم ابن مفرغ هذه الأشعار في زياد وبنيه ويقول إنهم أدياء حتى قال في زياد وأبي بكره ونافع أولاد سمية (إن زيادا ونافعا وأبا * بكره عندي من أعجب العجب) (هم رجال ثلاثة خلقوا * في رحم أنثى وكلهم لأب) (ذا قرشي كما يقول وذا * مولى وهذا بزعمه عربي) (345) وهذه الأبيات تحتاج إلى زيادة إيضاح فأقول قال أهل العلم بالأخبار إن الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى بن غيرة ابن عوف بن قسي وهو ثقيف هكذا ساق هذا النسب ابن الكلبي في كتاب الجمهرة وهو طبيب العرب المشهور ومات في أول الإسلام وليس يصح إسلامه وروي أن رسول الله أمر سعد بن أبي وقاص

363 أن يأتي الحارث يستوصفه في مرض نزل به فدل ذلك على أنه جائز أن يشاور أهل الكفر في الطب إذا كانوا من أهله وكان ولده الحارث بن الحارث من المؤلفة قلوبهم وهو معدود في جملة الصحابة رضي الله تعالى عنهم ويقال إن الحارث بن كلدة كان رجلا عقيما لا يولد له وإنه مات في خلافة عمر رضي الله عنه (346) ولما حاصر رسول الله الطائف قال أيما عبد تدلى إلي فهو حر فنزل أبو بكره رضي الله عنه من الحصن في بكرة قلت وهي بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف وبعدها راء ثم هاء وهي التي تكون على البئر وفيها الحبل يستقى به والناس يسمونها بكرة بفتح الكاف وهو غلط إلا أن صاحب كتاب مختصر العين حكاها بالفتح أيضا وهي لغة ضعيفة لم يحكها غيره قال فكناه رسول الله أبا بكره لذلك وكان يقول أنا مولى رسول الله وأراد أخوه نافع أن يدلي نفسه في البكرة أيضا فقال له الحارث بن كلدة أنت ابني فأقم فأقام ونسب إلى الحارث وكان أبو بكره قبل أن يحسن إسلامه ينسب إلى الحارث أيضا فلما حسن إسلامه ترك الانتساب إليه ولما هلك الحارث بن كلدة لم يقبض أبو بكره من ميراثه شيئا تورعا هذا عند من يقول إن الحارث أسلم وإلا فهو محروم من الميراث لاختلاف الدين فلماذا قال ابن مفرغ الأبيات

الثلاثة البائية لأن زيادا ادعى أنه قرشي باستلحاق معاوية له وأبو بكر اعترف بولاء رسول الله ونافع كان يقول إنه ابن الحارث بن كلدة الثقفي وأهمم واحدة وهي سمية المذكورة وهذا سبب نظم البيتين في آل أبي بكر كما تقدم ذكره وعلاج جد الحارث بن كلدة كما ذكرته

364 هذه قصة زياد وأولاده ذكرتها مختصرة قلت إلا أن قول ابن مفرغ في البيت الثاني وكلهم لأب ليس بجيد فإن زيادا ما نسبه أحد إلى الحارث ابن كلدة بل هو ولد عبيد لأنه ولد على فراشه وأما أبو بكر ونافع فقد نسبا إلى الحارث فكيف يقول وكلهم لأب فتأمله وذكر ابن النديم في كتابه الذي سماه الفهرست أن أول من ألف كتابا في المثالب زياد ابن أبيه فإنه لما طعن عليه وعلى نسبه عمل ذلك لولده وقال لهم استظفروا به على العرب فإنهم يكفون عنكم وأما حديث المغيرة بن شعبة الثقفي والشهادة عليه فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد رتب المغيرة أميرا على البصرة وكان يخرج من دار الإمارة نصف النهار وكان أبو بكر المذكور يلقاه فيقول أين يذهب الأمير فيقول في حاجة فيقول إن الأمير يزار ولا يزور قالوا وكان يذهب إلى امرأة يقال لها أم جميل بنت عمرو وزوجها الحجاج بن عتيك بن الحارث بن وهب الجشمي وقال ابن الكلبي في كتاب جمهرة النسب هي أم جميل بنت الأفقم بن محجن بن أبي عمرو بن شعبيثة ابن الهزم وعدادهم في الأنصار وزاد غير ابن الكلبي فقال الهزم بن ربيعة ابن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن والله أعلم قال الراوي فبينما أبو بكر في غرفة مع إخوته وهم نافع وزياد المذكوران وشبل بن معبد والجميع أولاد سمية المذكورة فهم إخوة لأم وكانت أم جميل المذكورة في غرفة أخرى قبالة هذه الغرفة فضربت الريح باب غرفة أم جميل ففتحته ونظر القوم فإذا هم بالمغيرة مع المرأة على هيئة الجماع فقال أبو بكر هذه بلية قد ابتليت بها فانظروا فانظروا حتى أثبتوا فنزل أبو بكر فجلس حتى خرج عليه المغيرة من بيت المرأة فقال له إنه قد كان من أمرك ما قد علمت فاعتزلنا قال وذهب المغيرة ليصلي بالناس الظهر

365 ومضى أبو بكر فقال لا والله لا تصلي بنا وقد فعلت ما فعلت فقال الناس دعوه فليصل فإنه الأمير واكتبوا بذلك إلى عمر رضي الله عنه فكتبوا إليه فأمرهم أن يقدموا عليه جميعا المغيرة والشهود فلما قدموا عليه جلس عمر رضي الله عنه فدعا بالشهود والمغيرة فنقدم أبو بكر فقال له رأيت بين فخذيها قال نعم والله لكأني أنظر إلى تشريم جدري بفخذيها فقال له المغيرة لقد ألطفت

في النظر فقال أبو بكره لم آل أن أثبت ما يخزيك الله به فقال عمر رضي الله عنه لا والله حتى تشهد لقد رأيت يلع فيها ولوج المروء في المكحلة فقال نعم أشهد على ذلك فقال فاذهب عنك مغيرة ذهب ربك ثم دعا ناعفا فقال له علام تشهد قال على مثل شهادة أبي بكره قال لا حتى تشهد أنه ولج فيها ولوج الميل في المكحلة قال نعم حتى بلغ قذذه قلت القذذ بالقاف المضمومة وبعدها ذالان معجمتان وهي ريش السهم قال الراوي فقال له عمر رضي الله عنه اذهب مغيرة ذهب نصفك ثم دعا الثالث فقال له على ما تشهد فقال على مثل شهادة صاحبي فقال له عمر رضي الله عنه اذهب عنك مغيرة ذهب ثلاثة أرباعك ثم كتب إلى زياد وكان غائبا فقدم فلما رآه جلس له في المسجد واجتمع عنده رؤوس المهاجرين والأنصار فلما رآه مقبلا قال إني أرى رجلا لا يخزي الله على لسانه رجلا من المهاجرين ثم إن عمر رضي الله عنه رفع رأسه إليه فقال ما عندك يا سلح الحبارى فقيل إن المغيرة قام إلى زياد فقال لا مخبا لعطر بعد عروس قلت وهذا مثل العرب لا حاجة إلى الكلام عليه فقد طالت هذه الترجمة كثيرا قال الراوي فقال له المغيرة يا زياد اذكر الله تعالى واذكر موقف يوم القيامة فإن الله تعالى وكتابه ورسوله وأمير المؤمنين قد حقنوا دمي إلا أن تتجاوز إلى ما لم تر مما رأيت فلا يحملنك سوء منظر رأيت على أن تتجاوز إلى ما لم تر فوالله لو كنت بين بطني ووطنها ما رأيت أن يسلك ذكري فيها قال فدمعت عينا زياد واحمر وجهه وقال يا أمير

366 المؤمنين أما إن أحق ما حق القوم فليس عندي ولكن رأيت مجلسا وسمعت نفسا حثينا وانتهازا ورأيت مستبطنها فقال عمر رضي الله عنه رأيت يدخل كالميل في المكحلة فقال لا وقيل قال زياد رأيت رافعا رجليها فرأيت خصيه تتردد إلى بين فخذيها ورأيت حفزا شديدا وسمعت نفسا عاليا فقال عمر رضي الله عنه رأيت يدخله ويخرجه كالميل في المكحلة فقال لا فقال عمر رضي الله عنه أكبر قم إليهم فاضربهم فقام إلى أبي بكره فضربه ثمانين وضرب الباقيين وأعجبه قول زياد ودرأ الحد عن المغيرة فقال أبو بكره بعد أن ضرب أشهد أن المغيرة فعل كذا وكذا فهم عمر رضي الله عنه أن يضربه حدا ثانيا فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه إن ضربته فارجم صاحبك فتركه واستتاب عمر أبا بكره فقال إنما تستتيني لتقبل شهادتي فقال أجل فقال لا أشهد بين اثنين ما بقيت في الدنيا فلما ضربوا الحد قال المغيرة الله أكبر الحمد لله الذي أخراكم فقال عمر رضي الله عنه بل أخزى الله مكانا رأوك فيه وذكر عمر بن شبة في كتاب أخبار البصرة أن أبا بكره لما جلد أمرت أمه بشاة

فذبحت وجعلت جلدها على ظهره فكان يقال ما ذاك إلا من ضرب شديد وحكى عبد الرحمن بن أبي بكرة أن أباه حلف لا يكلم زيادا ما عاش فلما مات أبو بكرة كان قد أوصى أن لا يصلي عليه زياد وأن يصلي عليه أبو برزة الأسلمي وكان النبي آخى بينهما وبلغ ذلك زيادا فخرج إلى الكوفة وحفظ المغيرة بن شعبة ذلك لزياد وشكره ثم إن أم جميل وافقت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالموسم والمغيرة هناك فقال له عمر أتعرف هذه المرأة يا مغيرة قال نعم هذه أم كلثوم بنت علي فقال له عمر أتتجاهل علي والله ما أظن أبا بكرة كذب عليك وما رأيتك إلا خفت أن أرمى بحجارة من السماء قلت ذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في أول باب عدد الشهود في كتاب المهذب وشهد على المغيرة ثلاثة أبو بكرة ونافع وشبل بن معبد

367 وقال زياد رأيت استا تنبو ونفسا يعلو ورجلين كأنهما أذنا حمار ولا أدري ما وراء ذلك فجلد عمر الثلاثة ولم يحد المغيرة قلت وقد تكلم الفقهاء على قول علي رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه إن ضربته فارجم صاحبك فقال أبو نصر ابن الصباغ المقدم ذكره وهو صاحب كتاب الشامل في المذهب يريد أن هذا القول إن كان شهادة أخرى فقد تم العدد وإن كان هو الأول فقد جلده عليه والله أعلم وذكر عمر بن شبة في أخبار البصرة أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه إن رسول الله أقطعني البحرين فقال ومن يشهد لك بذلك قال المغيرة بن شعبة فأبى أن يجيز شهادته قلت وقد طالت هذه الترجمة وسببه أنها اشتملت على عدة وقائع فدعت الحاجة إلى الكلام على كل واحدة منها فانتشر القول لأجل ذلك وما خلا عن فوائد 822 يزيد بن الطثرية الشاعر المشهور أبو المكشوح يزيد بن سلمة بن سمرة بن سلمة الخير بن قشير بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة المعروف بابن الطثرية الشاعر المشهور هكذا ساق نسبه أبو عمرو الشيباني وإنما قيل لجدته سلمة الخير لأنه كان لقشير ولد آخر يقال له سلمة الشر قال وقد قيل إنه يزيد بن المنتشر بن

368 سلمة وذكر ابن الكلبي أنه يزيد بن الصمة أحد بني سلمة الخير بن قشير وذكر البصريون أنه من ولد الأعور بن قشير ذكر أبو الحسن علي بن عبد الله الطوسي في أول ديوان يزيد بن الطثرية المذكور وكان الطوسي قد اعتنى به وجمعه فقال كان ابن الطثرية شاعرا مطبوعا عاقلا فصيحاً كامل الأدب وافر المروءة لا يعاب ولا يطعن عليه وكان سخيا شجاعا له أصل ومحل في قومه من قشير وكان من شعراء بني أمية مقدما عندهم وقال غير

الطوسي كان يزيد بن الطثرية يسمى مودقا سمي بذلك لحسن وجهه وحسن شعره وحلاوة حديثه فكانوا يقولون إنه إذا جلس بين النساء ودقهن يقال استودقت المرأة وودقت إذا مالت إلى الفحل لأجل الجماع والأصل في هذه اللفظة أن تكون لذوات الحافر ثم نقلت إلى بني آدم وهي بالبدال المهملة والقاف والمودق هو الذي يجعل النساء يملن عليه وكان يزيد كثيرا ما يجلس عند النساء ويتحدث معهن ويقال إنه كان عنيانا لا يأتي النساء وليس له عقب وهو من أعيان الشعراء ذكره أبو تمام الطائي في كتاب الحماسة في عدة مواضع فمن ذلك قوله في باب النسب (عقيلية أما ملات إزارها * فدعص وأما خصرها فبتيل) (تقيظ أكناف الحمى ويظلها * بنعمان من وادي الأراك مقيل) (أليس قليلا نظرة إن نظرتها * إليك وكل ليس منك قليل) (فيا خلة النفس التي ليس دونها * لنا من أخلاء الصفاء خليل) (ويا من كتمنا حبه لم يطع به * عدو ولم يؤمن عليه دخيل) (أما من مقام أشتكى غربة النوى * وخوف العدا فيه إليك سبيل) (فديتك أعدائي كثير وشقتي * بعيد وأشياعي لديك قليل) (فلا تحملي ذنبي وأنت ضعيفة * فحمل دمي يوم الحساب ثقيل)

369 (وكنت إذا ما جئت جئت بعلة * فأفانيت علاتي فكيف أقول) (فما كل يوم لي بأرضك حاجة * ولا كل يوم لي إليك رسول) وكان أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني قد جمع شعر يزيد ابن الطثرية أيضا في ديوان وأورد له قوله (ألا بأبي من قد برى الجسم حبه * ومن هو موموق إلى حبيب) (ومن هو لا يزداد إلا تشوقا * وليس يرى إلا عليه رقيب) (وإني وإن أحموا علي كلامها * وحالت أعاد دوننا وحر وب) (لمثن على ليلي ثناء يزينها * قواف بأفواه الرجال تطيب) (أليلى احذري نقض القوى لا يزل لنا * على النأي والهجران منك نصيب) (وكوني على الواشين لداء شغبة * كما أنا للواشي ألد شغوب) (فإن خفت ألا تحكمي مرة الهوى * فردي فوادي والمزار قريب) (وأورد له أيضا (بنفسي من لو مر برد بنانه * على كبدي كانت شفاء أنامله) (ومن هابني في كل شيء وهبته * فلا هو يعطيني ولا أنا سائله) (وأما أبو الحسن الطوسي فإنه أورد له (وإني لأستحيي من الله أن أرى * رديفا لوصل أو علي رديف) (وأن أورد الماء الموطا حنيه * وأتبع وصلا منك وهو ضعيف) قلت ورأيت في موضع آخر بعد البيت الأول

370 (وإني للماء المخالطه القذى * وإن كثرت وراده لعيوف) (وأورد له الطوسي أيضا (ألا رب راج حاجة لا ينالها * وآخر قد تقضى له وهو جالس) (يجول لها هذا وتقضى لغيره * وتأتي الذي تقضى له وهو آيس)

وأورد له أيضا من جملة أبيات (برغمي أطيل الصد عنها إذا نأت * أحاذر
أسماعا عليها وأعينا) (أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى * فصادف قلبا
خاليا فتمكنا) وأورد له أيضا أبياتا منها قوله (وقولا إذا عدت ذنوبا كثيرة *
علينا تجناها ذري ما تغيبا) (هبيني امرأ إما بريئا ظمته * وإما مسيئا تاب
بعد وأعتبا) (فلما أبت لا تقبل العذر وارتمى * بها كذب الواشين شأوا مغربا
(تعزيت عنها بالسلو ولم أكن * لمن ضن عني بالمودة أقربا) (وكنت
كذي داء تبغى لدائه * طبيبا فلما لم يجده تطيبا) وأورد له أبو عبد الله
المرزباني في كتاب معجم الشعراء وهي في الحماسة أيضا وقد رويت أيضا
لعبد الله بن الدمينة الخثعمي والله أعلم (بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له *
ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب) (ولم يعتذر عذر البريء ولم تنزل * به
رعدة حتى يقال مريب) وأورد له المرزباني في المعجم أيضا (حننت إلى
ريا ونفسك باعدت * مزارك من ريا وشعبا كما معا)

371 (فما حسن أن تأتي الأمر طائعا * وتجزع أن داعى الصبابة
أسمعا) (قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى * وقل لنجد عندنا أن يودعا)
(ولما رأيت البشر أعرض دوننا * وجالت بنات الشوق يحزن نزعا) (بكت
عيني اليمنى فلما زجرتها * عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا) (تلفت نحو
الحي حتى وجدنتي * وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا) (وأذكر أيام الحمى
ثم أنثني * على كبدي من خشية أن تقطعا) (وليست عشيات الحمى برواجع
* عليك ولكن خل عينيك تدمعا) قلت وهي أبيات في غاية الرقة واللطافة
وذكرها أبو تمام الطائي في كتاب الحماسة في أول باب النسب وقال إنها
للصمة بن عبد الله القشيري والله أعلم بالصواب في ذلك وقال أبو عمر
يوسف بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب في أخبار الصحابة رضي الله
عنهم وقد تقدم ذكره في كتاب بهجة المجالس ما مثاله للصمة بن عبد الله
القشيري (أما وجلال الله لو تذكريني * كذكرك ما كفكفت للعين مدمعا)
(فقالت بلى والله ذكرا لو أنه * يصب على الصخر الأصم تصدعا) ثم قال بعد
ذلك وأكثرهم ينسبون إليه في هذا الشعر (حننت إلى ريا ونفسك باعدت *
مزارك من ريا وشعبا كما معا) وذكر الأبيات بكمالها كما ذكرها في الحماسة
وبعد الفراغ منها قال ومنهم من ينسبها إلى قيس بن ذريح وإلى المجنون أيضا
والأكثر أنها للصمة والله أعلم

372 قلت فقد وقع الاختلاف في أن هذه الأبيات العينية هل هي ليزيد بن
الطثرية أم للصمة بن عبد الله القشيري أم لقيس بن ذريح أم للمجنون والله

أعلم قلت وذكره المرزباني أيضا في كتاب المونق فقال أنشدني أبو الخنبر لابن الطثرية (وحننت قلوصي بعد هذا صباية * فيا روعة ما راع قلبي حنينها) (فقلت لها صبورا فكل قرينة * مفارقها لا بد يوما قرينها) وأورد له أيضا (كيف العزاء وأنت أومق من مشى * والنفس معولة ودارك نائيه) (بيديك قتلي إن أردت منيتي * وشفاء نفسي إن أردت شفائيه) (ولقد عرفت فما أويت لمدنف * ما النفس عنك وإن نأيت بساليه) وأورد له أيضا (إذا نحن جننا لم تجمل بزينة * حذار الأعادي وهي باد جمالها) (ولا نبتديها بالسلام ولم نقل * لهم من توقي شرهم كيف حالها) وأورد له أشياء كثيرة غير هذا فنقتصر على هذا القدر وقال أبو بكر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري في كتاب أنساب الأشراف بعد ما ذكر مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان الأموي الحكمي ووقائع جرت في سنة ست وعشرين ومائة فكان في أثناء ذلك وقعة قتل فيها المندلث ابن إدريس الحنفي وقتل معه يزيد بن الطثرية المذكور على قرية يقال لها الفلج بفتح الفاء واللام وفي آخره الجيم وأظنها من قرى اليمامة ثم وجدت في كتاب أبي بكر الحازمي الذي صنفه في أسماء المواضع أن فلج بفتح الفاء واللام وآخره جيم قرية عظيمة لبني جعدة بها منبر يقال لها فلج الأفلاج

373 من ناحية اليمامة وقال غيره فلج بينها وبين هجر التي هي قصبة البحرين ستة أيام وبينها وبين مكة تسعة أيام والله أعلم وذكر أبو إسحاق الزجاج في كتاب معاني القرآن الكريم في سورة الفرقان أن الرس قرية باليمامة يقال لها فلج فتكون هي هذه القرية على ما قال وأما الذي جاء في قول الشاعر (وإن الذي حانت بفلج دماؤهم * هم القوم كل القوم يا أم خالد) فإنه بفتح الفاء وسكون اللام وهو واد بين البصرة وحمى ضرية وضرية قرية على القرب من مكة شرفها الله تعالى وأما فلجة الذي جاء في شعر بعض العرب (ألا حبذا أعلام فلجة بالضحى * وخيم روابي جلهتها المنصب) (يقولون ملح ماء قلجة آجن * أجل هو ملوح إلى القلب طيب) فهذا الاسم يقع على موضعين أحدهما منزل بين مكة والبصرة والثاني موضع بالعقيق وكانت به الواقعة في السنة التي قتل فيها الوليد بن يزيد الأموي المذكور رجعا إلى ما كنا فيه وكان قتل الوليد في جمادى الآخرة يوم الخميس لليلتين بقيتا منها من سنة ست وعشرين ومائة بالبراء بفتح الباء الموحدة وسكون الخاء المعجمة وبعد الراؤ ألف ممدودة وذكر أبو الحسن الطوسي المذكور في هذه الواقعة أن

الراية كانت مع يزيد بن الطثرية فلما قتل المنذلت وهرب أصحابه ثبت يزيد بن الطثرية بالراية وكانت عليه جبة خز فتشبتت في عشرة قلت
374 وهي بضم العين المهملة وفتح الشين وبعدها راء مفتوحة ثم هاء وهي شجرة لها صمغ من شجر العضاه قال فعثر فضربه بنو حنيفة حتى قتلوه قلت وذكر هذه الواقعة بعد قتل الوليد في التاريخ المذكور فيكون قتل يزيد ابن الطثرية بين تاريخ قتل الوليد بن يزيد وبين آخر سنة ست وعشرين ومائة والله أعلم وذكر أبو الفرج الأصبهاني في أول الديوان الذي جمعه من شعر يزيد بن الطثرية أن بني حنيفة قتلته في خلافة بني العباس والأول أصح ولما قتل ابن الطثرية رثاه القحيف بن حمير بن سليم الندى بن عبد الله العقبلي بقوله (ألا تبكي سراة بني قشير * على صنديدها وعلى فتاها) (أبا المكشوح بعدك من يحامي * ومن يزجي المطي على وجاها) ورثى القحيف أيضا الوليد بن يزيد ورثاه أخوه ثور بن سلمة بقوله (أرى الأثل من بطن العقيق مجاوري * مقيما وقد غالت يزيد غوائله) وهي من الشعر المختار وذكر أبو تمام الطائي في الحماسة أن هذه الأبيات لأخته زينب بنت الطثرية وقيل إنها لأمه والله أعلم وذكر الطوسي المذكور أن هذه الواقعة كانت بالعقيق وقال ياقوت الحموي في كتاب المشترك وضعا إن العقيق عشرة مواضع قال الأصمعي الأعقة الأودية التي تشقها السيول ثم عد المواضع فقال الثالث عقيق عارض بأرض اليمامة وهو واد واسع مما يلي العرمة تندفق فيه شعاب العارض وفيه عيون وقرى ثم قال والعقيق من قرى اليمامة لبني عقيل وهو عقيق نمرة في طريق اليمن من اليمامة

375 قلت فيحتمل أن يكون المراد بقوله بطن العقيق في هذا البيت العقيق الأول ويحتمل العقيق الثاني والله أعلم وإنما كني ابن الطثرية بأبي المكشوح لأنه كان على كشحه كي نار والكشح بفتح الكاف وسكون الشين المعجمة وبعدها الحاء المهملة وهي الخاصرة والطثرية بفتح الطاء المهملة وسكون التاء المثناة وبعدها راء ثم ياء النسب وهاء التأنيث وهي أمه ينسب يزيد المذكور إليها وهي من بني طثر بن عنز بن وائل والطثر الخصب وكثرة اللبن يقال إن أمه ولدت في عام هذا وصفه وقيل بل ولدته في عام هذا شأنه ويقال إن أمه كانت مولعة بإخراج زبد اللبن فسميت الطثرية وطثرة اللبن زبدته والله أعلم قلت وهذا الكلام في النفس منه شيء فإنهم قالوا إن أمه من بني طثر ابن عنز بن وائل فعلى هذا تكون أمه منسوبة إلى هذه القبيلة فلا معنى حينئذ لقولهم إن أمه ولدت في عام هذا وصفه أو ولد هو في عام هذا

شأنه أو أو كانت أمه تخرج الزبد من اللبن فتأمله إلا أن يكون عندهم فيه خلاف هل هو منسوب إلى القبيلة أم إلى هذا المعنى الثاني والله أعلم بالصواب في ذلك ويروى لزینب بنت الطثرية أخت يزيد المذكور شيء كثير من الشعر فمن ذلك قولها في المديح (أشم إذا ما جئت للعرف طالبا * حباك بما تحنو عليه أنامله) (ولو لم يكن في كفه غير روحه * لجاد بها فليتق الله سائله) وينسب هذان البيتان إلى زياد الأعجم أيضا والبيت الثاني منهما يوجد في ديوان أبي تمام الطائي أيضا في قصيدته التي أولها (أجل أيها الربع الذي خف أهله * لقد أدركت فيك النوى ما تحاوله) والله أعلم بالصواب

376 823 الماجشون أبو يوسف يعقوب بن أبي سلمة دينار وقيل ميمون الملقب بالماجشون القرشي التيمي من موالى آل المنكدر من أهل المدينة سمع ابن عمر رضي الله عنهما وعمر بن عبد العزيز ومحمد بن المنكدر وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج روى عنه ابنه يوسف وعبد العزيز وابن أخيه عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة وقال يعقوب بن شيبة الماجشون يعقوب بن أبي سلمة مولى آل الهدير وكان يعقوب مع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في ولاية عمر المدينة يحدثه ويأنس به فلما استخلف عمر رضي الله عنه قدم عليه الماجشون فقال له عمر إنا تركناك حيث تركنا لبس الخز فانصرف عنه وذكره محمد بن سعد في كتاب الطبقات وقال يعقوب بن شيبة قال مصعب وكان الماجشون يعين ربيعة الرأي على أبي الزناد لأن أبا الزناد كان معاديا لربيعة الرأي فكان أبو الزناد يقول مثلي ومثل الماجشون مثل ذئب كان يلح على أهل قرية فيأكل صبيانهم فاجتمعوا له وخرجوا في طلبه فهرب منهم فانقطعوا عنه إلا صاحب فخار فإنه ألح في طلبه فوقف له الذئب فقال هؤلاء أعذرهم فأنت ما لي ولك ما كسرت لك فخارة قط والماجشون ما كسرت له كبرا ولا بربطاً قط وقال ابن الماجشون عرج بروح الماجشون فوضعناه على سرير الغسل

377 وقلنا للناس نروح به فدخل غاسل إليه يغسله فرأى عرقا يتحرك في أسفل قدمه فأقبل علينا وقال أرى عرقا يتحرك ولا أرى أن أعجل عليه فاعتلنا على الناس بالأمر الذي رأيناه وفي الغد جاء الناس وغدا الغاسل عليه فرأى العرق على حاله فاعتذرنا إلى الناس فمكث ثلاثا على حاله ثم إنه استوى جالسا فقال أتوني بسويق فأتي به فشربه فقلنا له خبرنا ما رأيت قال نعم عرج بروحي فصعد بي الملك حتى أتى سماء الدنيا فاستفتح ففتح له ثم هكذا في السموات حتى انتهى بي إلى السماء السابعة فقل له من معك قال الماجشون

فقيل له لم يأن له بعد بقي من عمره كذا كذا سنة وكذا كذا شهرا وكذا كذا يوما وكذا كذا ساعة ثم هبط فرأيت النبي وأبا بكر عن يمينه وعمر عن يساره وعمر بن عبد العزيز بين يديه فقلت للملك الذي معي من هذا قال هذا عمر بن عبد العزيز قلت إنه لقريب المقعد من رسول الله قال إنه عمل بالحق في زمن الجور وإنهما عملا بالحق في زمن الحق ذكر هذا يعقوب بن شيبه في ترجمة الماجشون وذكر أبو الحسن محمد بن أحمد بن القواس الوراق أن يعقوب الماجشون مات سنة أربع وستين ومائة رحمه الله تعالى هذا كله نقلته من تاريخ الحافظ أبي القاسم المعروف بابن عساكر الذي جعله تاريخا لدمشق وذكر ابن قتيبة في كتاب المعارف في ترجمة محمد بن المنكدر أن الماجشون من مواليه واسمه يعقوب وكان فقيها ثم قال بعد ذلك وكان للماجشون أخ يقال له عبد الله بن أبي سلمة (347) وابنه عبد العزيز بن عبد الله يكنى أبا عبد الله توفي ببغداد وصلى عليه المهدي ودفنه في مقابر قريش وذلك في سنة أربع وستين ومائة قلت وقد تقدم في هذا الكتاب ترجمة ولده عبد الملك بن عبد العزيز بن

378 عبد الله وذكرت ما قاله العلماء في معنى الماجشون فأغنى عن الإعادة هاهنا والله أعلم قوله ما كسرت له كبيرا ولا بربط الكبر بفتح الكاف والباء الموحدة وبعدها راء وهو طبل ذو وجه واحد والبربط بفتح الباءين الموحدين بينهما راء ساكنة وفي آخره طاء مهملة وهو نوع من العود الذي للغناء وأصله بر وهو الصدر بالفارسي وبط الطائر المعروف فلما كان هذا الملهى يشبه صدر البط سمي به واسمه بالعربي العود والمزهر أيضا بكسر الميم وسكون الزاي وفتح الهاء وبعدها راء وبالجمي البربط كما ذكرناه 824 القاضي أبو يوسف صاحب أبي حنيفة القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد بن حبة الأنصاري وسعد بن حبة أحد الصحابة رضي الله عنهم وهو مشهور في الأنصار بأمه وهي حبته بنت مالك من بني عمرو بن عوف وأما أبو سعد ابن حبة فهو عوف بن بحير بن معاوية بن سلمى بن بجيلة حليف بني عمرو بن عوف الأنصاري هكذا ساق نسب سعد بن حبة في الاستيعاب وأما الخطيب أبو بكر البغدادي فإنه قال في تاريخه هو سعد بن بحير بن معاوية بن قحافة بن بليل بن سدوس بن عبد مناف بن أبي

379 أسامة بن سحمة بن سعد بن عبد الله بن قداد بن ثعلبة بن معاوية بن زيد بن الغوث بن بجيلة كان القاضي أبو يوسف المذكور من أهل الكوفة وهو صاحب أبي حنيفة رضي الله عنه كان فقيها عالما حافظا سمع أبا إسحاق

الشيباني وسليمان التيمي ويحيى بن سعيد الأنصاري والأعمش وهشام بن عروة وعطاء بن السائب ومحمد بن إسحاق بن يسار وتلك الطبقة وجالس محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ثم جالس أبا حنيفة النعمان بن ثابت وكان الغالب عليه مذهب أبي حنيفة وخالفه في مواضع كثيرة روى عنه محمد بن الحسن الشيباني الحنفي وبشر بن الوليد الكندي وعلي بن الجعد وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين في آخرين وكان قد سكن بغداد وتولى القضاء بها لثلاثة من الخلفاء المهدي وابنه الهادي ثم هارون الرشيد وكان الرشيد يكرمه ويجله وكان عنده حظيا مكينا وهو أول من دعي بقاضي القضاة ويقال إنه أول من غير لباس العلماء إلى هذه الهيئة التي هم عليها في هذا الزمان وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئا واحدا لا يتميز أحد عن أحد بلباسه ولم يختلف يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني في ثقته في النقل وذكر أبو عمر ابن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب في كتابه الذي سماه كتاب الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء أن أبا يوسف المذكور كان حافظا وأنه كان يحضر المحدث ويحفظ خمسين سنتين حديثا ثم يقوم فيمليها على الناس وكان كثير الحديث وقال محمد بن جرير الطبري وتحامى حديثه قوم من أهل الحديث من أجل غلبة الرأي عليه وتفريعه الفروع والأحكام مع صحبة السلطان وتقلده القضاء وحكى أبو بكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد أن أبا يوسف قال

380 كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقل رث الحال فجاء أبي يوما وأنا عند أبي حنيفة فانصرفت معه فقال يا بني لا تمد رجلك مع أبي حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مشوي وأنت تحتاج إلى المعاش فقصرت عن كثير من الطلب وآثرت طاعة أبي فنفقني أبو حنيفة وسأل عني فجعلت أتعاهد مجلسه فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه قال لي ما شغلك عنا قلت الشغل بالمعاش وطاعة والدي فجلست فلما انصرف الناس دفع إلي صرة وقال استمتع بها فنظرت فإذا فيها مائة درهم فقال لي الزم الحلقة وإذا فرغت هذه فأعلمني فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلي مائة أخرى ثم كان يتعاهدني وما أعلمته بخلة قط ولا أخبرته بنفاد شيء وكأنه كان يخبر بنفادها حتى استغنيت وتمولت ثم قال الخطيب وحكي أن والد أبي يوسف مات وخلف أبا يوسف طفلا صغيرا وأن أمه هي التي أنكرت عليه حضور حلقة أبي حنيفة ثم روى الخطيب أيضا بإسناد متصل إلى علي بن الجعد قال أخبرني أبو يوسف القاضي قال توفي أبي وخلفني صغيرا في حجر أمي فأسلمتني إلى قصار أخدمه فكانت أدع القصار وأمر إلى حلقة أبي حنيفة فأجلس أستمع فكانت أمي

تجىء خلفي إلى الحلقة فتأخذ بيدي فتذهب بي إلى القصار وكان أبو حنيفة يعنى بي لما يرى من حضوري وحرصي على التعلم فلما كثر ذلك على أمي وطال عليها هربي قالت لأبي حنيفة ما لهذا الصبي فساد غيرك هذا صبي يتيم لا شيء له وإنما أطعمه من مغزلي وأمل أن يكسب دانقا يعود به على نفسه فقال لها أبو حنيفة مري يا رعناء ها هو ذا يتعلم أكل الفالودج بدهن الفستق فانصرفت عنه وقالت له أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك ثم لزمته فنفعني الله تعالى بالعلم ورفعني حتى تقلدت القضاء وكنت أجالس الرشيد وأكل معه على مائدته فلما كان في بعض الأيام قدم إلى هارون فالودجة فقال لي يا يعقوب كل منها فليس في كل يوم يعمل لنا مثلها فقلت وما هذه يا أمير المؤمنين فقال هذه فالودجة بدهن الفستق

381 فضحكت فقال لي مم ضحكك فقلت خيرا أبقى الله أمير المؤمنين قال لتخبرني وألح علي فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها فعجب من ذلك وقال لعمرى إن العلم لينفع دنيا ودينا وترحم على أبي حنيفة وقال كان ينظر بعين عقله مالا يراه بعين رأسه وحكى علي بن المحسن التتوخي عن أبيه عن جده قال كان سبب اتصال أبي يوسف بالرشيد أنه كان قدم بغداد بعد موت أبي حنيفة رحمه الله تعالى فحنث بعض القواد في يمين فطلب فقيها يستفتيه فجيء بأبي يوسف فأفتاه أنه لم يحنث فوهب له دنانير وأخذ له دارا بالقرب منه ودخل القائد يوما على الرشيد فوجده مغموما فسأله عن سبب غمه فقال شيء من أمر الدين قد حزنني فاطلب فقيها كي أستفتيه فجاءه بأبي يوسف قال أبو يوسف فلما دخلت إلى ممر بين الدور رأيت فتى حسنا عليه أثر الملك وهو في حجرة محبوس فأومأ إلي بأصبعه مستغيثا فلم أفهم منه إرادته وأدخلت إلى الرشيد فلما مثلت بين يديه سلمت ووقفت فقال لي ما اسمك فقلت يعقوب أصلح الله أمير المؤمنين قال ما تقول في إمام شاهد رجلا يزني هل يحده قلت لا فحين قلتها سجد الرشيد فوق لي أنه قد رأى بعض أهله على ذلك وأن النبي أشار إلي بالاستغاثة هو الزاني ثم قال الرشيد من أين قلت هذا قلت لأن النبي قال ادروا الحدود بالشبهات وهذه شبهة يسقط الحد معها قال وأي شبهة مع المعاينة قلت ليس توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى والحدود لا تكون بالعلم وليس لأحد أخذ حقه بعلمه فسجد مرة أخرى وأمر لي بمال جزيل وأن ألزم الدار فما خرجت حتى جاءتني هدية الفتى وهدية أمه وجماعته وصار ذلك أصلا للنعمة ولزمت الدار فكان هذا الخادم يستفتيني وهذا يشاورني ولم يزل حالي يقوى عند الرشيد حتى قلدني القضاء قلت وهذا

يخالف ما نقلته قبل هذا من أنه ولي القضاء لثلاثة من الخلفاء والله أعلم بالصواب

382 وقال طلحة بن محمد بن جعفر أبو يوسف مشهور الأمر ظاهر الفضل وهو صاحب أبي حنيفة وأفقه أهل عصره ولم يتقدمه أحد في زمانه وكان النهاية في العلم والحكم والرياسة والقدر وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة وأملى المسائل ونشرها وبث علم أبي حنيفة في أقطار الأرض وقال عمار بن أبي مالك ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة ولا محمد بن أبي ليلى ولكنه هو نشر قولهما وبث علمهما وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة مرض أبو يوسف في زمن أبي حنيفة مرضا خيف عليه منه فعاده أبو حنيفة ونحن معه فلما خرج من عنده وضع يده على عتبة بابه وقال إن يميت هذا الفتى فإنه أعلم من عليها وأوماً إلى الأرض وقال أبو يوسف سألتني الأعمش عن مسألة فأجبتة فيها فقال لي من أين لك هذا فقلت من حديثك الذي حدثتناه أنت ثم ذكرت له الحديث فقال لي يا يعقوب إنني لأحفظ هذا الحديث قبل أن يجتمع أبواك وما عرفت تأويله حتى الآن وقال هلال بن يحيى كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب وكان أقل علومه الفقه ولم يكن في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف وذكر أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني في كتاب الجليس والأنيس عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال مضى أبو يوسف القاضي ليسمع المغازي من محمد بن إسحاق أو من غيره وأخل بمجلس أبي حنيفة أياما فلما أتاه قال له أبو حنيفة يا أبا يوسف من كان صاحب راية جالوت فقال له أبو يوسف إنك إمام وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملأ أيما

383 كان أول وقعة بدر أو أحد فإنك لا تدري أيهما كان قبل الآخر فأمسك عنه وذكر في الكتاب المذكور أيضا عن علي بن الجعد أن القاضي أبا يوسف كتب يوما كتابا وعن يمينه إنسان يلاحظ ما يكتبه ففطن له أبو يوسف فلما فرغ من الكتابة التفت إليه وقال له هل وقفت على شيء من خطأ فقال لا والله ولا حرف واحد فقال له أبو يوسف جزيت خيرا حيث كفيتنا مؤونة قراءته ثم أنشد (كأنه من سوء تأديبه * أسلم في كتاب سوء الأدب) وقال حماد بن أبي حنيفة رأيت أبا حنيفة يوما وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زفر وهما يتجادلان في مسألة فلا يقول أبو يوسف قولا إلا أفسده زفر ولا يقول زفر قولا إلا أفسده أبو يوسف إلى وقت الظهر فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة

يده فضرب بها فخذ زفر وقال لا تطمع في رياسة ببلدة فيها أبو يوسف وقضى لأبي يوسف على زفر ولم يكن بعد أبي يوسف في أصحاب أبي حنيفة مثل زفر وقال طاهر بن أحمد الزبيدي كان يجلس إلى أبي يوسف رجل فيطيل الصمت فقال له أبو يوسف ألا تتكلم فقال بلى متى يفطر الصائم فقال إذا غابت الشمس فقال فإن لم تغب إلى نصف الليل فضحك أبو يوسف وقال أصبت في صمتك وأخطأت أنا في استدعاء نطقك ثم تمثل (عجبت لإزراء الغبي بنفسه * وصمت الذي قد كان بالقول أعلما) (وفي الصمت ستر للغبي وإنما * صحيفة لب المرء أن يتكلما) ومن كلام أبي يوسف صحبة من لا يخشى العار عار يوم القيامة وكان يقول رؤوس النعم ثلاثة فأولها نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها

384 والثانية نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها والثالثة نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها وقال علي بن الجعد سمعت أبا يوسف يقول العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك وأنت إذا أعطيته كلك من إعطائه البعض كنت على غرر وكان أبو يوسف راكبا وغلماه يعدو وراءه فقال له رجل أتستحل أن تعدي غلامك وراءك لم لا تركبه فقال له أيجوز عندك أن أسلم غلامي مكاريا قال نعم قال أبو يوسف فيعدو معي كما كان يعدو لو كان مكاريا وقال يحيى بن عبد الصمد خوصم أمير المؤمنين الهادي إلى القاضي أبي يوسف في بستانه وكان الحكم في الظاهر للهادي وفي الباطن خلاف ذلك فقال الهادي للقاضي أبي يوسف ما صنعت في الأمر الذي نتنازع إليك فيه فقال خصم أمير المؤمنين يسألني أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على حق فقال له الهادي وترى ذلك قال فقد كان ابن أبي ليلى يراه فقال اردد البستان عليه وإنما احتال عليه أبو يوسف لعلمه أن الهادي لا يحلف وقال بشر بن الوليد الكندي قال لي القاضي أبو يوسف بينا أنا البارحة قد أويت إلى فراشي فإذا داق يدق الباب دقا شديدا فأخذت علي إزارا وخرجت فإذا هرثمة بن أعين فسلمت عليه فقال أجب أمير المؤمنين فقلت يا أبا حاتم لي بك حرمة وهذا وقت كما ترى ولست آمن أن يكون أمير المؤمنين قد دعاني لأمر من الأمور فإن أمكنك أن تدفع بذلك إلى غد فلعله أن يحدث له رأي فقال مالي إلى ذلك سبيل قلت كيف كان السبب

385 قال خرج إلي مسرور الخادم فأمرني أن آتي بك أمير المؤمنين فقلت تأذن لي أن أصب علي ماء وأتحنط فإن كان أمر من الأمور كنت قد أحكمت شأنني وإن رزق الله العافية فلن يضرنني فأذن لي فدخلت فلبست ثيابا

جددا وتطيبت بما أمكن من الطيب ثم خرجنا فمضينا حتى أتينا دار أمير المؤمنين هارون الرشيد فإذا مسرور واقف فقال له هرثمة قد جئت به فقلت لمسرور يا أبا هاشم خدمتي وحرمتي وميلي وهذا وقت ضيق فتدري لم طلبني أمير المؤمنين قال لا فقلت فمن عنده قال عيسى بن جعفر قلت ومن قال ما عندهما ثالث ثم قال لي مر فإذا صرت في الصحن فإنه في الرواق وهو ذاك جالس فحرك رجلك بالأرض فإنه سيسألك فقل أنا قال أبو يوسف فجئت ففعلت ذلك فقال من هذا فقلت يعقوب فقال ادخل فدخلت فإذا هو جالس وعن يمينه عيسى بن جعفر فسلمت فرد السلام علي وقال أظننا روعناك فقلت إي والله وكذلك من خلفي فقال اجلس فجلست حتى سكن روعي ثم التفت إلي وقال يا يعقوب تدري لم دعوتك قلت لا قال دعوتك لأشهدك على هذا ان عنده جارية سألته أن يهبها لي فامتنع وسألته أن يبيعه فأبى والله لئن لم يفعل لأقتلنه قال أبو يوسف فالتفت إلى عيسى فقلت له وما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك هذه المنزلة قال فقال لي عجلت علي في القول قبل أن تعرف ما عندي قلت وما في هذا من الجواب قال إن علي يمينا بالطلاق والعناق وصدقة ما أملك أن لا أبيع هذه الجارية ولا أهبها فالتفت إلي الرشيد فقال هل له في ذلك من مخرج قلت نعم قال وما هو قلت يهب لك نصفها ويبيعهك نصفها فيكون لم يهب ولم يبع فقال عيسى ويجوز ذلك قلت نعم قال فأشهدك أني قد وهبت له نصفها وبعته نصفها الباقي بمائة ألف دينار فقال له الرشيد قبلت الهبة واشتريت نصفها بمائة ألف دينار ثم طلب منه الجارية فأتى بالجارية وبالمال فقال خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها فقال الرشيد يا يعقوب

386 بقيت واحدة فقلت وما هي فقال هي مملوكة ولا بد أن تستبرأ ووالله لئن لم أبت معها ليلتي هذه إنني أظن أن نفسي ستخرج فقلت يا أمير المؤمنين تعنتها وتتزوجها فإن الحرة لا تستبرأ قال فإني قد أعنتها فمن يزوجنيها فقلت أنا فدعا بمسرور وحسين فخطبت وحمدت الله تعالى ثم زوجته إياها على عشرين ألف دينار ودعا بالمال فدفعه إليها ثم قال لي يا يعقوب انصرف ورفع رأسه إلى مسرور فقال يا مسرور فقال لبيك فقال احمل إلى يعقوب مائتي ألف درهم وعشرين تختا ثيابا فحمل ذلك معي قال بشر بن الوليد فالتفت إلي أبو يوسف وقال هل رأيت بأسا فيما فعلت فقلت لا فقال خذ حقك منها قلت وما حقي فقال العشر قال بشر فشكرته ودعوت له وذهبت لأقوم فإذا بعجوز قد دخلت فقالت يا أبا يوسف إن بنتك تقرئك السلام وتقول لك والله ما وصل إلي في ليلتي هذه من أمير المؤمنين إلا المهر الذي قد عرفته وقد حملت إليك

النصف منه وخلفت الباقي لما احتاج إليه فقال رديه فوالله لا قبلتها أخرجتها من الرق وزوجتها أمير المؤمنين وترضى لي بهذا قال بشر فلم نزل نطلب إليه أنا وعمومتي حتى قبلها وأمر لي منها بألف دينار وقال أبو عبد الله اليوسفي إن أم جعفر زبيدة ابنة جعفر زوجة الرشيد كتبت إلى أبي يوسف ما ترى في كذا وأحب الأشياء إلي أن يكون الحق فيه كذا فأفتاها بما أحببت فبعثت إليه بحق فضة فيه حقاق فضة مطبقات في كل واحد لون من الطيب وفي جام دراهم وسطها جام فيه دنانير فقال له جليس له قال رسول الله من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها فقال أبو يوسف ذلك حين كانت الهدايا اللين والتمر وقال يحيى بن معين كنت عند أبي يوسف القاضي وعنده جماعة من أصحاب الحديث وغيرهم فوافته هدية أم جعفر احتوت على تخوت ديبقي ومصمت وشرب وطيب وتمائيل ند وغير ذلك فذاكرني رجل بحديث

387 رسول الله من أتته هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه فيها فسمعه أبو يوسف فقال أبي تعرض ذلك إنما قاله النبي والهدايا يومئذ الأقط والتمر والزبيب ولم تكن الهدايا ما ترون يا غلام أشل إلى الخزائن ونقلت من كتاب اسمه الليف ولم يذكر فيه من هو مصنفه قال كان عبد الرحمن بن مسهر أخو علي بن مسهر قاضيا على المبارك قلت وهي بضم الميم وبعدها باء موحدة وبعد الألف راء مفتوحة وبعدها كاف وهي بليدة بين بغداد وواسط على شاطيء دجلة قال فبلغ القاضي خروج الرشيد إلى البصرة ومعه أبو يوسف القاضي في الحراقة فقال عبد الرحمن القاضي لأهل المبارك أثنوا علي عند أمير المؤمنين وعند القاضي أبي يوسف فأبوا عليه ذلك فلبس ثيابه وقلنسوة طويلة وطيلسانا أسود وجاء إلى الشريعة فلما أقبلت الحراقة رفع صوته وقال يا أمير المؤمنين نعم القاضي قاضينا قاضي صدق ثم مضى إلى شريعة أخرى فقال مثل مقالته الأولى فالتفت هارون إلى أبي يوسف وقال يا يعقوب هذا شر قاض في الأرض قاض في موضع لا يثني عليه إلا رجل واحد فقال له أبو يوسف وأعجب من هذا يا أمير المؤمنين هو القاضي يثني على نفسه قال فضحك هارون وقال هذا أظرف الناس هذا لا يعزل أبدا وكان الرشيد إذا ذكره يقول هذا لا يعزل أبدا وقيل لأبي يوسف أتولي مثل هذا القضاء فقال إنه أقام ببابي مدة وشكا إلي الحاجة فوليته وقال أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب صاحب كتاب الفصيح أخبرني بعض أصحابنا قال قال الرشيد لأبي يوسف بلغني أنك تقول إن هؤلاء الذين يشهدون عندك وتقبل أقوالهم متصنعة فقال نعم يا أمير المؤمنين قال وكيف ذلك قال لأن من صح ستره وخلصت

أمانته لم يعرفنا ولم نعرفه ومن ظهر أمره وانكشف خبره لم يأتنا ولم نقبله
وبقيت هذه الطبقة وهم هؤلاء المتصنعة الذين أظهروا الستر وأبطنوا غيره
فتبسم الرشيد وقال صدقت وقال محمد بن سماعة سمعت أبا يوسف في اليوم
الذي مات فيه يقول

388 اللهم إنك تعلم أنني لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك
تعمدا ولقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك وكل ما أشكل علي
جعلت أبا حنيفة بيني وبينك وكان عندي والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج
عن الحق وهو يعلمه قلت وهذا الكلام مأخوذ من قول أبي محمد عبد الله بن
الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد روي يمسح على
خفيه فقيل له تمسح قال نعم قد مسح عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن
جعل عمر بينه وبين الله فقد استوثق ذكر هذا ابن قتيبة في كتاب المعارف في
ترجمة علي رضي الله عنه وأخبار أبي يوسف كثيرة وأكثر الناس من العلماء
على تفضيله وتعظيمه وقد نقل الخطيب البغدادي في تاريخه الكبير ألفاظا عن
عبد الله بن المبارك ووكيع بن الجراح ويزيد بن هارون ومحمد بن إسماعيل
البخاري وأبي الحسن الدارقطني وغيرهم ينو السمع عنها فتركت ذكرها والله
أعلم بحاله وكانت ولادة القاضي أبي يوسف سنة ثلاث عشرة ومائة وتوفي
يوم الخميس أول وقت الظهر لخمس خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين
وثمانين ومائة ببغداد وقيل إنه توفي سنة اثنتين وسبعين ومائة والأول أصح
وولي القضاء سنة ست وستين ومائة ومات وهو على القضاء رحمه الله تعالى
(348) وأما ولده يوسف فإنه كان قد نظر في الرأي وفقه وسمع الحديث من
يونس بن أبي إسحاق السبيعي والسري بن يحيى وغيرهما وولي القضاء
بالجانب الغربي من بغداد في حياة أبيه وصلى بالناس الجمعة في مدينة
المنصور بأمر هارون الرشيد ولم يزل على القضاء إلى أن مات في رجب
سنة اثنتين وتسعين ومائة ببغداد وذكر الخطيب البغدادي أن أبا يوسف
القاضي لما مات ولى الرشيد مكانه

389 أبا البخاري وهب بن وهب القرشي قلت وقد تقدم ذكره في حرف
الواو وكان أبو يعقوب الخريمي الشاعر المشهور صديقا لأبي يوسف ولابنه
يوسف فلما توفي أبو يوسف سمع الخريمي رجلا يقول اليوم مات الفقه فأنشد
الخريمي (يا ناعي الفقه إلى أهله * أن مات يعقوب ولا يدري) (لم يمت
الفقه ولكنه * حول من صدر إلى صدر) (ألقاه يعقوب إلى يوسف * فزال
من طيب إلى طهر) (فهو مقيم فإذا ما ثوى * حل وحل الفقه في قبر)

رحمهما الله تعالى وخنيس بضم الخاء المعجمة تصغير أحنس وهو الذي تأخر أنفه عن وجهه مع ارتفاع قليل في الأرنبة فالرجل أحنس والمرأة خنساء وهذا التصغير يسمى تصغير ترخيم وحقيقته أن تحذف منه الحروف الزوائد ويصغر الباقي كما قالوا أزهر وزهير وأسود وسويد وأحمد وحميد وغير ذلك وحبته بفتح الحاء المهملة وسكون الباء الموحدة وبعدها تاء مثناة من فوقها ثم هاء ساكنة وكشفت عن معنى هذا الاسم في عدة مواضع من كتب اللغة وغيرها فلم أجده وبحير بفتح الباء الموحدة وكسر الحاء المهملة وقيل هو بضم الباء وبالجميم المفتوحة والأول أصح والباقي معروف لا حاجة إلى ضبطه (349) وسعد بن حبة من جملة من استصغر يوم أحد هو والبراء بن عازب وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم فردهم النبي ورآه النبي يوم الخندق وهو يقاتل قتالا شديدا مع حدائة

390 سنه فدعاه وقال له من أنت فقال سعد بن حبة فقال أسعد الله جدك ومسح على رأسه رضي الله عنه وخنيس هو صاحب جهار سوج خنيس بالكوفة وهو لفظ عجمي تفسيره بالعربي أربع طرق لأن هذا المكان رحبة مربعة تفترق إلى أربع جهات والله تعالى أعلم 825 يعقوب الحضرمي أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي بالولاء البصري المقرئ المشهور وهو أحد القراء العشرة وهو المقرئ الثامن وله في القراءات رواية مشهورة منقولة عنه وهو من أهل بيت العلم بالقراءات والعربية وكلام العرب والرواية الكثيرة للحروف والفقه وكان من أقرأ القراء وأخذ عنه عامة حروف القرآن مسندا وغير مسند من قراءة الحرميين والعراقيين وأهل الشام وغيرهم وأخذ هو القراءة عرضا عن سلام بن سليمان الطويل ومهدي بن ميمون وأبي الأشهب العطاردي وغيرهم وروى عن حمزة حروفا وسمع الحروف من أبي الحسن الكسائي وسمع من جده زيد بن عبد الله وشعبة وأما إسناده في القراءة إلى رسول الله فإنه قرأ على سلام المذكور وقرأ سلام على عاصم بن أبي النجود وقرأ عاصم على أبي عبد الرحمن السلمي وقرأ أبو عبد الرحمن على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقرأ علي على رسول الله وروى القراءة عن

391 يعقوب المذكور عرضا جماعة منهم روح بن عبد المؤمن ومحمد بن المتوكل وأبو حاتم السجستاني وغيرهم وسمع منه الزعفراني واقتدى به في اختياره عامة البصريين بعد أبي عمرو بن العلاء فهم أو أكثرهم على مذهبه وكان طاهر بن عبد المنعم بن غلبون إمام الجامع بالبصرة لا يقرأ إلا بقراءة

يعقوب وقال أبو الحسين ابن المنادي قرأ يعقوب على أبي عمرو وغلط في ذلك وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم سئل أحمد بن حنبل رضي الله عنه عن يعقوب الحضرمي فقال صدوق وسئل أبو حاتم الرازي عنه فقال صدوق وقال أبو حاتم السجستاني كان يعقوب الحضرمي أعلم من أدركنا ورأينا بالحروف والاختلاف في القرآن الكريم وتعليقه ومذاهبه ومذاهب النحو في القرآن الكريم وله كتاب سماه الجامع جمع فيه عامة اختلاف وجوه القراءات ونسب كل حرف إلى من قرأ به وبالجملة فإنه كان إمام أهل البصرة في عصره في القراءات وكان يأخذ أصحابه بعدد آي القرآن العزيز فإذا أخطأ أحدهم في العدد أقامه وتوفي يعقوب المذكور في ذي الحجة وقيل في جمادى الأولى سنة خمس ومائتين وهو الأصح وعاش هو وأبوه إسحاق وجده زيد كل واحد منهم ثمانيا وثمانين سنة رحمهم الله أجمعين (350) وأما جد أبيه عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي فإنه كان من الأئمة الأعلام المشار إليه في علومهم قال أبو عبيدة معمر بن المثنى أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي ثم ميمون الأقرن ثم عنيسة الفيل ثم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وقد جاء في رواية أخرى أن عنيسة قبل ميمون والله أعلم بالصواب وكان في زمان عبد الله بن أبي إسحاق عيسى بن عمر الثقفي وأبو عمرو بن العلاء ومات عبد الله قبلهما

392 وذكر أبو عبيد الله المرزباني في كتاب المقتبس في أخبار النحويين أن المبرد قال أجمعت العلماء باللغة أن أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي وأنه لقن ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم أخذ النحو عن أبي الأسود عنيسة بن معدان المهري وأخذه عنه ميمون الأقرن وأخذه عنه عبد الله الحضرمي وأخذه عنه عيسى بن عمر وأخذه عنه الخليل بن أحمد وأخذه عنه سيبويه وأخذه عنه الأخفش وكان بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قد جمع بين عبد الله وأبي عمرو بن العلاء وبلال يومئذ متولي البصرة قال أبو عمرو فغلبنى ابن أبي إسحاق بالهمز فنظرت فيه بعد ذلك وبالغت فيه وكان عبد الله كثيرا ما يأخذ على الفرزدق الغلط في شعره فقال الفرزدق والله لأهجونه ببیت يسير بين أهل الأدب ويتمثلون به فعلم (فلو كان عبد الله مولى هجوته * ولكن عبد الله مولى مواليا) وإنما قال الفرزدق ذلك لأن عبد الله مولى الحضرميين وهم حلفاء بني عبد شمس بن عبد مناف والحليف عند العرب مولى ولهم على ذلك شواهد ولولا خوف الإطالة لذكرت طرفا من ذلك لكن ليس هذا موضع ذكره

393 826 أبو عوانة الحافظ أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بن يزيد النيسابوري ثم الإسفرايني الحافظ صاحب المسند الصحيح المخرج على كتاب مسلم بن الحجاج كان أبو عوانة أحد الحفاظ الجوالين والمحدثين المكثرين طاف الشام ومصر والبصرة والكوفة وواسط والحجاز والجزيرة واليمن وأصبهان والري وفارس قال الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في تاريخ دمشق سمع أبو عوانة بدمشق يزيد بن محمد بن عبد الصمد وإسماعيل بن محمد بن قيراط وشعيب بن شعيب بن إسحاق وغيرهم وبمصر يونس بن عبد الأعلى وابن أخي وهب والمزني والربيع ومحمدا وسعدا ابني عبد الحكم وبالعراق سعدان بن نصر والحسن الزعفراني وعمر بن شبة وغيرهم وبخراسان محمد ابن يحيى الذهلي ومسلم بن الحجاج ومحمد بن رجاء السندي وغيرهم وبالجزيرة علي بن حرب وغيره روى عنه أبو بكر الإسماعيلي وأحمد بن علي الرازي وأبو علي الحسين بن علي وأبو أحمد ابن علي وسليمان الطبراني ومحمد بن يعقوب ابن إسماعيل الحافظ وأبو الوليد الفقيه وابنه أبو مصعب محمد بن أبي عوانة وحج خمس مرات وقال كنت بالمصيصة فكتب إلي أخي محمد بن إسحاق فكان في كتابه (فإن نحن التقينا قبل موت * شفيينا النفس من مضض العتاب) (وإن سبقت بنا أيدي المنايا * فكم من عاتب تحت التراب) وقال أبو عبد الله الحاكم أبو عوانة من علماء الحديث وأثبتهم ومن

394 الرحالة في أقطار الأرض لطلب الحديث توفي سنة ست عشرة وثلثمائة وقال حمزة بن يوسف السهمي روى بجرجان سنة اثنتين وتسعين ومائتين قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر حدثني الشيخ الصالح الأصيل أبو عبد الله محمد بن محمد بن عمر ابن الصفار الإسفرايني قال قبر أبي عوانة بإسفرايين مزار العالم ومتبرك الخلق وبجنب قبره قبر الراوية عنه أبي نعيم عبد الملك ابن الحسن الأزهري الإسفرايني في مشهد واحد داخل المدينة على يسار الداخل من باب نيسابور من إسفرايين وقريب من مشهده مشهد الإمام الأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني على يمين الداخل من باب نيسابور وبجنب قبره قبر الأستاذ أبي منصور البغدادي الإمام الفقيه المتكلم صاحبه الصاحب بالجانب حيا وميتا المتظاهرين لنصرة الدين بالحجج والبراهين سمعت جدي الإمام عمر ابن الصفار رحمه الله تعالى ونظر إلى القبور حول قبر الإمام الأستاذ أبي إسحاق وأشار إلى المشهد وخارج المشهد وقال قد قيل هاهنا من الأئمة والفقهاء على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه أربعون إماما كل واحد

منهم لو تصرف في المذهب وأفتى برأيه واجتهاده يعني على مذهب الشافعي لكان حقيقا بذلك والعوام يتقربون إلى مشهد الأستاذ أبي إسحاق أكثر مما يتقربون إلى أبي عوانة وهم لا يعرفون قدر هذا الإمام الكبير المحدث أبي عوانة لبعد العهد بوفاته وقرب العهد بوفاة الأستاذ أبي إسحاق وأبو عوانة هو الذي أظهر لهم مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه بإسفرايين بعد ما رجع عن مصر وأخذ العلم عن أبي إبراهيم المزني رحمه الله تعالى وكان جدي إذا وصل إلى مشهد الأستاذ رأيت لا يدخله احتراما بل كان يقبل عتبة المشهد وهي مرتفعة بدرجات ويقف ساعة على هيئة التعظيم والتوقير ثم يعبر عنه كالمودع لعظيم عظيم الهيبة وإذا وصل إلى مشهد أبي عوانة كان أشد تعظيما له وإجلالا وتوقيرا ويقف أكثر من ذلك رحمهم الله تعالى أجمعين وعوانة بفتح العين المهملة وبعد الألف نون وقد تقدم الكلام على النيسابوري والإسفراييني فلا حاجة إلى الإعادة

395 827 ابن السكيت أبو يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت صاحب كتاب إصلاح المنطق وغيره ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق فقال حكى عن أبي عمرو إسحاق بن مرار الشيباني ومحمد بن مهنا ومحمد بن صباح ابن السماك الواعظ حكى عنه أحمد بن فرح المقرئ ومحمد بن عجلان الأخباري وأبو عكرمة الضبي وأبو سعيد السكري وميمون بن هارون الكاتب وغيرهم وكان يؤدب أولاد المتوكل وقال قال محمد ابن السماك من عرف الناس داراهم ومن جهلهم ماراهم ورأس المداراة ترك المماراة وروى ابن السكيت أيضا عن الأصمعي وأبي عبيدة والفراء وجماعة غيرهم وكتبه جيدة صحيحة منها إصلاح المنطق وكتاب الألفاظ وكتاب في معاني الشعر وكتاب القلب والإبدال ولم يكن له نفاذ في علم النحو وكان يميل في رأيه واعتقاده إلى مذهب من يرى تقديم علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال أحمد بن عبيد شاورني ابن السكيت في منادمة المتوكل فنهيته فحمل قولي على الحسد وأجاب إلى ما دعي إليه من المنادمة فبينما هو مع المتوكل يوما جاء المعتز والمؤيد فقال المتوكل يا يعقوب أيما أحب إليك

396 ابناي هذان أم الحسن والحسين فغض ابن السكيت من ابنيه وذكر من الحسن والحسين رضي الله عنهما ما هما أهله فأمر الأثران فداسوا بطنه فحمل إلى داره فمات بعد غد ذلك اليوم وكان ذلك في سنة أربع وأربعين ومائتين وقال عبد الله بن عبد العزيز وكان نهى يعقوب عن اتصاله بالمتوكل (نهيتك يا يعقوب عن قرب شادن * إذا ماسطا أربى على كل ضيغم) (فذق)

واحس ما استحسيته لا أقول إذ * عثرت لعابل لليدين وللهم (وحكي أن
الفراء سأل السكيت عن نسبه فقال خوزي أصلحك الله من دورق قلت بفتح
الذال المهملة وبعد الواو الساكنة راء ثم قاف وهي بليدة من أعمال خوزستان
قال من كور الأهواز قلت والأهواز من خوزستان أيضا قال فبقي الفراء
أربعين يوما في بيته لا يظهر لأحد من أصحابه فسئل عن ذلك فقال سبحان الله
أستحي أن أرى السكيت لأنني سألته عن نسبه فصدقني وفيه بعض القبح قال
أبو الحسن الطوسي كنا في مجلس أبي الحسن علي اللحياني وكان عازما على
أن يملي نوادره ضعف ما أملى فقال يوما تقول العرب مثقل استعان بذقنه فقام
إليه ابن السكيت وهو حدث فقال يا أبا الحسن إنما هو مثقل استعان بدفيه
يريدون الجمل إذا نهض بحمله استعان بجنبه فقطع الإملاء فلما كان المجلس
الثاني أملى فقال تقول العرب وهو جاري مكاشري فقام له ابن السكيت فقال
أعزك الله وما معنى مكاشري إنما هو هو مكاشري كسر بيتي إلى كسر بيته
قال فقطع اللحياني الإملاء فما أملى بعد ذلك شيئا وقال أبو العباس المبرد ما
رأيت للبغداديين كتابا أحسن من كتاب ابن السكيت في المنطق وقال أحمد بن
محمد بن أبي شداد شكوت إلى ابن السكيت ضائقة فقال هل قلت شيئا قلت لا
قال فأقول أنا ثم أنشدني

397 (نفسي تروم أمورا لست مدركها * ما دمت أحذر ما يأتي به
القدر) (ليس ارتحالك في كسب الغنى سفرا * لكن مقامك في ضر هو السفر
) وقال ابن السكيت كتب رجل إلى صديق له قد عرضت لي قبلك حاجة فإن
نجحت فالفاني منها حظي والباقي حظك وإن تعذرت فالخير مظنون بك
والعذر مقدم لك والسلام ونقل من خطه ما مثاله عرض سلمان بن ربيعة
الباهلي الخيل فمر عمرو بن معدي كرب الزبيدي على فرس له فقال سلمان
هذا الفرس هجين فقال عمرو بل هو عتيق فقال سلمان هو هجين فقال عمرو
هو عتيق فأمر سلمان فعطش ثم دعا بطست فيه ماء ودعا بخيل عتاق فشربت
وجاء فرس عمرو فثنى يده وشرب وهذا صنيع الهجين فقال له سلمان أترى
فقال عمرو أجل الهجين يعرف الهجين فبلغ ذلك عمر ابن الخطاب رضي الله
عنه فكتب إلى عمرو قد بلغني ما قلت لأميرك وبلغني أن لك سيفا تسميه
الصمصامة وعندني سيف أسميه مصمما وإيم الله لئن وضعت على هامتك لا
أقلع حتى أبلغ به رهابتك فإن سرك أن تعلم أحق ما أقول فعد والسلام الرهابة
على وزن السحابة عظم في الصدر مشرف على البطن مثل اللسان والله أعلم
وقال أبو عثمان المازني اجتمعت بابن السكيت عند محمد بن عبد الملك الزيات

الوزير فقال محمد بن عبد الملك سل أبا يوسف عن مسألة فكرهت ذلك وجعلت أتباطأ وأدافع مخافة أن أوحشه لأنه كان لي صديقا فألح علي محمد بن عبد الملك وقال لم لا تسأله فاجتهدت في اختيار مسألة سهلة لأقارب يعقوب فقلت له ما وزن نكتل من الفعل من قول الله تعالى (^ فأرسل

398 معنا أخانا نكتل) يوسف 63 فقال لي نفعل قلت ينبغي أن يكون ماضيه كتل فقال لا ليس هذا وزنه إنما هو نفتعل فقلت له نفتعل كم حرف هو قال خمسة أحرف قلت فنكتل كم حرفا هو قال أربعة أحرف فقلت أيكون أربعة أحرف بوزن خمسة أحرف فانقطع وخجل وسكت فقال محمد بن عبد الملك فإنما تأخذ كل شهر ألفي درهم على أنك لا تحسن وزن نكتل قال فلما خرجنا قال لي يعقوب يا أبا عثمان هل تدري ما صنعت فقلت له والله لقد قاربتك جهدي ومالي في هذا ذنب قلت وذكر أبو الحسن ابن سيده هذه الحكاية في أول خطبة كتابه المحكم في اللغة لكنه قال إن ذلك كان بين يدي المتوكل والله أعلم وقال غير ابن عساكر كان يعقوب بن السكيت يؤدب مع أبيه بمدينة السلام في درب القنطرة صبيان العامة حتى احتاج إلى الكسب فجعل يتعلم النحو وحكى عن أبيه أنه كان قد حج فطاف بالبيت وسعى وسأل الله تعالى أن يعلم ابنه النحو فتعلم النحو واللغة وجعل يختلف إلى قوم من أهل القنطرة فأجروا له كل دفعة عشرة دراهم وأكثر حتى اختلف إلى بشر وهارون ابني هارون أخوين كانا يكتبان لمحمد بن عبد الله بن طاهر الخزاعي فما زال يختلف إليهما وإلى أولادهما دهرا فاحتاج ابن طاهر إلى رجل يعلم أولاده وجعل ولده في حجر إبراهيم بن إسحاق المصعبي فرتب يعقوب وجعل له رزقا خمسمائة درهم ثم جعلها ألف درهم وقال أبو العباس ثعلب كان ابن السكيت يتصرف في أنواع العلوم وكان أبوه رجلا صالحا وكان من أصحاب أبي الحسن الكسائي حسن المعرفة بالعربية وكان سبب قعود يعقوب للناس وقصدهم إياه أنه عمل شعر أبي النجم العجلي وجرده فقلت ادفعه لي لأنسخه فقال يا أبا العباس حلفت بالطلاق

399 أنه لا يخرج من يدي ولكنه بين يديك فانسخه واحضر يوم الخميس فلما وصلت إليه عرف بي فحضر بحضوري قوم ثم انتشر ذلك فحضر الناس وقال ثعلب أيضا أجمع أصحابنا أنه لم يكن بعد ابن الأعرابي أعلم باللغة من ابن السكيت وكان المتوكل قد ألزمه تأديب ولده المعتز بالله فلما جلس عنده قال له بأي شيء يحب الأمير أن نبدأ يريد من العلوم فقال المعتز بالانصراف قال يعقوب فأقوم قال المعتز فأنا أخف نهوضا منك وقام فاستعجل فعثر

بسر اويله فسقط والتفت إلى يعقوب خجلا وقد احمر وجهه فأنشد يعقوب (يصاب الفتى من عثرة بلسانه * وليس يصاب المرء من عثرة الرجل) (فعثرته في القول تذهب رأسه * وعثرته بالرجل تبرأ في مهل) فلما كان من الغد دخل يعقوب على المتوكل فأخبره بما جرى فأمر له بخمسين ألف درهم وقال قد بلغني البيتان وكان يعقوب يقول أنا أعلم من أبي بالنحو وأبي أعلم مني بالشعر واللغة وقال الحسين بن عبد المجيب الموصلي سمعت ابن السكيت يقول في مجلس أبي بكر بن أبي شيبة (ومن الناس من يحبك حبا * ظاهر الحب ليس بالتقصير) (فإذا ما سألته عشر فلس * ألحق الحب باللطيف الخبير) وكان لابن السكيت شعر وهو مما تثق النفس به فمن ذلك قوله (إذا اشتملت على اليأس القلوب * وضاق لما به الصدر الرحيب) (وأوطنت المكاره واستقرت * وأرست في أماكنها الخطوب) (ولم تر لانكشاف الضر وجهها * ولا أغنى بحيلته الأريب)

400 (أتاك على قنوط منك غوث * يمن به اللطيف المستجيب) (وكل الحادثات إذا تناهت * فموصول بها فرج قريب) وكان العلماء يقولون إصلاح المنطق كتاب بلا خطبة وأدب الكاتب تأليف ابن قتيبة خطبة بلا كتاب لأنه طول الخطبة وأودعها فوائد وقال بعض العلماء ما عبر على جسر بغداد كتاب في اللغة مثل إصلاح المنطق ولا شك أنه من الكتب النافعة الممتعة الجامعة لكثير من اللغة ولا نعرف في حجمه مثله في بابيه وقد عني به جماعة فاختره الوزير أبو القاسم الحسين بن علي المعروف بابن المغربي المقدم ذكره وهذبه الخطيب أبو زكريا التبريزي وتكلم على الأبيات المودعة فيه ابن السيرافي وهو كتاب مفيد ولابن السكيت من التصانيف أيضا كتاب الزبرج وكتاب الألفاظ وكتاب الأمثال وكتاب المقصور والممدود وكتاب المذكر والمؤنث وكتاب الأجناس وهو كبير وكتاب الفرق وكتاب السرج واللجام وكتاب فعل وأفعال وكتاب الحشرات وكتاب الأصوات وكتاب الأضداد وكتاب الشجر والنبات وكتاب الوحوش وكتاب الإبل وكتاب النوادر وكتاب معاني الشعر الكبير وكتاب معاني الشعر الصغير وكتاب سرقات الشعراء وما اتفقوا عليه وغير ذلك من الكتب ومع شهرته لا حاجة إلى الإطالة في ذكر فضله وقد روي في قتله غير ما ذكرته أولا فقل إن المتوكل كان كثير التحامل على علي بن أبي طالب وابيه الحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين وقد تقدم في ترجمة أبي الحسن علي بن محمد المعروف بابن بسام أبيات تدل على هذا أيضا وكان ابن السكيت من المغالين في محبتهم والتوالي لهم فلما قال له

المتوكل تلك المقالة قال ابن السكيت والله إن قنبر خادم علي رضي الله عنه
خير

401 منك ومن ابنك فقال المتوكل سلوا لسانه من قفاه ففعلوا ذلك به
فمات وذلك في ليلة الاثنين لخمس خلون من رجب سنة أربع وأربعين ومائتين
وقيل سنة ست وأربعين وقيل سنة ثلاث وأربعين والله أعلم بالصواب وبلغ
عمره ثمانيا وخمسين سنة ولما مات سير المتوكل لولده يوسف عشرة آلاف
درهم وقال هذه دية والدك رحمه الله تعالى وقال أبو جعفر أحمد بن محمد
المعروف بابن النحاس النحوي كان أول كلام المتوكل مع ابن السكيت مزاحا
ثم صار جدا وقيل إن المتوكل أمره أن يشتم رجلا من قريش وأن ينال منه فلم
يفعل فأمر القرشي أن ينال منه فأجابه ابن السكيت فقال له المتوكل أمرتك فلم
تفعل فلما شتمك فعلت وأمر به فضرب وحمل من عنده وقيذا صريعا والله
أعلم أي ذلك كان وقد تقدم في ترجمة عبد الله بن المبارك مثل هذه القضية لما
سئل عن معاوية وعمر بن عبد العزيز وأيهما أفضل والسكيت بكسر السين
المهملة والكاف المشددة وبعدها ياء مثناة من تحتها ثم تاء مثناة من فوقها
وعرف بذلك لأنه كان كثير السكوت طويل الصمت وكل ما كان على وزن
فعليل أو فعليل فإنه مكسور الأول وقوله خوزي بضم الخاء المعجمة وبعد
الواو زاي هذه النسبة إلى خوزستان وهو إقليم بين البصرة وبلاد فارس

402 828 يعقوب الصفار أبو يوسف يعقوب بن الليث الصفار
الخارجي قد أكثر أهل التاريخ من ذكر هذا الرجل وذكر أخيه عمرو وما ملكا
من البلاد وقتلا من العباد وما جرى للخلفاء معهما من الوقائع وقد اخترت من
ذلك ما أودعته في هذه الأوراق فأقول قال أبو عبد الله بن محمد الأزهر
الأخباري حدثني علي بن محمد وكان عالما بأمر يعقوب بن الليث الصفار
ومحاربته وأول أمره أنه وأخاه عمرا كانا صفارين في حدائتهما وكانا يظهران
الزهد وأن رجلا من أهل سجستان كان مشهورا بالتطوع في قتال الخوارج
يقال له صالح بن النضر الكناني المطوعي من أهل بست فصحبا وحظيا به
فقتلت الخوارج الذين يقال لهم الشراة أبا يعقوب المذكور وأقام صالح المذكور
يعقوب المذكور مقام الخليفة ثم هلك صالح فتولى مكانه درهم بن الحسين من
المطوعة أيضا فصار يعقوب مع درهم كما كان مع صالح ثم إن صاحب
خراسان احتال لدرهم حتى ظفر به فحمل إلى بغداد فحبس بها ثم أطلق وخدم
السلطان ثم لزم بيته يظهر النسك والحج والاقتصاد حتى غلظ أمر يعقوب
وذكر شيخنا عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير في

403 تاريخه في سنة سبع وثلاثين ومائتين ابتداء أمر يعقوب المذكور فقال في هذه السنة تغلب إنسان من أهل بست اسمه صالح بن النضر الكناني على سجستان ومعه يعقوب بن الليث فعاد طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان واستنقذها منه ثم ظهر بها إنسان اسمه درهم بن الحسين من المطوعة فغلب عليها وكان غير ضابط لأمر عسكره وكان يعقوب بن الليث قائد عسكره فلما رأى أصحاب درهم ضعفه وعجزه اجتمعوا على يعقوب بن الليث وملكوه أمرهم لما رأوا من تدبيره وحسن سيايته وقيامه بأمرهم فلما تبين ذلك له لم ينازعه في الأمر وسلمه إليه واعتزل عنه فاستبد يعقوب بالأمر وضبط البلاد وقويت شوكته وقصدته العساكر من كل ناحية فصار من أمره ما سنذكره رجعا إلى تمام ما ذكره علي بن محمد بن أحمد قال فلما دخل درهم بن الحسين بغداد تولى يعقوب أمر المطوعة وحارب الخوارج الشراة فرزق الظفر بهم حتى أفناهم وأخرب ضياعهم وأطاعه أصحابه بمكره ودهائه طاعة لم يطيعوها أحدا كان قبله ثم اشتدت شوكته وزادت صولته فغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما والاها وكان الترك بتخوم سجستان وملكهم رتبيل ويسمى هذا القبيل من الترك الدراري فحرضه أهل سجستان على قتالهم وأعلموه أنهم أضر من الشراة الخوارج وأوجب محاربة فغزا الترك فقتل رتبيل ملكهم وقتل ثلاثة من ملوكهم بعد رتبيل ويسمى كل ملك لهم رتبيل وانصرف يعقوب إلى سجستان وقد حمل رؤوسهم مع رؤوس ألوف منهم فرهبته الملوك الذين حوله منهم ملك المولتان وملك

404 الرخج وملك الطبسين وملك زابلستان وملك السند ومكران وغيرهم وأذعنوا له وكان قصده هراة وبوشنج في سنة ثلاث وخمسين ومائتين وأمير خراسان يومئذ محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي وعامله عليها محمد بن أوس الأنباري فخرج لمحاربتة في تعبئة وبأس شديد وزى جميل فحاربه وأحسن مقاومته حتى احتال له يعقوب فحال بينه وبين دخول المدينة وهي بوشنج وانحاز ابن أوس منهزما فقبل أنه لم يقاتله أحد أحسن موافقته كما أحسنها ابن أوس ودخل يعقوب بوشنج وهراة وصارت المدينتان في يده وظفر بجماعة من الطاهرية وهم المنسوبون إلى طاهر بن الحسين الخزاعي فحملهم إلى سجستان حتى وجه المعتز بالله الخليفة إليه المعروف بابن بلعم وهو رجل من الشيعة برسالة وكتاب فأطلقهم قال ابن الأزهر الأخباري المذكور حدثني محمد بن عبد الله بن مروان قال حدثني ابن بلعم المذكور قال صرت إليه بكتاب أمير المؤمنين المعتز بالله إلى زرنج قلت

وهي بفتح الزاي والراء وسكون النون وبعدها جيم وهي كرسي بلاد سجستان قال ابن بلعم فاستأذنت عليه فأذن لي فدخلت ولم أسلم عليه وجلست بين يديه من غير أمره ودفعت الكتاب إليه فلما أخذه قلت له قبل كتاب أمير المؤمنين فلم يقبله وفضه فتراجعت القهقري إلى باب مجلسه الذي كان فيه ثم قلت السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله فأعجبه ذلك وأحسن مثنوي ووصلني وأطلق الطاهرية وقال ابن بلعم المذكور أيضا دخلت على يعقوب الصفار يوما فقال لي ينبغي أن يجيئنا رجل من ناحية فارس مستأمن ومعه ثلاثة أنفس أو أربعة بل هو تمام الخمسة قال فأنكرت هذا منه وأمسك فما علمت إلا وحاجبه قد دخل فسلم وقال أيها الأمير بالباب رجل مستأمن ومعه أربعة أنفس

405 فقال أدخله فدخل وسلم وقال أيها الأمير معي أربعة أنفس فأذن لهم فدخلوا عليه فالتفت إلى الحاجب وقلت قد أخذتم في المخاريق فحلف لي أيما مغلظة أنهم جاؤوا بغتة ما علم بهم أحد من الناس وسألت يعقوب بعد ذلك وقلت له أيها الأمير لقد رأيت منك عجا في أمر المستأمنة فكيف علمت بهم فقال أخبرك أنني فكرت في أمر فارس ورأيت غرابا واقفا بإزاء طريقها واختلجت إحدى أصابع رجلي ثم تبع بعضها بعضا فعلمت أنه عضو غير شريف وأنه سيأتينا من ذلك الصقع قوم مستأمنة أو رسل ليسوا بأجلة فكانوا هؤلاء وقال علي بن الحكم سألت يعقوب بن الليث الصفار عن الضربة التي على وجهه وهي منكرة على قصبة أنفه ووجنته فذكر أن ذلك أصابه في بعض وقائع الشراة وأنه طعن رجلا منهم فرجع عليه فضربه هذه الضربة فسقط نصف وجهه حتى رد وخيط قال فمكثت عشرين يوما في فمي أنبوبة قصب وفمي مفتوح لنلا يتقرح رأسي وكان يصب في حلقي الشيء بعد الشيء من الغذاء قال حاجبه وقد كان مع هذه الضربة يخرج ويعبي أصحابه للحرب ويقاثل وأرسل يعقوب إلى المعتز بالله هدية سنوية من جملتها مسجد فضة مخلع يصلي فيه خمسة عشر إنسانا وسأل أن يعطى بلاد فارس ويقرر عليه خمسة عشر ألف درهم على أن يتولى إخراج علي بن الحسين بن قريش وكان على فارس ثم شخص يعقوب من سجستان في أثر كتابه إلى المعتز يريد كرمان ثم نزل بم قلت وهي بالباء الموحدة المفتوحة وبعدها ميم مخففة وهي الحد الفاصل بين سجستان وكرمان قال وكان بكرمان العباس بن الحسين بن قريش أخو علي بن الحسين المذكور ومعه أحمد بن الليث الكردي فخرجا عن كرمان يريدان شيراز وقدم يعقوب أخاه علي بن الليث إلى السيرجان قلت وهي بكسر

السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها ثم راء وجيم وبعد الألف نون وهي مدينة كرمان قال وضم إليه جماعة

406 فأقام هو على بم فرد أحمد بن الليث الكردي إليه من الطريق في جمع كثير من الأكراد وغيرهم فصاروا إلى درابجرد قلت وهي بفتح الدال المهملة ثم راء وألف وبعدها باء موحدة ثم جيم مكسورة ثم راء وبعدها دال مهملة وهذا الاسم يقع بالاشتراك على ثلاثة مواضع الأول كورة عظيمة مشهورة بفارس قصبتها درابجرد والثاني قرية بفارس أيضا من أعمال اصطخر فيها معدن الزئبق فيحتمل أن يكون مصيرهم إلى الأولى أو إلى الثانية وأما الثالثة فهو موضع بنيسابور ولا يحتمل مصيرهم إليه لأنه بخراسان فلا تعلق له بفارس قال الراوي فظفر أحمد بن الليث بجماعة من أصحاب يعقوب يطلبون العلف فقتل بعضهم وهرب منهم جماعة ووجه أحمد بن الليث برؤوس من قتل من أصحاب يعقوب إلى فارس فنصب علي بن الحسين رؤوسهم فبلغ الخبر يعقوب فدخل كرمان فندب علي بن الحسين لمحاربته طوق بن المغلس في خمسة آلاف من الأكراد سوى من تقدم مع أحمد بن الليث الكردي وسار طوق حتى نزل على مدينة إياس من عمل كرمان فورد عليه كتاب يعقوب يعلمه أنه أخطأ إذ دخل عملا ليس إليه فرد عليه طوق أنت بعمل الصفر أعلم منك بعمل الحروب فعظم ذلك على يعقوب وكان في عسكر طوق ثلثمائة رجل من الأبناء فوافى يعقوب مدينة إياس فأوقع بطوق وقتل أصحابه وهزم من بقي منهم وصبر الأبناء الثلثمائة حتى أشجوا يعقوب فأعطاهم الأمان فلم يقبلوا حتى قتلوا عن آخرهم وقتل يعقوب في هذه الواقعة ألفي رجل وأسر ألفا وأسر طوق بن المغلس وقيده ب قيد خفيف ووسع عليه في مطعمه وغيره واستخرج منه الأموال ورحل يعقوب عن إياس ودخل عمل فارس فخندق علي بن الحسين على نفسه بشيراز وذلك

407 في يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة خمس وخمسين ومائتين وكتب علي بن الحسين إلى يعقوب يعلمه أن طوق بن المغلس فعل ما فعل من غير أمره وأنه لم يأمره بمحاربته وقال له إن كنت تطلب كرمان فقد خلفتها وراءك وإن كنت تطلب فارس فكتاب من أمير المؤمنين بتسليم العمل لأنصرف فرد عليه يعقوب إن كتابا من السلطان معه لا يتهاى أن يوصله حتى يدخل البلد وإنه إن أخلى له البلد فقد ودع وأزاح عنته وإلا فالسيف بيننا والموعد مرج سنكان وهو مرج واسع بينه وبين شيراز ثلاثة فراسخ وكتب صاحب البريد ووجه البلد إلى يعقوب يعلمونه أنه ما ينبغي له

مع ما وهب له الله تعالى من التطوع والديانة وقتل الخوارج ونفيهم عن بلاد خراسان وسجستان التسرع إلى سفك الدماء لأن علي بن الحسين لن يسلم البلد إلا بكتاب الخليفة واعتد أهل شيراز للحصار وقد كانت المنهزمة من أصحاب طوق أسروا ثلاثة أنفس من أصحاب يعقوب فحبسهم علي بن الحسين وقد كان طوق وقت خروجه إلى يعقوب اشترى دارا بشيراز بسبعين ألف درهم وقدر للنفقة عليها مالا فكتب طوق إلى ابنه لا تقطع البناء عن الدار فإن الأمير يعقوب قد أكرمني وأحسن إلي وسأل في إطلاق الثلاثة المأسورين من أصحاب يعقوب وكان يعقوب سأل ذلك ليطلقه إذا وافوا إليه فقال علي بن الحسين اكتبوا إلى يعقوب ليصلب طوق بن المغلس وإن أقل عبد من عبيده أكبر عنده منه وسأل يعقوب طوق بن المغلس عن أمور علي بن الحسين فضعف أمره عنده فتقرب طوق إلى يعقوب بمال عنده بشيراز وأنه يكتب إلى أهله في حمله إليه ليقوى به على حربه فأمره يعقوب أن يفعل ذلك فكتب إلى ابنه فوق الكتاب في يد علي بن الحسين فأخذ المال وغيره من دار طوق وحمله إلى داره وزحف يعقوب واحتشد علي بن الحسين قال أحمد بن الحكم قال لي يعقوب أخبرني عن علي بن الحسين أمسلم

408 هو قلت نعم قال أفرأيت مسلما يوجه بالأكراد الكفار إلى بلاد المسلمين فيقتلونهم ويحملون نساءهم ويأخذون أموالهم ألم تعلم أن أحمد ابن الليث الكردي قتل بكرمان سبعمائة إنسان على دم واحد واقتض الأكراد مائتي بكر من أهل البيوتات وحملوا معهم نحو ألفي امرأة إلى بلادهم أفرأيت مسلما يرضى بهذا قال قلت فعل أحمد هذا من غير أمره ثم قال له يعقوب في بعض مناظراته قل لعلي بن الحسين إن معي قوما أحرارا جننت بهم وليس يتأتى لي ردهم إلا بما يحبون فوجه إلي بما يرضيهم ووجه لي في نفسي ما يشبه مثلي من البر فإذا فعلت فأنا أخوك وعونك على من حاربك وأدفع لك كرمان تأكلها وأنصرف إلى عملي وارتحل يعقوب فنزل قرية يقال لها خوزاستان ووافى أحمد بن الحكم إلى علي بن الحسين يوم الثلاثاء لثمان خلون من جمادى الأولى من السنة وعلى يده كتاب يعقوب قال ابن الحكم فلم يفهم علي بن الحسين شيئا مما جننت به من الدهش وحاصل الكتاب بعد الدعاء له فهمت كتابك وذكرك ورودي هذا البلد العظيم خطره بغير إذن أمير المؤمنين فإني لست ممن تطمع نفسه في محاولة ظلم ولا ممن يمكنه ذلك وقد أسقطت عنك مؤونة الاهتمام في هذا الباب فإن البلد لأمر المؤمنين ونحن عبيده نتصرف بأمره في أرضه وسلطانه وفي طاعة الله وطاعته وقد استمعت من رسو لك ورجعت إليه في

جواب ما عملته وأدائه ما يورده عليك مما رجوت لنا ولك فيه صلاحا فإن استعملته ففيه السلامة إن شاء الله تعالى وإن أبيت فإن قدر الله تعالى نافذ لا محيص عنه ونحن نعتصم بالله من الهلكة ونعوذ به من دواعي البغي ومصارع الخذلان ونرغب إليه في السلامة دينا ودنيا بلطفه مد الله في عمرك وكتب يوم الاثنين لليلة خلت من جمادى الأولى سنة خمس وخمسين ومائتين 409 ثم تراحف الفريقان وقد اجتمع في عسكر علي بن الحسين خمسة عشر ألف إنسان ووجه أحمد بن الليث الطلائع وذلك في غداة الأربعاء لأربع خلون من الشهر المذكور ولما كان يوم الخميس وافت طلائع يعقوب ثم التقى الجيشان فحملوا حملة وفي الثانية أزالوا أصحاب علي بن الحسين عن مواضعهم وصدقت المجالدة فانهزموا ومروا على وجههم لا يلوي أحد على أحد وعلي بن الحسين يتبع أصحابه ويصيح فيهم أن ارجعوا وقفوا يناشدهم الله تعالى فلم يلتفتوا إليه وبقي في عدة من أصحابه فوافت المنهزمة أبواب شيراز مع العصر يوم الخميس المذكور وكانت الوقعة بعد الظهر فضاقت عليهم الأبواب فمروا على وجوههم في نواحي شيراز وبلغت هزيمتهم الأهواز وكانت القتلى معهم منهم مقدار خمسة آلاف وأصابت علي بن الحسين ثلاث ضربات واعتورته أسياف أصحاب يعقوب وسقط عن دابته فأرادوا قتله فأعلمهم أنه علي بن الحسين فأخذوا عامته ووضعوها في وسطه وقادوه إلى يعقوب وطلب الذي أسره الثواب من يعقوب فأمر له بعشرة آلاف درهم فأبى أن يأخذها فقال إنما جئني بكلب أسرته مالك عندي غيرها فانصرف الرجل وقنع يعقوب عليا عشرة أسواط بيده وأخذ حاجبه بلحيته فنتف أكثرها وأمر يعقوب أن يقيد بقيد فيه عشرون رطلا وصيره مع طوق بن المغلس في الخيمة وكان قد أنفذ إلى ابن المغلس وقيده أيضا وصار يعقوب من فوره إلى شيراز وتفرق أصحاب علي بن الحسين في النواحي ثم دخل يعقوب إلى شيراز والطبول تضرب بين يديه وظن أهل شيراز يؤذيهم ويستحل دماءهم وأموالهم بحربهم فلم ينطق أحد لأنه كان وعد أصحابه إن هو ظفر أن يطلقهم وينهب شيراز وبلغ القوم ذلك فلزموا بيوتهم ورجع يعقوب من ليلته إلى عسكره بعد أن طاف شيراز فلما أصبح نادى بالأمان ليخرجوا إلى الأسواق فخرج الناس ونادى في كتاب

410 علي بن الحسين أن برئت الذمة ممن آواهم وحضرت الجمعة فأمر الخطيب فدعا للإمام المعترز بالله ولم يدع لنفسه فليل له في ذلك فقال الأمير لم يقدم بعد وقال إنما مقامي عندكم عشرة أيام ثم أرجع إلى عمل سجستان وبعث

أخاه إلى منزل علي بن الحسين فأحضر الفرش والأثاث وفتش على الأموال فلم يقف عليها فأحضر عليا فتهدده وتوعده فذكر أنه يدلهم على المال فحمل إلى منزله فاستخرج أربعمائة بكرة وقيل إنه أخذ منه ألف بكرة وعوض يعقوب أصحابه من نهب شيراز كل رجل ثلاثمائة درهم ثم عذب يعقوب عليا بأنواع العذاب وعصر أنثييه وشد الجوزتين على صدغيه فقال علي قد أخذت ما أخذت أخذت مني فرشي وقيمته أربعون ألف دينار وألح عليه بالعذاب وأعلمه أنه لا يقنعه منه دون ثلاثين ألف ألف دينار ووظف ووسوس من شدة العذاب وقيدته بأربعين رطلا فدلهم على موضع في داره فاستخرجوا منه أربعة آلاف ألف درهم وجوهر كثيرا ثم ألح عليه بالعذاب وسلمه إلى الحسن بن درهم فضربه وعذبه وشتمه وعذب طوق بن المغلس أيضا وحسبهما في بيت واحد وارتحل يعقوب من شيراز يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى من السنة إلى بلاده وحمل علي بن الحسين وطوق بن المغلس معه فلما أتى كرمان ألبسهما المصبغ من الثياب وقنعهما بمقانع ونادى عليهما وحسبهما ومضى إلى سجستان وخلع الخليفة المعتز بالله لثلاث خلون من رجب من هذه السنة وتولى الخلافة الإمام المهدي بالله في ذلك اليوم وخلع المهدي بالله مع صلاة الظهر من يوم الثلاثاء لأربع عشرة بقية من رجب سنة ست وخمسين ومائتين وبويع المعتمد على الله ولم يكن ليعقوب الصفار في خلافة المهدي كبير أمر بل كان

411 يغزو ويحارب من يليه من الملوك بسجستان وأعمالها ويتطرف كور خراسان وما قرب من قوهستان ونواحي هراة وبوشنج وما اتصل بسجستان ثم عاد يعقوب إلى بلاد فارس وجبى غلاتها ورجع بثلاثين ألف ألف درهم وصار إلى سجستان وأقام محمد بن واصل بفارس يتولى الحرب والخراج ويكتب الخليفة ويحمل بعض ما يجبي من الأموال فكان مقدار ما يحمل في السنة خمسة آلاف ألف درهم من الخراج ببلاد فارس وكان مقيما بها غلبة عليها ولو أمكن الخليفة صرفه عنها ببعض أوليائه لما أقره ثم ورد الخبر في جمادى الآخرة من سنة ثمان وخمسين ومائتين بدخول يعقوب مدينة بلخ ثم خرج منها ودخل نيسابور في ذي القعدة من سنة تسع وخمسين ومائتين واحتاط على محمد بن طاهر الخزاعي أمير خراسان وجميع الطاهرية ثم خرج عنها في المحرم من سنة ستين ومائتين ومعه محمد بن طاهر مقيدا ونيف وستون من أهله وتوجه نحو جرجان للقاء الحسن بن زيد العلوي أمير طبرستان وجرجان ولما بلغ الحسن بن زيد أن يعقوب يقصده أخذ من أموال

الخراج ثلاثة عشر ألف ألف درهم بقايا وسلفا وتخلص من جرجان إلى طبرستان ودخل يعقوب جرجان ووجه من أصحابه من أخذ سارية طبرستان وكان بجرجان يعلق على دوابه كل يوم ألف قفيز شعيرا ثم خرج يعقوب إلى طبرستان وخرج إليه الحسن بن زيد في خلق كثير وأعلم يعقوب أصحابه أنه يقتل من انهزم منهم وتقدم بنفسه للحرب فتبعه خمسمائة من عبيده فحمل على الحسن وأصحابه حملة واحدة فكانت الهزيمة على القوم وكان الحسن بن زيد قد أعد في كل قرية في طريقه لانهزامه برذونا وبغلا لأنه كان رجلا ثقيلا كثير اللحم وتلاحق أصحاب يعقوب به فتبع الحسن بن زيد في خمسة آلاف خيل جريدة وأخذ يعقوب مما كان مع الحسن بن زيد ثلثمائة وقر مالا أكثرها عين وظفر بجماعة من آل أبي طالب فأساء إليهم وأسرههم وكانت الواقعة يوم الاثنين لأربع بقين من رجب سنة ستين ومائتين

412 ثم تقدم يعقوب فدخل أمل قلت وهي بالهمزة الممدودة والميم المضمومة وبعدها لام وهي كرسي بلاد طبرستان قال وهرب الحسن بن زيد إلى مدينة يقال لها سالوس فلم يجد من أهلها ما كان يعرفه منهم فتنحى عنهم ثم خرج يعقوب من أمل فطلب الحسن بن زيد فرحل مرحلة واحدة وبلغه الخبر أن الحسين بن طاهر بن عبد الله بن طاهر قد دخل مرو الروذ ومعه صاحب خوارزم في ألفي تركي فانزعج يعقوب لذلك وقصر من الإيغال في طلب الحسن بن زيد فرجع وكتب إلى أمير الري في ذي الحجة من سنة ستين يأمره أن يخرج من الري ويعلمه أن أمير المؤمنين قد ولاه إياه فبلغ ذلك الخليفة فأنكره وعاقب غلمانه الذين كانوا ببغداد بالحبس وأخذ الأموال ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائتين ويعقوب ببلاد طبرستان فخرج في المحرم يريد جرجان فلحقه الحسن بن زيد من ناحية البحر فيمن اجتمع إليه من الديلم وأهل الجبال وطبرستان فشعث من يعقوب وقتل من لحق من أصحابه فانهزم يعقوب إلى جرجان فجاءت بها زلزلة عظيمة قتلت من أصحابه ألفي إنسان ورجعت طبرستان إلى الحسن بن زيد وهي أمل وسارية وما يتصل بهما وأقام يعقوب بجرجان يعسف أهلها بالخراج ويأخذ أموال الناس ودامت الزلزلة ثلاثة أيام وأتى جماعة من أهل جرجان إلى بغداد فسئلوا عن يعقوب الصفار فذكروه بالجبروت والعسف فعزم الخليفة على النهوض إليه واستعد لذلك ولما رجع الصفار إلى جوار الري ورجع الحاج عن الموسم كتب الخليفة المعتمد على الله إلى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن الحسين وهو يومئذ متولي العراق بأن يجمع الحاج من أهل خراسان وطبرستان وجرجان والري ويقرأ عليهم

كتاباً منه إليه فجمع الحاج القادمين من أقاصي البلاد وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين بالوقوع في الصفار وعمل ثلاثين نسخة ودفع إلى أهل كل كورة نسخة لتذيع الأخبار بهذه النسخ في الأفاق ونمي الخبر إلى يعقوب الصفار بما كان من حبس غلمانه وما كان من جمع الحاج في دار عبيد الله وما دفع

413 إليه من النسخ وانكشف له رأي الخليفة في قصده فرجع إلى نيسابور وإنما رجع لأنه لم يجد عدة تصلح للقاء الخليفة ولما دخل إلى نيسابور أساء إلى أهلها بأخذ الأموال ورجع يريد جهة سجستان في جمادى الأولى من سنة إحدى وستين ومائتين ولما رجع إلى سجستان خرجت كتب الخليفة إلى أصحاب الممالك بخراسان وذوي الجاه والعدد بتولية كل رجل ناحية فوردت الكتب وأصحاب الصفار متفرقون في كور خراسان ثم إن الصفار وصل إلى عسكر مكرم من أعمال خوزستان وكاتب الخليفة وسأله ولاية خراسان وبلاد فارس وما كان مضموماً إلى آل طاهر بن الحسين الخزاعي من الكور وشرطتي بغداد وسر من رأى وأن يعقد له على طبرستان وجرجان والري وأذربيجان وقزوین وأن يعقد له على كرمان وسجستان والسند وأن يحضر من قرئت عليهم الكتب التي نسخت في دار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ويقرأ عليهم خلاف ما قرئ عليهم أولاً من ذكره ليبطل ذلك الكتاب بهذا الكتاب ففعل ذلك الموفق بالله أبو أحمد طلحة بن المتوكل على الله وهو أخو الخليفة المعتمد على الله والد المعتضد بالله الخليفة القائم بعد عمه المعتمد على الله وكان الموفق مستولياً على الأمور كلها وليس للمعتمد معه سوى اسم الخلافة لا غير وأجابه إلى ما طلب وجمع الناس وقرأ عليهم ما أحبه الصفار وأجيب إلى الولاية التي طلبها واضطربت الموالي بسر من رأى من إجابة الخليفة إلى ما طلبه الصفار وتحركوا ثم إن الصفار لم يلتفت إلى ما أجيب إليه من ذلك ودخل السوس وهي أيضاً مدينة من أعمال خوزستان بالقرب من عسكر مكرم ولما دخلها عزم على محاربة الخليفة المعتمد وتأهب له الخليفة لينحدر إليه في دجلة ثم تقدم الصفار وتقدم إليه عسكر الخليفة وقد كانت الموالي ارتابت واتهمت الأمير الموفق وتوهمت أن إقبال الصفار بسبب ما أنفذ إليه من الكتب وإلا فأى عجيب أعجب من خارج قصد من زرنج كرسي سجستان وهي الحد الفاصل بين السند والترك وخراسان والوصول إلى بلاد العراق لمحاربة الخليفة وهو في جيوشه وعدده وتقدم مملكته في شرق الأرض وغربها والصفار منفرد

414 بجيشه ليس معه من يعضده ولا يشاركه في هذا الأمر ولما بلغ الخليفة ذلك دعا ببرد النبي وقضيبه وأخذ القوس ليكون أول من رمى ولعن الصفار فطابت أنفس الموالي ولما كان صبيحة الأحد لتسع خلون من رجب وردت عساكر الصفار في التعبية إلى موضع يقال له اصطربند وهي قرية بين السيب ودير العاقول من النهروان الأوسط وجمع أصحابه ليحمل بهم وتقدم بنفسه كما كان يفعل قبل ذلك وأقبل وعليه دراعة ديباج سوداء ولما تواقف الصفان خرج من الموالي خشتج القائد فقام بين الصفين وقال لأصحاب الصفار يا أهل خراسان وسجستان ما عرفناكم إلا بطاعة السلطان وتلاوة القرآن وحج البيت وطلب الإنكار وإن دينكم لا يتم إلا باتباع الإمام وما نشك أن هذا الملعون قدموه عليكم وقال لكم إن السلطان قد كتب إليه بالحضور وهذا السلطان قد خرج لمحاربته فمن أثر منكم الحق وتمسك بدينه وشرائع الإسلام فالينفرد عنه إذ كان شاقا للعصا محاربا للسلطان فلم يجيبوه عن كلامه وكان هذا خشتج شجاعا مقداما ولما تخلص محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان من أسر الصفار وقد تقدم ذكر أسره وحمله مقيدا قال له خشتج يا آل طاهر اشتريتونا بأموالكم وأهديتونا إلى ولد العباس فاستخلفونا وملكونا الضياع والأموال حتى قدنا الجيوش وحاربنا عن بيضة الإسلام فلم نخرج من الدنيا حتى حاربنا الصفار عنك يا والي خراسان مع مولانا أمير المؤمنين وخلصناك بعد الأسر والقيد الثقيل من مدينة إلى مدينة على بغل إكاف ورددناك من العراق إلى خراسان فالحمد لله على ما تفضل به مولانا من خلاصك وأولانا هذا الفعل الجميل فيك

415 رجعنا إلى تنمة خبير الصفار قال الراوي وحزر عسكر الصفار فكانت مساحة معسكره ميلا في ميل وكانت دوابهم في غاية الفراهة وقيل إن جمعهم كان يزيد على عشرة آلاف إنسان ووضع الخليفة العطاء في الجند وقطع ما في الطريق من الشجر والدغل واستعدوا للحرب وجدوا فيها وشمروا وقيل ما هو إلا أن تنصروا أو تنهزموا فلا ترجع دولتكم إليكم ووقف الخليفة المعتمد بنفسه وإلى جانب ركابه محمد بن خالد بن يزيد بن يزيد بن زائدة الشيباني وقد تقدم ذكر جده يزيد بن يزيد ووقف معه جماعة اكتنفوا الخليفة من أهل البأس والنجدة وتقدم بين يديه الرماة بالنشاب وكشف الموفق أخو الخليفة رأسه وقال أنا الغلام الهاشمي وحمل على أصحاب الصفار وقتل بين الطائفتين خلق كثير فلما رأى الصفار تلك الحال ولى راجعا تاركا أمواله وخزائنه وذخائره ومر على وجهه فلم تتبعه العساكر وما أفلت من أصحابه رجل إلا

بسهم أصابه وأدركهم الليل فتساقطوا في الأنهار لازدحامهم وثقل الجراح بهم قال أبو الساج داود ابن دوست الذي تنسب إليه الأجناد الساجية ببغداد للصفار لما انهزم ما رأيت معك شيئاً من تدبير الحروب وكيف كنت تغلب الناس فإنك جعلت ثقلك وأموالك وأسراك أمامك وقصدت بلداً على قلة المعرفة منك به وبمغايصه وأنهاره بغير دليل وقاتلت يوم الأحد والرياح عليك وسرت من السوس إلى واسط في أربعين يوماً وأحوال العساكر مختلفة فلما توافقت عددهم وجاءتهم أموالهم واستحكم أمرهم عليك أقبلت من واسط إلى دير العاقول في يومين وتأخرت عند إمكان الفرصة وأقبلت تعدو في موضع التثبيت فقال الصفار لم أعلم أنني أحارب ولم أشك في الظفر وتوهمت أن الرسل ترد علي فبدروا الأمر فأتيت بما قدرت عليه قلت هذا آخر ما نقلته من كلام ابن الأزر مع الاختصار

416 ونقلت من تاريخ أبي الحسين عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر الذي جعله ذيلاً على تاريخ أبيه في أخبار ببغداد وقد أطال القول فيه فاختصرته وحذفت ما تكرر منه فقال كان وثوب يعقوب بن الليث على درهم وغلبته على سجستان يوم السبت لخمس خلون من المحرم سنة سبع وأربعين ومائتين وكانت ولاية درهم بن نصر كذا ثلاث سنين بعد إخراج صالح بن النضر وهو رجل من بني كنانة من سجستان في ذي الحجة سنة سبع وثلاثين ومائتين ولم يزل يعقوب الصفار مقيماً بسجستان يحارب الشراة والأتراك ويظهر أنه متطوعي حتى كانت سنة ثلاث وخمسين ومائتين فخرج إلى هراة ثم قصد بوشنج وحاصرها وأخذها عنوة وكان ذلك في خلافة المعتز ومات المعتز ويعقوب على حاله ولم يزل على ذلك إلى أيام المعتمد على الله ثم دخل بلخ وخرج منها ثم وصل إلى رامهرمز وهو يظهر الطاعة للخليفة المعتمد وذلك في المحرم من سنة اثنتين وستين ومائتين ثم أرسل رسله إلى المعتمد فدخلوا بغداد لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ثم صار إلى واسط وأقام بها نائباً عنه ثم صار إلى دير العاقول يوم السبت لثمان خلون من رجب ثم صار إلى اصطربند فنزل بها ولما اتصل خبره بالمعتمد وأنه يقصد بغداد جمع أصحابه من الأطراف وخرج من سر من رأى قاصداً لمحاربتة ودخل بغداد يوم الأحد لخمس بقين من ذي الحجة من السنة قال أبو الفرج كاتب القاضي أبي عمر لما نهض الخليفة لمحاربة الصفار لم تزل كتبه تسير إليه من الطريق يؤمر بالانصراف ويحذر سوء عاقبة فعله وأن أمير المؤمنين قد نهض إليه في العدد والعدد وكتب الصفار واردة بأنني قد علمت

نهوض أمير المؤمنين ليشر فني وينبه على موقعي منه ثم عبى الخليفة جيشه للقتال على القرية المذكورة وأرسلوا الماء على طريق الصفار فكان سبب هزيمته فإنهم أخذوا عليه الطريق وهو لا يدري واصطف الفريقان ولم

417 يزل القوم يحمل بعضهم على بعض حتى انهزم الصفار فغتم الناس من أثقاله غنيمة عظيمة وتوهموا أن ذلك حيلة منه ومكر ولولا ذلك لاتبعوه ولقد حدثني من حضر ذلك أن رشق الجند الموالي كان في ذلك الوقت عشرين ألف سهم وانصرف الخليفة مسرورا بما فتح الله عليه وكان ممن تخلص من أسره ذلك اليوم أبو عبد الله محمد بن طاهر أمير خراسان وجاء إلى الخليفة وهو في قيده فكف الخليفة عنه القيد وخلع عليه خلعة سلطانية وذكر المعتمد ذلك النهار أنه رأى تلك الليلة في المنام كأن إنسانا كتب على صدره (إننا فتحنا لك فتحا مبينا) الفتح 1 وقص الرؤيا على خواصه وقال لهم قد وثقت بنصر الله تعالى وقبل الواقعة وردت كتب الصفار إلى الخليفة وفيها خضوع وتضرع ويخبر بأنه لم يجيء إلا لخدمة أمير المؤمنين والتشرف بالمثول بين يديه والنظر إليه وأن يموت تحت ركابه فقال المعتمد نحن في مخاريق الصفار بعد أعلموه أنه ما له عندي إلا السيف وأمر الخليفة بالكتاب إلى أبي أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وهو عم محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر يخبره بالفتح وخلص ابن أخيه محمد بن طاهر فكتب إليه وهو يومئذ يتولى الشرطة ببغداد نيابة عن ابن أخيه المذكور فإنه كان يتولى خراسان وشرطتي بغداد وسر من رأى وفي الكتاب فصول طويلة وحاصله أنه عدد ذنوب الصفار وما قابله به الخليفة من الإحسان والإنعام وأنه قلده خراسان والبلاد التي تقدم ذكرها قبل هذا وأنه رفع مرتبته وأمر بتكنيته في كتبه وأقطع الضياع السنوية ولم يبق شيء مما يقدر فيه استصلاحه إلا فعله فما زاده ذلك إلا البغي والطغيان والتمس أشياء إن رد عنها قصد أبواب أمير المؤمنين لإثارة الفتنة وابتغاء الغلبة فلم ير أمير المؤمنين إجابته إلى ما التمسه وتابع الكتب بالرجوع إلى أعماله الجليلة التي ولاه إياها وحذره التعرض لزوال النعم التي أنعم الله عليه بها فقد خالفه وعصاه وخرج عن طاعته وعرفه أنه إن أقام على المصير إلى الباب فقد عصاه وخرج عن طاعته ثم وجه إليه في ذلك مرة بعد أخرى مع جماعة

418 من القضاة والفقهاء والقواد وقد بتوجههم إليه أنه يرجع إلى ما هو ألزم به وأوجب عليه فأقام على سبيل واحد في البغي والعناد والعصيان ولم يثنه الإرشاد ولم يزل استحواذ الشيطان عليه يقوده إلى الحين ويصده عن

سبيل النجاة إلى مهاوي الهلكة فلما تبين أمير المؤمنين ذلك منه رأى أن يقضي عليه في أمر مثله فنهض متوكلا على الله تعالى معتمدا على كفايته لدفع الملعون عما يحاوله وهو يغذ السير إلى المصرع الذي سبق به قضاء الله تعالى فيه حتى توسط الطريق بين مدينة السلام وواسط وأظهر أعلاما على بعضها الصلبان واستنجد أهل الشرك على أهل الإيمان وبارز الله بسريرته ليسلمه بجريرته وفارق شرائع الإسلام وأحكامه نقضا للعهود ونكثا وخفرا للذمة وإعلانا للمشاقة فقدم أمير المؤمنين أخاه الموفق بالله أحمد ولي عهد المسلمين ومعه جماعة من موالي أمير المؤمنين الذين أخلصوا لله طاعتهم وثبت في المحاماة عن دولته بصائرهم وأتبعهم أمير المؤمنين الرغبة إلى الله تعالى في تأييدهم ونصرهم على عدوهم ولعنه أمير المؤمنين في الأوقات والمواقف التي علم الله صدق نيته فيها وألحقه وبالها ووقف أمير المؤمنين يتأمل ما يكون من أخيه ومواليه وأوليائه ويواصل الإمداد والجيوش إليهم وكان الموفق بالله في قلب العسكر وظهر الملعون عدو الله في أشياخ ضلالته قد ادرع العصيان وتسربل البغي واعتمد على وفور حشده وكثرة أتباعه فلما تراءى الجمعان شهر عدو الله وأشياخ ضلالته السلاح وأسرعوا إلى موالي أمير المؤمنين وأوليائه وشرعت في الملعون وضلاله سيوف الحق باترة ورماحه طاعنة وسهامه نافذة حتى أثنى الملعون بالجراح ورأى أتباع ضلالته ما حل به فبادروا بالويل والثبور وأكب عليهم موالي أمير المؤمنين وأوليائه يقتلون فيهم ويأسرون منهم وعجل الله إلى النار من جماعته من لا يحصى عدده ولم يزل الأمر كذلك حتى انتزع أبو عبد الله محمد بن طاهر مولى أمير المؤمنين سالما من أيديهم وحسروا عن مستقرهم فولى الباقر من هزمين مفلولين لا يلوون على شيء وأسلم الله تعالى الملعون وهم وما كانوا حووه وملكوه في سالف الأيام التي أملى الله تعالى لهم فيها أقطار الأرض من الأموال والأمتعة والأثاث والإبل

419 والدواب والبغال والحمير فأفاه الله على الموالي وسائر الأولياء وملكهم إياه وصاروا به إلى رحالهم وعلى الجملة فإن هذا الكاتب أطال القول في ذلك فاختصرته ثم كتب في آخره وكتبه عبيد الله بن يحيى يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة اثنتين وستين ومائتين ثم قال هذا المؤرخ بعد هذا ومضى الصفار منهزما إلى واسط يتخطف أصحابه أهل القرى وتؤخذ أسلحتهم واسلابهم ولم تتبعه الموالي مخافة رجعتهم ولاشتغالهم بالكسب والنهب فأمسكوا عنه ورجع الخليفة إلى معسكره ثم رجع الصفار إلى

السوس وجبى الأموال ثم قصد تستر وحاصرها وأخذها ورتب فيها نائبا وكثر جمعه ثم رحل إلى فارس في شوال وكان الخليفة قد رجع إلى المدائن وأقام بها يومين ثم رحل إلى بغداد ومنها إلى سر من رأى ودخلها يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان ثم ذكر المؤرخ بعد هذا وورد الخبر على الخليفة بوفاة يعقوب بن الليث الصفار يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال والذي أصيب في بيوت أمواله من العين أربعة آلاف ألف دينار ومن الورق خمسون ألف درهم ووافى أحمد بن أبي الأصبع يوم الخميس لسبع بقين من شوال وقد كان الخليفة أنفذه ليصلح أمر يعقوب فانصرف من عند يعقوب فلما قرب من واسط اتصل به وفاة يعقوب وقد كان قلد خراسان وفارس وكرمان والري وقم وأصبهان وصيرت إليه الشرطتان ببغداد وسر من رأى على أن يوليها من أحب وعلى أن يوجه ثلثي ما يجبى من خراج البلاد التي يتولاها من جميع الأعمال وتولى أخوه عمرو بن الليث مكانه باجتماع عسكر يعقوب عليه ووردت كتب عمرو إلى الموفق أخي الخليفة المعتمد على الله بالسمع والطاعة وأن يتولى ما كان أخوه يتولاه فأجيب إلى سؤاله وولاه في ذي القعدة من السنة

420 قلت سياقة هذا التاريخ يدل على أن يعقوب الصفار توفي في بقية سنة اثنتين وستين ومائتين لأنه حكى الواقعة في هذه السنة وأن يعقوب انهزم ثم قال عقيب هذا وورد الخبر بوفاة يعقوب في شوال ولم يذكر السنة فيدل على موته في تلك السنة والذي أعرفه من عدة تواريخ خلاف هذا فإن أبا الحسين السلامي ذكر في كتاب تاريخ أخبار ولاية خراسان في أول الفصل المختص بعمر بن الليث الصفار فقال كان سبب وفاة يعقوب بن الليث أنه أصابه القولنج فأشير عليه بالعلاج فامتنع منه واختار الموت عليه فمات بجنديسابور من خوزستان يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال من سنة خمس وستين ومائتين قال أبو الوفاء الفارسي رأيت على قبر يعقوب بن الليث صحيفة وقد كتبوا عليها (ملكت خراسانا وأكناف فارس * وما كنت من ملك العراق بأيس) (سلام على الدنيا وطيب نسيمها * إذا لم يكن يعقوب فيها بجالس) ورأيت بخطي في جملة مسوداتي أن يعقوب بن الليث الصفار توفي سنة خمس وستين ومائتين بالأهواز وحمل تابوته إلى جنديسابور فدفن بها وكتب على قبره هذا قبر يعقوب المسكين وكتب يعده (أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتي به القدر) (وسالمتك الليالي فاغتررت بها * وعند صفو الليالي يحدث الكدر) ورأيت بخطي أيضا في موضع آخر أنه

توفي بجنديسابور ودفن بميدانه والله أعلم وهو قاصد العراق في التاريخ المذكور وكانت وفاته بعلة القولنج وأخبره طبيبه أن لا دواء له إلا الحقنة فامتنع منها واختار الموت عليها وكانت مدة علته بالقولنج والفواق ستة عشر يوما ومدة تغلبه على سجستان وتلك النواحي أربع عشرة سنة وشهورا

421 وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه في سنة خمس وستين ومائتين أنه مات فيها يعقوب بن الليث في تاسع عشر شوال من السنة وذكر حديث القولنج وامتناعه من الحقنة وأنه مات بجنديسابور من كور الأهواز قلت وهي من أعمال خوزستان بين العراق وبلاد فارس وقال شيخنا أيضا وكان الخليفة المعتمد قد أنفذ إليه رسولا يترضاه ويستميله ويقلده أعمال فارس فوصل الرسول إليه ويعقوب مريض فجلس له وجعل عنده سيفا ورغيفا من خبز الخشكار ومعه بصل وأحضر الرسول فأدى الرسالة وقال له قل للخليفة إني عليل فإن مت فقد استرحت منك واسترحت مني وإن عوفيت فليس بيني وبينك إلا هذا السيف حتى آخذ بثأري أو تكسرنى وتفقرني فأعود إلى هذا الخبز والبصل وعاد الرسول فلم يلبث يعقوب أن مات وقال بن حوقل في كتاب المسالك والممالك إن جنديسابور مدينة حصينة واسعة الخير وبها نخل وزروع كثيرة ومياه وقطنها يعقوب بن الليث الصفار لخصبها واتصالها بالمير الكثيرة وكان الحسن بن زيد العلوي يسمى يعقوب السندان لثباته وكان قل أن يرى متبسما وكان عاقلا حازما وكان يقول كل من عاشرته أربعين يوما ولا تعرف أخلاقه لا تعرفها في أربعين سنة (351) ولما تولى عمرو أحسن في التدبير والسياسة غاية الإحسان حتى يقال ما أدرك في حسن السياسة للجنود والهداية إلى قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث وذكر السلامي في كتاب أخبار خراسان شيئا كثيرا من كفايته ونهضته وقيامه بقواعد الولاية فتركته طليا للاختصار وذكر أنه كان ينفق في الجند في كل ثلاثة أشهر مرة ويحضر بنفسه على ذلك وأن عارض الجيش يقعد والأموال بين يديه والجند بأسرهم حاضرون وينادي المنادي أولا باسم عمرو بن الليث فتقدم دابته إلى العارض بجميع آلة الفارس فيفتقدها ويأمر بوزن ثلثمائة درهم باسم عمرو فتحمل إليه في صرة فيأخذ الصرة فيقبلها ويقول الحمد لله الذي وفقني لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق ثم يضعها في خفه فتكون لمن ينزع خفه ثم يدعى بعد ذلك

422 بأصحاب الرسوم على مراتبهم فيستعرضون بآلاتهم التامة وبدوابهم الفره ويطالبون بجميع ما يحتاج إليه الفارس والراجل من صغير آلة

وكبيرها فمن أخل بإحضار شيء منها حرموه رزقه فاعترض يوما فارسا كانت دابته في غاية الهزال فقال له عمرو يا هذا تأخذ مالنا تنفقه على امرأتك فتسمنها وتهزل دابتك التي عليها تحارب وبها تجد الأرزاق امض فليس لك عندي شيء فقال له الجندي جعلت لك الفداء لو اعترضت امرأتي لاستسمنت دابتي فضحك عمرو وأمر بإعطائه وقال استبدل بدابتك قلت ذكر القاضي كمال الدين المعروف بابن العديم الحلبي رحمه الله تعالى في تاريخ حلب حكاية يليق أن أذكرها هاهنا لأنها مثل هذه الحكاية وهي كان كسرى أنوشروان بن قباد قد ولى رجلا من الكتاب نبيها معروفا بالعقل والكفاية يقال له بابك بن النهروان ديوان الجند فقال لكسرى أيها الملك إنك قد قلدتني أمرا من صلاحه أن تحتل لي بعض الغلظة في الأمور وهي عرض الجنود في كل أربعة أشهر وأخذ كل طبقة بكمال آلتها ومحاسبة المؤدبين على ما يأخذون على تأديب الرجال بالفروسية والرمي والنظر في مبالغتهم في ذلك وتقصيرهم فإن ذلك ذريعة إلى إجراء السياسة مجاريها فقال كسرى ما المجاب بما سأل بأحظى من المجيب لاشتراكهما في فضله وانفراد المجيب بعد بالراحة حقق مقالتك فأمر فبنيت له في موضع العرض مصطبة وبسط له عليها الفرش الفاخرة ثم جلس ونادى مناديه لا يبقين أحد من المقاتلة إلا حضر للعرض فاجتمعوا ولم ير كسرى فأمرهم فانصرفوا وفعل ذلك في اليوم الثاني ولم ير كسرى فيهم فأمرهم فانصرفوا فنادى في اليوم الثالث أيها الناس لا يتخلفن من المقاتلة أحد ولا من أكرم بالتاج والسريير فإنه عرض لا رخصة فيه ولا محاباة وبلغ كسرى ذلك فتسلح بسلاحه ثم ركب فاعترض على بابك وكان الذي يؤخذ به الفارس تجفافا ودرعا وجوشنا وبيضة ومغفرا وساعدين وساقين ورمحا وترسا وجزرا تلزمه منطقة وطبرزينا وعمودا وجعبة فيها قوسان بوتريهما وثلاثين نشابة ووترين

423 ملفوفين يعلقهما الفارس في مغفره ظهريا فاعترض كسرى على بابك بسلاح تام خلا الوترين اللذين يستظهر بهما فلم يجز بابك على اسمه فذكر كسرى الوترين فعلقهما في مغفره واعترض على بابك فأجاز على اسمه وقال لسيد الكماة أربعة آلاف درهم ودرهم وكان أكثر ماله من الرزق أربعة آلاف درهم ففضل كسرى بدرهم واحد فلما قام بابك من مجلسه دخل على كسرى فقال أيها الملك لا تلمني على ما كان من إغلاظي فما أردت به إلا الدربة للمعدلة والإنصاف وحسم مادة المحاباة قال كسرى ما أغلظ علينا أحد فيما يريد به إقامة أودنا وصلاح ملكنا إلا احتملنا له غلظته كاحتمال الرجل شرب

الدواء الكريه لما يرجوه من منفعتة رجعنا إلى تنمة أخبار عمرو بن الليث الصفار قال السلامي أيضا كان رافع بن هرثمة تبعا لأبي ثور وكان أبو ثور أحد قواد محمد بن طاهر الخزاعي فلما وافى يعقوب الصفار نيسابور كان أبو ثور من جملة من مايل يعقوب على محمد بن طاهر فلما انصرف يعقوب إلى سجستان صاحبه أبو ثور ومعه رافع بن هرثمة وكان رجلا طويل اللحية كرية الوجه قليل الطلاقة فدخل يوما إلى يعقوب فلما خرج من عنده قال يعقوب إني لا أميل إلى هذا الرجل فليلحق بحيث شاء فباع رافع جميع آلاته ثم انصرف إلى منزله بيامين وهي من قرى كنج رستاق وأقام هناك إلى أن استقدمه أحمد بن عبد الله الخجستاني وخجستان من جبل هراة من قرى بادغيس وكان الخجستاني من أتباع يعقوب الصفار ثم خلع طاعته وتغلب على نيسابور وبسطام في سنة إحدى وستين ومائتين وكان يظهر الميل إلى الطاهرية مستميلا بذلك قلوب أهل نيسابور إليه حتى إنه كان يكتب في كتبه أحمد بن عبد الله الطاهري

424 ثم كتب الخجستاني إلى رافع بن هرثمة وهو في بلده يستقدمه فقدم عليه فجعله صاحب جيشه وللخجستاني حروب ومواقف مشهورة وليس الغرض ذكر شيء منها ها هنا ثم إن غلامين من غلمانة اتفقا عليه وقتلاه وقد سكر ونام وذلك في ليلة الأربعاء لست بقين من شوال سنة ثمان وستين ومائتين وكان رافع بن هرثمة غائبا فقدم بعد ذلك على جيش الخجستاني فقدموه عليهم وبايعوه بمدينة هراة وقيل بنيسابور ثم عزل الموفق بالله عمرو بن الليث الصفار عن ولاية خراسان وجعلها لأبي عبد الله محمد بن طاهر الخزاعي في سنة إحدى وسبعين ومائتين وهو مقيم ببغداد فاستخلف محمد بن طاهر عليها رافع بن هرثمة ما خلا أعمال ما وراء النهر فإن الموفق بالله أقر عليها نصر بن أحمد بن أسد الساماني خليفة لمحمد بن طاهر ثم وردت كتب الموفق على رافع بقصد جرجان وطبرستان وكانتا للحسن ابن زيد العلوي وتوفي سنة سبعين ومائتين واستولى عليهما أخوه محمد ابن زيد فجاءه رافع في سنة أربع وسبعين ففارقها محمد بن زيد إلى استراباذ فحاصره بها رافع مدة سنتين ثم فارقها ليلا في نفر يسير إلى بلاد الديلم واستولى رافع على طبرستان في سنة سبع وسبعين ومائتين ثم توفي الخليفة المعتمد على الله في رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وتولى الخلافة بعده المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق المذكور وولى المعتضد أبا إبراهيم إسماعيل بن أحمد الساماني ما وراء النهر بعد وفاة أخيه نصر بن أحمد المذكور قلت وكانت وفاة

نصر لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين بسمرقند قال وعزل رافع بن هرثمة عن خراسان وولاهها عمرو بن الليث وبقي رافع بالري ثم إنه هادن الملوك المجاورين له ليستعين بهم على عمرو بن الليث فلما تم له ذلك خرج إلى نيسابور فواقعه عمرو بن الليث في شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وثمانين وهزمه عمرو وتبعه إلى

425 أبيورد وقصد رافع أن يخرج منها إلى هراة أو مرو فعلم عمرو أن مقصده سرخس فقصدها عمرو ليأخذ عليه الطريق فعلم رافع ذلك فخرج من أبيورد ومعه دليل فأخذ به على جبال طوس حتى أوردته باب نيسابور فدخلها فعاد عمرو إليها وحاصره بها فانهمز رافع وأصحابه ووصل إلى نواحي خوارزم على الجمازات وحمل ما كان معه من آلة ومال في شردمة قليلة وذلك يوم السبت لخمس بقين من شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين ومائتين فوجه إليه أمير خوارزم نائبا يقوم بخدمته وما يحتاج إليه إلى أن يصل خوارزم فوجده النائب في خوف من أصحابه فقتله لسبع خلون من شوال يوم الجمعة سنة ثلاث وثمانين وحز رأسه وحمله إلى عمرو بن الليث وهو بنيسابور فأنفذ عمرو رأسه إلى المعتضد بالله ولم يكن رافع ابن هرثمة وإنما هرثمة زوج أمه فانتسب رافع إليه لأنه أشهر ورافع ابن تومرد وقال ابن جرير الطبري في تاريخه في سنة ثلاث وثمانين وفي يوم الجمعة لثمان بقين من ذي القعدة قرئت الكتب على المنابر بقتل رافع بن هرثمة وقدم رسول عمرو بن الليث برأس رافع إلى بغداد يوم الخميس لأربع خلون من المحرم سنة أربع وثمانين ومائتين على المعتضد فأمر بنصبه في الجانب الشرقي إلى الظهر ثم تحويله إلى الجانب الغربي بقية النهار إلى الليل ثم رده إلى دار السلطان قال السلامي وصفت خراسان إلى شط جيحون لعمرو بن الليث قلت وقد مدح البحثري الشاعر المشهور رافع بن هرثمة وكناه أبا يوسف في مديحه وأرسلها إليه فأرسل له عشرين ألف درهم وهو بالعراق قال السلامي ولما وجه عمرو بن الليث برأس رافع بن هرثمة إلى المعتضد سأل أن يولوه عمل ما وراء النهر مثل ما كان يرسم عبد الله بن طاهر فوعدوه بذلك ثم أرسل إليه المعتضد هدايا فوصلته وهو في نيسابور فأبى أن يقبلها دون الوفاء بما وعدوه من تولية أعمال ما وراء النهر فكتب الرسول إلى المكتفي بالله بن المعتضد وكان بالري وعنده جماعة من خواص أبيه بما سأله عمرو فأنفذوا إليه العهد بها فحمل إليه العهد والهدايا التي سيرها له المعتضد بالله

426 وامتتع من أخذها وكان في الهدايا سبع دسوت خلع فوضعت بين يديه وأفاض عليه الرسول الخلع واحدة بعد أخرى وكلما لبس خلعة صلى ركعتين ثم وضع العهد قدامه فقال ما هذا قال الذي سألته فقال عمرو ما أصنع به فإن إسماعيل ابن أحمد لا يسلم إلي ذلك إلا بمائة ألف سيف فقال أنت سألته فشمرو الآن لتتولى العمل في ناحيته فأخذ العهد وقبله ووضع بين يديه ثم أنفذ عمرو إلى الرسول ومن معه سبعمائة ألف درهم وصرفهم ثم جهز عمرو جيشا إلى إسماعيل بن أحمد فعبر إسماعيل إليهم نهر جيحون وقاتلهم فقتل بعضهم وهزم الباقيين وعمرو بن الليث الصفار في نيسابور وكانت الواقعة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شوال سنة ست وثمانين ومائتين وعاد إسماعيل إلى بخارا وهي من أعمال ما وراء النهر قال السلامي انتدب عمرو بن الليث لمحاربة إسماعيل محمد بن بشر فلما عبر إسماعيل جيحون دخل موسى السجزي على محمد بن بشر وهو يخلق رأسه فقال له هل استأذنت إسماعيل في حلق رأسك يعني أن رأسه لإسماعيل لأنه انتصب لمحاربتة فقال له محمد اغرب عني لعنك الله ثم تحاربوا من الغد فانكشف أصحاب بشر وقبضوا عليه وحز رأسه في جملة سائر الرؤوس وحملوها إلى إسماعيل وأدخلوا جماعة من أصحابه ليميزوا الرؤوس عن رأس ابن بشر فأعلم بعضهم إسماعيل بما قال موسى السجزي لابن بشر فتعجب مما جرى الفأل به وذكر الطبري في تاريخه في سنة سبع وثمانين ومائتين ما مثاله وفي يوم الأربعاء لخمس بقين من جمادى الأولى ورد كتاب فيما ذكر على السلطان أنه كانت بين إسماعيل بن أحمد وبين عمرو بن الليث وقعة فأسر عمرا واستباح عسكره وكان من خبر عمرو وإسماعيل أن عمرا سأل السلطان أن يوليه ما وراء النهر فولاه ذلك ووجه إليه وهو مقيم بنيسابور بالخلع واللواء على ما وراء النهر لمحاربة إسماعيل بن أحمد فكتب إليه إسماعيل إنك قد وليت

427 دنيا عريضة وأنا في يدي ما وراء النهر وأنا في ثغر فاقنع بما في يدك واتركني مقيما بهذا الثغر فأبى إجابته إلى ذلك وذكر له من أمر نهر بلخ وشدة عبوره فقال عمرو لو أشاء أن أسكره بيد الأموال وأعبره لفعلت فلما ينس إسماعيل من انصرافه عنه جمع من معه من التناء والدهاقين وعبر النهر إلى الجانب الغربي وجاء عمرو بن الليث فنزل بلخ وأخذ إسماعيل عليه النواحي فصار كالمحاصر وندم على ما فعل وطلب المحاجزة فيما ذكر فأبى إسماعيل عليه ذلك ولم يكن بينهم قتال كثير حتى هزم عمرو فولى هاربا ومر بأجمة في طريقه قيل له إنها أقرب فقال لعامة من معه امضوا في الطريق

الواضح ومضى في نفر يسير فدخل الأجمة ووحلت به دابته فوقت ولم يكن له في نفسه حيلة ومضى من معه ولم يلوا عليه وجاء أصحاب إسماعيل فأخذوه أسيرا فلما بلغ المعتضد ما جرى مدح إسماعيل وذم عمرا وقال يقلد أبو إبراهيم إسماعيل كل ما في يد عمرو ويوجه إليه بالخلع ثم ذكر الطبري أيضا في سنة ثمان وثمانين ما مثاله وفي أول جمادى الأولى يوم الخميس أدخل عمرو بن الليث بغداد وذكر لي أن إسماعيل بن أحمد خيره بين المقام عنده أسيرا وبين توجيهه إلى أمير المؤمنين فاختر توجيهه إلى أمير المؤمنين فوجهه وقال السلامي في أخبار خراسان ثم خرج عمرو إلى بلخ فلاقاه بها إسماعيل فهزمه وقبض عليه وذلك يوم الثلاثاء النصف من ربيع الأول سنة سبع وثمانين ومائتين وأنفذه مقيدا إلى سمرقند قلت وهي من بلاد ما وراء النهر أيضا وهذا النهر هو جيحون قال وضم إليه أخاه أبا يوسف ليخدمه إلى أن ورد عليه من عند المعتضد عبد الله بن الفتح بعهد خراسان واللواء والتاج والخلع في سنة ثمان وثمانين وقدم معه إنسان ليتولى حمل عمرو بن

428 الليث إلى بغداد فسلمه إسماعيل إليه فحمله وقال ابن أبي طاهر المذكور قبل هذا في تاريخه إن عمرو بن الليث الصفار انهزم وقتل خلق كثير من أصحابه وكانت الواقعة على باب بلخ يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سنة سبع وثمانين ومائتين وقبل ذلك هرب ابن أبي ربيعة كاتب عمرو بن الليث إلى إسماعيل بن أحمد ومعه قائد من قواده في خلق كثير فأصبح عمرو في يوم الواقعة وقد عرف الخبر ثم كثر هرب أصحابه إلى إسماعيل فضعف قلب عمرو وهرب واشتغل إسماعيل بالعسكر وبعث في طلب عمرو جيشا فوجده واقفا على فرس فقبضوا عليه وسيره إسماعيل إلى المعتضد وأخبره بما جرى وأنه سيره إلى سمرقند حتى يرد عليه أمر أمير المؤمنين فاشتد سرور الخليفة بذلك وقلد الخليفة إسماعيل ما كان مقلده عمرو مضافا إلى عمله وتوجه عبد الله بن الفتح إلى إسماعيل في طلب عمرو فلما وصل إلى إسماعيل وجه إليه فأحضر عمرا فقيده وأرسله وإلى جانبه رجل من أصحاب إسماعيل بيده سيف مشهور وقيل لعمرو إن تحرك في أمرك أحد رمينا رأسك إليهم فلم يتحرك أحد ووصلوا إلى النهروان يوم الثلاثاء لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وحل قيد عمرو فلما كان يوم الخميس مستهل جمادى الأولى ركب الجند للقائه وعمرو في القبة قد أرخى جلالها عليه فلما بلغ باب السلامة أنزل عمرو من القبة وألبس دراعة ديباج وبرنس السخط وحمل على جمل له سنامان يقال له إذا كان ضخما على هذه

الصورة الفالج في غاية الارتفاع وكان عمرو قد أهدها فيما أهدى للخليفة وقد ألبس الجمل الديباج وحلي بذوائب وأرسان مفضضة وأدخل بغداد فاشتقها في الشارع الأعظم إلى دار الخليفة بقصر الحسني وعمرو رافع يديه يدعو ويتضرع دهاء منه فرقت له العامة وأمسكت عن الدعاء عليه ثم أدخل على الخليفة وقد جلس له واحتفل به فوقف بين يديه ساعة وبينهما قدر خمسين ذراعا وقال له هذا ببغيك يا عمرو ثم أخرج من

429 بين يديه إلى حجرة قد أعدت له وكان أخوه يعقوب الصفار قد تزوج امرأة من العرب من بلد سجستان فلما توفي يعقوب تزوجها أخوه عمرو ثم توفيت ولم تخلف ولدا وكان لها ألف وسبعمائة جارية قال بعضهم كنت عند أبي علي الحسين بن محمد بن الفهم المحدث فدخل رجل من أصحاب الحديث فقال له يا أبا علي رأيت عمرو بن الصفار أمس على جمل فالج من الجمال التي كان أهدها عمرو منذ ثلاث سنين للخليفة فأنشده أبو علي (وحسبك بالصفار نبلا وعزة * يروح ويغدو في الجيوش أميرا) (حباهم بأجمال ولم يدر أنه * على جمل منها يقاد أسيرا) وعمل في ذلك علي بن محمد بن نصر بن بسام الشاعر المقدم ذكره (أيها المغتر بالدنيا * أما أبصرت عمرا) (أركب الفالج بعد الملك * والعزة قسرا) (وعليه برنس للسخط * إذلالا وقهرا) (رافعا كفيه يدعو * الله إسرا وجهرا) (أن ينجيه من القتل * وأن يعمل صفرا) قال الطبري وتوفي المعتضد بالله ليلة الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين وتولى الخلافة ولده المكتفي بالله أبو محمد علي وكان غائبا في الرقة عند موت أبيه فقدم بغداد وأمر يوم الثلاثاء لثمان خلون من جمادى الآخرة من السنة المذكورة بهدم المطامير التي كان أبوه احتقرها لأهل الجرائم ومات عمرو بن الليث الصفار في غد هذا اليوم ودفن بالقرب من القصر الحسني وقد كان المعتضد عند موته لما امتنع من الكلام أمر بقتل عمرو بالإيماء والإشارة ووضع يده على رقبتة وعلى عينه أي اذبحوا الأعور

430 وكان عمرو أعور فلم يفعل صافي الحرمي ذلك وهو الذي أمره المعتضد بقتله وإنما امتنع من قتله لعلمه بحال المعتضد وقرب وفاته وكره قتل عمرو ولما دخل المكتفي بغداد سأل فيما قيل القاسم بن عبيد الله عن عمرو أحي هو فقال نعم فسر بحياته وقال أريد أن أحسن إليه وكان عمرو يهدي إلى المكتفي ويبره برا كثيرا أيام مقامه بالرقي في حياة أبيه المعتضد فذكر أن القاسم كره سؤاله عنه وفسد إليه من قتله وكانت مدة مملكته اثنتين وعشرين

سنة تقريبا قلت وإنما قيل ليعقوب الصفار لأنه كان يعمل الصفر وهو النحاس وهو بضم الصاد المهملة وسكون الفاء وبعدها راء وكان أخوه عمرو يكرى الحمير حكى شيخ من الصفارين قال كان يعقوب وهو غلام في دكانه يتعلم عمل الصفر ولم أزل أتأمل بين عينيه وهو صغير ما آل أمره إليه قيل له وكيف ذلك قال ما تأملته قط من حيث لا يعلم بتألمي إياه إلا وجدته مطرقا إطراق ذي همة وفكر وروية فكان من أمره ما كان وقال علي بن المرزبان الأصفهاني الكاتب سألت بعض أصحاب بني الصفار عن عمرو بن الليث أخي يعقوب بن الليث الصفار وصناعته وعمر يومئذ محبوس بمدينة السلام فسكت عني فلما توفي عمرو قال لي كنت سألتني عن عمرو وصناعته ولم يكن من الحزم إخبارك وهو يرجى ويخشى فاعلم الآن أنه لم يزل مكاريا إلى أن عظم شأن أخيه يعقوب وتمكن من خراسان فلحق به وترك إكرام الحمير قلت ذكر جماعة من أرباب التواريخ في كتبهم أن أبا أحمد عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي المقدم ذكره في هذا الكتاب كان يقول عجائب الدنيا ثلاث جيش العباس بن عمرو الغنوي يؤسر العباس وحده وينجو من القتل ثم يطلق ويقتل جميع جيشه وكانوا عشرة آلاف وجيش عمرو بن الليث يؤسر عمرو وحده ويموت في السجن ويسلم جميع جيشه وكانوا

431 خمسين ألفا وأنا أترك في بيتي بطالا ويتولى ابني أبو العباس الجسرين ببغداد (352) قلت وكان من حديث العباس بن عمرو الغنوي أن القرامطة لما اشتد أمرهم وانتشروا في البلاد وبالغوا في الفتك أرسل إليهم المعتضد بالله في سنة سبع وثمانين ومائتين جيشا مقدمه العباس المذكور فأسره أبو سعيد القرمطي رئيس القرامطة في الوقعة وأسر جميع من معه من الجيش وفي اليوم الثاني من الوقعة أحضر أبو سعيد القرمطي الأسرى فقتلهم بأسرهم وأحرقهم وأطلق العباس فجاء إلى المعتضد وحده وكان ذلك في آخر شعبان من السنة وكانت الوقعة بين البصرة والبحرين وهي قصة طويلة مشهورة وهذا خلاصتها إذ ليس هذا موضع التطويل في شرحها وسيأتي ذكرها مع الاستقصاء في التاريخ الكبير إن شاء الله تعالى قلت والبيتان المذكوران قبل هذا وأنها مكتوبان على قبر يعقوب الصفار وآخر البيت الأول منهما (وما كنت من ملك العراق بأيس *) هذا نصف بيت من جملة أبيات ترنم بها معاوية بن أبي سفيان الأموي لما تغلب على الشام وجاءه جرير بن عبد الله البجلي برسالة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان علي إذ ذاك مقيما بالكوفة فلما أدى جرير الرسالة إلى معاوية وانفض المجلس أمر

معاوية بنزول جرير في مكان قريب منه وجعل يترنم بهذه الأبيات تلك الليلة
ليسمع جرير فيعيد ذلك على علي رضي الله عنه والأبيات المشار إليها هي ()
تطاول ليلي واعتراني وساوسي * لآت أتى بالترهات البسابس () أتاني
جرير والحوادث جمة * بتلك التي فيها اجتداع المعاطس () أكايده والسيف
بيني وبينه * ولست لأثواب الدني بلابس () إن الشام أعطت طاعة يمنية *
تواصفها أشياخها في المجالس ()

432 (فإن يفعلوا أصدم عليا بجبهة * تفت عليه كل رطب ويابس) ()
وإني لأرجو خير ما نال نائل * وما أنا من ملك العراق بآيس () قلت الترهات
بضم التاء المثناة من فوقها وتشديد الراء وبعد الهاء والألف تاء ثانية
والبسابس بفتح الباء الموحدة وبعدها سين مهملة وبعد الألف باء ثانية مكسورة
ثم سين ثانية وهي الباطل وأصل الترهات الطرق الصغار غير الجادة تنتشعب
عنها الواحدة ترهة فارسي معرب ثم استعير في الباطل فقليل الترهات البسابس
والجبهة الخيل والجبهة الجماعة من الناس أيضا فكأنه قال أصدره بالخيل
والرجال والباقي معروف لا حاجة إلى تفسيره (353) ورأيت بخط بعض
أهل هذا الفن أن عمرو بن الليث لما أسر ملك بعده بلاد فارس حفيده طاهر بن
محمد بن عمرو بن الليث المذكور لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر سنة ثمان
وثمانين ومائتين ثم قبض عليه غلام جده سبك السبكري في سنة ست وتسعين
ومائتين ومعه أخوه يعقوب بن محمد وبعث بهما إلى مدينة السلام (354) ثم
ولي بعده الليث بن علي بن الليث وهو ابن أخي يعقوب وعمرو بن الليث
المذكورين كان تغلب على بلاد سجستان في سنة ست وتسعين ومائتين وجرى
بين سبك السبكري وطاهر بن محمد المذكور ما جرى واستقرت البلاد بيد
السبكري فاستخلف الليث المذكور على سجستان أخاه المعدل بن الليث وسار
إلى بلاد فارس فهرب السبكري منه يطلب من الخليفة النجدة فجرد المقتر
بالله الجيوش في شهر رمضان سنة ست وتسعين وقدم عليها مؤنسا المظفر
وبدرا الكبير والحسين بن حمدان والتقوا مع الليث بن علي فانهزم جيشه وأسر
هو وأخوه محمد وابنه إسماعيل وعاد مؤنس إلى بغداد ومعه الأسرى في
المحرم سنة سبع وتسعين وشهر الليث بن علي على الفيل وولي المعدل ابن
علي بن الليث على سجستان فسار إليه أحمد بن إسماعيل الساماني في خلق
كثير من الفارس والراجل فأخذ منه البلاد ثم ملك سبك السبكري الصفار مدة
ثم حمل معه محمد بن علي بن الليث إلى بغداد وانقضى أمر الصفارية والله
أعلم

3 829 المنصور الموحي أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي صاحب بلاد المغرب قد تقدم ذكر جده عبد المؤمن وسيأتي ذكر أبيه يوسف إن شاء الله تعالى كان صافي السمرة جدا إلى الطول ما هو جميل الوجه أفوه أعين شديد الكحل ضخم الأعضاء جهوري الصوت جزل الألفاظ من أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثا وأكثرهم إصابة بالظن مجربا للأمر ولي وزارة أبيه فبحث عن الأحوال بحثا شافيا وطالع مقاصد العمال والولاية وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور ولما مات أبوه في التاريخ الآتي في ترجمته إن شاء الله تعالى اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبد المؤمن على تقديمه فبايعوه وعقدوا له الولاية ودعوه أمير المؤمنين كأبيه وجده ولقبوه بالمنصور فقام بالأمر أحسن قيام وهو الذي أظهر أبهة ملكهم ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ونظر في

4 أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات ولما مات أبوه كان معه في الصحبة فباشر تدبير المملكة من هناك وأول ما رتب قواعد بلاد الأندلس فأصلح شأنها وقرر المقاتلين في مراكزها ومهد مصالحها في مدة شهرين وأمر بقراءة البسمة في أول الفاتحة في الصلوات وأرسل بذلك إلى سائر بلاد الإسلام التي في مملكته فأجاب قوم وامتنع آخرون ثم عاد إلى مراکش التي هي كرسي ملكهم فخرج عليه علي بن إسحاق بن محمد بن علي بن غانية الملقب من جزيرة ميورقة في شعبان سنة ثمانين وملك بجاية وما حولها فجهز إليه الأمير يعقوب عشرين ألف فارس وأسطولا في البحر ثم خرج بنفسه في أول سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فاستعاد ما أخذ من البلاد ثم عاد إلى مراکش وفي سنة ست وثمانين بلغه أن الفرنج ملكوا مدينة شلب وهي في غرب جزيرة الأندلس فتجهز إليها بنفسه وحاصرها وأخذها وأنفذ في الوقت جيشا من الموحدين ومعه جماعة من العرب ففتحوا أربع مدن من بلاد الفرنج كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة وخافه صاحب طليطلة وسأله الصلح فصالحه خمس سنين وعاد إلى مراکش فلما انقضت مدة الهدنة ولم يبق

منها سوى القليل خرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين فنهبوا وسبوا وعاثوا عيثا فظيعا فانتهى الخبر إلى الأمير يعقوب وهو بمراكش فتجهز لقصدهم في جحفل عرمرم من قبائل الموحيدين والعرب واحتفل وجاز إلى الأندلس وذلك في سنة

5 إحدى وتسعين وخمسمائة فعلم الفرنج به فجمعوا خلقا كثيرا من أقاصي بلادهم وأدانيها وأقبلوا نحوه قلت ورأيت بدمشق في أواخر سنة ثمان وستين وستمائة جزءا بخط الشيخ تاج الدين عبد الله بن حمويه شيخ الشيوخ كان بها وكان قد سافر إلى مراكش وأقام بها مدة وكتب فصولا تتعلق بتلك الدولة فمن ذلك فصل يتعلق بهذه الواقعة فينبغي ذكره ها هنا فقال لما انقضت الهدنة بين الأمير أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب المملكة الغربية وبين الأذفونش الفرنجي صاحب غرب جزيرة الأندلس وقاعدة مملكته يومئذ طليطلة وذلك في أواخر سنة تسعين وخمسمائة عزم الأمير يعقوب وهو حينئذ بمراكش على التوجه إلى جزيرة الأندلس لمحاربة الفرنج وكتب إلى ولاية الأطراف وقواد الجيوش بالحضور وخرج إلى مدينة سلا ليكون اجتماع العساكر بظاهرها فاتفق أنه مرض مرضا شديدا حتى أيس منه أطباؤه فتوقف الحال عن تدبير ذلك الجيش فحمل الأمير يعقوب إلى مراكش فطمع المجاورون له من العرب وغيرهم في البلاد وعاثوا فيها وأغاروا على النواحي والأطراف وكذلك فعل الأذفونش فيما يليه من بلاد المسلمين بالأندلس واقتضى الحال تفرقة جيوش الأمير يعقوب شرقا وغربا واشتغلوا بالمدافعة والممانعة فكثر طمع الأذفونش في البلاد وبعث رسولا إلى الأمير يعقوب يتهدد ويتوعد ويطلب بعض الحصون

6 المتاخمة له من بلاد الأندلس وكتب إليه رسالة من إنشاء وزير له يعرف بابن الفخار وهي باسمك اللهم فاطر السموات والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح أما بعد فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب أنك أمير الملة الحنيفية كما أني أمير الملة النصرانية وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية وإخلادهم إلى الراحة وأنا اسومهم بحكم القهر وجلاء الديار واسبي الذراري وامثل بالرجال ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ونحن الآن نقاتل عشرة منا منكم بواحد منا لا تستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا وقد حكى لي عنك أنك

أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وتماطل نفسك عاما بعد عام تقدم رجلا وتؤخر أخرى فلا أدري أكان الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلا لعله لا يسوغ لك التقحم معها وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك على أن تقي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان وترسل إلى جملة من عبيدك بالمرالكب والشواني والطرائد والمسطحات وأجوز بجملتي إليك وأقاتلك في أعز الأماكن لديك فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك وهدية عظيمة مثلت بين يديك وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك واستحقيت إمارة

7 الملتين والحكم على البرين والله تعالى يوفق للسعادة ويسهل الإرادة لا رب غيره ولا خير إلا خيره إن شاء الله تعالى فلما وصل كتابه إلى الأمير يعقوب مزقه وكتب على ظهر قطعة منه (^ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) النمل 37 الجواب ما ترى لا ما تسمع (ولا كتب إلا المشرفية عنده * ولا رسل إلا الخميس العرمرم) قلت وهذا البيت للمتنبى ثم أمر بكتب الاستنفار واستدعى الجيوش من الأمصار وضرب السرادقات بظاهر البلد من يومه وجمع العساكر وسار إلى البحر المعروف بزقاق سبتة فعبر فيه إلى الأندلس وسار إلى أن دخل بلاد الفرنج وقد أعتدوا واحتشدوا وتأهبوا فكسروهم كسرة شنيعة وذلك في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة انتهى ما نقلته من الجزء المذكور قلت ثم وجدت في كتاب تذكير العاقل وتنبيه الغافل تأليف أبي الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري البياسي هذه المكاتبة وجوابها قد كتبها الأذفونش بن فرذلند إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الآتي ذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى وجواب يوسف على هذه الصورة أيضا والله أعلم قلت وذكر البياسي بعد هذا ما يدل على أنه نقلها من خط ابن الصيرفي الكاتب المصري فإن كان كذلك فما يمكن أن تكون هذه الرسالة إلى يعقوب ابن يوسف لأن ابن الصيرفي متقدم التاريخ على زمان يعقوب بكثير والله أعلم

8 ورأيت جماعة من فضلاء المغاربة ينكرون هذا التاريخ ويذكرون ما نشرحه إن شاء الله تعالى وهو أن الفرنج جمعوا جمعا عظيما وقصدوه وبلغ الأمير يعقوب خبر مسيرهم وكثرة جموعهم فما هاله ذلك وجد في السير نحوهم حتى التقوا في شمال قرطبة على قرب قلعة رباح في مرج الحديد وفيه نهر يشقه فعبر إلى منزلة الفرنج وصافهم وذلك يوم الخميس التاسع من شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسمائة واقتفى في ذلك طريقة أبيه وجده فانهما أكثر ما

كانوا يضافون يوم الخميس ومعظم حركاتهم في صفر ووقع القتال وبرزت الأبطال وصبرت الرجال فأمر الأمير يعقوب فرسان الموحدين وأمراء العرب أن يحملوا ففعلوا وانهزم الفرنج وعمل فيهم السيف فاستأصلهم قتلاً وما نجا ملكهم إلا في نفر يسير ولولا دخول الليل لم يبق منهم أحد وغنم المسلمون أموالهم حتى قيل إن الذي حصل لبیت المال من دروعهم ستون ألف درع وأما الدواب على اختلاف أنواعها فلم يحصر لها عدد ولم يسمع في بلاد الأندلس بكسرة مثلها ومن عادة الموحدين أنهم لا يأسرون مشركاً محارباً إن ظفروا به ولو كان ملكاً عظيماً بل تضرب رقابهم كثروا أو قتلوا فلما أصبح جيش المسلمين اتبعوهم فألفوهم قد أخذوا قلعة رباح لما داخلهم من الرعب فملكها الأمير يعقوب وجعل فيها والياً وجيشاً وكثرة ما حصل له من الغنائم لم يمكنه الدخول إلى بلاد الفرنج في ذلك الوقت فعاد إلى مدينة طليطلة وحاصرها وقتلها أشد قتال وقطع أشجارها وشن الغارات على بلادها وأخذ من أعمالها حصوناً كثيرة وقتل رجالها وسبى حريمها وخرّب مبانيها وهدم أسوارها وترك الفرنج في أسوأ حال ولم يبرز إليه أحد من المقاتلة

9 ثم رجع إلى إشبيلية وأقام إلى أثناء سنة ثلاث وتسعين فعاد إلى بلاد الفرنج مرة ثالثة وفعل فيها كفعله المتقدم فلم يبق للفرنج قدرة على لقائه وضافت عليهم الأرض بما رحبت فأرسلوا إليه يلتمسون منه الصلح فأجابهم إلى ذلك لما اتصل به من أخبار علي بن إسحاق الميورقي المقدم ذكره في هذه الترجمة فإنه كان قد خرج على بلاد إفريقية وخرّب أكثر بلادها وتوجه نحو الغرب وسولت له نفسه النزول على بجاية لما علمه من اشتغال الأمير يعقوب بجزيرة الأندلس والجهاد فيها وتأخره عن بلاد المغرب مدة ثلاث سنين فأوقع الصلح بينه وبين ملوك بلاد الأندلس جميعاً على ما اختاره لمدة خمس سنين ثم عاد إلى مراكش في أواخر سنة ثلاث وتسعين ولما وصل إليها أمر باتخاذ الأحواض والروايا وآلات السفر للتوجه إلى بلاد إفريقية فاجتمع إليه مشايخ الموحدين وقالوا له يا سيدنا قد طال غيبتنا بالأندلس فمننا من له خمس سنين ومننا من له ثلاث سنين وغير ذلك فتنعم علينا بالمهلة هذا العام وتكون الحركة في أول سنة خمس وتسعين فأجابهم إلى سؤالهم وانتقل إلى مدينة سلا وشاهد ما فيها من المنتزهات المعدة له وكان قد بنى بالقرب من المدينة المذكورة مدينة عظيمة سماها رباط الفتح على هيئة الاسكندرية في اتساع الشوارع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحسينه وتحصينه وبنائها على البحر المحيط الذي هناك وهي على نهر سلا مقابلة لها من البر القبلي وطاف تلك البلاد وتنزه فيها

ثم رجع إلى مراکش قلت وبعد هذا اختلفت الروايات في أمره فمن الناس من يقول إنه ترك ما كان فيه وتجرد وساح في الأرض حتى انتهى إلى بلاد الشرق وهو مستخف لا يعرف ومات خاملاً ومنهم من يقول إنه لما رجع

10 إلى مراکش كما ذكرناه توفي في غرة جمادى الأولى وقيل في شهر ربيع الآخر في سابع عشرة وقيل في غرة صفر سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمراكش وقيل إنه مات بمدينة سلا والله أعلم وكانت ولادته على ما ذكر هو ليلة الأربعاء رابع شهر ربيع الأول سنة أربع وخمسين وخمسمائة رحمه الله تعالى ولم ينقل شيء من أحواله بعد ذلك إلى حين وفاته قلت ثم حكى لي جمع كثير بدمشق في شهر شوال سنة ثمانين وستمائة أن بالقرب من المجدل البليدة التي من أعمال البقاع العزيزي قرية يقال لها حمارة وإلى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب وكل أهل تلك النواحي متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف وهذا القبر بينه وبين المجدل مقدار فرسخين من جهتها القبلية بغرب والله أعلم وكان ملكاً جواداً عادلاً متمسكاً بالشرع المطهر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما ينبغي من غير محاباة ويصلي بالناس الصلوات الخمس ويلبس الصوف ويقف للمرأة وللضعيف ويأخذ لهم بالحق وأوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليرحم عليه من يمر به وسمعت عنه حكاية يليق أن نذكرها هنا وهي أن الأمير الشيخ ابا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى ابن عبد الواحد صاحب إفريقية كان قد تزوج أخت الأمير يعقوب المذكور وأقامت عنده ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها الأمير يعقوب فسير الأمير عبد الواحد طلبها فامتنعت عليه فشكا الأمير عبد الواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش وهو القاضي أبو عبد الله محمد ابن علي بن مروان فاجتمع القاضي المذكور بالأمير يعقوب وقال له

11 إن الشيخ ابا محمد عبد الواحد يطلب أهله فسكت الأمير يعقوب ومضى على ذلك أيام ثم إن الشيخ عبد الواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير يعقوب بمراكش وقال له أنت قاضي المسلمين وقد طلبت أهلي فما جاءوني فاجتمع القاضي بالأمير يعقوب وقال له يا أمير المؤمنين الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية فسكت الأمير يعقوب ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور وقد جاء إلى خدمة الأمير يعقوب فقال له يا قاضي المسلمين قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم فاجتمع القاضي بالأمير يعقوب وقال له يا مولانا إن

الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله فإما أن تسير إليه أهله وإلا فاعزلني عن القضاء فسكت الأمير يعقوب وقيل إنه قال له يا أبا عبد الله ما هذا إلا جد كبير ثم استدعى خادماً وقال له في السر تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه فحملت إليه في ذلك النهار ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئاً يكرهه وتبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأوامره وهذه حسنة تعد له وللقاضي أيضاً فإنه بالغ في إقامة منار العدل وكان الأمير أبو يوسف يعقوب المذكور يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس وقتل في بعض الأحيان على شرب الخمر وقتل العمال الذين تشكو الرعايا منهم وأمر برفض فروع الفقه وأن العلماء لا يفتون إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية ولا يقلدون أحداً من الأئمة المجتهدين المتقدمين بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا إلى البلاد وهم على ذلك الطريق مثل أبي الخطاب ابن دحية وأخيه أبي عمر ومحبي الدين ابن العربي نزيل دمشق وغيرهم

12 وكان يعاقب على ترك الصلاة ويأمر بالنداء في الأسواق بالمبادرة إليها فمن غفل عنها أو اشتغل بمعيشته عزره تعزيراً بليغاً وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطنته حتى إنه لم يبق بجميع أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط إلى برقة إلا من هو في طاعته وداخل في ولايته إلى غير ذلك من جزيرة الأندلس وكان محسناً محباً للعلماء مقرباً للأدباء مصغياً إلى المدح مثيباً عليه وله ألف أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي كتابه الذي سماه صفوة الأدب وديوان العرب في مختار الشعر وهو مجموع مليح احسن في اختياره كل الإحسان وإلى الأمير يعقوب تنسب الدنانير اليعقوبية المغربية وكان قد أرسل إليه السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب الآتي ذكره إن شاء الله تعالى رسولاً من بني منقذ في سنة سبع وثمانين وخمسائة ليستنجده على الفرنج الواصلين من بلاد المغرب إلى الديار المصرية وساحل الشام ولم يخاطبه بأمير المؤمنين بل خاطبه بأمير المسلمين فعز ذلك عليه ولم يجبه إلى ما طلبه منه (355) والرسول المذكور هو شمس الدولة أبو الحارث عبد الرحمن بن نجم الدولة أبي عبد الله محمد بن مرشد وقد سبق في ترجمة عمه أسامة بن منقذ تنمة نسبه هكذا ذكره الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري في كتاب الوفيات وقال توفي في سنة ستمائة بالقاهرة ومولده في شيزر سنة ثلاث وعشرين وخمسائة وله نظم ونثر

13 رجعنا إلى حديث يعقوب (356) (وكان من شعراء دولته أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الأندلسي المرسي ولقد نظرت في ديوانه فوجدت أكثر مدائحه في الأمير يعقوب فمن ذلك قوله (أتراه يترك الغزلا * وعليه شب واكتهلا) (كلف بالغيد ما عقلت * نفسه السلوان مذ عقلا) (غير راض عن سجية من * ذاق طعم الحب ثم سلا) (أيها اللوام ويحكم * إن لي عن لومكم شغلا) (ثقلت عن لومكم أذن * لم يجد فيها الهوى ثقلا) (تسمع النجوى وإن خفيت * وهي ليست تسمع العذلا) (نظرت عيني لشقوتها * نظرات وافقت أجلا) (عادة لما مثلت لها * تركتني في الهوى مثلا) (هي بزنتي الشباب فقد * صار في أجفانها كحلا) (أبطل الحق الذي بيدي * سحر عينيها وما بطلا) (عرضت دلا فإذا فطنت * بولوعي أعرضت خجلا) (وبدا لي أنها وجلت * من هنات تبعث الوجلا) (حسبت أني سأحرقها * إذ رأت رأسي قد اشتعلا) (يا سراة الحي مثلكم * يتلافى الحادث الجلا) (قد نزلنا في جواركم * فشكرنا ذلك النزلا) (ثم واجهنا طباءكم * فلقينا الهول والوهلا)

14 (أضمنتكم أمن جيرتكم * ثم ما آمنتم السبلا) (وارتتم غضب أنفسهم * فبنثتم بينها المقلا) (ليتنا خضنا السيوف ولم * نلق تلك الأعين النجلا) (عارضتنا منكم فئة * أحدثت في عهدنا دخلا) (ثعليات جفونهم * وهم لم يعرفوا ثعلا) (أشرعوا الأعطاف ناعمة * حين أشرعنا القنا الذبلا) (واستفرتنا عيونهم * فخلعنا البيض والأسلا) (ورمتنا بالسهام فلم * نر إلا الحلي والحلا) (نصرروا بالحسن فانتبهوا * كل قلب بالهوى جذلا) (عطلتني الغيد من جلدي * وأنا حليتها الغزلا) (حملت نفسي على فتن * سمتها صبراً فما احتملا) (ثم قالت سوف نتركها * سلباً للحب أو نفلا) (قلت أما وهي قد علقت * بأمير المؤمنين فلا) (ما عدا تأميلها ملكاً * من رآه أدرك الأملا) (أودع الإحسان صفحته * ماء بشر ينقع الغللا) (فإذا ما الجود حركه * فاض من يمينه فانهملا) (قلت وهي قصيدة طويلة عدد أبياتها مائة وسبعة أبيات فنقتصر منها على هذا المقدار وكانت وفاة هذا الشاعر في سنة سبع وثمانين وخمسمائة بمراكش وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ودخل الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الأسود الشاعر على الأمير يعقوب فأنشده

15 (أزال حجابي عني وعيني * تراه من المهابة في حجاب) (وقربني تفضله ولكن * بعدت مهابة عند اقترابي) (وكانم : بكسم النون جنس

من السودان وهم بنو عم تكرر وكل واحدة من هاتين القبيلتين لا تنسب إلى اب ولا أم وإنما كان اسم بلدة بنواحي غانة وهي دار ملك السودان الذين بجنوب الغرب فسمي هذا الجنس باسم هذه البلدة وتكرر اسم للأرض التي هم فيها وسمي جنسهم باسم أرضهم والجميع من بني كوش بن حام بن نوح عليه السلام والله أعلم (357) ولما حضرت الوفاة الأمير يعقوب المذكور وقضى نحبه بايع الناس ولده أبا عبد الله محمد بن يعقوب وتلقب بالناصر ونهض إلى إفريقية فهزم الميورقي المذكور وارتجع المهديّة من نوابه وقد كان استولى عليها في مدة اشتغال الأمير يعقوب بالأعداء ثم تحرك محمد بن يعقوب إلى جزيرة الأندلس فكانت وقعة العقاب في سنة تسع وستمئة وتوفى محمد سنة ست عشرة وستمئة لعشر خلون من شعبان ومولده في سنة ست وسبعين وخمسائة والمغاربة يقولون إن محمد بن يعقوب المذكور أوصى عبيده المشتغلين بحراسة بستانه بمراكش أن كل من ظهر لهم بالليل فهو مباح الدم لهم ثم أراد أن يختبر قدر أمره لهم فتنكر وجعل يمشي في البستان ليلاً فعندما رأوه جعلوه غرضاً لرماحهم فجعل يقول أنا الخليفة أنا الخليفة فما تحققوه حتى هلك والله أعلم بصحة ذلك (358) ثم ولي بعده ولده أبو يعقوب يوسف بن محمد بن الأمير يعقوب وتلقب

16 المستنصر بالله ومولده أول شوال سنة أربع وتسعين ولم يكن في بني عبد المؤمن أحسن وجهاً منه ولا ابلغ في المخاطبة إلا أنه كان مشغولاً براحته فلم يبرح عن حضرته فضعفت الدولة في أيامه ومات في شوال أو ذي القعدة سنة عشرين وستمئة ولم يخلف ولداً (359) فاتفق أرباب الدولة على تولية أبي محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن لكبر سنه ووفور عقله فلم يحسن التدبير ولا دارى أهل دولته فخلعوه وخنقوه بعد تسعة أشهر من ولايته ولما تولى عبد الواحد بمراكش كان بالأندلس أبو محمد عبد الله بن الأمير يعقوب المذكور فامتنع بمرسية ورأى أنه أحق بالأمر من عبد الواحد وخرج إلى ما في جهته من بلاد الأندلس فاستولى عليها بغير كلفة وتلقب بالعدل فلما خنق عبد الواحد بمراكش ثارت الفرنج بالأندلس على عبد الله المذكور وتواقعوا وانهزم أصحابه هزيمة شنيعة وهرب هو وركب البحر يريد مراكش وترك باشبيلية أخاه ابا العلا إدريس بن الأمير يعقوب وقاسى عبد الله شدائد في طريقه إلى مراكش من العربان فلما وصلها اضطربت أحواله وقبض عليه أهل مراكش (360) وتفاوضوا فيمن يقدمونه فوق اختيارهم على أبي زكريا يحيى بن الناصر محمد بن يعقوب وهو إذ ذاك كما يقل وجهه

غر لم يجرب الأمور فلم يلبث إلا أياماً قلائل حتى ورد الخبر من الأندلس أن ابا العلا إدريس بن الأمير يعقوب ادعى الخلافة باشبيلية وبايعه أهل الأندلس ثم آل أمره إلى أن حصره العرب بمراكش وهزموا عسكره مرة بعد أخرى حتى ضجر منه أهل مراكش وتشاءموا به وأخرجوه عنهم فهرب إلى جبل درن ثم راسل في الباطن جماعة من أهل مراكش ليعود إليها ويقتل من بها من أعوان ابي العلا إدريس فحضر إليها وقتل المذكورين (361) وجاء ابو العلا من الأندلس وقد خرج عليه بها الأمير محمد بن يوسف

17 ابن هود الجذامي ودعا إلى بني العباس فمال إليه الناس ورجعوا عن أبي العلا إدريس فانتهى إلى مراكش ويحيى بها فتواقفوا وانهزم يحيى من أبي العلاء إلى الجبل واستولى أبو العلا على مراكش وجمع يحيى رجالاً وقصد ابا العلا بمراكش فهزمه أبو العلا مراراً وأضعف جماعته فألجأته الضرورة إلى الاستجارة بقوم في حصن بجهة تلمسان وكان لغلام منهم عنده ثأر بأبيه فرصده يوماً وهو راكب فطعنه فقتله واستبد ابو العلا بالأمر وتلقب بالمأمون وكان شجاعاً حازماً صارماً فتاكاً ثم إن ابا العلا مات في الغزو حتف أنفه ولم أتحقق تاريخ وفاته ثم أخبرني بعض أهل بلادهم أنه توفي سنة ثلاثين وستمائة والله أعلم (362) وأخفى ولده موته حتى دبر أمره وبلغ مأمنه وهو أبو محمد عبد الواحد ابن أبي العلا إدريس وتلقب بالرشيد وتقدم بعد موت أبيه وغلب على أخيه الأكبر واستبد بالأمر وكان أبوه أبو العلاء قد أزال اسم المهدي أبي عبد الله محمد بن تومرت المقدم ذكره من الخطبة يوم الجمعة فأعاده ولده الرشيد المذكور واستمال به قلوب جماعته وتحبب إليهم وكان إلى سنة إحدى وأربعين وستمائة ملك المغرب الأقصى وبعض الأندلس ولم اعلم ما وراء ذلك حتى أذكره وبعد تسطير هذه الترجمة كتب لي بعض أهل مراكش ممن عنده فضيلة ومعرفة وكان قريب عهد ببلاده فأخبرني أن الرشيد المذكور توفي غريباً في صهريج بستان له بحضرة مراكش في سنة أربعين وستمائة وكنم حاجبه أمره مدة فجهل لذلك شهر وفاته (363) وولي بعده أخوه لأبيه المعتضد ويعرف بالسعيد وهو ابو الحسن علي ابن إدريس ثم خرج إلى ناحية تلمسان وحاصر قلعة بينها وبين تلمسان

18 مسافة يوم واحد وقتل هناك على ظهر فرسه في صفر سنة ست وأربعين وستمائة (36) وولي بعده المرتضى أبو حفص عمر بن أبي إبراهيم بن يوسف في شهر ربيع الآخر من السنة وفي الحادي والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة دخل الواثق أبو العلا إدريس بن أبي عبد

الله يوسف بن عبد المؤمن المعروف بأبي دبوس مراکش وهرب المرتضى إلى آزموور وهي من نواحي مراکش فقبض عليه عامله بها وبعث إلى الواثق بذلك فأمره الواثق بقتله فقتله في العشر الأخير من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة بموضع يقال له كتامة بعده عن مراکش ثلاثة أيام (365) وأقام الواثق ثلاث سنين وقتل في الحرب التي كانت بينه وبين بني مرين ملوك تلمسان وانقضت دولة بني عبد المؤمن وكان قتل الواثق في المحرم سنة ثمان وستين بموضع بينه وبين مراکش مسيرة ثلاثة أيام في جهتها الشمالية واستولى بنو مرين على ملكهم وملكهم الآن أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بن حماسة والله تعالى أعلم (366) وأما علي بن إسحاق الميورقي فقد تكرر ذكره في هذه الترجمة وكان أبوه أبو إبراهيم إسحاق بن حمو بفتح الحاء المهملة وبعدها ميم مشددة مضمومة ثم واو ابن علي ويعرف بابن غانية الصنهاجي صاحب ميورقة ومنورقة ويابسة وهي ثلاث جزائر متجاورة في البحر الغربي فتوفي في سنة ثمانين وخمسائة وخلف أربعة بنين وهم أبو عبد الله محمد توجه بعد موت أبيه إلى الموحدين بالأندلس فأعطوه مدينة دانية وأحسنوا إليه غاية الإحسان وأبو الحسن علي وأبو زكريا يحيى خرجا إلى بلاد إفريقية وفعلا الأفاعيل العجيبة المشهورة بين الناس من الحروب والعيث في البلاد فمات علي ولا أعلم تاريخ وفاته لكنه كان حياً في سنة إحدى وتسعين واستمر يحيى على حاله فطالت مدته وذكره الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري في كتاب الوفيات فقال خرج من ميورقة في شعبان

19 سنة ثمانين وخمسائة واستولى على بلاد كثيرة وكان مشهوراً بالشجاعة والإقدام وتوفي في أواخر شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة في البرية من قطر تلمسان وكان خروجه على بني عبد المؤمن (367) وبقي أصغر الإخوة وهو أبو محمد عبد الله ملك ميورقة إلى سنة تسع وتسعين وخمسائة فجهز إليه الناصر محمد بن يعقوب المذكور أسطولاً نزل بساحل ميورقة فبرز إليهم وكان شجاعاً كريماً فعثر به فرسه فسقط إلى الأرض فقتلوه وحملوا رأسه إلى مراکش وعلقوا جثته على السور وأخذوا ميورقة وبقيت بأيديهم إلى أن تغلب الفرنج عليها في سنة سبع وعشرين وستمائة وفعّلوا فيها العظام من القتل والأسر وغير ذلك والأذفونش : بضم الهمزة وسكون الذال المعجمة وضم الفاء وسكون الواو وبعدها نون ثم شين معجمة وهو اسم لأكبر ملوك الفرنج وهو صاحب طليطلة 830&& يعقوب بن داود ابو عبد الله

يعقوب بن داود بن عمر بن طهمان السلمي بالولاء مولى ابي صالح عبد الله بن خازم السلمي والي خراسان كان يعقوب

20 المذكور كاتب إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي خرج هو وأخوه محمد على أبي جعفر المنصور بالبصرة ونواحيها وقتلا في سنة خمس وأربعين ومائة وقصتهما مشهورة في التواريخ وليس هذا موضع ذكرها وكان أبوه داود بن طهمان وإخوته كتاباً لنصر بن سيار عامل خراسان من جهة بني أمية ولما مات داود نشأ ولداه علي ويعقوب المذكور اهل أدب وفضل واقتنان في صنوف العلوم ولما ظهر المنصور على إبراهيم بن عبد الله المذكور ظفر بيعقوب بن داود المذكور فحبسه في المطبق في سنة أربع وأربعين ومائة وقيل في سنة ست وأربعين ومائة قلت ولعله الأصح لأن إبراهيم قتل في سنة خمس وأربعين كما ذكرناه إلا أن يكون قد ظفر بيعقوب قبل قتل إبراهيم وذلك في أول خروجه والله أعلم وكان يعقوب سمحاً جواداً كثير البر والصدقة واصطناع المعروف وذكره دعبل بن علي الخزاعي الشاعر المشهور في كتابه الذي جمع فيه أسماء الشعراء وكان مقصوداً ممدحاً مدحه أعيان شعراء عصره مثل أبي الشيبان الخزاعي وسنم الخاسر وأبي حنش وغيرهم ولما مات المنصور وقام بالأمر ولده المهدي جعل يعقوب يتقرب إليه حتى أدناه واعتمد عليه وعلت منزلته عنده وعظم شأنه حتى خرج كتابه إلى الدواوين أن أمير المؤمنين المهدي قد آخى يعقوب بن داود فقال في ذلك سلم بن عمرو المعروف بالخاسر (قل للإمام الذي جاءت خلافته * تهدي إليه بحق غير مردود) (نعم القرين على التقوى أعنت به * أخوك في الله يعقوب بن داود)

21 وحج المهدي في سنة ستين ومائة ويعقوب معه وفي سنة إحدى وستين تقدم إليه بتوجيه الأمان إلى العمال في جميع الآفاق ففعل ذلك فلم يكن ينفذ شيء من الكتب للمهدي حتى يرد كتاب من يعقوب إلى أمينه بإنفاذه وكان وزير المهدي ابا عبيد الله معاوية بن عبد الله بن يسار الأشعري الطبراني صاحب مربعة عبيد الله ببغداد وكان جده يسار مولى عبد الله بن عضاه الأشعري فلم يزل الربيع بن يونس المقدم ذكره في حرف الراء يسعى به إلى المهدي وصحح على ابنه الزندقة فقتله المهدي وكان الربيع بعد ذلك يقبح أمره عنده ويقول له لا تثق به بعد قتلك ابنه ويذكر كفاية يعقوب ابن داود حتى عزله عن الوزارة وأفرده في ديوان الرسائل واستوزر يعقوب في سنة ثلاث وستين ثم إن المهدي عزل ابا عبيد الله عن ديوان الرسائل في سنة سبع وستين ورتب

فيه الربيع بن يونس المذكور وكان أبو عبيد الله يصل إلى المهدي على عادته رعاية منه لخدمته فقال في ذلك علي بن الخليل الكوفي من جملة أبيات (قل للوزير أبي عبيد الله هل من باقيه) (يعقوب يلعب بالأمر * وأنت تنظر ناحيه) (أدخلته فعلا عليك كذاك شؤم الناصيه) (وأخذت حتقك جاهداً * بيمينك المتراخية) وغلب يعقوب على أمور المهدي كلها وكان المنصور قد خلف في بيوت المال تسعمائة ألف درهم وستين ألف درهم وكان الوزير ابو عبيد الله بشير على المهدي بالاقتصاد في الإنفاق وحفظ الأموال فلما عزل 22 وولي يعقوب زين له هواه فأنفق الأموال وأكب على اللذات والشرب وسماع الغناء واشتغل يعقوب بالتدبير ففي ذلك يقول بشار بن برد الشاعر المشهور المقدم ذكره في حرف الباء (بني أمية هبوا طال نومكم * إن الخليفة يعقوب بن داود) (ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا * خليفة الله بين الزرق والعود) وكان أبو حارثة النهدي يتقلد خزن بيوت الأموال فلما خلت من المال دخل إلى المهدي ومعه المفاتيح وقال له إذا كنت قد أنفقت جميع الأموال فما معنى هذه المفاتيح معي مر من يقبضها مني فقال له المهدي دعها معك فإن الأموال تأتيك ثم سير في استحثاث الأموال فوردت عليه في مدة يسيرة وقصر في النفقات قليلاً فتوفرت الأموال وتشاغل أبو حارثة في قبض ما ورد عليه وتصحيحه فلم يدخل إلى المهدي ثلاثة أيام فقال المهدي ما فعل هذا الأعرابي الأحمق فخير بالسبب في تأخره فدعا به وقال له ما أخرجك عنا فقال ورود الأموال فقال يا أحمق توهمت أن الأموال لا تأتينا فقال يا أمير المؤمنين إن الحادث لو حدث واحتيج إلى المال ولم يصلح إلا به لم ينتظر حتى يوجه في حمل الأموال وروي أن المهدي حج في بعض السنين فمر بميل وعليه كتابة فوقف وقرأه فإذا هو (لله درك يا مهدي من رجل * لولا اتخاذك يعقوب بن داود) فقال لمن معه اكتب تحته على رغم أنف الكاتب لهذا وتعساً لجده فلما انصرف وقف على الميل فقلنا لم يقف عليه إلا لشيء قد علق بقلبه من ذلك الشعر فكان كذلك لأنه أوقع بيعقوب بعد قليل

23 وكثرت الأقوال في يعقوب ووجد أعداؤه مقالاً فيه وذكروا خروجه على المنصور مع إبراهيم بن عبد الله العلوي وعرفه بعض خدمه أنه سمعه يقول بنى هذا الرجل مستنزهاً أنفق عليه خمسين ألف درهم من أموال المسلمين وكان المهدي قد بنى عيسى باد وأراد المهدي أمراً فقال له يعقوب هذا يا أمير المؤمنين من السرف فقال له ويلك وهل يحسن السرف إلا بأهل الشرف وكان يعقوب قد ضجر مما كان فيه وسأل المهدي الإقالة وهو يمتنع

ثم إن المهدي أراد أن يمتحنه في ميله إلى العلوية فدعا به يوماً وهو في مجلس فرشه موردة وعليه ثياب موردة وعلى راسه جارية على رأسها ثياب موردة وهو مشرف على بستان فيه شجر فيه صنوف الأوراد فقال له يا يعقوب كيف ترى مجلسنا هذا قال على غاية الحسن فمتع الله أمير المؤمنين به فقال له جميع ما فيه لك وهذه الجارية لك ليتم سرورك وقد أمرت لك بمائة ألف درهم فدعا له فقال له المهدي ولي إليك حاجة فقام يعقوب قائماً وقال يا أمير المؤمنين ما هذا القول إلا لموجدة وأنا أستعيز بالله من سخطك فقال أحب أن تضمن لي قضاءها فقال السمع والطاعة فقال له والله فقال والله ثلاثاً فقال له ضع يدك على رأسي واحلف به ففعل ذلك فلما استوثق منه قال له هذا فلان بن فلان رجل من العلوية أحب أن تكفيني مؤنثته وتريحني منه فخذه إليك فحوله إليه وحول إليه الجارية وما كان في المجلس والمال فلشدة سروره بالجارية جعلها في مجلس تقرب منه ليصل إليها ووجه فأحضر العلوي فوجده لبيباً فهماً فقال له ويحك يا يعقوب تلقى الله تعالى بدمي

24 وأنا رجل من ولد فاطمة رضي الله عنها بنت محمد فقال له يعقوب يا هذا أفيك خير فقال إن فعلت خيراً معي شكرت ودعوت لك فقال له خذ هذا المال وخذ أي طريق شئت فقال طريق كذا وكذا آمن لي فقال له امض مصاحباً وسمعت الجارية الكلام كله فوجهت مع بعض خدمها به وقالت قل له هذا فعل الذي آثرته على نفسك بي وهذا جزاؤك منه فوجه المهدي فشحن الطريق حتى ظفر بالعلوي وبالمال ثم وجه إلى يعقوب فأحضره فلما رآه قال ما حال الرجل قال قد أراحك الله منه قال مات قال نعم قال والله قال والله قال فضع يدك على رأسي فوضع يده على رأسه وحلف له به فقال يا غلام أخرج إلينا من في هذا البيت ففتح بابه عن العلوي والمال بعينه فبقي يعقوب متحيراً وامتنع الكلام عليه فما دري ما يقول فقال له المهدي لقد حل دمك ولو آثرت إراقتة لأرقتة ولكن احبسوه في المطبق فحبسوه وأمر بأن يطوى عنه خبره وعن كل أحد فأقام فيه سنتين وشهوراً في أيام المهدي وجميع أيام الهادي موسى بن المهدي وخمس سنين وشهوراً من أيام هارون الرشيد ثم ذكر يحيى بن خالد البرمكي أمره وشفع فيه فأمر باخراجه فأخرج وقد ذهب بصره فأحسن إليه الرشيد ورد ماله وخيره المقام حيث يريد فأختار مكة فأذن له في ذلك فأقام بها حتى مات في سنة سبع وثمانين ومائة ولما أطلق يعقوب سأل عن جماعة من إخوانه فأخبر بموتهم فقال (لكل أناس مقبر بفنائهم * فهم ينقصون والقبور تزيد) ()

هم جيرة الأحياء أما محلهم * فدان وأما الملتقى فبعيد) قلت هذان البيتان في باب المراثي في كتاب الحماسة

25 قلت هكذا ذكر تاريخ وفاته محمد بن عبدوس الكوفي المعروف بالجيشياري في كتابه تاريخ الوزراء وذكر غيره أن يعقوب بن داود مات في سنة اثنتين وثمانين ومائة والله أعلم بالصواب وقال عبد الله بن يعقوب بن داود أخبرني أبي أن المهدي حبسه في بئر وبنى عليها قبة قال فمكثت فيها خمس عشرة سنة وكان يدلي لي فيها كل يوم رغيف خبز وكوز ماء وأوذن بأوقات الصلوات فلما كان في رأس ثلاث عشرة سنة أتاني أت في منامي فقال (حنا على يوسف رب فأخرجه * من قعر جب وبيت حوله غم) قال فحمدت الله تعالى وقلت أتاني الفرج ثم مكثت حولا لا أرى شيئا فلما كان رأس الحول الثاني أتاني ذلك الآتي فأنشدني (عسى فرج يأتي به الله إنه * له كل يوم في خليقته أمر) قال ثم أقمت حولا آخر لا أرى شيئا ثم أتاني ذلك الآتي بعد الحول فقال (عسى الكرب الذي أمسيت فيه * يكون وراءه فرج قريب) (فيأمن خائف ويفك عان * ويأتي أهله النائي الغريب) فلما أصبحت نوديت فطننت أني أؤذن بالصلاة فدلي لي حبل أسود وقيل لي اشدد به وسطك ففعلت وأخرجت فلما قابلت الضوء عشي بصري فانطلقوا بي فأدخلت على الرشيد فقيل لي سلم على أمير المؤمنين فقلت السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته المهدي فقال الرشيد لست به فقلت السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته الهادي فقال لست به فقلت السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله

26 وبركاته فقال الرشيد فقلت الرشيد فقال يا يعقوب بن داود إنه والله ما شفع فيك إلي أحد غير أني حملت الليلة صبية لي على عنقي فذكرت حملك إياي على عنقك فرثيت لك من المحل الذي كنت به فأخرجتك وكان يعقوب يحمل الرشيد وهو صغير يلاعبه (368) ولما حبس المهدي يعقوب رتب في الوزارة أبا جعفر الفيض بن أبي صالح وكان من غلمان عبد الله بن المقفع وكان شديد الكبر وكان أبوه نصرانيا وفيه يقول الشاعر (يا حابسي عن حاجتي ظالما * أحوجك الله إلى الفيض) (ذاك الذي يأتيك معروفه * كأنما يمشي على البيض) وطهمان بفتح الطاء المهملة وسكون الهاء وبعدها ميم وبعد الألف نون (369) وكانت ولادة أبي عبيد الله معاوية الأشعري في سنة مائة وتوفي سنة سبعين ومائة وقيل في سنة تسع وستين وقيل مات في الوقت الذي مات فيه موسى الهادي وكانت وفاته ببغداد ودفن في مقابر قریش

الأموال حتى أفرج عنه فلما خرج من الاعتقال اقترض من أخيه ومن غيره مالا وتجميل به وسار مستخفيا قاصدا بلاد المغرب فلقى القائد جوهر بن عبد الله الرومي مولى المعز العبيدي المقدم ذكره في الطريق وهو متوجه بالعساكر والخزائن إلى الديار المصرية ليملكها فرجع في الصحبة وقيل إنه استمر على قصده وانتهى إلى إفريقية وتعلق بخدمة المعز العبيدي المقدم ذكره ثم رجع إلى الديار المصرية ولم يزل يترقى إلى أن ولي الوزارة للعزيم نزار بن المعز معد وعظمت منزلته عنده وأقبلت عليه الدنيا وانثال الناس عليه ولازموا بابه ومهد قواعد الدولة وساس أمورها أحسن سياسة ولم يبق لأحد معه كلام وكان في أيام المعز

29 يتصرف في الخدم الديوانية ثم انتقل إلى العزيز من بعده وتولى وزارة العزيز يوم الجمعة ثامن عشر رمضان سنة ثمان وستين وثلثمائة وقال ابن زولاق في تاريخه بعد ذكر المعز وتاريخ وفاته ما مثاله وممن وزر للمعز الوزير يعقوب بن كلس وهو أول من وزر للدولة الفاطمية في الديار المصرية وكان من جملة كتاب كافور فلما وصل المعز أحسن في خدمته وبالغ في طاعته إلى أن استوزره هذا آخر كلام ابن زولاق وقال غيره كان يعقوب يحب أهل العلم ويجمع عنده العلماء ورتب لنفسه مجلسا في كل ليلة جمعة يقرأ فيه بنفسه مصنفاة على الناس وتحضره القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وجميع أرباب الفضائل وأعيان العدول وغيرهم من وجوه الدولة وأصحاب الحديث فاذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح وكان في داره قوم يكتبون القرآن الكريم وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقہ والأدب حتى الطب ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقطنها وكان من جملة جلسائه الحسين بن عبد الرحيم المعروف بالزلزلي مصنف كتاب الأسجاع ورتب في داره القراء والأئمة يصلون في مسجد اتخذه في داره وأقام في داره مطابخ لنفسه ولجلسائه ومطابخ لغلمانة وحاشيته وأتباعه وكان ينصب كل كل يوم خوانا لخاصته من أهل العلم والكتاب وخواص أتباعه ومن يستدعيه وينصب موائد عديدة يأكل عليها الحجاب وبقية الكتاب والحاشية وصنع في داره مياضاة للظهور بثمانية بيوت تختص بمن يدخل داره من الغرباء وكان يجلس كل يوم عقب صلاة الصبح ويدخل عليه الناس للسلام وتعرض عليه رقااع الناس في الحوائج والظلمات وقرر عند مخدومه العزيز جماعة جعلهم قوادا يركبون بالموكب والعبيد ولا يخاطب واحد منهم إلا بالقائد وكان من جملة هؤلاء

القواد القائد أبو الفتوح فضل بن صالح الذي تنسب إليه منية القائد فضل وهي
بليدة بالأعمال الجيزية من الديار المصرية

30 ثم إن الوزير المذكور شرع في تحصين داره ودور غلمانته
بالدروب والحرس والسلاح والعدد وعمرت ناحيته بالأسواق وأصناف ما يباع
من الأمتعة ومن المطعوم والمشروب والملبوس ويقال إن داره كانت بالقاهرة
في موضع مدرسة الوزير صفي الدين أبي محمد عبد الله بن علي المعروف
بابن شكر المختصة بالطائفة المالكية وإن الحارة المعروفة بالوزيرية التي
بالقاهرة داخل باب سعادة منسوبة إلى أصحابه لأنهم كانوا يسكنونها وكان
الوزير أبو الفضل ابن الفرات المقدم ذكره يغدو إليه ويروح ويعرض عليه
محاسبات القوم الذين يريد محاسبتهم ويعول عليه فيها ويجلس معه في مجلسه
وربما حبسه لمؤاكلته فيأكل معه بعد أن جرى عليه منه ما سبق ذكره وكانت
هيئته عظيمة وجوده وافراً وأكثر الشعراء من مدائحه ولقد نظرت في ديوان
أبي حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المنبوز بأبي الرقعمق الشاعر المقدم ذكره
فوجدت أكثر مديحه في الوزير المذكور والقصيدة التي نقلت بعضها في
ترجمته مدح بها الوزير المذكور ورأيت في تاريخ الأمير المختار عز الملك
محمد بن أبي القاسم المعروف بالمسبحي المقدم ذكره فصلاً طويلاً يتعلق
بشرح حال الوزير المذكور ومعظم ما ذكرته ها هنا نقلته منه وصنف الوزير
المذكور كتاباً في الفقه مما سمعه من المعز وولده العزيز وجلس في شهر
رمضان سنة تسع وستين وثلثمائة مجلساً حضره العام والخاص وقرأ فيه
الكتاب بنفسه على الناس وحضر هذا المجلس الوزير أبو الفضل ابن الفرات
المذكور وجلس في الجامع العتيق جماعة يفتون الناس من هذا الكتاب
وسمعت من جماعة من المصريين يقولون إن الوزير المذكور كانت

31 له طيور فائقة أصيلة مختارة تسبق كل طائر يسابقها وكان لمخدومه
العزيز طيور أيضاً سابقة فاخرة فسابقه العزيز يوماً ببعض الطيور فسبق
طائر الوزير فعز ذلك على العزيز ووجد أعداؤه سبباً إلى الطعن فيه فقالوا
للعزيز إنه قد اختار من كل صنف أجوده وأعلاه ولم يبق منه إلا أدناه حتى
الحمام وقصدوا بذلك الإغراء به حسداً منهم لعله يتغير عليه فاتصل ذلك
بالوزير فكتب إلى العزيز (قل لأمر المؤمنين الذي * له العلا والنسب الثاقب
(طائر ك السابق لكنه * جاء وفي خدمته حاجب) فأعجبه ذلك منه وسري
عنه ما كان وجده عليه هكذا ذكره القاضي الرشيد ابن الزبير المقدم ذكره في
كتاب الجنان وذكر غيره أن هذين البيتين لولي الدولة أبي محمد أحمد بن علي

المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر المصري وقد سبق ذكره في ترجمة أبي الحسن علي بن أحمد بن نوبخت الشاعر وإنما لم أفرده بترجمة لأنني لم أظفر بتاريخ وفاته وقد التزمت في هذا الكتاب أني لا اذكر إلا من وقفت على تاريخ وفاته وذكر أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الكاتب المعروف بابن الصيرفي المصري في جزء سماه الإشارة إلى من نال الوزارة ذكر فيه وزراء المصريين إلى عصره وابتداءً بذكر يعقوب المذكور فقال كان كاتباً يهودياً صائناً لنفسه محافظاً على دينه جميل المعاملة مع التجار فيما يتولاه واتصل بخدمة كافور الإخشيدي فحمد خدمته ورد إليه زمام ديوانه بمصر والشام فضبطه له على حسب إرادته وكان سبب حظوته عنده أن يهودياً قال

32 له إن في دار ابن البلدي بالرملة ثلاثين ألف دينار مدفونة وقد توفي فكتب يعقوب إلى كافور رقعة يقول فيها إن في دار ابن البلدي بالرملة عشرين ألف دينار مدفونة في موضع أعرفه وأنا أخرج أحملها فأجابه إلى ذلك وأنفذ معه البغال لحملها وورد الخبر بموت بكير بن هرواز التاجر فجعل إليه النظر في تركته واتفق موت يهودي بالفرما ومعه أحمال كتان فأخذها وفتحها فوجد فيها عشرين ألف دينار فكتب إلى كافور بذلك فتبرك به وكتب إليه بحملها فباع الكتان وحمل الجميع وسار إلى الرملة فحفر الدار التي لابن البلدي وأخرج المال وهو ثلاثون ألف دينار فكتب إلى كافور عرفت الأستاذ أنها عشرون ألف دينار ووجدت ثلاثين ألف دينار فزاد محله من قلبه وتصوره بالثقة ونظر في تركة ابن هرواز واستقصى وحمل منها مالاً كثيراً فأرسل إليه كافور صلة كثيرة فأخذ منها ألف درهم ورد الباقي وقال هذه كفايتي فزاد أمره عنده حتى إنه كان يشاوره في أكثر أموره وقال عبد الله أخو مسلم العلوي رأيت يعقوب قائماً يسار كافور فلما مضى قال لي أي وزير بين جنبيه وسار إلى المغرب وخدم المعز وتولى أمور العزيز في مستهل شهر رمضان سنة ثمان وستين وثلثمائة ولقبه بالوزارة وأمر أن لا يخاطبه أحد إلا بها ولا يكتب إلا بذلك ثم اعتقله في سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة في القصر فأقام معتقلاً شهوراً ثم أطلقه في سنة أربع وسبعين ورده إلى ما كان عليه ووجدت رقعة في دار الوزير المذكور في سنة ثمانين وثلثمائة وهي السنة التي توفي فيها ونسختها (احذروا من حوادث الأزمان * وتوقوا طوارق الحداث)

33 (قد أمنتم من الزمان ونتمم * رب خوف مكنم في أمان) فلما قرأها قال لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم واجتهد أن يعرف كاتبها فلم يقدر على ذلك ولما اعتل علة الوفاة آخر السنة المذكورة ركب إليه العزيز عائداً

وقال له وددت أنك تباع فأبتاعك بملكي أو تفدى فأفديك بولدي فهل من حاجة توصي بها يا يعقوب فبكى وقبل يده وقال أما فيما يخصني فأنت ارعى لحقي من أن أستريك إياه وأرأف على من أخلفه من أن أوصيك به ولكني أنصح لك فيما يتعلق بدولتك سالم الروم ما سالموك واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ولا تبق على مفرج بن دغفل بن جراح إن عرضت لك فيه فرصة ومات فأمر العزيز أن يدفن في داره وهي المعروفة بدار الوزارة بالقاهرة داخل باب النصر في قبة كان بناها وصلى عليه وألحده بيده في قبره وانصرف حزيناً لفقده وأمر بغلق الدواوين أياماً بعده وكان إقطاعه من العزيز في كل سنة مائة ألف دينار ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام ووجد له جوهر بأربعمائة ألف دينار ويز من كل صنف بخمسمائة ألف دينار وكان عليه للتجار ستة عشر ألف دينار فقضاها عنه العزيز من بيت المال وفرقت على قبره وذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق فقال كان يهودياً من أهل بغداد خبيثاً ذا مكر وله حيل ودهاء وفيه فطنة وذكاء وكان في قديم أمره خرج إلى الشام فنزل الرملة وصار بها وكياً فكسر أموال التجار وهرب إلى مصر فتاجر كافوراً الإخشيدى فرأى منه فطنة وسياسة ومعرفة بأمر الضياع فقال لو كان مسلماً لصلح أن يكون وزيراً فطمع في الوزارة فأسلم يوم الجمعة في جامع مصر فلما عرف الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات أمره قصده فهرب إلى المغرب واتصل بيهود كانوا مع الملقب بالمعز وخرج معه إلى مصر فلما مات الملقب بالمعز وقام ولده الملقب بالعزيز استوزر ابن كلس في سنة خمس وستين وثلثمائة فلم

34 يزل مدبر أمره إلى أن هلك في ذي الحجة سنة ثمانين وثلثمائة وقال غيره ابتداء المرض بالوزير المذكور يوم الأحد الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ثمانين وثلثمائة وأخذته سكتة ثم تزايد به المرض واشتد وانطلق لسانه ثم توفي ليلة الأحد على صباح الاثنين لخمس خلون من ذي الحجة من السنة المذكورة وكفن في خمسين ثوباً واجتمع الناس كلهم من القصر إلى داره وخرج العزيز وعليه الحزن ظاهر وركب بغلته بغير مظلة وكانت عادته أنه لا يركب إلا بها وصلى عليه وبكى وحضر مواراته ويقال إنه كفن وحنط بما مبلغه عشرة آلاف دينار وذكر من سمع العزيز وهو يقول واطول أسفي عليك يا وزير وبكى عليه القائد جوهر بكاء شديداً وإنما كان بكاءه على نفسه لأنه عاش بعده سنة واحدة وغدا الشعراء إلى قبره ويقال إنه رثاه مائة شاعر وأخذت قصائدهم وأجيزوا وقيل إنه مات على دينه وكان يظهر الإسلام

والصحيح أنه اسلم وحسن إسلامه وقال يوماً وقد ذكر اليهود في مجلسه كلاماً يسوء اليهود سماعه ثم بين عوراتهم وفساد مذهبهم وأنهم على غير شيء وأن اسم النبي في التوراة وهم يجحدونه وكانت ولادته في سنة ثمانى عشرة وثلثمائة ببغداد عند باب القز رحمه الله تعالى وكلس بكسر الكاف واللام المشددة وبعدها سين مهملة والسموأل بن عادياء بفتح السين المهملة والميم وسكون الواو وبعدها همزة مفتوحة ثم لام وعادياء بعين مهملة وبعد الألف دال مهملة مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها وبعدها همزة ممدودة وأما القائد جوهر فقد تقدم ذكره في ترجمته (371) وأما القائد فضل فإنه كان رجلاً نبيلاً كريماً ممدحاً وإليه تنسب

35 منية القائد فضل البليدة التي في أعمال الجيزة التي قبالة مصر وفيه يقول ابو القاسم عبيد الغفار شاعر دولة الحاكم بن العزيز المذكور (إنما الفضل غرة * في وجوه المدائح) (أريحي رياحه * عبقات الروائح) (كعبة الجود كفه * بين غاد ورائح) (إنما تصلح الأمور * برأي ابن صالح) وكان مكيناً في دولة الحاكم المذكور ثم نقم عليه وحبسه وضربت عنقه في محبسه يوم السبت عشية لإحدى وعشرين ليلة خلت من ذي القعدة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ولم يظهر منه جزع ولف في حصير وأخرج من الحجرة التي كان محبوساً بها رحمه الله تعالى (372) وأما أبو القاسم الشاعر المذكور فإن الحاكم قتله مع جماعة من الأعيان في يوم الأحد السادس والعشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وثلثمائة وأحرقهم بالنار وكان قتل الجميع في حجرة واحدة والله أعلم 83 يعقوب بن صابر المنجنيقي أبو يوسف يعقوب بن صابر بن بركات بن عمار بن علي بن الحسين بن علي بن حوثة الحراني الأصل البغدادي المولد والدار المنجنيقي الملقب نجم الدين الشاعر المشهور ذكره أبو عبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي في تاريخه الذي جعله ذيلًا لتاريخ الحافظ أبي سعد عبد الكريم بن

36 السمعاني الذي ذيله على تاريخ بغداد تأليف الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي وقد سبق ذكر كل واحد من هؤلاء الثلاثة في هذا التاريخ فقال ابن الدبيثي كان يعقوب المذكور متقدماً على أهل صناعته يعني في صنعة المنجنيق وما يتعلق به وكان فيه فضل ويقول الشعر سمع شيئاً من الحديث من أبي المظفر ابن السمرقندي وأبي منصور ابن الشطرنجي عقلت عنه شيئاً من شعره أنشدني ابو يوسف يعقوب بن صابر لنفسه (قبلت وجنته فألفت جيده * خجلاً ومال بعطفه المياس) (فانهل من خديه فوق عذاره *

عرق يحاكي الطل فوق الآس) فكأنني استقطرت ورد خدوده * بتصاعد الزفرات من أنفاسي) سألته عن مولده فقال في ضحى نهار الاثنين رابع محرم سنة أربع وخمسين وخمسمائة وقال غير ابن الديبثي كان ابن صابر المنجنيقي جندياً في ابتداء أمره مقدماً على المنجنيقيين بمدينة السلام ببغداد ولم يزل مغرماً بأداب السيف والقلم وصناعة السلاح والرياضة واشتهر بذلك ولم يلحقه أحد من أبناء زمانه في درايته وفهمه لذلك وصنف فيه كتاباً سماه عمدة السالك في سياسة الممالك ولم يتممه وهو مليح في معناه يتضمن أحوال الحروب وتعبيتها وفتح الثغور وبناء المعقل وأحوال الفروسية والهندسة والمصابرة على القلاع والحصار والرياضة الميدانية والحيل الحربية وفنون العلاج بالسلاح وعمل أداة الحرب والكفاح وصنوف الخيل وصفتها وقد قسم هذا الكتاب ورتبه أبواباً كل باب منه يشتمل على فصول وكان شيخاً هشاً مليحاً لطيفاً فكهاً طيب المحاورة شريف النفس متواضعاً فيه تودد وبشر وسكون وهو مع ذلك شاعر مكثر مجيد ذو

37 معان مبتكرة يقصد الشعر ويعمل المقاطيع وجمع من شعره كتاباً مختصراً سماه مغاني المعاني ومدح الخلفاء وكانت له منزلة لطيفة عند الإمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد خليفة العصر ذلك الوقت قلت وكانت أخباره في حياته متواصلة إلينا وأشعاره تنقلها الرواة عنه ويحكون وقائعه وماجراياته وما ينظم في ذلك من الأشعار الرائقة والمعاني البديعة ولم تتفق لي رؤيته مع المجاورة وقرب الدار من الدار لأنه كان ببغداد ونحن بمدينة إربل وهما متجاورتان لكن لكثرة اطلاعي على أخباره وما يتفق له من النظم المنقول عنه في وقته كأني كنت معاشره وما زلت مشغولاً بشعره مستعذباً أسلوبه فيه واجتمعت بخلق كثير من أصحابه والناقلين عنه منهم صاحبنا الشيخ عفيف الدين ابو الحسن علي بن عدلان المعروف بالمرجم الموصلي فإنه أنشدني له شيئاً كثيراً فمن ذلك قوله (كلفت بعلم المنجنيق ورميه * لهدم الصياصي وافتتاح المرابط) (وعدت إلى نظم القريض لشقوتي * فلم أخل في الحالين من قصد حائط) وأنشدني عنه أيضاً وذكر أنه لم يسبق إليه لا تكن واثقا بمن كظم الغيظ اغتيالاً وخف غرار الغرور) فالظبا المرهفات أقتل ما كانت * إذا غاض ماؤها في الصدور) وأنشدني له أيضاً في جارية سوداء كان يهواها وهي حبشية (وجارية من بنات الحبوش * بذات جفون صحاح مراض) (تعشقتها للتصابي فشبت * غراماً ولم أك بالشيب راض) (وكنت أعيرها بالسواد * فصارت تعيرني بالبياض)

38 وأنشدني عنه أيضاً (وجارية عبرت للطواف * وعبرتها حذراً
تدمع) (فقلت ادخلي البيت لا تجزعي * ففيه الأمان لمن يجزع) (سدانته
لبنى شبية * فقالت ومن شبية افزع) وأنشدني عنه في غلام يتعلم السباحة في
دجلة بغداد وقد لبس تبان أزرق وشد على ظهره شكوة منفوخة كما جرت عادة
من يتعلم العوم فقال في ذلك (يا للرجال شكائتي من شكوة * أضحت تعانق
من أحب وأعشق) (جمعت هوى كهواي إلا أنها * تطفو ويثقلني الغرام
فأغرق) (ويغيرني التبان عند عناقه * أردافه فهو العدو الأزرق) وقال
صاحبنا الكمال ابن الشعار الموصلي صاحب كتاب عقود الجمان أنشدني ابن
صابر لنفسه هذه الأبيات لكنه روى البيت الثاني منها على صورة أخرى فقال
(حملت هوى كهواي فهي بوصله * تطفو ويبيكني الغرام فأغرق) وهذا من
المعاني النادرة فإن العرب إذا وصفت العدو بشدة العداوة قالت هو عدو أزرق
وقد جاء هذا في كلامهم وأشعارهم كثيراً واستعمله الحريري في المقامة
الرابعة عشرة فقال فمذ أغبر العيش الأخضر وازور المحبوب الأصفر اسود
يومي الأبيض وابيض فودي الأسود حتى رثى لي العدو الأزرق فحبذا الموت
الأحمر ورأيت في بعض الرسائل ولا أتحقق الآن صاحبها قد أوردنا ظبا
الحديد الأخضر في ماء الوريد

39 الأحمر من عدو الله الأزرق من بني الأصفر وهو باب متسع فلا
حاجة إلى الإطالة في ذكر شواهدة وأنشدني عنه أيضاً في جماعة من
الصوفية أضافهم فأكلوا جميع ما قدمه لهم فكتب إلى شيخهم يذكر حاله معهم)
مولاي يا شيخ الرباط الذي * أبان عن فضل وعلواء) (إليك أشكو جور
صوفية * باتوا ضيوفي وأودائي) (أتيتهم بالزاد مستأثراً * وبت تشكو
الجوع أحشائي) (مشوا على الخبز ومن عادة الزهاد أن يمشوا على الماء)
(وهم إلى الآن ضيوفي فجد * لهم بخبز وبحلواء) (أو لا فخذهم واكفنيهم
فما * يحسن في مثلهم رائني) وأنشدني عنه في الصوفية أيضاً (قد لبس
الصوف لترك الصفا * مشايخ العصر لشرب العصير) (الرقص والشاهد
من شأنهم * شر طويل تحت ذيل قصير) وأنشدني عنه أيضاً وهو من
المعاني المستطرفة (قالوا نراه يسيل شعر عذاره * وسباله مستهتراً بزواله)
(فتسل عنه وخذ حبيبا غيره * فأجبتهم لا زلت عبد وصاله) (هل يحسن
السلوان عن حب يرى * أن لا يفارقني بنتف سباله) وأنشدني له غير ابن
عدلان وقال لما كبر ابن صابر وضعفت حرركته صار إذا مشى يتوكأ على
عصا فقال في ذلك

40 (أقيت عن يدي العصا * زمن الشبيبة للنزول) (وحملتها لما دعا * داعي المشيب إلى الرحيل) وكان ببغداد شخص يقال له ابن بشران وكان كثير الأراجيف فمنع من ذلك فقعد على الطريق ينجم فقال فيه ابن صابر (إن ابن بشران وأست ألومه * من خيفة السلطان صار منجماً) (طبع المشوم على الفضول فلم يطق * في الأرض إرجافاً فأرجف في السما) قلت وأنشدني الأديب شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سالم المعروف بابن التلعفري لنفسه في بعض ليالي شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وستمائة بالقاهرة المحروسة وهو من شعراء العصر المجيدين (يا شيب كيف وما انقضى زمن الصبا * عاجلت مني اللمة السوداء) (لا تعجلن فوالذي جعل الدجى * من ليل طرتي البهيم ضياء) (لو أنها يوم الحساب صحيفتي * ما سر قلبي كونها بيضاء) فقلت له قد أغرت على بيت نجم الدين ابن صابر حتى إنك قد أخذت معظم لفظه وجميع معناه والوزن والروي وهو قوله (لو أن لحية من يشيب صحيفة * لمعاده ما اختارها بيضاء) فحلفت أنه لم يسمع هذا البيت إلا بعد عمله للأبيات المذكورة والله أعلم بذلك وهذا البيت لابن صابر من جملة أبيات وهي (قالوا بياض الشيب نور ساطع * يكسو الوجوه مهابة وضياء) (حتى سرت وخطاته في مفرقي * فوددت أن لا أفقد الظلماء) (وعدلت أستبقي الشباب تغلا * بخضابها فصبغتها سوداء) (لو أن لحية من يشيب صحيفة * لمعاده ما اختارها بيضاء)

41 وأخبرني بعض الأدباء أن ابن صابر كتب إلى بعض الرؤساء ببغداد (ما جئت أسألك المواهب مادحاً * إنني لما أوليتني لشكور) (لكن أتيت عن المعالي مخبراً * لك أن سعيك عندها مشكور) ووقفت بالقاهرة على كراريس فيها شعره وقد أجاد في كل ما نظمه ورأيت فيها البيتين المشهورين المنسوبين إلى جماعة من الشعراء ولا يعرف قائلهما على الحقيقة وهما (ألقني في لظى فإن أحرقتني * فتيقن أن لست بالياقوت) (جمع النسج كل من حاك لكن * ليس داود فيه كالعنكبوت) فعمل ابن صابر جوابهما (أيها المدعي الفخار دع الفخر لذي الكبرياء والجبروت) (نسج داود لم يفد ليلة الغار * وكان الفخار للعنكبوت) (وبقاء السمند في لهب النار * مزيل فضيلة الياقوت) (وكذاك النعام يلتقم الجمر وما الجمر للنعام بقوت) قلت وعلى البيتين الأولين نظم جماعة من الشعراء المعاصرين لنا أبياتاً فمن ذلك قول الكمال أبي محمد القاسم بن القاسم بن عمرو بن منصور الواسطي نزيل حلب صاحب شرح المقامات (حق دود القر يبني * فوقه ثم يموت) (بعد ما

سدى وقد صار * يسدي العنكبوت) وقول المهذب أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن بن يمين الأنصاري المعروف بابن الأردخل الموصلي نزيل ميفارقين 42 (أقول وقد قالوا نراك مقطباً * إذا ما ادعى دين الهوى غير أهله) (يحق لدود القز يقتل نفسه * إذا جاء بيت العنكبوت بمثله) وهذا ينظر إلى قول بعضهم (إذا شوركت في أمر بدون * فلا يلحقك عار أو نفور) (ففي الحيوان يشترك اضطراراً * أرسطاليس والكلب العقور) وقول الآخر (وللزنبور والبازي جميعاً * لدى الطيران أجنحة وخفق) (ولكن بين ما يصطاد باز * وما يصطاده الزنبور فرق) قلت وعلى ذكر دود القز ينبغي أن يذكر ما يقال عن السرفة بضم السين المهملة وبعدها راء ساكنة ثم فاء قال الجوهري في كتاب الصحاح هي دويبة تتخذ لنفسها بيتاً مربعاً من دقاق العيدان تضم بعضها إلى بعض بلعابها على مثال الناووس ثم تدخل فيه وتموت يقال في المثل هو أصنع من سرفة وذكر لي بعض الفضلاء أن السرفة هي الأرضة والله أعلم ومما ينبغي أن يلحق بالأبيات المقدم ذكرها قول بعضهم (إن أعوز الحاذق فاستبدلوا * مكانه أخرق لم يحذق) (فلاعب الشطرنج من دأبه * وضع حصة موضع البيدق) والأصل في هذا كله قول المتنبي (وشر ما قنصته راحتي قنص * شهب البزاة سواء فيه والرخم) ويقرب منه قول أبي العلاء المعري أيضاً (وهل يذخر الضرغام قوتاً ليومه * إذا ادخر النمل الطعام لعامه) قلت وفي هذه الأبيات الأوائل ما يحتاج إلى زيادة إيضاح فليس

43 كل من يقف عليها يفهم معناها أما البيت الأول وما ذكره من أمر الياقوت فإن الياقوت من خاصيته أن النار لا تؤثر فيه وإلى هذا أشار الحريري في المقامة السابعة والأربعين بقوله من جملة ثلاثة أبيات (وطالما أصلي الياقوت جمر غضاً * ثم انظفا الجمر والياقوت ياقوت) (وقال آخر في غلام له اسمه ياقوت) ياقوت ياقوت قلبي المستهام به * من المروءة أن لا يمنع القوت) (سكنت قلبي وما تخشى تلهبه * وكيف يخشى لهيب النار ياقوت) وقد جاء هذا كثيراً في الشعر لكن الاختصار أولى وأما قول ابن صابر في الجواب في البيت الثاني نسج داود لم يفد ليلة الغار إلى آخره فهذا إشارة إلى مهاجرة النبي ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فإنهما خافا من مشركي مكة أن يتبعوهما فدخلوا غار ثور بالثاء المثناة وثور جبل بين مكة والمدينة بالقرب من مكة ونسج العنكبوت في الحال على باب الغار فلما وصل المشركون إليه ورأوا أثر العنكبوت على الباب قالوا ليس ها هنا أحد فإنه لو

دخله أحد ما كان العنكبوت نسج عليه في الحال لأن المشركين بادروا إليهما ليلحقوهما فأخفى الله سبحانه وتعالى أمرهما وهي من جملة معجزات النبي وقوله في البيت الثالث وبقاء السمند في لهب النار إلى آخره السمند بفتح السين المهملة والميم وبعد النون الساكنة دال مهملة ويقال السمندل أيضاً بزيادة اللام ذكروا أنه طائر يقع في النار فلا تؤثر فيه ويعمل من ريشة مناديل وتحمل إلى هذه البلاد فإذا اتسخت المنديل طرحت في النار فتأكل النار الوسخ الذي عليها ولا تحترق المنديل ولا تؤثر النار فيها ولقد رأيت منه قطعة ثخينة منسوجة على هيئة حزام الدابة وهي في طول الحزام وعرضه فجعلوها على النار فما عملت فيه فغمسوا أحد جوانبه في الزيت

44 ثم تركوه على فتيلة السراج فاشتعل وبقي زماناً طويلاً يشتعل ثم اطفأوه وهو على حاله ما تغير فيه شيء ويقولون إنه يجلب من بلاد الهند وإن هذا الطائر يكون هناك وفيه نكتة ينبغي أن تذكرها هنا وهي أن طرف تلك القطعة لما وضعه على السراج تركوه زماناً طويلاً والنار لا تعلق فيه فقال بعض الحاضرين هذا ما تعمل فيه النار ولكن اغمسوا هذا الطرف في الزيت ثم اجعلوه على النار ففعلوا ذلك فاشتعل فظهر من هذا أن النار لا تؤثر فيه على تجرده بل لا بد من غمسه في شيء من الأدهان ثم رأيت بخط شيخنا موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي في كتابه الذي جعله لنفسه سيرة أنه قدم للملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب قطعة سمندل عرض ذراع في طول ذراعين فصاروا يغمسونها في الزيت ويوقدونها حتى يتقد الزيت وترجع بيضاء كما كانت والله أعلم ومثله السرفوت دويذة تعشش في كور الزجاج في حال توقده واضطرامه وتبيض فيه وتفرخ ولا تعمل بيتها إلا في موضع النار المستمرة الدائمة فسبحان خالق كل شيء وهي بفتح السين المهملة والراء وضم الفاء وسكون الواو وبعدها تاء مثناة من فوقها وأما البيت الرابع الذي ذكر فيه النعام وأنه يلتقم الجمر فهذا شيء شاهدناه كثيراً وهو معروف بين الناس وليس بغريب وبالجملة فقد خرجنا عن المقصود لكن الكلام اتصل بعضه ببعض فانتشر وتوفي ابن صابر المذكور في ليلة الثامن والعشرين من صفر من سنة ست وعشرين وستمئة ببغداد ودفن ليلة الجمعة غريبها بالمقبرة الجديدة بباب المشهد المعروف بموسى بن جعفر رضي الله عنهما

45 وأخبرني الشهاب ابن التلعفري المذكور أن مولده في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة بالموصل سنة ثلاث وتسعين وخمسائة وتوفي في عاشر شوال سنة خمس وسبعين وستمئة بمدينة حماة وأنشد قبيل موته

لنفسه وهو آخر شعره (إذا ما بات من ترب فراشي * وبت مجاور الرب
الكريم) (فهنوني أصيحابي وقولوا * لك البشري قدمت على رحيم)
وحوثة بفتح الحاء المهملة وسكون الواو وفتح الثاء المثناة وبعدها راء ثم هاء
وهي في الأصل اسم لحشفة الذكر وبها سمي الإنسان قال ابن الكلبي في كتاب
جمهرة النسب سمي ربيعة بن عمرو بن عوف بن بكر بن وائل بن حوثة لأنه
حج فمر بامرأة معها لها فاستامها فاكثرت فقال والله لو أدخلت حوثة في
يعني كمرته لمأته فسمي حوثة والمنجنيقي بفتح الميم وسكون النون وفتح
الجيم وكسر النون الثانية وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها قاف هذه النسبة
إلى المنجنيق وهو معروف وإذا جرى ذكره ينبغي الكلام عليه ففيه أشياء
غريبة منها أنه من جملة الآلات المنقولة المستعملة والقاعدة في هذا الباب أن
تكون ميمه مكسورة إلا ما شذ عن ذلك في ألفاظ قليلة مثل منخل ومدهن
ومسعط وغير ذلك مع ابن الجواليقي في كتاب المعرب حكى فيه أربع لغات
فتح الميم وكسرها على القاعدة ومنجنوق بالواو بدل الياء ومنجنيق باللام
عوض النون الثانية وحكى في الميم والنون الأولى ثلاثة أقوال قيل إنهما
أصليتان وقيل زائدتان وقيل الميم أصلية والنون زائدة والله أعلم وهم اسم
أعجمي فإن الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية مثل الجرموق والجردق
والجوسق والجلهق والقبح وغير ذلك وهذا باب مطرد وكذلك الجيم والصاد
لا يجتمعان في كلمة عربية

46 مثل الصهريج والجص والصاج والجصطل وغير ذلك وهو أيضاً
باب مطرد وإذا جمعناه حذفنا إحدى النونين فإن حذفنا النون الأولى قلنا
مجانيق وإن حذفنا النون الثانية قلنا مناجيق وقال الجوهرى في كتاب الصحاح
الأصل في المنجنيق من جي نيك تفسيره بالعربي ما أجودني قلت فتفسير من
أنا وتفسير جي أيش وتفسير نيك جيد أي أنا أيش جيد قال الجوهرى ثم عرب
فقيل منجنيق وذكر ابن قتيبة من كتاب المعارف وأبو هلال العسكري في
كتاب الأوائل أن أول من وضع المنجنيق جذيمة الأبرش ملك العرب وبلد
الحيرة في ذلك الزمان وقال الواحدي في تفسيره الوسيط في سورة الأنبياء إن
المشركين لما عزموا على إحراق إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام
وأضرموا النار لم يدروا كيف يلقونه فيها فجاءهم إبليس لعنه الله تعالى فدلهم
على المنجنيق وهو أول منجنيق وضع فوضعه فيه ثم رموه والله أعلم وهذا
الفصل كله وإن كان خارجاً عن المقصود لكنه ما يخلوا عن فائدة فلذلك بسطت
القول فيه 883 موفق الدين ابن يعيش أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش بن

أبي السرايا بن محمد بن علي بن المفضل بن عبد الكريم بن محمد بن يحيى بن
حيان القاضي بن بشر بن حيان

47 الأسدي الموصلي الأصل الحلبي المولد والمنشأ الملقب موفق الدين
النحوي ويعرف بابن الصائغ قرأ النحو على أبي السخاء فتیان الحلبي وأبي
العباس المغربي النيروزي وسمع الحديث على أبي الفضل عبد الله بن أحمد
الخطيب الطوسي بالموصل وعلى أبي محمد عبد الله بن عمر بن سويدة
التكريتي وبحلب من أبي الفرج يحيى بن محمود الثقفي والقاضي أبي الحسن
أحمد بن محمد بن الطرسوسي وخالد بن محمد بن نصر بن صغير القيسراني
وبدمشق على تاج الدين الكندي وغيرهم وحدث بحلب وكان فاضلاً ماهراً في
النحو والتصريف رحل من حلب في صدر عمره قاصداً بغداد ليذكر أبا
البركات عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن الأنباري المقدم ذكره وتلك
الطبقة بالعراق وبلاد الجزيرة فلما وصل إلى الموصل بلغه خبر وفاته وقد
ذكرت تاريخ موته في ترجمته فأقام بالموصل مديدة وسمع الحديث بها ثم رجع
إلى حلب ولما عزم على التصدر للإقراء سافر إلى دمشق واجتمع بالشيخ تاج
الدين أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي الإمام المشهور وقد تقدم ذكره في حرف
الزاي وسأله عن مواضع مشكلة في العربية وعن إعراب ما ذكره أبو محمد
الحريري في المقامة العاشرة المعروفة بالرحبية وهو قوله في أواخرها حتى
إذا لأ الأفق ذنب السرحان وأن انبلاج الفجر وحان فاستبهم جواب هذا المكان
على الكندي هل الأفق وذنب السرحان مرفوعان أو منصوبان أو الأفق مرفوع
وذنب السرحان منصوب أو على العكس وقال له قد علمت قصدك وأنت أردت
إعلامي بمكانتك من هذا العلم وكتب له خطه بمدحه والثناء عليه ووصف
تقدمه في الفن الأدبي قلت وهذه المسألة يجوز فيها الأمور الأربعة والمختار
منها نصب

48 الأفق ورفع ذنب السرحان وقد ذكر ذلك تاج الدين ابو عبد الله محمد
بن عبد الرحمن المقدم ذكره المعروف بالبندهي في كتاب شرح المقامات ولولا
خوف الإطالة لبينت ذلك ولما وصلت إلى حلب لأجل الاشتغال بالعلم الشريف
وكان دخولي إليها يوم الثلاثاء مستهل ذي القعدة سنة ست وعشرين وستمائة
وهي إذ ذاك أم البلاد مشحونة بالعلماء والمشتغلين وكان الشيخ موفق الدين
المذكور شيخ الجماعة في الأدب لم يكن فيهم مثله فشرعت في القراءة عليه
وكان يقرىء بجامعها في المقصورة الشمالية بعد العصر وبين الصلاتين
بالمدرسة الرواحية وكان عنده جماعة قد تنبهوا وتميزوا به وهم ملازمون

مجلسه لا يفارقونه في وقت الإقراء وابتدأت بكتاب اللمع لابن جني فقرأت عليه معظمها مع سماعي لدروس الجماعة الحاضرين وذلك في أواخر سنة سبع وعشرين وما أتممتها إلا على غيره لعذر اقتضى ذلك وكان حسن التفهيم لطيف الكلام طويل الروح على المبتدىء والمنتهي وكان خفيف الروح ظريف الشمائل كثير المجون مع سكينه ووقار ولقد حضرت يوماً حلقة وبعض الفقهاء يقرأ عليه اللمع لابن جني فقرأ بيت ذي الرمة في باب النداء (أيا ظبية الوعاء بين جلال * وبين النقا أنت أم أم سالم) فقال له الشيخ إن هذا الشاعر لشدة ولهه في المحبة وعظم وجدته بهذه المحبوبة أم سالم وكثرة مشابقتها للغزال كما جرت عادة الشعراء في تشبيههم النساء الصباح الوجوه بالغزلان والمها اشتبه عليه الحال فلم يدر هل هي امرأة أم ظبية فقال أنت أم أم سالم وأطال الشيخ موفق الدين القول في ذلك وبسطه بأحسن عبارة بحيث يفهمه البليد البعيد الذهن وذلك الفقيه منصت مقبل على كلامه بكليته حتى يتوهم من يراه على تلك الصورة أنه قد تعقل جميع ما قاله فلما فرغ الشيخ من شرحه قال له الفقيه يا مولانا أيش في المرأة الحسنة يشبه الظبية فقال له الشيخ قول منبسط تشبهها في

49 ذنبها وقرونها فضحك الحاضرون وخجل الفقيه وما عدت رايته حضر مجلسه قلت وجلال بفتح الجيم وضمها اسم مكان والثانية جيم أيضا وكنا يوماً نقرأ عليه بالمدرسة الرواحية فجاءه رجل من الأجناد وببده مسطور بدين وكان الشيخ له عادة بالشهادة في المكاتب الشرعية فقال له يا مولانا اشهد علي في هذا المسطور فأخذه الشيخ من يده وقرأ أوله أقرت فاطمة فقال له الشيخ أنت فاطمة فقال له الجندي لا يا مولانا الساعة تحضر وخرج إلى باب المدرسة فأحضرها وهو يتبسم من كلام الشيخ ويقرب من هذا ما تقدم ذكره في ترجمة عامر الشعبي أن شخصاً دخل عليه وعنده امرأة فقال أيكما الشعبي فقال له هذه وكنا يوماً نقرأ عليه في داره فعطش بعض الحاضرين وطلب من الغلام ماء فأحضره له فلما شرب قال ما هذا إلا ماء بارد فقال له الشيخ لو كان خبزاً حاراً كان أحب إليك وكنا يوماً عنده بالمدرسة الرواحية فجاء المؤذن وأذن قبل العصر بساعة جيدة فقال له الحاضرون أيش هذا يا شيخ واين وقت العصر فقال الشيخ موفق الدين دعوه عسى أن يكون له شغل فهو مستعجل وكان يوماً عند القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد قاضي حلب الآتي ذكره إن شاء الله تعالى فجرى ذكر زرقاء اليمامة وأنها كانت ترى الشيء من المسافة البعيدة حتى قيل تراه من مسيرة ثلاثة أيام فجعل

الحاضرون يقولون ما علموه من ذلك فقال الشيخ موفق الدين أنا أرى الشيء من مسافة شهرين فتعجب الكل من قوله وما أمكنهم أن يقولوا له شيئاً فقال له القاضي كيف هذا يا موفق الدين فقال لأنني أرى الهلال فقال

50 له كان قلت مسافة كذا كذا سنة قال لو قلت هذا عرف الجماعة الحاضرون غرضي وكان قصدي الإبهام عليهم وله نوادر كثيرة يطول ذكرها وكنت يوماً عنده وقد قدم من الموصل رجل من فضلاء المغاربة في علم الأدب فحضر حلقتة وبحث في دروسه بحث رجل فاضل وجرى ذكر مباحث جرت له بالموصل مع جماعة من أدبائها وقال كنت عند ضياء الدين نصر الله بن الأثير الجزري قلت وقد سبق ذكره قال فتحاورنا وتناشدنا فأنشدته قول بعض المغاربة قلت هذه الأبيات ذكر أبو إسحاق الحصري أنها لبعض مشايخ القيروان رواها عنه ولم يعينه وهي (ومعدرين كأن نبت خدودهم * أقلام مسك تستمد خلوقا) (قرنوا البنفسج بالشقيق ونضدوا * تحت الزبرجد لؤلؤاً وعقيقاً) (فهم الذين إذا الخلي رآهم * وجد الهوى بهم إليه طريقاً) قلت ونصف البيت الثاني مثل قول ابن الذروي المصري في أبياته التي سبق ذكرها في ترجمة المبارك بن منقذ وهو قوله (جلا تحت ياقوت اللمي ثغر لؤلؤ * رطيبا وابدى شارباً من زمرد) ومن المنسوب إلى أبي محمد الحسن بن علي المعروف بابن وكيع التنيسي المقدم ذكره في حرف الحاء (جوهرى الأوصاف يقصر عنه * كل فهم وكل ذهن دقيق)

51 (شارب من زمرذ وثنايا * لؤلؤ فوقها فم من عقيق) وذكرت بهذه الأبيات بيتين كنت أحفظهما ويحسن ذكرهما بعد هذا وهما (لما وقفنا للوداع وصار ما * كنا نظن من النوى تحقيقاً) (نثروا على ورق الشقائق لؤلؤاً * ونثرت من فوقها البهار عقيقاً) وكذلك بيت الوأواء الدمشقي (فأمطرت لؤلؤاً من نرجس فسقت * ورداً وعضت على العناب بالبرد) وكذا قول محمد بن سعيد العامري الدمشقي وقيل إنها لابن كيغلق (لما اعتنقنا للوداع وأعربت * عبراتنا عنا بدمع ناطق) (فرقن بين معاجر ومحاجر * وجمعن بين بنفسج وشقائق) (وأنا الفداء لظبية أحداقنا * موصولة من وجهها بحدائق) وينسب إلى أبي الفتح الحسن بن أبي حصينة الحلبي الشاعر المشهور من هذا أيضاً (ولما وقفنا للوداع وقلبها * وقلبي يفيضان الصبابة والوجد) (بكت لؤلؤاً رطباً وفاضت مدامعي * عقيقاً فصار الكل في نحرها عقدا) وأنشدني صاحبنا الحسام عيسى بن سنجر بن بهرام الحاجري الإربلي المقدم ذكره لنفسه (ولما التقينا ومن الزمان * رأى دمع عيني دماً في المآقي)

52 (فقال وعهدي به لؤلؤاً * اجري عقيماً وهذا التلاقي) (فقلت حبيبي لا تعجبين * جعلت فدى لك ميتاً وباقي) (قتلك أوائل دمع الوداع * وهذا أواخر دمع الفراق) وكان الشيخ موفق الدين المذكور كثيراً ما ينشد منسوباً إلى أبي علي الحسن ابن رشيق المقدم ذكره ثم كشفت ديوانه فلم أجد هذه الأبيات فيه والله أعلم وهي (وقد كنت لا آتي إليك مخاتلاً * لديك ولا أثني عليك تصنعاً) (ولكن رأيت المدح فيك فريضة * علي إذا كان المديح تطوعاً) (فقلت بما لم يخف عنك مكانه * من القول حتى ضاق مما توسعاً) (فلا تتخالجك الظنون فإنها * مآثم واترك في الصلح موضعاً) (فلو غيرك الموسوم عندي بريية * لأعطيت فيه مدعي القول ما ادعى) (فوالله ما طولت بالقول فيكم * لساناً ولا غرضت للذم مسمعا) (ولكنني أكرمت نفسي فلم تهن * وأجللتها من أن تذلل وتخضعاً) (فباينت لا أن العداوة باينت * وقاطعت لا أن الوفاء تقطعاً) قلت وقيد قيل في هذا الباب شيء كثير ولا حاجة إلى الإطالة وشرح الشيخ موفق الدين كتاب المفصل لأبي القاسم الزمخشري شرحاً مستوفى وليس في جملة الشروح مثله وشرح تصريف الملوكي لابن جني شرحاً مليحاً وانتفع به خلق كثير من أهل حلب وغيرها حتى إن الرؤساء الذين كانوا بحلب ذلك الزمان كانوا تلامذته وكانت ولادته لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

53 بطلب وتوفي بها في سحر الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة ودفن من يومه بتربته بالمقام المنسوب إلى إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه ورحمه الله تعالى 834 يموت بن المزرع أبو بكر يموت بن المزرع بن يموت بن عيسى بن موسى بن سيار بن حكيم بن جبلة بن حصن بن اسود بن كعب بن عامر بن عدي بن الحارث بن الديل بن عمرو بن غنم بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس بن أفصى بن ديمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان العبدي البصري قلت وجدت في كتاب جمهرة النسب تأليف ابن الكلبي عند ذكره حكيم بن جبلة المذكور وقد ساق نسبه على هذه الصورة وفي الحاشية مكتوب ما مثاله من ولد حكيم بن جبلة المذكور يموت بن المزرع ابن يموت وقد ساق نسبه على هذه الصورة حتى ألحقه بحكيم بن جبلة المذكور والعهد عليه في ذلك ورأيت بخطي في مسوداتي يموت بن المزرع بن يموت بن عدس بن سيار بن المزرع بن الحارث بن ثعلبة بن

54 عمرو بن ضمرة بن دلهات بن وداعة بن بكر بن وداعة بن لكيز بن أفصى المذكور والله أعلم بالصواب في ذلك وكان يموت قد سمي نفسه محمداً وذكره الخطيب البغدادي في تاريخه الكبير في المحمدين ثم ذكره في حرف الياء وقال هو يموت وهو ابن أخت أبي عثمان الجاحظ وقد تقدم ذكره قدم يموت بن المزرع بغداد في سنة إحدى وثلاثمائة وهو شيخ كبير وحدث بها عن أبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني وأبي الفضل الرياشي ونصر بن علي الجهمضي وعبد الرحمن ابن أخي الأصمعي ومحمد بن يحيى الأزدي وأبي إسحاق إبراهيم بن سفيان الزياتي وغيرهم روى عنه أبو بكر الخرائطي وأبو الميمون ابن راشد وأبو الفضل العباس بن محمد الرقي وأبو بكر ابن مجاهد المقرئ وأبو بكر ابن الأنباري وغيرهم وكان أديباً أخبارياً وله ملح ونوادر وكان لا يعود مريضاً خوفاً أن يتطير من اسمه وكان يقول بليت بالاسم الذي سماني أبي به فاني إذا عدت مريضاً فاستأذنت عليه فقل من هذا قلت أنا ابن المزرع وأسقطت اسمي ومدحه منصور الفقيه الضرير الشاعر المشهور بقوله (أنت تحيا والذي يكره أن تحيا يموت) (أنت صنو النفس بل أنت لروح النفس قوت) (أنت للحكمة بيت * لا خلت منك البيوت) فمن أخباره أنه قال أخبرني أبو الفضل الرياشي قال سمعت الأصمعي يقول كان سخط هارون الرشيد على عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه في سنة ثمان وثمانين ومائة

55 ولقد كنت عند الرشيد وقد أتني بعبد الملك يرفل في قيوده فلما نظر الرشيد إليه قال له هيه يا عبد الملك كأني والله أنظر إلى شؤبوبها قد همع وإلى عارضها قد لمع وكأني بالوعيد قد ألقع عن براجم بلا معاصم ورؤوس بلا غلاصم مهلا مهلا بني هاشم فبي والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر وألقت إليكم الأمور أثناء أزمته فخذوا حذاركم مني قبل حلول داهية خبوط باليد والرجل فقال له عبد الملك أفذاً أتكلم أم توأماً فقال بل توأماً فقال اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وراقبه في رعاياك التي استرعاك فقد سهلت والله لك الوعر وجمعت على خوفك ورجائك الصدور وكنت كما قال أخو بني جعفر بن كلاب (ومقام ضيق فرجته * بلسان وبيان وجدل) (لو يقوم الفيل أو فياله * زل عن مثل مقامي وزحل) قال فأراد يحيى بن خالد البرمكي أن يضع من مقدار عبد الملك عند الرشيد فقال له يا عبد الملك بلغني أنك حقود فقال له أصلح الله الوزير إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندي فانهما لباقيان في قلبي قال الأصمعي فالتفت الرشيد إلي وقال يا أصمعي حررها

فوالله ما احتج أحد للحقد بمثل ما احتج به عبد الملك ثم أمر به فرد إلى محبسه قال الأصمعي ثم التفت الرشيد إلي وقال يا أصمعي والله لقد نظرت إلى موضع السيف من عنقه مراراً ويمنعني من ذلك إبقائي على قومي في مثله قلت وعبد الله بن صالح قد ذكرته في ترجمة أبي عبادة الوليد البحتري الشاعر المشهور ونهت على تاريخ وفاته وروى يموت بن المزرع أيضاً أن أحمد بن محمد بن عبيد الله أبا الحسن

56 الكاتب المعروف بابن المدبر الضبي الرستيساني كان إذا مدحه شاعر فلم يرض شعره قال لغلامه امض به إلى المسجد الجامع ولا تفارقه حتى يصلي مائة ركعة ثم أطلقه فتحاماه الشعراء إلا الأفراد المجيدين فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصري المعروف بالجمل فاستأذنه في النشيد فقال له قد عرفت الشرط قال نعم ثم أنشده (أردنا في أبي حسن مديحاً * كما بالمدح تنتجع الولاية) (وقلنا أكرم الثقلين طرا * ومن كفاه دجلة والفرات) (فقالوا يقبل المدحات لكن * جوائزهن عليهن الصلاة) (فقلت لهم وما تغني صلاتي * عيالي إنما الشأن الزكاة) (فيأمر لي بكسر الصاد منها * فتصبح لي الصلاة هي الصلات) فضحك ابن المدبر واستظرفه وقال من اين أخذت هذا فقال من قول أبي تمام الطائي (هن الحمام فإن كسرت عيافة * من حائهن فإنهن حمام) فاستحسن ذلك وأحسن صلته (373) وكان أحمد بن المدبر يتولى الخراج بمصر فحبسه أحمد بن طولون في سنة خمسة وستين ومائتين ومات في حبسه في صفر سنة سبعين ومائتين وقيل بل قتله ابن طولون والله أعلم والمدبر بكسر الباء الموحدة المشددة وحدث ابن المزرع أيضاً عن خاله أبي عثمان الجاحظ أنه قال طلب المعتصم جارية كانت لمحمود بن الحسن الشاعر المشهور المعروف بالوراق وكانت تسمى نشوى وكان شديد الغرام بها وبذل في ثمنها سبعة آلاف

57 دينار فامتنع محمود من بيعها لأنه كان يهواها أيضاً فلما مات محمود اشترت الجارية للمعتصم من تركته بسبعمائة دينار فلما دخلت عليه قال لها كيف رأيت تركتك حتى اشتريتك من سبعة آلاف بسبعمائة قالت أجل إذا كان الخليفة ينتظر لشهواته المواريث فإن سبعين ديناراً لكثيرة في ثمني فضلاً عن سبعمائة فخلج المعتصم من كلامها وقال ابن المزرع حدثني من رأى قبراً بالشام عليه مكتوب لا يغترن أحد بالدنيا فإني ابن من كان يطلق الريح إذا شاء ويحبسها إذا شاء وبحدائه قبر عليه مكتوب كذب الماص بظر أمه لا يظن أحد أنه ابن سليمان بن داود عليهما السلام إنما هو ابن حداد يجمع الريح في الزق

ثم ينفخ بها الجمر قال فما رأيت قبلها قبرين يتشاثمان والله أعلم ولابن المزرع أخبار وحكايات ونوادر ولسنا نقصد الإطالة بل الإيجار حسب الإمكان إلا أن ينتشر الكلام (374) وكان له ولد يدعى أبا نضلة مهلهل بن يموت بن المزرع وكان شاعراً مجيداً ذكره المسعودي في كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر فقال في حقه هو من شعراء هذا الزمان وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وفيه يقول أبوه مخاطباً له (مهلهل قد حلبت شطور دهري * وكافحني بها الزمن العنوت) (وحاربت الرجال بكل ريع * فأذعن لي الحثالة والرتوت) (فأوجع ما أجن عليه قلبي * كريم غته زمن غتوت) (كفى حزناً بضیعة ذي قديم * وأبناء العبيد لها البخوت)

58 (وقد أسهرت عيني بعد غمض * مخافة أن تضيع إذا فنيت) (وفي لطف المهيمن لي عزاء * بمثلك إن فنيت وإن بقيت) (فجب في الأرض وابع بها علوماً * ولا تقطعك جائحة سبوت) (وإن بخل العليم عليك يوماً * فذل له وديدنك السكوت) (وقل بالعلم كان أبي جواداً * يقال ومن أبوك فقل يموت) (يقر لك الأبعاد والأداني * بعلم ليس يجحده البهوت) وكان يموت قد قدم مصر مراراً وآخر قدومه إليها في سنة ثلاث وثلثمائة وخرج في سنة اربع وثلثمائة قال ابو سعيد ابن يونس الصدي المصري في تاريخه المختص بالغرباء مات يموت بن المزرع سنة اربع وثلثمائة بدمشق وقال ابو سليمان بن زبر في تاريخه إنه مات في سنة ثلاث وثلثمائة بطبرية الشام والله أعلم وأما ولده مهلهل فإن الخطيب ذكره في تاريخ بغداد وقال هو شاعر مليح الشعر في الغزل وغيره وسكن بغداد وسمع منه وكتب عنه شعره أبو بعضة إبراهيم بن محمد المعروف بتوزون ثم قال الخطيب أخبرني التنوخي قال قال لنا ابو الحسين احمد بن محمد بن العباس الأخباري حضرت في سنة ست وعشرين وثلثمائة مجلس تحفة القوالة جارية أبي عبد الله ابن عمر البازيار وإلى جانبي عن يسرتي أبو نضلة مهلهل بن يموت بن المزرع وعن يميني أبو القاسم بن أبي الحسن البغدادي فغنت تحفة من وراء الستارة بهذه الأبيات (بي شغل به عن الشغل عنه * بهواه وإن تشاغل عني) (ظن بي جفوة فأعرض عني * وبدا منه ما تخوف مني) (سره أن أكون فيه حزيناً * فسروري إذا تضاعف حزني) فقال لي أبو نضلة هذا الشعر لي فسمعه أبو القاسم وكان ينحرف

59 عن أبي نضلة فقال قل له إن كان هذا الشعر له يزيد فيه بيتا فقلت له ذلك على وجه جميل فقال (هو في الحسن فتنة قد أصارت * فنتني في هواه

من كل فن) ومن المنسوب إلى مهلهل أيضاً (جلت محاسنه عن كل تشبيهه *
وجل عن واصف في الناس يحكيه) (انظر إلى حسنه واستغن عن صفتي *
سبحان خالقه سبحان باريه) (النرجس الغض والورد الجني له * والأقحوان
النضير النضر في فيه) (دعا بألحاظه قلبي إلى عطبي * فجاءه مسرعاً
طوعاً يلبيه) (مثل الفراشة تأتي إذ ترى لها * إلى السراج فتلقي نفسها فيه)
وذكر له الخطيب شعراً غير هذا فأضربت عن ذكره والمزرع بضم الميم
وفتح الزاي وبعدها راء مشددة مفتوحة ثم عين مهملة هكذا قاله لي الشيخ
الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري
رحمه الله تعالى (375) وأما حكيم بن جبلة المذكور في عمود هذا النسب
فإنه بفتح الحاء المهملة وكسر الكاف ويقال أيضاً بضم الحاء وفتح الكاف
ويقال جبلة وجبل وكان من أعوان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولما
بويع علي بالخلافة بايعه طلحة بن عبيد الله التيمي والزبير بن العوام الأسدي
رضي الله عنهما فعزم علي رضي الله عنه على تولية الزبير البصرة وتولية
طلحة اليمن فخرجت مولاة لعلي فسمعتها يقولان ما بايعناه إلا بالسنننا وما
بايعناه بقلوبنا فأخبرت مولاها بذلك فقال أبعدهما الله تعالى ومن نكث فإنما
ينكث على نفسه وبعث إلى البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري وإلى اليمن

60 عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فاستعمل ابن
حنيف حكيم بن جبلة المذكور على شرطة البصرة ثم إن طلحة والزبير لحقا
بمكة وفيها عائشة رضي الله تعالى عنها فاتفقوا وقصدوا البصرة وفيها ابن
حنيف المذكور فأتى حكيم بن جبلة إلى ابن حنيف وأشار عليه بمنعهم من
دخول البصرة فأبى وقال ما أدري ما رأي أمير المؤمنين في ذلك فدخلها
وتلقاهم الناس فوقفوا في مرصد البصرة وتكلموا في قتل عثمان بن عفان رضي
الله عنه وبيعة علي رضي الله تعالى عنه فرد عليهم رجل من عبد القيس
فقالوا منه ومنتفوا لحيته وترامى الناس بالحجارة واضطربوا فجاء حكيم بن
جبلة إلى ابن حنيف ودعاه إلى قتالهم فأبى ثم أتى عبد الله بن الزبير إلى مدينة
الرزق ليرزق أصحابه من الطعام الذي فيها وغدا حكيم بن جبلة في سبعمائة
من عبد القيس فقاتله فقتل حكيم وسبعون رجلاً من أصحابه وروي أن ابن
جبلة قال لامرأته وكانت من الأزديين لأعملن بقومك اليوم عملاً يكونون به حديثاً
للناس فقالت له أظن قومي سيضربونك اليوم ضربة تكون حديثاً للناس فلقبه
رجل يقال له سحيم فضرب عنقه فبقي معلقاً بجلدة فاستدار رأسه فبقي مقبلاً
بوجهه على دبره وكان ذلك قبل وصول علي رضي الله عنه بجيوشه إليهم ثم

قدم عليهم وتقابل الجيشان يوم الخميس النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين للهجرة عند موضع قصر عبيد الله بن زياد ثم كانت الواقعة العظيمة المشهورة بوقعة الجمل يوم الخميس لعشر بقين من الشهر المذكور وكان أول قدومهم وقتل حكم بن جبلة قبل ذلك بأيام في هذا الشهر أيضاً وقتل بيبن الفريقين مقدار عشرة آلاف آلاف وقتل طلحة والزبير رضي الله عنهما في ذلك اليوم لكنه بغير قتال ولولا خوف الإطالة لشرحته وقال المأموني في تاريخه وقيل إن أهل المدينة علموا بيوم الجمل يوم الخميس قبل أن تغرب الشمس وفيه كان القتال وذلك أن نسرأ مر بما

61 حول المدينة ومعه شيء معلق فتأمله الناس فوقع فإذا كف فيها خاتم نقشه عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ثم إن كل من بين مكة والمدينة ممن قرب من البصرة أو بعد علموا بالوقعة مما نقلت النسور إليهم من الأيدي والأقدام قلت وذكر كشاحم في كتاب المصايد والمطارد أن العقاب ألفت كف عبد الرحمن بمكة وكذلك ذكره في كتاب المهذب في الفقه في باب الصلاة على الميت وذكر ابن الكلبي وأبو اليقظان في كتابيهما أن العقاب ألفتها باليمامة والله أعلم بالصواب 835 أبو يعقوب البويطي أبو يعقوب يوسف بن يحيى المصري البويطي صاحب الشافعي رضي الله عنه كان واسطة عقد جماعته وأظهرهم نجابة اختص به في حياته وقام مقامه في الدرس والفتوى بعد وفاته سمع الأحاديث النبوية من عبد الله بن وهب الفقيه المالكي المقدم ذكره ومن الإمام الشافعي وروى عنه أبو إسماعيل الترمذي وإبراهيم بن إسحاق الحربي والقاسم بن المغيرة الجوهري وأحمد بن منصور الرمادي وغيرهم وكان قد حمل في أيام الواثق بالله من مصر إلى بغداد في مدة المحنة وأريد على القول بخلق القرآن

62 الكريم فامتنع من الإجابة إلى ذلك فحبس ببغداد ولم يزل في السجن والقيد حتى مات وكان صالحاً متنسكاً عابداً زاهداً قال الربيع بن سليمان رأيت البويطي على بغل في عنقه غل وفي رجليه قيد وبين الغل والقيد سلسلة من حديد فيها طوبة وزنها أربعون رطلاً وهو يقول إنما خلق الله سبحانه الخلق بكن فإذا كانت كن مخلوقة فكأن مخلوقاً خلق مخلوقاً فوالله لأموتن في حديدي حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه مات في هذا الشأن قوم في حديدهم ولئن أدخلت عليه لأصدقنه يعني الواثق وقال ابو عمر ابن عبد البر الحافظ في كتاب الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء إن ابن ابي الليث الحنفي قاضي مصر كان يحسده ويعاديه فأخرجه في وقت المحنة في القرآن العظيم فيمن أخرج من

مصر إلى بغداد ولم يخرج من اصحاب الشافعي غيره وحمل إلى بغداد وحبس فلم يجب إلى ما دعي إليه في القرآن وقال هو كلام الله غير مخلوق وحبس ومات في السجن وقال الشيخ ابو إسحاق الشيرازي في كتاب طبقات الفقهاء كان ابو يعقوب البويطي إذا سمع المؤذن وهو في السجن يوم الجمعة اغتسل ولبس ثيابه ومشى حتى يبلغ باب السجن فيقول له السجن أين تريد فيقول اجيب داعي الله فيقول ارجع عافاك الله فيقول أبو يعقوب اللهم إنك تعلم أنني قد أجبته داعيك فمنعوني وقال أبو الوليد بن أبي الجارود كان البويطي جاري فما كنت أنتبه ساعة من الليل إلا سمعته يقرأ ويصلي وقال الربيع كان ابو يعقوب أبداً يحرك شفثيه بذكر الله تعالى وما

63 رأيت أحداً أنزع بحجة من كتاب الله تعالى من أبي يعقوب البويطي وقال الربيع أيضاً كان لأبي يعقوب منزلة من الشافعي وكان الرجل ربما يسأله عن المسألة فيقول له سل ابا يعقوب فإذا أجابه أخبره فيقول هو كما قال وقال ايضاً ربما جاء رسول صاحب الشرطة إلى الشافعي فيوجه أبا يعقوب البويطي ويقول هذا لساني وقال الخطيب البغدادي في تاريخه لما مرض الشافعي مرضه الذي مات فيه جاء محمد بن عبد الحكم ينازع البويطي في مجلس الشافعي فقال البويطي أنا احق به منك وقال ابن عبد الحكم أنا احق بمجلسه منك فجاء ابو بكر الحميدي وكان في تلك الأيام بمصر فقال قال الشافعي ليس أحد احق بمجلسي من يوسف بن يحيى وليس أحد من اصحابي أعلم منه فقال له ابن عبد الحكم كذبت فقال الحميدي كذبت أنت وكذب أبوك وكذبت أمك وغضب ابن عبد الحكم فترك مجلس الشافعي وتقدم فجلس في الطاق وترك طاقاً بين مجلس الشافعي ومجلسه وجلس البويطي في مجلس الشافعي في الطاق الذي كان يجلس فيه وقال أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم رأيت ابي في المنام فقال لي يا بني عليك بكتاب البويطي فليس في الكتب أقل خطأ منه وقال الربيع بن سليمان كنت عند الشافعي أنا والمزني وأبو يعقوب البويطي فنظر إلينا فقال لي أنت تموت في الحديث وقال للمزني هذا لو ناظره الشيطان قطعه أو جدله وقال للبويطي أنت تموت في الحديد قال الربيع فدخلت على البويطي أيام المحنة فرأيتة مقيداً إلى أنصاف ساقيه مغلولة يداه إلى عنقه وقال الربيع ايضاً كتب إلي أبو يعقوب من السجن إنه ليأتي علي أوقات لا أحس بالحديد أنه على بدني حتى تمسه يدي فاذا قرأت كتابي

64 هذا فأحسن خلقك مع أهل حلقك واستوص بالغرباء خاصة خيراً فكثيراً ما كنت أسمع الشافعي رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت (أهين لهم

نفسى لأكرمها بهم * ولن تكرم النفس التي لا تهينها) وأخباره كثيرة وتوفي يوم الجمعة قبل الصلاة في رجب سنة إحدى وثلاثين ومائتين في القيد والسجن ببغداد وقيل إنه توفي سنة اثنتين وثلاثين والأول أصح رحمه الله تعالى وقال ابن القراب في تاريخه توفي يوم الثلاثاء في رجب والله أعلم والبويطي بضم الباء الموحدة وفتح الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها طاء مهملة هذه النسبة إلى بويط وهي قرية من أعمال الصعيد الأدنى من ديار مصر ويوسف فيه ست لغات ضم السين وفتحها وكسرها مع الواو وضم السين وفتحها وكسرها مع الهمزة عوض الواو فالمجموع ست لغات والياء أوله مضمومة في اللغات الست وسيأتي نظيره في يونس

65 أبو القاسم ابن كج القاضي ابو القاسم يوسف بن احمد بن يوسف بن كج الكجي الدينوري كان أحد أئمة الشافعية صحب ابا الحسين ابن القطان وحضر مجلس ابي القاسم عبد العزيز الداركي وجمع بين رياسة العلم والدنيا وارتحل الناس إليه من الآفاق للاشتغال عليه بالدينور رغبة في علمه وجودة نظره وله وجه في مذهب الشافعي رضي الله عنه وصنف كتباً كثيرة انتفع بها الفقهاء قال أبو سعد ابن السمعاني لما انصرف أبو علي الحسين بن شعيب السنجي من عند الشيخ أبي حامد الإسفرايني اجتاز به فرأى علمه وفضله فقال له يا أستاذ الاسم لأبي حامد والعلم لك فقال ذاك رفعته ببغداد وحطتني الدينور وتولى القضاء ببلده وكانت له نعمة كثيرة وقتله العيارون بالدينور في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة خمس وأربعمائة رحمه الله تعالى وكج بكاف مفتوحة وجيم مشددة وقد تقدم الكلام على الدينور فأغنى عن الإعادة والكجي نسبة إلى جده المذكور

66 ابن عبد البر ابو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما روى بقرطبة عن أبي القاسم خلف بن القاسم الحافظ وعبد الوارث بن سفيان وسعيد نصر وابي محمد ابن عبد المؤمن وأبي عمر الباجي وأبي عمر الظلمنكي وأبي الوليد ابن الفرضي وغيرهم وكتب إليه من أهل المشرق أبو القاسم السقطي المكي وعبد الغني بن سعيد الحافظ وأبو ذر الهروي وابو محمد ابن النحاس المصري وغيرهم قال القاضي أبو علي ابن سكرة سمعت شيخنا القاضي أبا الوليد الباجي يقول لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر ابن عبد البر في الحديث وقال الباجي أيضاً أبو عمر أحفظ أهل المغرب وقال أبو علي الحسين بن أحمد بن محمد الغساني الأندلسي الجياني المقدم ذكره ابن عبد البر شيخنا

من أهل قرطبة بها طلب الفقه ولزم أبا عمر أحمد بن عبد الملك بن هاشم الفقيه الإشبيلي وكتب بين يديه ولزم أبا الوليد ابن الفرضي الحافظ وعنه أخذ كثيراً من علم الحديث ودأب في

67 طلب العلم وافتن به وبرع براعة فاق فيها من تقدمه من رجال الأندلس وألف في الموطأ كتباً مفيدة منها كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ورتبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم وهو كتاب لم يتقدمه أحد إلى مثله وهو سبعون جزءاً قال أبو محمد ابن حزم لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله فكيف أحسن منه ثم صنع كتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار شرح فيه الموطأ على وجهه ونسق أبوابه وجمع في أسماء الصحابة رضي الله عنهم كتاباً جليلاً مفيداً سماه الاستيعاب وله كتاب جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله وكتاب الدرر في اختصار المغازي والسير وكتاب العقل والعقلاء وما جاء في أوصافهم وله كتاب صغير في قبائل العرب وأنسابهم وغير ذلك من توافيه وكان موفقاً في التأليف معاناً عليه ونفع الله به وكان مع تقدمه في علم الأثر وبصره بالفقه ومعاني الحديث له بسطة كبيرة في علم النسب وفارق قرطبة وجال في غرب الأندلس مدة ثم تحول إلى شرق الأندلس وسكن دانية من بلادها وبلنسية وشاطبة في أوقات مختلفة وتولى قضاء الأشبونة وشنترين في أيام ملكها المظفر بن الأفطس وصنف كتاب بهجة المجالس وأنس المجالس في ثلاثة أسفار جمع فيه أشياء مستحسنة تصلح للمذاكرة والمحاضرة من ذلك أن النبي رأى في منامه أنه دخل الجنة ورأى فيها عذقاً مدلى فأعجبه وقال لمن هذا فقيل لأبي جهل فشق ذلك عليه وقال ما لأبي جهل والجنة والله لا يدخلها أبداً فإنها لا تدخلها

68 إلا نفس مؤمنة فلما أتاه عكرمة بن أبي جهل مسلماً فرح به وقام إليه وتأول ذلك العذق عكرمة ابنه ومنه أيضاً أنه قيل لجعفر بن محمد يعني الصادق كم تتأخر الرؤيا قال رأى النبي كأن كلباً أبقع بلغ في دمه فكان شمر ابن ذي الجوشن قاتل الحسين بن علي رضي الله عنه وكان أبرص فكان تأخير الرؤيا بعد خمسين سنة ومن ذلك أيضاً أن النبي رأى رؤيا فقصها على أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال يا أبا بكر رأيت كأنني أنا وأنت نرقي درجة فسبقتك بمرقاتين ونصف فقال يا رسول الله يقبضك الله تعالى إلى رحمته ومغفرته وأعيش بعدك سنتين ونصفاً ومن ذلك أن بعض أهل الشام قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه رأيت كأن الشمس والقمر اقتتلا ومع كل

واحد منهما فريق من النجوم قال مع أيهما كنت قال مع القمر قال مع الآية
المحوة لا عملت لي عملاً أبداً فعزله وقتل مع معاوية بن أبي سفيان بصفين
وقالت عائشة رضي الله عنها رأيت كأن ثلاثة أقمار سقطن في حجري فقال
لها أبوها أبو بكر الصديق رضي الله عنه إن صدقت رؤياك دفن في بيتك
ثلاثة من خير أهل الأرض فلما دفن النبي في بيتها قال لها أبو بكر هذا أحد
أقمارك وهو خيرها ومنه أيضاً أن أعرابياً وقيل هو الحطيئة الشاعر أراد
سفرأ فقال لامرأته (عدي السنين لغيبتي وتصبري * وذري الشهور فإنهم
قصار) فأجابته (اذكر صبايتنا إليك وشوقنا * وارحم بناتك إنهن صغار)
فأقام وترك سفره

69 وقال الهيثم بن عدي قال لي صالح بن حيان من أفقه الشعراء فقلت
اختلف في ذلك فقال أفقه الشعراء وضاح اليمن حيث يقول (إذا قلت هاتي
نوليني تبسمت * وقالت معاذ الله من فعل ما حرم) (فما نولت حتى
تضرعت عندها * وأعلمتها ما أرخص الله في اللحم) ومنه أيضاً قيل لأسلم
بن زرعة إن انهزمت من أصحاب مرداس غضب عليك الأمير عبيد الله بن
زياد فقال لأن يغضب علي وأنا حي خير من أن يرضى عني وأنا ميت ومنه
أيضاً سب أعرابي أعرابياً فسكت فقيل له لم سكت عنه فقال ليس لي علم
بمساويه وكرهت أن ابهته بما ليس فيه (ثالبي عمرو وثالبتة * قد أثم
المثلوب والثالب) قلت له خيراً وقال الخنا * كل على صاحبه كاذب) وقال
علي بن الحسين رضي الله عنهما إذا قال فيك رجل ما لا يعلم من الخير أو شك
أن يقول فيك ما لا يعلم من الشر ومنه أيضاً ذكر المغيرة بن شعبة عمر بن
الخطاب رضي الله عنه فقال كان والله أفضل من أن يخدع وأقل من أن
يخدع ومنه أيضاً روي أنه لما أهبط الله تعالى آدم عليه السلام إلى الأرض
أتاه جبريل عليه السلام فقال يا آدم إن الله عز وجل قد أحضرك ثلاث خصال
لتختار منهن واحدة وتتخلى عن ثنتين قال وما هن قال الحياء والدين والعقل
قال آدم إني قد اخترت العقل فقال جبريل للحياء والدين ارتفعا فقد اختار العقل
قالا لا لا نرتفع قال ولم أعصيتما قال لا ولكن أمرنا أن لا نفارق العقل حيث
كان

70 وقال عبد الملك بن عبد الحميد من أبيات (الماء في دار عثمان له
ثمن * والخبز فيها له شأن من الشأن) (عثمان يعلم أن الحمد ذو ثمن * لكنه
يشتهي حمداً بمجان) (والناس أكيس من أن يحمدوا أحداً * حتى يروا عنده
آثار إحسان) ومن كتاب بهجة المجالس أيضاً قال الرياشي خرج الناس

بالبصرة ينظرون هلال شهر رمضان فرآه رجل واحد منهم ولم يزل يومئذ
إليه حتى رآه معه غيره وعابنوه فلما كان هلال الفطر جاز الجمار صاحب
النوادر إلى ذلك الرجل فدق عليه الباب فقال قم أخرجنا مما أدخلتنا فيه (376)
(قلت وهذا الجمار هو أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حماد بن عطاء ابن
ريان مولى ابي بكر الصديق رضي الله عنه وهو ابن أخت سلم الخاسر قال
السمعاني في حقه كان خبيث اللسان حسن النادرة وكان أكبر من أبي نواس
وقيل في نسبه غير ذلك والجمار لقبه وهو بفتح الجيم وتشديد الميم وبعد الألف
زاي فمن نوادره أنه قال أصبحت في يوم مطير فقالت لي امرأتي أي شيء
يطيب في هذا اليوم فقلت لها الطلاق فسكتت عني ودخل عليه يوماً بعض
إخوانه وقد طبخ وغرف الطعام فقال الداخل سبحان الله ما أعجب أسباب
الرزق فقال الجمار الحرمان والله أعجب منه امرأته طالق إن ذقته وقال له
السروي الشاعر ولدت امرأتي البارحة ولداً كأنه دينار منقوش فقال له الجمار
لا عن أمه وللجمار شعر أيضاً ذكره في كتاب الورقة فمن ذلك ما كتبه إلى
صاحب له وكان يلزم الجامع ثم انقطع عنه (هجرت المسجد الجامع والهجر
له ريبه)

71 (فلا نافلة تأتي * ولا تشهد مكتوبه) (وأخبارك تأتينا * على
الأعلام منصوبه) (فإن زدت من الغيبة زدناك من الغيبة) ومنه أيضاً قال
أردشير احذروا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع واعلموا أن الكرام أصبر
نفوساً واللئام أصبر أجساماً قلت هذا كله نقلته من بهجة المجالس وفيه كفاية
فلا حاجة إلى الإطالة وتوفي الحافظ أبو عمر المذكور يوم الجمعة آخر يوم
من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وأربعمائة بمدينة شاطبة من شرق
الأندلس وقال صاحبه أبو الحسن طاهر بن مفوز المعافري وهو الذي صلى
عليه سمعت أبا عمر ابن عبد البر يقول ولدت يوم الجمعة والإمام يخطب
لخمس بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وثلثمائة رحمه الله تعالى
وقد تقدم في ترجمة الخطيب أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الحافظ
أنه كان حافظ الشرق وابن عبد البر حافظ الغرب وماتا في سنة واحدة وهما
إمامان في هذا الفن والنمري بفتح النون والميم وبعدها راء هذه النسبة إلى
النمر بن قاسط بفتح النون وكسر الميم وإنما تفتح الميم في النسبة خاصة وهي
قبيلة كبيرة مشهورة وقد تقدم الكلام على القرطبي وشاطبة فأغنى عن الإعادة
وذكر أبو عمر المذكور أن والده أبا محمد عبد الله بن محمد بن عبد البر توفي
في شهر ربيع الآخر سنة ثمانين وثلثمائة ومولده سنة ثلاثين وثلثمائة رحمه

الله تعالى (377) وكان ولده ابو محمد عبد الله بن يوسف من أهل الأدب
البارع

72 والبلاغة وله رسائل وشعر فمن شعره قوله (لا تكثرن تأملا *
واحبس عليك عنان طرفك) (فلربما أرسلته * فرماك في ميدان حتفك) قيل
إنه مات سنة ثمان وخمسين وأربعمائة 838 ابو محمد يوسف بن الحسن
السيرافي أبو محمد يوسف بن أبي الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي
النحوي اللغوي الإخباري الفاضل ابن الفاضل قد تقدم ذكر أبيه الحسن في
حرف الحاء كان أبو محمد المذكور عالماً بالنحو وتصدر في مجلس أبيه بعد
موته في التاريخ المذكور في ترجمته وخلفه على ما كان عليه وقد كان يفيد
الطلبة في حياة أبيه وأكمل كتاب ابنه الذي سماه الإقناع وهو كتاب جليل نافع
في بابيه فإن أباه كان قد شرح كتاب سيبويه كما تقدم في ترجمته وظهر له
بالاطلاع والبحث في حال التصنيف ما لم يظهر لغيره ممن يعاني هذا الشأن
وصنف بعد ذلك الإقناع فكانه ثمرة استفادته حال البحث والتصنيف ومات قبل
إتمامه فكماله ولده يوسف المذكور وإذا تأمله المنصف لم يجد بين اللفظين
والقصدتين تفاوتاً كثيراً ثم صنف يوسف المذكور عدة كتب في شرح أبيات
استشهادات كتب مشهورة مثل شرح أبيات كتاب سيبويه وهو الغاية في بابيه
وبسطه وشرح

73 أبيات إصلاح المنطق وأجاد فيه وشرح أبيات المجاز لأبي عبيدة
وأبيات معاني الزجاج وشرح أبيات غريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام
إلى غير ذلك وكانت كتب اللغة تقرأ عليه مرة رواية ومرة دراية وقرىء عليه
كتاب البارع للمفضل بن سلمة وهو كتاب كبير في عدة مجلدات هذب به كتاب
العين في اللغة المنسوب إلى الخليل بن احمد المقدم ذكره وأضاف إليه من
اللغة طرفاً صالحاً ونقل من ظهر نسخه بكتاب إصلاح المنطق قال ابو العلاء
المعري حدثني عبد السلام البصري خازن دار العلم ببغداد وكان لي صديقاً
صدوقاً قال كنت في مجلس أبي سعيد السيرافي وبعض أصحابه يقرأ عليه
المنطق لابن السكيت فمضى بيت حميد بن ثور (ومطوية الأقراب أما نهارها
* فسبت وأما ليلها فذميل) فقال ابو سعيد ومطوية أصلحه بالخفض ثم التفت
إلينا فقال هذه واو رب فقلت أطل الله بقاء القاضي إن قبله ما يدل على الرفع
فقال وما هو فقلت (أتاك بي الله الذي أنزل الهدى * ونور وإسلام عليك دليل
(ومطوية الأقراب فعاد وأصلحه وكان ابنه أبو محمد حاضراً فتغير وجهه
لذلك فنهض لساعته ووقته والغضب يستطير في شمائله إلى دكانه وكان سماناً

فباعها واشتغل بالعلم إلى أن برع فيه وبلغ الغاية فعمل شرح إصلاح المنطق قال ابو العلاء وحدثني من رآه وبين يديه أربعمائة ديوان وهو يعمل هذا الكتاب ولم يزل أمره على سداد واشتغال وإفادة إلى أن توفي ليلة الأربعاء ثلاث

74 بقين من شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وثلثمائة وعمره خمس وخمسون سنة وشهور ودفن من الغد وصلى عليه أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي ذكر ذلك هلال بن المحسن ابن الصابي الكاتب في تاريخه وقال غيره مولده في سنة ثلاثين وثلثمائة وتوفي يوم الاثنين لثلاث بقين من الشهر المذكور والله أعلم رحمه الله تعالى وكان ديناً صالحاً ورعاً متقشفاً وكان بينه وبين أبي طالب أحمد بن بكر العبدي النحوي المقدم ذكره مباحث ومناظرات منقولة بين الناس وليس هذا موضع ذكرها وقد تقدم الكلام في ترجمة أبيه على السيرافي فلا حاجة إلى إعادته ها هنا وقال ابن حوقل في كتاب المسالك والممالك سيراف فرضة عظيمة لفارس وهي مدينة جليلة أبنيها ساج متصل إلى جبل يطل على البحر وليس بها ماء ولا زرع ولا ضرع وهي من أغنى بلاد فارس بالقرب من جنابة ونجيرم والله أعلم ومن سيراف ينتهي الإنسان على ساحل البحر إلى حصن ابن عمارة وهو حصن منيع على نحر البحر وليس بجميع فارس حصن أمنع منه ويقال إن صاحبه هو الذي قال الله تعالى في حقه (^ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) الكهف 79 وقال غير ابن حوقل كان اسم هذا الملك الجلندي بضم الجيم واللام وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها ألف وإليه أشار بعضهم يخاطب بعض الظلمة (كان الجلندي ظالماً * وأنت منه أظلم) وقيل غير ذلك والله أعلم

75 يوسف النجيرمي ابو يعقوب يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن خرزاذ النجيرمي اللغوي البصري نزيل مصر هو من أهل بيت فيه جماعة من الفضلاء الأدباء ما منهم إلا من هو ماهر في اللغة كامل الأدوات متقن لها روى ابو يعقوب المذكور عن أبي يحيى زكريا بن يحيى بن خلاد الساجي وطبقته وروى عنه أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي وغيره وكان يوسف أمثل أهل بيته وله خط ليس بالجيد في الصورة وهو في غاية الصحة وكذلك خطوط جماعته قريبة منه ولأهل مصر رغبة وتنافس كثير في خطه حتى بلغت نسخة من ديوان جرير بخطه عشرة دنائير وأكثر ما تروى الكتب القديمة في اللغة والأشعار العربية وأيام العرب في الديار المصرية من طريقه فإنه كان راوية لها عارفاً بها وكان أهل بيته يرتزقون بمصر من التجارة في

الخشب وكان أبو عبد الله محمد بن بركات بن هلال السعدي النحوي المصري قد أخذ اللغة من أصحاب أبي يعقوب المذكور وأدرك أبا يعقوب ولم يأخذ عنه شيئاً لأنه رآه وهو صبي قال الموفق أبو الحجاج يوسف بن الخلال المصري كاتب الإنشاء الآتي ذكره إن شاء الله تعالى قال لي ابن بركات

76 رأيت أبا يعقوب وهو ماش في طريق القرافة وهو شيخ أسمر اللون كث اللحية مدور العمامة بيده كتاب وهو يطالع فيه في مشيته وهذا الذي ذكره ابن بركات فيه نظر فان الحافظ أبا إسحاق إبراهيم بن سعيد بن عبد الله المعروف بالحبال ذكره في كتاب الوفيات الذي جمعه فقال توفي أبو يعقوب بن خرزاد النجيري يوم الثلاثاء رابع المحرم سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة وقال غيره ولد أبو يعقوب يوسف النجيري يوم عرفة من سنة خمس وأربعين وثلثمائة رحمه الله تعالى وابن بركات المذكور ولد بمصر في سنة عشرين وأربعمائة وتوفي بها في سنة عشرين وخمسمائة وكان نحوي مصر هكذا قاله الموفق ابن الخلال المذكور فكيف يمكن أن يرى أبا يعقوب وقد كان ابن بركات في تاريخ وفاة النجيري في السنة الثالثة من عمره لكن لعله رأى ولده والله أعلم وقال القاضي الفاضل ليس في شعر ابن بركات المذكور أحسن من هذين البيتين وعملهما في مسافر العطار (يا عنق الإبريق من فضة * ويا قوام الغصن الرطب) (هبك تجافيت فأقصيتني * تقدر أن تخرج من قلبي) وكان ابن بركات قد أخذ النحو عن ابن بابشاذ النحوي المقدم ذكره في حرف الطاء وذكره القاضي الرشيد بن الزبير في كتاب الجنان وأثنى عليه وخرزاد بضم الخاء المعجمة والراء المشددة وبعدها زاي وبعده الألف ذال معجمة قلت هكذا يضبط أهل الحديث هذا الاسم وهو لفظ أعجمي وتفسير زاد بالعربي ابن وأما خر بتشديد الراء فليس له معنى

77 إلا أن يكون أهل العربية قد غيروه كما جرت عادتهم في ذلك فيكون أصله خار بالألف وهو الشوك فيكون خارزاد معناه ابن الشوك وخرشيد أيضاً الشمس فان كانوا أرادوا هذا وحذفوا شيد فيحتمل وعلى الجملة فانهم يتلاعبون بالأسماء العجمية والله أعلم بالصواب ثم وجدت في كتاب البلدان تأليف البلاذري في الفصل المتضمن حديث بلاد فارس وأعمالها أرض أردشير خره ثم قال ومعنى أردشير خره ولد أردشير بها قلت وأردشير بن بابك بن ساسان أول ملوك الفرس كما هو مشهور بين الناس وعلى هذا يكون معنى خرزاد بها ولد كما هو عادتهم في التقديم والتأخير وتقدير الكلام ولد بها أي بالناحية أو غير ذلك والله أعلم والنجيري بفتح النون وكسر الجيم وسكون الياء المثناة

من تحتها وفتح الرء وفي آخرها ميم هذه النسبة إلى نجيرم ويقال نجارم قال أبو سعد السمعاني في كتاب الأنساب هي محلة بالبصرة وقال غيره هي قرية في بر البصرة في طريق فارس عند سيراف والله أعلم بالصواب وكذا هي في كتب المسالك والممالك وهي على بحر فارس وظاهر الحال أن جماعة من أهلها دخلوا البصرة وسكنوا هذا المحلة فسميت باسم بلدهم والله أعلم

78 يوسف بن وهرة الهمذاني يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسين بن وهرة ابو يعقوب الهمذاني الفقيه العالم الزاهد الجليل الرباني صاحب المقامات والكرامات قدم بغداد في صباه بعد الستين وأربعمائة ولازم الشيخ إبا إسحاق الشيرازي المقدم ذكره وتفقه عليه حتى برع في أصول الفقه والمذهب والخلاف وسمع الحديث من القاضي أبي الحسين محمد بن علي ابن المهدي بالله وأبي الغنائم عبد الصمد بن علي بن المأمون وأبي جعفر محمد بن أحمد بن المسلمة وطبقتهم وسمع بأصبهان وسمرقند وكتب أكثر ما سمعه ثم زهد في ذلك ورفضه واشتغل بالزهد والعبادة والرياضة والمجاهدة حتى صار علماً من أعلام الدين يهتدي به الخلق إلى الله تعالى وقدم بغداد في سنة خمس عشرة وخمسائة وحدث بها وعقد بها مجلس الوعظ بالمدرسة النظامية وصادف بها قبولاً عظيماً من الناس قال أبو الفضل صافي بن عبد الله الصوفي الشيخ الصالح حضرت مجلس شيخنا يوسف الهمذاني في النظامية وكان قد اجتمع العالم فقام فقيه يعرف بابن السقاء وآذاه وسأله عن مسألة فقال له الإمام يوسف اجلس فإني أجد من كلامك رائحة الكفر ولعلك تموت على غير دين الإسلام قال أبو الفضل

79 فاتفق أنه بعد هذا القول بمدة قدم رسول نصراني من ملك الروم إلى الخليفة فمضى إليه ابن السقاء وسأله أن يستصحبه وقال له يقع لي أن أترك دين الإسلام وادخل في دينكم فقبله النصراني وخرج معه إلى القسطنطينية والتحق بملك الروم وتنصر ومات على النصرانية قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي في تاريخ بغداد في ترجمة يوسف الهمذاني المذكور سمعت أبا الكرم عبد السلام بن أحمد المقرئ يقول كان ابن السقاء قارئاً للقرآن الكريم مجوداً في تلاوته حدثني من رآه بالقسطنطينية ملقى على دكة مريضاً وبيده خلق مروحة يدفع بها الذباب عن وجهه قال فسألته هل القرآن باق على حفظك فقال ما اذكر منه إلا آية واحدة (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) الحجر 2 والباقي أنسيته نعوذ بالله من سوء القضاء وزوال نعمته وحلول نقمته ونسأله الثبات على دين الإسلام

أمين أمين أمين قال أبو سعد ابن السمعاني يوسف بن أيوب الهمذاني من أهل بوزنجر قرية من قرى همذان مما يلي الري الإمام الورع التقي المنتسك العامل بعلمه والقائم بحقه صاحب الأحوال والمقامات الجليلة وإليه انتهت تربية المريدين الصادقين واجتمع برباطه بمدينة مرو جماعة من المنقطعين إلى الله تعالى ما لا يتصور أن يكون في غيره من الربط مثلهم وكان من صغره إلى كبره على طريقة مرضية وسداد واستقامة خرج من قريته إلى بغداد وقصد الإمام ابا إسحاق الشيرازي وتفقه عليه ولازمه مدة مقامه ببغداد حتى برع في الفقه وفاق أقرانه خصوصاً في علم النظر وكان الشيرازي يقدمه على جماعة كثيرة من اصحابه مع صغر سنه لعلمه بزهده وحسن سيرته واشتغاله بما يعنيه ثم ترك كل ما كان فيه من المناظرة وخلا بنفسه واشتغل بما هو الأهم من عبادة الله تعالى ودعوة الخلق إليها وإرشاد الأصحاب

80 إلى الطريق المستقيم نزل مرو وسكنها وخرج إلى هراة وأقام بها مدة ثم سئل الرجوع إلى مرو في آخر عمره فأجاب ورجع إليها وخرج إلى هراة ثانياً وعزم على الرجوع إلى مرو في آخر عمره وخرج منها متوجهاً إلى مرو فأدركته منيته بباميين بين هراة وبغشور في شهر ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وخمسائة ودفن ثم نقل بعد ذلك إلى مرو وكان مولده تقديراً لا تحقيقاً في سنة اربعين أو إحدى وأربعين وأربعمئة ببوزنجر رحمه الله تعالى قلت هذا كله نقلته من تاريخ ابن النجار المذكور مقتضياً وفيه الفاظ تحتاج إلى إيضاح أما وهرة فهو بفتح الواو والهاء والراء وفي آخره هاء ثانية وهو اسم جده المذكور ولا أعرف معناه بالعربي والقسطنطينية بضم القاف وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وسكون النون وكسر الطاء الثانية وسكون الياء المثناة من تحتها وكسر النون وفتح الياء الثانية وفي آخرها هاء ساكنة وهي أعظم مدائن الروم بناها قسطنطين ملك الروم وهو أول من تنصر من ملوك الروم فنسبت المدينة إليه وأما بوزنجر فهو بضم الباء الموحدة وسكون الواو وفتح الزاي والنون وكسر الجيم وسكون الراء وبعدها دال مهملة وهي قرية من قرى همذان على مرحلة منها مما يلي ساوة كذا قال أبو سعد السمعاني في كتاب الأنساب وأما مرو فقد تقدم الكلام عليها وأما باميين بالباء الموحدة وبعده الألف ميم مفتوحة ثم ياء مثناة من تحتها مكسورة وبعدها ياء ثانية ساكنة ثم نون فهي بليدة بخراسان كما ذكرها

81 وهراة قد تقدم الكلام عليها وأنها إحدى كراسي خراسان فإنها أربعة نيسابور وهراة ومرو وبلخ وبغشور بفتح الباء الموحدة وسكون الغين

المعجمة وضم الشين المعجمة وبعد الواو الساكنة راء وهي بليدة بخراسان أيضاً بين مرو وهراة وقد تقدم في ترجمة الحسين بن مسعود الفراء الفقيه البغوي أنه منسوب إليها 841 اعلم الشنتمري أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي المعروف بالأعلم من أهل شنتمرية الغرب رحل إلى قرطبة في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وأقام بها مدة وأخذ عن أبي القاسم إبراهيم بن محمد بن زكرياء الإفليلي وأبي سهل الحراني وأبي بكر مسلم بن أحمد الأديب وكان عالماً بالعربية واللغة ومعاني الأشعار حافظاً لجميعها كثير العناية بها حسن الضبط لها مشهوراً بمعرفتها وإتقانها أخذ الناس عنه كثيراً وكانت الرحلة في وقته إليه وقد أخذ عنه أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد الغساني الجياني المقدم ذكره وغيره وكف بصره في آخر عمره وشرح كتاب الجمل في النحو لأبي القاسم الزجاجي وشرح أبيات الجمل في كتاب مفرد وساعد شيخه ابن الإفليلي المذكور على شرح ديوان المتنبي وغالب ظني أنه شرح الحماسة فقد

82 كان عندي شرح الحماسة للشنتمري في خمس مجلدات وقد غاب عني الآن من كان مصنفه وأظنه هو والله أعلم وقد أجاد فيه وتوفي سنة ست وسبعين وأربعمائة بمدينة إشبيلية من جزيرة الأندلس وكانت ولادته في سنة عشر وأربعمائة رحمه الله تعالى وذكر أبو الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني الإشبيلي خطيب جامعها قال مات أبي أبو عبد الله محمد بن شريح يوم الجمعة منتصف شوال سنة ست وسبعين وأربعمائة فسرت إلى الشيخ الأستاذ أبي الحجاج الأعلم فأعلمته بوفاته فانها كانا كالأخوين محبة ووداداً فلما أعلمته انتحب وبكى كثيراً واسترجع ثم قال لا أعيش بعده إلا شهراً فكان كذلك ورأيت بخط الرجل الصالح العالم محمد بن خير المقرئ الأندلسي رحمه الله تعالى أن أبا الحجاج المذكور إنما قيل له الأعلم لأنه كان مشقوق الشفة العليا شقاً فاحشاً قلت ومن كان مشقوق الشفة العليا يقال له أعلم والفعل الماضي منه علم بكسر اللام يعلم بفتحها علماً بفتحها أيضاً والمرأة علماء إذا كانت كذلك فإن كان مشقوق الشفة السفلى يقال له أفلح بالفاء والحاء المهملة والفعل منه كما تقدم في الأعلم يقال فلح بكسر اللام يفلح فلحاً بفتحها فيهما وهذه القاعدة مطردة في العيوب والعاهات كلها أن تكون عين الفعل الماضي مكسورة وفي المضارع والمصدر مفتوحة تقول خرس يخرس خرساً وبرص يبرص برصاً وعمى وعمى وعمى وكذلك جميعه واسم الفاعل منه على أفعل مثل أخرس وأبرص وأعمى وكذلك أعلم وافلح (378) وكان أبو يزيد سهيل

بن عمرو القرشي العامري رضي الله عنه أعلم فلما أسر يوم بدر قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله دعني أنزع ثنيتك فلا يقوم عليك خطيباً أبداً قال دعه فعسى أن يقوم مقاماً تحمده وكان سهيل من الخطباء الفصحاء

83 البلغاء وهو الذي جاء في صلح الحديبية وعلى يده انبرم الصلح ثم إنه أسلم وحسن إسلامه والمقام الذي وعد به لسهيل هو أنه لما قبض كان سهيل بمكة فارتدت جماعة من العرب وحصل عندهم اختلاف فقام سهيل خطيباً وسكن الناس ومنعهم من الاختلاف فكان هذا هو المقام المحمود وقول عمر رضي الله عنه دعني أنزع ثنيتك فلا يقوم عليك خطيباً أبداً فإنما قال ذلك لأنه إذا كان مشقوق الشفة العليا ونزعت ثنيتك تعذر عليه الكلام إلا بمشقة وكلفة فهذا الذي قصده عمر رضي الله عنه وكان عنتر بن شداد العبسي الفارس المشهور أفصح فكان يقال له الفلحاء لفحة كانت به وإنما ذهبوا به إلى تأنيث الشفة والله أعلم وشنتمرية بفتح الشين المعجمة وسكون النون وفتح التاء المثناة من فوقها والميم وكسر الراء وبعدها ياء مشددة مثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة وهي مدينة بالأندلس في غربها والحديبية بضم الحاء المهملة وفتح الدال المهملة وبعدها ياء ساكنة مثناة من تحتها ثم باء موحدة مكسورة ثم ياء ثانية مفتوحة وفي آخرها هاء ساكنة وهو موضع بين مكة والمدينة كانت به بيعة الرضوان ويروى بتشديد الياء الأخيرة أيضاً

84 بهاء الدين عرف بابن شداد ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الأسدي قاضي حلب المعروف بابن شداد الملقب بهاء الدين الفقيه الشافعي توفي ابوه وهو صغير السن فنشأ عند أخواله بني شداد فنسب إليهم وكان شداد جده لأمه وكان يكنى أولاً أبا العز ثم غير كنيته وجعلها أبا المحاسن كما ذكرته ولد بالموصل ليلة العاشر من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وحفظ بها القرآن الكريم في صغره ثم قدم الشيخ أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبي المقدم ذكره إلى الموصل فلزمه وقرأ عليه بالطرق السبع وأتقن عليه فن القراءات قال أبو المحاسن المذكور في بعض تواليفه أول من أخذت عنه شيخي الحافظ صائن الدين ابو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي رحمه الله تعالى فاني لازمت القراءة عليه إحدى عشرة سنة فقرأت عليه معظم ما رواه من كتب القراءات وقراءة القرآن العظيم ورواية الحديث وشروحه والتفسير حتى كتب لي حظه شهد لي بأنه ما قرأ عليه أحد أكثر مما قرأت وعندي خطه بجميع ما قرأت عليه في قريب من

كراسين وفهرست ما رواه جميعه عندي وأنا أرويه عنه ومما يشتمل عليه
فهرست البخاري ومسلم من عدة طرق وغالب كتب

85 الحديث وغالب كتب الأدب وغيره وآخر روايتي عنه شرح الغريب
لأبي عبيد القاسم بن سلام قرأته عليه في مجالس آخرها في العشر الأخير من
شعبان سنة سبع وستين وخمسائة قلت وهي السنة التي مات فيها الشيخ
القرطبي حسبما ذكرته في ترجمته (379) ثم قال ومنهم الشيخ ابو البركات
عبد الله بن الخضر بن الحسين المعروف بابن الشيرجي سمعت عليه بعض
تفسير الثعلبي وأجازني أن أروي عنه جميع ما رواه علي اختلاف أنواع
الروايات وكتب لي خطه بذلك في فهرست سماعي مؤرخاً بخامس جمادى
الأولى سنة ست وستين وخمسائة وكان مشهوراً بعلمي الحديث والفقه ولي
قضاء البصرة ودرس بالأتابكية القديمة يعني بالموصل (380) ومنهم الشيخ
مجد الدين أبو الفضل عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطوسي
الخطيب بالموصل وهو مشهور بالرواية حتى يقصد لها من الآفاق وعاش نيافاً
وتسعين سنة قلت وكانت ولادة أبي الفضل ابن الطوسي الخطيب المذكور في
منتصف صفر سنة سبع وثمانين وأربعمائة ببغداد بباب المراتب وتوفي ليلة
الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وسبعين وخمسائة بالموصل ودفن
بمقبرة باب الميدان رحمه الله تعالى رجعنا إلى تنمة كلام أبي المحاسن ابن
شداد وسمعت عليه يعني على الخطيب المذكور كثيراً من مسموعاته وأجاز
لي جميع ما رواه في السادس والعشرين من رجب سنة ثمان وخمسين
وخمسائة ومنهم القاضي فخر الدين ابو الرضا سعيد بن عبد الله بن القاسم
الشهرزوري سمعت عليه مسند الشافعي رضي الله عنه ومسند أبي عوانة
ومسند أبي يعلى الموصلية وسنن أبي داود وكتب لي خطه بذلك وهو في
فهرستي

86 وسمعت عليه الجامع لأبي عيسى الترمذي وأجاز لي رواية ما رواه
وكتب لي خطة بذلك في شوال سنة سبع وستين وخمسائة (381) ومنهم
الحافظ مجد الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علي الأشيري
الصنهاجي أجاز لي جميع ما يرويه علي اختلاف أنواعه وفي فهرستي خطه
بذلك مؤرخاً بشهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسائة وفهرسته عندي
بذلك قلت توفي ابو محمد عبد الله الأشيري المذكور في شوال سنة إحدى
وستين وخمسائة بالشام ودفن ببعلبك رحمه الله تعالى ظاهر باب حمص
شمالى البلد ومنهم الحافظ سراج الدين ابو بكر محمد بن علي الجياني قرأت

عليه صحيح مسلم من أوله إلى آخره بالموصل والوسيط للواحد وأجاز لي رواية ما يرويه في تاريخ سنة تسع وخمسين وخمسمائة فهذه أسماء من حضر في خاطري وقد سمعت من جماعة لم يحضرنني روايتهم عند جمع هذا الكتاب كشهادة الكاتبة في بغداد وأبي المغيث في الحربية والشيخ رضي الدين القزويني المدرس بالنظامية وجماعة شذت عني طرقهم فلم أذكرهم إذ كان في هؤلاء غنية هذا آخر ما ذكره عن نفسه وقال غيره إنه قرأ الفقه على أبي البركات عبد الله ابن الشيرجي المذكور فقيه الموصل وكان عالماً زاهداً متقشفاً وتوفي في جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وخمسمائة بالموصل ودفن بظاهرها ثم اشتغل بالخلاف على الضياء ابن أبي حازم صاحب محمد بن يحيى الشهيد النيسابوري ثم باحث في الخلاف متقنني أصحابه كالفخر النوقاني والبروي والعماد النوقاني والسيف الخواري والعماد الميانجي ثم انحدر إلى بغداد بعد التأهل التام ونزل بالمدرسة النظامية وترتب فيها

87 معيداً بعد وصوله إليها بقليل وأقام معيداً نحو أربع سنين والمدرس بها يوم ذاك أبو نصر أحمد بن عبد الله بن محمد الشاشي وكانت ولاية ابن الشاشي المذكور التدريس بالنظامية في شهر ربيع الآخر من سنة ست وستين وخمسمائة وعزل عنها في سلخ شهر رجب سنة تسع وستين وتولاها بعده رضي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزويني في التاريخ المذكور وأبو المحاسن المذكور مستمر بها على الإعادة وكان رفيقه في الإعادة السديد محمد السلماسي وقد تقدم ذكره ثم اصعد إلى الموصل في سنة تسع وستين فترتب مدرساً في المدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري المقدم ذكره ولازم الاشتغال وانتفع به جماعة وله كتاب في الأفضية سماه ملجأ الحكام عند التباس الأحكام ذكر في أوائله أنه حج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وزار البيت المقدس والخليل عليه أفضل الصلاة والسلام بعد الحج والزيارة للرسول ثم دخل دمشق والسلطان صلاح الدين محاصر قلعة كوكب فذكر أنه سمع بوصول فاستدعاه إليه فظن أنه يسأله عن كيفية قتل الأمير شمس الدين ابن المقدم فإنه كان أمير الحاج في تلك السنة من جهة صلاح الدين وقتل على جبل عرفات لأمر يطول شرحه وليس هذا موضع ذكره فلما دخل عليه ذكر أنه قابله بالإكرام التام وما زاد على السؤال عن الطريق ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه فأخرج له جزءاً جمع فيه أنكار البخاري وأنه قرأه عليه بنفسه فلما خرج من عنده تبعه عماد الدين الكاتب الأصفهاني وقال له السلطان

88 يقول لك إذا عدت من الزيارة وعزمت على العود تعرفنا بذلك فلنا إليك مهم فأجابه بالسمع والطاعة فلما عاد عرفه بوصوله فاستدعاه وجمع له في تلك المدة كتاباً يشتمل على فضائل الجهاد وما أعد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين يحتوي على مقدار ثلاثين كراسة فخرج إليه واجتمع به على بقية حصن الأكراد وقدم له الكتاب الذي جمعه وقال إنه كان عزم على الإنقطاع في مشهد بظاهر الموصل إذا وصل إليها ثم إنه اتصل بخدمة صلاح الدين في مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثم ولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف ولما كنت متولي الحكم بدمشق المحروسة جاءني في بعض شهور سنة ست وستين وستمائة إسجال قد ثبت مضمونه عند القاضي أبي المحاسن المذكور وهو يومئذ قاضي العسكر الصلاحي وقد انقطع ثبوته بموت شهوده فتعذر إثباته عندي لذلك وتأملت إلى آخره لأنني استغربته فقد كان شيخنا وأخذنا عنه كثيراً وحصل الانتفاع بصحبته عدنا إلى بقية ما ذكره أبو المحاسن المذكور فقال إنه كان قد حضر إلى خدمة صلاح الدين في صحبة شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل والقاضي محيي الدين ابن الشهرزوري لما وصلا إليه في رسالة واتفق في تلك الدفعة وفاة البهاء الدمشقي المدرس كان بمصر في مدرسة منازل العز وخطيب مصر وأن صلاح الدين عرض عليه تدريس المدرسة المذكورة فلم يفعل وأنه حضر عند السلطان دفعة ثانية في رسالة من الموصل وهو على حران وكان صلاح الدين مريضاً يومئذ وذكر أنه لما توفي صلاح الدين كان حاضراً وتوجه إلى حلب لجمع كلمة الإخوة أولاد صلاح الدين وتحليف بعضهم لبعض وأن الملك الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين صاحب حلب كتب إلى أخيه الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين صاحب دمشق يطلبه منه فأجابه إلى ذلك فأرسله الظاهر إلى مصر لاستحلاف أخيه الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح

89 الدين وعرض عليه الظاهر الحكم بحلب فلم يوافق على ذلك فلما عاد من هذه الرسالة كان القاضي بحلب قد مات فعرض عليه فأجاب هكذا ذكره في كتابه ملجأ الحكام وذكر القاضي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم في تاريخه الصغير الذي سماه زبدة الحلب في تاريخ حلب ما مثاله وفي سنة إحدى وتسعين يعني وخمسمائة اتصل القاضي بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بخدمة الملك الظاهر وقدم إليه إلى حلب وولاه قضاءها ووقفها وعزل عن قضائها زين الدين ابا البيان نبا ابن

البانياسي نائب محيي الدين ابن الزكي وحل عنده بهاء الدين في رتبة الوزارة والمشاورة انتهى كلامه قلت وهذا القاضي نبا هو ابن الفضل بن سليمان الحميري يعرف بيتهم بدمشق ببيت البانياسي وكان السلطان صلاح الدين قد ولى القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن الزكي الدمشقي المقدم ذكره القضاء بحلب فاستتاب فيها زين الدين نبا ابن البانياسي المذكور واستمر بها إلى التاريخ المذكور وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة المدارس وليس بها من العلماء إلا نفر يسير فاعتنى أبو المحاسن المذكور بترتيب أمورها وجمع الفقهاء بها وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة وكان الملك الظاهر قد قرر له إقطاعاً جيداً يحصل منه جملة مستكثرة ولم يكن له خرج كثير فإنه لم يولد له ولا كان له أقارب فتوفر له شيء كثير فعمر مدرسة بالقرب من باب العراق قبالة مدرسة نور الدين محمود بن زكي رحمه الله تعالى الشافعية ورأيت تاريخ عمارتها مكتوباً على سقف مسجدها وهو الموضع المعد لإلقاء الدروس وذلك في سنة إحدى وستمئة ثم عمر في جوارها داراً للحديث النبوي وجعل بين المكانين تربة برسم دفنه فيها ولها بابان باب إلى المدرسة

90 وباب إلى دار الحديث وشباكان إلى الجهتين وهما متقابلان بحيث إن الذي يقف في أحد المكانين يرى من يكون في المكان الآخر ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدتها الفقهاء من البلاد وحصل بها الاشتغال والاستفادة وكثر الجمع بها وكان بين والدي رحمه الله تعالى وبين القاضي أبي المحاسن المذكور مؤانسة كثيرة وصحبة صحيحة المودة من زمن الاشتغال بالموصل فجئت إليه وكان أخي قد سبقني بمدة قليلة وكتب سلطان بلدنا الملك المعظم مظفر الدين ابو سعيد كوكبوري بن علي بن بكتكين رحمه الله تعالى المقدم ذكره في حرف الكاف كتاباً بليغاً في حقنا يقول فيه أنت تعلم ما يلزم من أمر هذين الولدين وأنهما ولدا أخي وولدا أخيك ولا حاجة مع هذا إلى تأكيد وصية وأطال القول في ذلك فتفضل القاضي أبو المحاسن وتلقانا بالقبول والإكرام وأحسن حسب الإمكان وعمل ما يليق بمثله وأنزلنا في مدرسته ورتب لنا أعلى الوظائف وألحقنا بالكبار مع الشبيبة في السن والابتداء في الاشتغال وقد تقدم في ترجمة الشيخ موفق الدين ابن يعيش النحوي تاريخ دخولي إلى حلب فأغنى عن الإعادة ولم نزل عنده إلى أن توفي في التاريخ الآتي ذكره ولم يكن بمدرسته في ذلك الزمان درس عام لأنه كان المدرس بنفسه وكان قد طعن في السن وضعف عن الحركة وحفظ الدروس وإلقائها فرتب أربعة من الفقهاء الفضلاء برسم الإعادة والجماعة يشتغلون عليهم

وكننت أنا وأخي نقرأ على الشيخ جمال الدين أبي بكر الماهاني لأنه كان من بلدنا ورفيق والدنا في الاشتغال عند الشيخ عماد الدين أبي حامد محمد بن يونس المقدم ذكره فمات في ثالث شوال سنة سبع وعشرين وستمائة وقد نيف على ثمانين سنة فترددت إلى الشيخ نجم الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي المعروف بابن الخباز الموصلية الفقيه

91 الإمام وهو إذ ذاك مدرس المدرسة السيفية فقرأت عليه من أول كتاب الوجيز للغزالي إلى الإقرار وعلى الجملة فقد خرجنا عما نحن بصدده بسبب اتصال الكلام وكان القاضي أبو المحاسن المذكور بيده حل الأمور وعقدها لم يكن لأحد معه في الدولة كلام وكان سلطانها الملك العزيز أبا المظفر محمد بن الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين وهو صغير السن تحت حجر الطواشي شهاب الدين أبي سعيد طغرل وهو أتابكة ومتولي تدبير الدولة بإشارة القاضي أبي المحاسن لا يخرج عنهما شيء من الأمور وكان للفقهاء في أيامه حرمة تامة ورعاية كبيرة خصوصاً جماعة مدرسته فانهم كانوا يحضرون مجالس السلطان ويفطرون في شهر رمضان على سماطه وكنا نسمع عليه الحديث وتتردد إليه في داره فقد كانت له قبة تختص به وهو شتوية لا يجلس في الصيف والشتاء إلا فيها لأن الهرم كان قد أثر فيه حتى صار كفرخ الطائر من الضعف لا يقدر على الحركة للصلاة وغيرها إلا بمشقة عظيمة وكانت النزلات تعتريه في دماغه فلا يفارق تلك القبة وفي الشتاء يكون عنده منقل كبير عليه من الفحم والنار شيء كثير ومع هذا كله فلا يزال مزكوماً وعليه الفرجية البرطاسي والثياب الكثيرة وتحت الطراحة الوثيرة فوق البسط ذوات الخمائل التخنية بحيث إنا كنا نجد عنده الحر والكرب وهو لا يشعر به لكثرة استيلاء البرودة عليه من الضعف وكان لا يخرج لصلاة الجمعة إلا في شدة القيظ وإذا قام إلى الصلاة بعد الجهد يكاد يسقط ولقد كنت أنظر إلى ساقيه إذا وقف للصلاة وكأنهما عودان رقيقان لا لحم عليهما وكان عقيب صلاة الجمعة يسمع المصلون عنده الحديث عليه وكان يعجبه ذلك وكان حسن المحاضرة جميل المذاكرة والأدب غالب عليه وكان كثيراً ما ينشد في مجالسه (إن السلامة من ليلى وجارتها * أن لا تمر على حال بناديها)

92 وكان يتمثل أيضاً كثيراً بقول صردر الشاعر المقدم ذكره في حرف العين وهذا البيت من جملة قصيدة طويلة وهو (وعهودهم بالرمل قد نقضت * وكذاك ما يبني على الرمل) فأنشده في بعض الأيام فقال له بعض أصحابنا الحاضرين يا مولانا قد استعمل ابن المعلم العراقي هذا المعنى استعمالاً مليحاً

فقال ابن المعلم هو أبو الغنائم فقال نعم فقال صاحبنا كان كيف قال فأنشده (نقضوا العهود وحق ما بينى على * رمل اللوى بيد الهوى أن ينقضا) فقال ما أقصر ولقد تلتف في قوله بيد الهوى فقال له يا مولانا وقد استعمله في قصيدة أخرى فقال هات فأنشده (ولم يبن على الرمل * فكيف انتقض العهد) فاستحسنه وكان كثيراً ما ينشد أبيات أبي الفوارس سعد بن محمد المعروف بحيص بيص المقدم ذكره وكان يقول إنه سمعها منه ويرونها عنه وقد تقدم ذكرها في ترجمة الحيص بيص فأغنى عن الإعادة وأولها (لا تضع من عظيم قدر وإن كنت مشاراً إليه بالتعظيم) وكان يقول أنشدني القاضي الفاضل لبعضهم ونحن نزول على قلعة صفد (قلت للنزلة لما * أن المت بلهاتي) (بحياتي خل حلقي * فهو دهليز حياتي) قلت هذان البيتان منسوبان إلى ابن الهبارية المقدم ذكره والله أعلم

93 وكان كلما نظر إلى نفسه على تلك الحال من الضعف والعجز عن القيام والقعود والصلاة وسائر الحركات ينشد (من يتمن العمر فليدرع * صبراً على فقد أحبائه) (ومن يعمر ير في نفسه * ما يتمناه لأعدائه) ثم وجدت هذين البيتين للظهير أبي إسحاق إبراهيم بن نصر بن عسكر قاضي السلامية المقدم ذكره في هذا الكتاب والله أعلم ذكر ذلك صاحبنا الكمال ابن الشعار الموصلي في كتابه عقود الجمان في ترجمة الظهير المذكور وهذا ينظر إلى قول أبي العلاء المعري (تدعو بطول العمر أفواهنا * لمن تناهى القلب في وده) (يسر إن مد بقاء له * وكل ما يكره في مده) والأصل في هذا قول لبيد بن ربيعة العامري (كانت قناتي لا تلين لغامز * فألأنها الإصباح والإمساء) (ودعوت ربي بالسلامة جاهداً * ليصحني فإذا السلامة داء) ودخل عليه يوماً رجل من أهل الغرب يقال له أبو الحجاج يوسف وكان قريب العهد ببلاده ورد حلب في تلك الأيام وكان فاضلاً في الأدب والحكمة فلما رآه على تلك الهيئة من الهزال والنحافة أنشده (لو يعلم الناس ما في أن تعيش لهم * بكوا لأنك من ثوب الصبا عاري) (ولو أطاقوا انتقاصاً من حياتهم * لما فدوك بشيء غير أعمار)

94 فأعجبه ذلك ودمعت عيناه وشكر له وقال لي بعض أصحابنا سمعته يوماً وهو يحكي للجماعة الحاضرين عنده قال لما كنا في المدرسة النظامية ببغداد اتفق أربعة خمسة من الفقهاء المشتغلين على استعمال حب البلاذر لأجل سرعة الحفظ والفهم فاجتمعوا ببعض الأطباء وسألوه عن مقدار ما يستعمل الإنسان منه وكيف يستعمله ثم اشتروا القدر الذي قال لهم الطبيب وشربوه في

موضع خارج عن المدرسة فحصل لهم الجنون وتفرقوا وتشتتوا ولم يعلم ما جرى عليهم وبعد ايام جاء إلى المدرسة واحد منهم وكان طويلاً وهو عريان ليس عليه شيء يستر عورته وعلى رأسه بقيار كبير له عذبة طويلة خارجة عن العادة وقد ألقاها وراءه فوصلت إلى كعبه وهو ساكت عليه السكينة والوقار لا يتكلم ولا يعبت فقام إليه من كان حاضراً من الفقهاء وسألوه عن الحال فقال لهم كنا قد اجتمعنا وشربنا حب البلاذر فأما أصحابي فانهم جنوا وما سلم منهم إلا أنا وحدي وصار يظهر العقل العظيم والسكون وهم يضحكون منه وهو لا يشعر بهم ويعتقد أنه سالم مما أصاب أصحابه وهو على تلك الحالة لا يفكر فيهم ولا يلتفت إليهم وأخبرني جماعة مما كانوا عنده قبل وصولنا إليه أنه قدم عليه الأديب نظام الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف بن مسعود القيسي القرطبي المعروف بابن خروف الشاعر المعروف فكتب إليه رسالة وفي أولها أبيات يستجديه فروة قرظ وهي (بهاء الدين والدنيا * ونور المجد والحسب) (طلبت مخافة الأنواء * من نعماك جلد أبي) (وفضلك عالم أي * خروف بارع الأدب) (حلبت الدهر أشطره * وفي حلب صفا حلبي)

95 ذو الحسب الباهر والنسب الزاهر يسحب ذيول سيراء السراء ويحب النحاة من أجل الفراء ويمن على الخروف النبيه بجلد أبيه قانيء الصباغ قريب عهد بالدباغ ما ضل طالب قرظه ولا ضاع بل ذاع ثناء صانعه وضاع أثيث خمائل الصوف يهزأ من الرياح بكل هوجاء عصوف إذا طهر إهابه يخافه البرد ويهابه ما في الثياب له ضريب إذ نزل الجليد والضريب ولا في اللباس له نظير إذا عري من ورقه الغصن النضير لا كطيلسان ابن حرب ولا جلد عمرو الممزق بالضرب كأنه من جلد حمل الجرباء الذي يراعي البدر والنجم لا من جلد السخلة الجرباء التي ترعى الشجر والنجم فرجي النوع أرجى الضوع ليكون تارة لحافاً وتارة برداً وهو في الحالين يحيى حراً ويميت برداً لا زال مهديه سعيداً ينجز للأولياء وعداً وللأعداء وعيداً إن شاء الله تعالى والسلام قلت وقد ذكرت في ترجمة أبي الفتح محمد سبط ابن التعاويذي رسالة كتبها إلى عماد الدين الكاتب الأصفهاني المقدم ذكره يطلب منه فروة قرظ أيضاً وكل واحدة من الرسالتين بديعة في بابها وفي هذه الرسالة كلام يحتاج إلى إيضاح وهو قوله لا كطيلسان ابن حرب وهو مثل مشهور بين الأدباء فاذا كان الشيء بالياً شبهوه بطيلسان ابن حرب ولذلك سبب لا بد من ذكره وهو أن أحمد بن حرب ابن أخي يزيد المهلبي أعطى أبا علي إسماعيل

بن إبراهيم بن حمدويه البصري الحمدوي الشاعر الأديب طيلساناً خليعاً فعمل فيه الحمدوي مقاطيع عديدة ظريفة سارت عنه وتناقلتها الرواة فمن ذلك قوله من أبيات

96 (يا ابن حرب كسوتني طيلساناً * مل من صحبة الزمان فصدنا) (طال ترداده إلى الرفو حتى * لو بعثناه وحده لتهدى) وقوله أيضاً من أبيات (لقد حالف الرفاء حتى كأنه * يحاول منه أن يعلمه الرفوا) وقوله أيضاً (يا ابن حرب كسوتني طيلساناً * أنحلته الأزمان فهو سقيم) (فإذا ما رفوته قال سبحانك * محيي العظام وهي رميم) وقوله أيضاً (يا ابن حرب أطلت وترى برفوى * طيلساناً قد كنت عنه غنيا) (فهو في الرفو آل فرعون في العرض * على النار بكرة وعشيا) وله فيه أيضاً (رأينا طيلسانك يا ابن حرب * يزيد المرء ذا الضعة اتضاعاً) (إذا الرفاء أصلح منه بعضاً * تداعى بعضه الباقي انصداعاً) (يسلم صاحبي فيقد شبراً * به وأقد في ردي ذراعاً) (أجيل الطرف في طرفيه طولاً * وعرضاً ما أرى إلا رقاعاً) (فلست أشك أن قد كان دهرأ * لنوح في سفينته شراعاً) (وقد غنيت إذ أبصرت منه * بقاياها على كتفي تداعى) (ققي قبل التفرق يا ضباعاً * ولا يك موقف منك الوداعاً) وقال فيه أيضاً وكتبها إلى بعض الرؤساء (دعني أبكي كسوتي إذ ودعت * فلازمعن على البكا إذ أزمعت) (يا ابن الحسين أما ترى دراعتي * سملأ تردت بالبلى وتدرعت)

97 (فيها من التمزيق ما لو أنه * مرت بها ريح الصبا لتفشعت) (تحكي تخرق طيلساني إنها * منه تعلمت البلى فتضعضعت) (لا فرج الرحمن عنه إنه * أعدى ثيابي كلها فتقطعت) (فلتحمد الله الجبال فإنها * لو قارنته تخشعت وتصدعت) (وله فيه أيضاً) (يا ابن حرب كسوتني طيلساناً * يزرع الرفو فيه وهو سباح) (مات رفاؤه ومات بنوه * وبدا الشيب في بنهم وشاخوا) وقال فيه أيضاً (طيلسان لو كان لفظاً إذن ما * شك خلق في أنه بهتان) (فهو كالطور إذ تجلى له الله فدكت قواه والأركان) (كم رفوناه إذ تمزق حتى * بقي الرفو وانقضى الطيلسان) وله فيه أيضاً (يا ابن حرب إني أرى في زوايا * بيتنا مثل من كسوت جماعه) (طيلسان رفوته ورفوت الرفو منه وقد رقعت رقاعه) (فأطاع البلى فصار خليعاً * ليس يعطي الرفاء في الرفو طاعه) (فإذا سائل رأني فيه * ظن أني فتى من أهل الصناعة) (وله فيه أيضاً) (قل لابن حرب طيلسانك * قوم نوح منه أحدث) (هو طيلسان لم يزل * عن مضى من قبل يورث) (فإذا العيون لحظنه * فكأنه

باللحظ يحرث) (يودي إذا لم أرفه * فإذا رفوت فليس يلبث) (كالكلب إن تحمل عليه الدهر أو تتركه يلهث)

98 ويقال إنه عمل في هذا الطيلسان مائتي مقطوع في كل مقطوعة معنى بديع) (وكان الأصل الذي حمل الحمدوي المذكور على عمل هذه المقاطيع أنه وقف على أبيات عملها أبو حمران السلمي بضم الحاء المهملة في طيلسانه وكان قد أخلق حتى بلي فقال فيه (يا طيلسان أبي حمران قد برمت * منك الحياة فما تلتذ بالعمر) (في كل يومين رفاء يجده * هيهات ينفع تجديد مع الكبر) (إذا ارتداه لعيد أو لجمعه * تتكب الناس لا يبلى من النظر) وهذا البيت الثالث أخذه من قول النظام بفتح النون وتشديد الظاء المعجمة أبي إسحاق إبراهيم بن سيار البلخي المتكلم المعتزلي في وصف غلام رقيق البشرة (رق فلو بزت سراويله * علقه الجو من اللطف) (يجرحه الناس بأحاطهم * ويشتكى الإيماء بالكف) وأنشدني بعض الأدباء بمدينة الموصل في شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمئة في هذا المعنى لبعض الشعراء (توهمها طرفي فأصبح خدها * وفيه مكان الوهم من نظري أثر) (وصافحها قلبي فأدمى بنانها * فمن لمس قلبي في أناملها عقر) وأنشدني الشيخ أيدمر الصوفي المسمى إبراهيم لنفسه دوبيت في هذا المعنى (كلفت صبا العراق لما خطرت * أن تحمل لي تحية ما قدرت) (قالت لي خيقتي على وجنته * إن جزت بها جرحتها فاعتذرت) ول بعض الأدباء الفقراء من جملة أبيات شكا فيها رقة حاله ورثائه ثيابه ما يقرب من هذا المعنى وهو قوله (ولي ثياب رثا لست أغسلها * أخاف أعصرها تجري مع الماء)

99 وقد قيل في هذا المعنى شيء كثير والاختصار أولى والله أعلم وأما قوله ولا جلد عمرو الممزق بالضرب فيريد قول النحاة ضرب زيداً عمراً فإنهم أبدأ يستعملون هذا المثال ولا يمثلون بغيره فكأنهم يمزقون جلده بكثرة الضرب عدنا إلى ما كنا عليه وكان القاضي أبو المحاسن المذكور يسلك طريق البغادة في ترتيبهم وأوضاعهم وحتى إنه كان يلبس ملبوسهم والرؤساء الذين يترددون إليه كانوا ينزلون عن دوابهم على قدر أقدارهم لكل واحد منهم مكان معين لا يتعداه ثم إنه تجهز إلى الديار المصرية لإحضار ابنة الملك الكامل ابن الملك العادل للملك العزيز صاحب حلب وكان قد عقد نكاحه عليها فسافر في أول سنة تسع وعشرين وأواخر سنة ثمان وعشرين وستمئة وعاد وقد جاء بها في شهر رمضان من السنة ولما وصل كان قد استقل الملك العزيز بنفسه ورفعوا عنه الحجر ونزل الأتابك طغرل من القلعة إلى داره

تحت القلعة واستولى على الملك العزيز جماعة من الشباب الذي كانوا يعاشرونه ويجالسونه فاشتغل بهم ولم ير القاضي أبو المحاسن وجهاً يرتضيه فلزم داره إلى حين وفاته وهو باق على الحكم وإقطاعه جار عليه غاية ما في الباب أنه لم يبق له حديث في الدولة ولا كانوا يراجعونه في الأمور فصار يفتح بابه لإسماع الحديث كل يوم بين الصلاتين وظهر عليه الخرف بحيث إنه صار إذا جاءه الإنسان لا يعرفه وإذا عاد قام يسأل عنه ولا يعرفه واستمر على هذه الحال مديدة ثم مرض أياماً قلائل وتوفي يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة اثنتين وثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى بطلب ودفن في التربة المقدم ذكرها وحضرت الصلاة عليه ودفنه وما جرى بعد ذلك (وصنف كتاب ملجأ الحكام عند التباس الأحكام يتعلق بالأقضية في مجلدين وكتاب دلائل الأحكام تكلم فيه على الأحاديث المستنبط

100 منها الأحكام في مجلدين وكتاب الموجز الباهر في الفقه وغير ذلك وكتاب سيرة صلاح الدين ابن أيوب رحمه الله تعالى وجعل داره خانقاه للصوفية لأنه لم يكن له وارث ولازم الفقهاء والقراء تربته مدة طويلة يقرأون عند قبره وكان قد قرر قدام كل واحد من الشباكين المذكورين للذين للتربة سبعة قراء وكان غرضه أن يقرأ عنده كل ليلة ختمة كاملة فكان كل واحد من القراء الأربعة عشر يقرأ نصف سبع بعد صلاة العشاء الآخرة وفارقت حلب متوجهاً إلى الديار المصرية في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين وستمائة والأمور جارية على هذه الأوضاع ثم بعد ذلك تغيرت تلك الأمور وانتقضت قواعدها وزال جميع ذلك على ما بلغني (382) وتوفي الشيخ نجم الدين ابن الخباز المذكور في السابع من ذي الحجة سنة إحدى وثلاثين وستمائة بطلب ودفن ظاهرها خارج باب أربعين وحضرت الصلاة عليه ودفنه رحمه الله تعالى وكان مولده في التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين وخمسمائة بالموصل (383) وتوفي الأتابك شهاب الدين طغرل المذكور ليلة الإثنين الحادية عشرة من محرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة بطلب ودفن بمدرسته الحنفية خارج باب أربعين وكان خادماً أرمني الجنس أبيض حسن السيرة محمود الطريقة وحضرت الصلاة عليه ودفنه رحمه الله تعالى (384) وتوفي أبو الحسن ابن الخروف الأديب المذكور بطلب في سنة أربع وستمائة متردياً في جب

101 يوسف بن عمر الثقفي أبو عبد الله يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي وقد تقدم ذكر بقية نسبه في ترجمة

الحجاج بن يوسف الثقفي فإنه ابن ابن عم الحجاج يجتمعان في الحكم بن أبي عقيل قال خليفة بن خياط ولى هشام بن عبد الملك يوسف بن عمر اليماني فقدمها لثلاث بقين من شهر رمضان سنة ست ومائة فلم يزل والياً بها حتى كتب إليه هشام في سنة عشرين ومائة بولايته على العراق فاستخلف على اليماني ابنه الصلت ابن يوسف وقال البخاري كانت ولاية يوسف بن عمر العراق سنة إحدى وعشرين ومائة إلى سنة أربع وعشرين وقال غيره لما أراد هشام بن عبد الملك صرف خالد بن عبد الله القسري عن العراق كان قد جاءه رسول يوسف ابن عمر الثقفي من اليماني فدعا هشام بالرسول وقال له إن صاحبك قد تعدى طوره وسأل فوق قدره وأمر بتخريق ثيابه وضربه أسواطاً وقال له امض إلى صاحبك فعل الله به وصنع ودعا بسالم اليماني مولى سالم بن عنبسة بن عبد الملك وكان على ديوان الرسائل وقال له اكتب إلى يوسف ابن عمر بشيء أمره به واعرض الكتاب علي فمضى سالم ليكتب ما أمره به وخلا هشام بنفسه وكتب كتاباً صغيراً بخطه إلى يوسف بن عمر

102 وفيه سر إلى العراق فقد وليتك إياه وإياك أن يعلم بك أحد واشتفني من ابن النصرانية يعني خالداً ومن عماله وأمسك الكتاب بيده وحضر سالم بالكتاب الذي كتبه وعرضه عليه فغافله وجعل الكتاب الصغير في طية وختمه ودفعه إلى سالم وقال له ادفعه إلى رسول يوسف ففعل ذلك وانفصل الرسول فلما وصل إلى يوسف قال له ما وراءك قال الشر أمير المؤمنين ساخط عليك وقد أمر بتخريق ثيابي وضربي ولم يكتب جواب كتبك وهذا كتاب بخط صاحب الديوان ففض الكتاب وقرأه فلما بلغ إلى آخره وقف على الكتاب الصغير فاستخلف ابنه الصلت وسار إلى العراق وقد كان يخلف سالم الكاتب على ديوان الرسائل بشير بن أبي طلحة من أهل الأردن وكان فطناً فلما وقف على ما كان من هشام قال هذه حيلة وقد ولى يوسف بن عمر العراق فكتب إلى عياض عامل أجمة سالم وكان واداً له إن أهلك قد بعثوا إليك بالثوب اليماني فإذا أتاك فالبسه واحمد الله تعالى وأعلم طارقاً بذلك وكان عامل خالد بن عبد الله القسري على الكوفة وما يليها ثم ندم بشير على ما كان منه فكتب إلى عياض إن القوم قد بدا لهم في البعثة إليك بالثوب اليماني فعرف عياض أيضاً طارقاً بذلك فقال طارق الخبر في الكتاب الأول ولكن صاحبك ندم وخاف أن يظهر أمره وركب من ساعته إلى خالد فخبيره الخبر فقال له فما ترى قال أرى أن تتركب من ساعتك هذه إلى أمير المؤمنين فإنه إذا رآك استحيا منك وزال شيء إن كان في نفسه عليك فلم يقبل ذلك فقال له فتأذن لي أن أصير إلى

حضرته وأضمن له مال جميع هذه السنة قال وما مبلغ ذلك قال مائة ألف ألف درهم وأتيك بعهدك قال ومن أين هذه الأموال والله ما أملك عشرة آلاف درهم فقال أتحمّل أنا وسعيد بن راشد أربعين ألف ألف درهم وكان سعيد يتقلد سقي الفرات والزينبي وابان بن الوليد عشرين ألف ألف درهم ونفرق الباقي على باقي العمال فقال له إني إذا للئيم أن أسوغ قوماً شيئاً ثم ارجع عليهم

103 به فقال له إنما نقيك ونقي أنفسنا ببعض أموالنا وتبقى النعمة عليك وعلينا بك ونستأنف طلب الدنيا خير من أن نطالب بالأموال وقد حصلت عند تجار أهل الكوفة فينقاعسوا عنا ويتربصوا بنا فنقتل وتذهب أنفسنا وتحصل الأموال لهم يأكلونها فأبى خالد ذلك عليه فودعه وقال هذا آخر العهد بك ووافاهم يوسف بن عمر فمات طارق في العذاب ولقي خالد وجميع عماله كل شر ومات منهم في العذاب بشر كثير وكان ما استخرج يوسف من خالد وأسبابه تسعين ألف ألف درهم قلت وقد تقدم طرف من خبر خالد بن عبد الله القسري في ترجمته فتطلب منه وقد تقدم في ترجمة عيسى بن عمر الثقفي النحوي ذكر يوسف ابن عمر المذكور وما جرى له معه في الوديعة وقال أبو بكر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري في كتاب أنساب الأشراف وأخبارهم إن هشام بن عبد الملك كان قد تغير على خالد بن عبد الله القسري أمير العراق لأمر نقلت عنه فحقد عليه منها كثرة أمواله وأملاكه ومنها أنه كان يطلق لسانه في حق هشام بما يكرهه وغير ذلك من الأسباب فعزم على عزله وأخفى ذلك وكان يوسف بن عمر الثقفي عامله على اليمن فكتب هشام إليه بخطه يأمره أن يقبل في ثلاثين من أصحابه إلى الكوفة وكتب مع الكتاب بعهدده على العراق فخرج يوسف حتى صار إلى الكوفة في سبعة عشر يوماً فعرس قريباً منها وقد ختن طارق خليفة خالد القسري على الخراج ولده فأهدي إليه ألف عتيق وألف وصيف وألف وصيفة سوى المال والثياب وغير ذلك فجاء رجل إلى طارق فقال له إني رأيت قوماً أنكرتهم وزعموا أنهم سفار وصار يوسف بن عمر إلى دور بني ثقيف فأمر بعض الثقفيين فجمع له من قدر عليه من مضر ففعل فدخل يوسف المسجد مع الفجر فأمر المؤذن بالإقامة فقال حتى يأتي الإمام

104 فانتهره فأقام وتقدم يوسف فصلى وقرأ (^ إذا وقعت الواقعة) الواقعة 1 و (^ سأل سائل) المعارج 1 ثم أرسل إلى خالد وطارق وأصحابهما فأخذوا وإن القدور لتغلي وقال أبو عبيدة حبس يوسف خالداً فصالحه أبان بن الوليد عنه وعن أصحابه على تسعة آلاف ألف درهم ثم ندم

يوسف وقيل له لو لم تقبل هذا المال لأخذت منه مائة ألف ألف درهم فقال ما كنت لأرجع عن شيء رهنت به لساني وأخبر أصحاب خالد خالداً فقال أسأتم حين أعطيتموه هذا المال في أول وهلة ما يؤمنني أن يأخذها ثم يرجع عليكم فارجعوا إليه فأتوه فقالوا إنا أخبرنا خالداً بما فارقتك عليه من المال فذكر أنه ليس عنده فقال أنتم أعلم وصاحبكم فأما أنا فلا أرجع عليكم وإن رجعتم لم أمنعكم قالوا فإننا قد رجعنا قال فوالله لا أرضى بتسعة آلاف ألف ولا بمثلها ومثلها فذكر ثلاثين ألف ألف ويقال مائة ألف ألف وقال أشرس مولى بني اسد وكان تاجراً ليوسف بن عمر أتانا كتاب هشام فقرأه يوسف فكتمنا ما فيه وقال أريد العمرة فخرج وأنا معه واستخلف ابنه الصلت على اليمن فما كلم أحداً منا بكلمة واحدة حتى انتهى إلى العذيب فأناخ وقال يا أشرس أين دليلك فقلت هو ذا فسأله عن الطريق فقال هذه طريق المدينة وهذه طريق العراق فقلت والله ما هي بأيام عمرة فلم يتكلم حتى أناخ بين الحيرة والكوفة في بعض الليل ثم استلقى على ظهره ورفع إحدى رجليه على الأخرى وقال (فما لشتنا العيس أن قذفت بنا * نوى غربة والعهد غير قديم) ثم قال يا أشرس ابغني إنساناً أسأله فأتيته برجل فقال سله عن ابن النصرانية يعني خالداً القسري فقلت ما فعل خالد قال في الحمة اشتكى فخرج إليها فقال سله عن طارق فقال ختن بنيه فهو يطعم الناس بالحيرة وخليفته عطية بن مقلاص يطعم الناس بالكوفة

105 قال خل عن الرجل ثم ركب فأناخ بالرحبة ودخل المسجد فصلى يوسف ثم استلقى على ظهره فمكثنا ليلاً طويلاً ثم جاء المؤذنون وزياد بن عبيد الله الحارثي يومئذ على الكوفة خليفة لخالد فأذنوا ثم سلموا وخرج زياد فأقيمت الصلاة فذهب زياد ليتقدم فقال يوسف يا أشرس نحه فقلت يا زياد تأخر الأمير فتأخر زياد وتقدم يوسف وكان حسن القراءة فصيحاً فقرأ (إذا وقعت الواقعة) (^ سأل سائل بعذاب واقع) فصلى الفجر وتقدم القاضي فحمد الله وأثنى عليه ودعا للخليفة وقال ما اسم أميركم فأخبر فدعا له بالصلاح فما تفرق أهل الصلاة حتى جاء الناس ولم يبرح يوسف حتى بعث إلى خالد وإلى ابان بن الوليد بفارس وإلى بلال بن أبي بردة بالبصرة وإلى عبد الله بن أبي بردة بسجستان وأمر هشام أن تعزل عمال خالد جميعهم إلا الحكم بن عوانة وكان على السند فأقره حتى قتل هو وزيد بن علي في يوم واحد قتله ناكهر ولما أتى خالد قيل له الأمير يوسف قال دعوني من أميركم أحي هو أمير المؤمنين قيل نعم فقال لا بأس علي فلما قدم بخالد على يوسف حبسه وضرب يزيد بن خالد ثلاثين سوطاً فكتب هشام إلى يوسف أعطي الله عهداً لئن شاكت خالداً شوكة

لأضربن عنقك فخل سبيله بثقله و عياله فأتى الشام فلم يزل مقيماً به يغزو الصوائف حتى مات هشام وقيل إن يوسف استأذن هشاماً في بسط العذاب على خالد فلم يأذن له حتى ألح عليه بالرسول واعتل بانكسار الخراج لما صار إليه وإلى عماله منه فأذن له فيه مرة واحدة وبعث حرسياً يشهد ذلك وحلف لئن أتى على خالد أجله ليقتلنه به فدعا به يوسف وجلس على دكان بالحيرة وحضر الناس وبسط عليه العذاب فلم يكلمه خالد حتى شتمه يوسف وقال يا ابن الكاهن يعني شقاً أحد أجداد خالد وهو الكاهن المشهور قلت كما تقدم في ترجمة خالد قال فقال له خالد إنك لأحمق تعيرني بشرفي لكنك ابن السباء إنما كان أبوك يسبأ الخمر قلت معناه يبيع الخمر قال ثم رد خالداً إلى محبسه فأقام ثمانية عشر شهراً ثم كتب إليه هشام

106 يأمره بتخلية سبيله في شوال سنة إحدى وعشرين ومائة وخرج خالد ومعه جماعة من أهله وغيرهم حتى أتى القرية وهي من أرض الرصافة فأقام بها بقية شوال وذا القعدة وذا الحجة والمحرم وصفر لا يأذن له هشام في القدوم عليه قال الهيثم بن عدي وخرج زيد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه على يوسف بن عمر فكتب يوسف إلى هشام إن أهل هذا البيت من بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً حتى كانت همة أحدهم قوت يومه فلما ولي خالد العراق قواهم بالأموال حتى تآقت أنفسهم إلى طلب الخلافة وما خرج زيد إلا بإذن خالد وما مقامه بالقرية إلا لأنها مدرجة الطريق فهو يسأل عن أخباره فقال هشام للرسول كذبت وكذب صاحبك ومهما اتهمنا به خالدأ فإننا لا ننتهمه في طاعته وأمر بالرسول فوجئت عنقه وبلغ الخبر خالدأ فصار إلى دمشق وقال أبو الحسن المدائني أمر يوسف بن عمر ببلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وكان بلال عامل خالد القسري على البصرة فعذب فضمن ثلثمائة ألف درهم وأخذ منه كفلاء فأخفروهم وهرب إلى الشام فيقال إن غلامه أراد أن يشتري له دراجاً فعرف ويقال بل شوى له غلامه دراجاً فأحرقه فضربه فسعى به فأتى به يوسف بن عمر فأمر به فأقيم في الشمس فقال أدنوني من أمير المؤمنين فله علي ما طلب فابى ورده إلى يوسف فعذبه حتى قتله وقال أخوه عبد الله بن أبي بردة للسجان ارفع اسمي في الموتى فرفعه فقال يوسف أرنيه ميتاً فغمه السجان حتى مات ويقال بل كان بلال الذي سأل السجان رفع اسمه في الموتى والمقتول في العذاب عبد الله والله أعلم بذلك وقال يونس النحوي ما قتل بلالاً إلا دهاؤه سأل السجان أن يرفع اسمه في الموتى

107 ويعطيه مالا فقال يوسف اعرض الموتى علي فغمه حتى مات وعرضه عليه ميتاً وقال المدائني ولى يوسف بن عمر صالح بن كريز ولاية فخرجت عليه ثلاثون ألفاً فحبس بها وبلال بن أبي بردة يومئذ محبوس فقال له بلال إن على العذاب سالما ويلقب رتبيل فإياك أن تقول له رتبيل فإنه يكره ذلك وجعل بلال يردد عليه القول في ذلك فعذبه سالم فنسي اسمه وكنيته وجعل يقول له يا رتبيل اتق الله يا رتبيل اتق الله وكرر عليه القول في ذلك من ألم العذاب وهو يقول اقتل من غيظه عليه فلما خلى عنه قال له بلال الم أنك عن رتبيل فقال وهل أوقعني في رتبيل غيرك أنا ما كنت أعرف رتبيل لولا أنت وما تدع شرك في سراء ولا ضراء وقال المدائني أيضاً كان على شرط يوسف بن عمر العباس بن سعد المري وكان كاتبه قحذم بن سليمان بن ذكوان وزيد بن عبد الرحمن مولى ثقيف وعلى حرسه وحجابه جندب وفيه يقول الشاعر (أتانا أمير شديد النكال * لحاجب حاجبه حاجب) وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تاريخ دمشق بلغني أن يوسف بن عمر كان قد أخذ مع آل الحجاج بن يوسف الثقفي ليعذب ويطلب منه المال فقال أخرجوني لأسأل فدفعت إلى الحارث بن مالك الجهضمي يطوف به وكان مغفلاً فأنتهى به إلى دار لها بابان فقال يوسف دعني أدخل هذه الدار فإن فيها عمة لي أسألها فأذن له فدخل وخرج من الباب الآخر وهرب وذلك في خلافة سليمان بن عبد الملك وكان يوسف يسلك طرائق ابن عم أبيه الحجاج بن يوسف في الصرامة والشدة في الأمور وأخذ الناس بالمشاق ولم يزل على ذلك إلى حين عزله وذكر عمر بن شبة النميري في كتاب أخبار البصرة أن يوسف بن عمر وزن درهماً فنقص حبة فكتب إلى دور الضرب بالعراق فضرب

108 أهلها فأحصي في تلك الحبة مائة ألف سوط ضربها الناس وكان يوسف مذموماً في عمله أخرج سيء السيرة وكان جواداً فكان يطعم الناس على خمسمائة خوان أقصاها وأدناها سواء يأكل منها الشامي والعراقي وعلى كل خوان فرنية عليها السكر فنقد السكر من فرنية فتكلم أهلها فضرب الخبز ثلثمائة سوط والناس يأكلون فكان الخبز يتخذ الخرائط فيها السكر فكلما نقد زادوا وروى الحكم بن عوانة الكلبي عن أبيه قال لم يؤيد الملك بمثل كلب ولم تعل المنابر بمثل قریش ولم تطلب الترات بمثل تميم ولم ترع الرعايا بمثل ثقيف ولم تسد الثغور بمثل قيس ولم تهج الفتنة بمثل ربيعة ولم يجب الخراج بمثل اليمن وقال الأصمعي قال يوسف بن عمر لرجل ولاء عملاً يا عدو الله أكلت مال الله فقال له فمال من أكل منذ خلقت وإلى الساعة والله لو سألت

الشیطان درهماً واحداً ما أعطانيه وكان يوسف بن عمر قد استعمل على خراسان نصر بن سيار اللیثي وبقي إلى آخر أيام بني أمية وقضاياه ووقائعه مع أبي مسلم الخراساني مشهورة في مواضعها وفيه وفي يوسف يقول سوار بن الأشعر (أضحت خراسان بعد الخوف آمنة * من ظلم كل غشوم الحكم جبار) (لما أتى يوسف أخبار ما لقيت * اختار نصراً لها نصر بن سيار) وقال سماك بن حرب بعث إلي يوسف بن عمر وهو أمير العراق أن عاملاً لي كتب إلي إني قد زرعت لك كل حق ولق فما فقلت إن الحق ما اطمأن من الأرض واللق ما ارتفع منها انتهى كلامه قلت وذكر الجوهری في كتاب الصحاح أن الخق الغدير إذا جف وتقلع واللق الشق المستطيل وقيل الخق حفرة غامضة في الأرض والحق بضم الخاء المعجمة وتشديد القاف واللق بضم اللام وتشديد القاف والله أعلم

109 وكان يوسف بن عمر من أعظم الناس لحية وأصغرهم قامة كانت لحيته تجوز سرتة وكان يضرب به المثل في التيه والحمق وذكر ذلك حمزة الأصبهاني في كتاب الأمثال فقال قولهم أتیه من أحرق ثقیف هو يوسف ابن عمر كان أتیه أحرق عربي أمر ونهى في دولة الإسلام فمن حمقه أن حجاماً أراد أن يحجمه فارتعدت يده فقال لحاجبه قل لهذا البائس لا تخف وما رضي أن يقول له بنفسه وكان الخياط إذا أراد أن يفصل ثيابه فإن قال يحتاج إلى زيادة ثوب آخر أكرمه وحباه وإن فضل شيء أهانه وأقصاه لأنه يكون قد نبه على قصره ودمامته واستمر يوسف على ولاية العراق بقية مدة هشام بن عبد الملك فلما توفي في يوم الأربعاء لست خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة بالرصافة من أرض قنسرین وبها قبره وكان عمره خمساً وخمسين سنة وقيل أربعاً وخمسين وقيل اثنتين وخمسين سنة والله أعلم وكنيته أبو الوليد تولى ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك بعده فأقر يوسف ابن عمر على ولايته بالعراق وقتل الوليد المذكور يوم الخميس ليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة وكان قد عزم على عزل يوسف ابن عمر وتولية عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف الثقفي وكانت أم الوليد بن يزيد المذكور أم الحجاج بنت محمد بن يوسف فالحجاج عمها فكتب الوليد إلى يوسف بن عمر إنك قد كنت كتبت إلي تذكر أن خالد بن عبد الله القسري أخبر العراق وكنت مع ذلك تحمل إلى هشام ما تحمل وينبغي أن تكون قد عمرت البلاد حتى رددتها إلى ما كانت عليه فاشخص إلينا وصدق ظننا بك فيما تحمله إلينا بعمارتك البلاد حتى نعرف فضلك على غيرك لما بينا وبينك

من القرابة فانك خالنا وأحق الناس بالتوفير علينا وقد علمت ما زدنا لأهل الشام في العطاء وما وصلنا أهل بيتنا به لجفوة هشام إياهم حتى أضر ذلك ببيوت الأموال

110 فخرج يوسف بن عمر بنفسه إلى الوليد بن يزيد وحمل من الأموال والأمتعة والآنية ما لم يحمل من العراق مثله فقدم وخالد بن عبد الله القسري محبوس فلقبه حسان النبطي ليلاً وأخبره أن الوليد قد عزم على تولية عبد الملك بن محمد بن الحجاج وأنه لا بد له من إصلاح أمر وزرائه فقال يوسف ليس عندي شيء فقال له حسان عندي خمسمائة ألف درهم فإن شئت فهي لك وإن شئت فارددها إذا تيسرت فقال له يوسف أنت أعلم بالقوم ومنازلهم من الوليد ففرقها على قدر علمك فيهم ففعل فقدم يوسف والقوم يعظمونه وقرر يوسف بن عمر مع أبان بن عبد الرحمن النميري أن يشتري خالد بن عبد الله القسري بأربعين ألف درهم فقال الوليد ليوسف ارجع إلى عمك فقال أبان له ادفع إلي خالداً وأدفع إليك أربعين ألف درهم فقال الوليد ومن يضمن عنك هذا المال فقال يوسف فقال ليوسف أتضمن عنه فقال يوسف ادفعه إلي فأنا أستاذيه خمسين ألف درهم فدفعه إليه فحمله في محمل بغير وطء وقدم به إلى العراق فقتله كما شرحته في ترجمته ولما قتل الوليد بن يزيد وتولى بعده ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك وأطاعه أهل الشام وانبرم له الأمر ندب لولاية العراق عبد العزيز بن هارون ابن عبد الملك بن دحية بن خليفة الكلبي فقال له عبد العزيز لو كان معي جند لقبلت فتركه وولاها منصور بن جمهور وأما أبو مخنف فإنه قال قتل الوليد بن يزيد بالبخراء في التاريخ المذكور وبويح يزيد بن الوليد بدمشق وسار منصور بن جمهور من البخراء في اليوم الذي قتل فيه الوليد إلى العراق وهو سابع سبعة فبلغ خبره يوسف بن عمر فهرب وقدم منصور بن جمهور الحيرة في أيام خلت من رجب فأخذ بيوت الأموال وأخرج العطاء لأهل العطاء والأرزاق وولى العمال بالعراق وأقام بقية أيام رجب وشعبان ورمضان وانصرف لأيام بقيت منه ولما هرب يوسف بن عمر سلك طريق السماوة حتى أتى إلى البلقاء فاستخفى بها وكان أهله مقيمين فيها فلبس زي النساء وجلس بينهن

111 وبلغ يزيد بن الوليد خبره فأرسل إليه من يحضره فوصلوا إليه فوجدوه بعد أن فتشوا عليه كثيراً جالساً على تلك الهيئة بين نسائه وبناته فجاء به في وثاق فحبسه يزيد عند الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد وكان يزيد ابن الوليد قد حبسهما عند قتله أباهما في الخضراء وهي دار بدمشق مشهورة قبلي

جامعها وقد خربت الآن ومكانها معروف عندهم ثم إن يزيد بن الوليد عزل منصور بن جمهور عن ولاية العراق وولاها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فأقام يوسف بن عمر في السجن بقية مدة يزيد بن الوليد إلى أن مات في ذي الحجة على الخلاف الكثير فيه هل مات في أول الشهر أو في عاشره أو بعد العاشر أو في سلخ ذي القعدة سنة ست وعشرين ومائة وجعل ولي عهده أخاه إبراهيم بن الوليد ومن بعده عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك واستمر يوسف بن عمر في سجنه مدة ولاية إبراهيم بن الوليد فجاء مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية بأهل الجزيرة الفراتية وقنسرين وغلب على الأمر وخلع إبراهيم بن الوليد وتولى مكانه وقتل عبد العزيز بن الحجاج ابن عبد الملك وكانت ولاية إبراهيم أربعة أشهر وخلع في شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين ومائة وقيل كانت ولايته سبعين يوماً لا غير وكان يزيد بن خالد بن عبد الله القسري مع إبراهيم بن الوليد فلما ظهر أمر مروان بن محمد والتقى عسكره وعسكر إبراهيم وهرب عسكر إبراهيم ودخلوا دمشق ومروان وراءهم خافت جماعة إبراهيم أن يدخل مروان فيخرج الحكم وعثمان ابني الوليد من السجن ويجعل لهما الأمر فلا يستبقيا أحداً ممن أعان على قتل أبيهما فأجمع رأيهم على قتلها فأرسلوا يزيد بن خالد القسري ليتولى فانتدب يزيد المذكور مولى أبيه وهو أبو الأسد في جماعة من أصحابه فدخلوا السجن وشدخوا الغلامين بالعمد وأخرجوا يوسف بن عمر فضربوا عنقه لكونه قتل خالد ابن عبد الله القسري والد يزيد المذكور كما شرحناه في ترجمة خالد وذلك في سنة سبع وعشرين ومائة وهو ابن نيف وستين سنة ولما قتل أخذوا رأسه عن جسده وشدوا في رجليه حبلاً فجعل الصبيان يجرونه

112 في شوارع دمشق فتمر المرأة به فترى جسداً صغيراً فتقول في أي شيء قتل هذا الصبي المسكين لما ترى من صغر جثته قال بعضهم رأيت يوسف بن عمر وفي مذاكيره حبل وهو يجر بدمشق ثم رأيت بعد ذلك يزيد ابن خالد القسري قاتله وفي مذاكيره حبل وهو يجر في ذلك الموضع وقد قيل إنه قتل في العشر الوسط من ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة والله أعلم 844 يوسف بن تاشفين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني أمير المسلمين وملك الملتمين وهو الذي اختط مدينة مراكش وقد تقدم في ترجمة المعتمد محمد بن عباد والمعتصم محمد بن صمادح الملكين ببلاد الأندلس طرف من أخباره وما جرى لهما معه وكيف أخذ بلادهما واستأسر ابن عباد وحبسه في أغمات وقد استوفيت الكلام عليه هناك ونبهت عليه الآن ليعلم الواقف عليه أن هذا الملك

هو ذلك وأنه عظيم الشأن كبير السلطان ذكر أرباب التواريخ شيئاً من أحواله
فاخترت في هذا الكتاب ما وجدته في كتاب المعرب عن سيرة ملك المغرب
لأنه أوعب في حديثه من غيره لكنه لم يذكر مؤلفه حتى أنكره غير أنه قال في
أول النسخة التي

113 نقلت منها هذا الفصل إنه كتبها في سنة تسع وسبعين وخمسمائة
و فرغ منها في غرة ذي القعدة من السنة بالموصل وهو في مجلد واحد لطيف
فاخترت منه مقتضياً ما مثاله كان بر المغاربة الجنوني لقبيلة تسمى زنانة
برابر فخرج عليهم من جنوبي المغرب من البلاد المتاخمة لبلاد السودان
الملثمون يقدمهم أبو بكر ابن عمر منهم وكان رجلاً ساذجاً خير الطباع مؤثراً
لبلاده على بلاد المغرب غير ميل إلى الرفاهية وكانت ولاية المغرب من زنانة
ضعفاء لم يقاوموا المثلثين فأخذوا البلاد من أيديهم من باب تلمسان إلى ساحل
البحر المحيط فلما حصلت البلاد لأبي بكر ابن عمر المذكور سمع أن عجوزاً
في بلاده ذهبت لها ناقة في غارة فبكت وقالت ضيعنا أبو بكر ابن عمر بدخوله
إلى بلاد المغرب فحمله ذلك على أن استخلف على بلاد المغرب رجلاً من
أصحابه اسمه يوسف بن تاشفين ورجع إلى بلاده الجنوبية وكان يوسف هذا
رجلاً شجاعاً عادلاً مقداماً اختط بالمغرب مدينة مراکش وكان موضعها مكنماً
للصوص وكان ملكاً لعجوز مصمودية تمدنه منها فلما تمهدت له البلاد تاق إلى
العبور إلى جزيرة الأندلس وكانت محصنة بالبحر فأنشأ شواني ومراكب
وأراد العبور إليها فلما علم ملوك الأندلس بما يروم من ذلك أعدوا له عدة من
المراكب والمقاتلة وكرهوا الإمامه بجزيرتهم إلا أنهم استهولوا جمعه
واستصعبوا مدافعته وكرهوا أن يصبحوا بين عدوين الفرنج من شماليهم
والمثلثون من جنوبيهم وكانت الفرنج تشد وطأتها عليهم إلا أن ملوك
الأندلس كانت ترهب الفرنج باظهار تشد موالاتهم لملك المغرب يوسف بن
تاشفين وكان له اسم كبير لنقله دولة زناته وملك الغرب إليه في اسرع وقت
وكان قد ظهر لأبطال المثلثين في المعارك ضربات بالسيوف تقد الفارس
وطعنات تنظم الكلى فكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتالهم
وكان ملوك الأندلس يفيئون إلى ظل يوسف بن تاشفين ويحذرونه على

114 ملكهم مهما عبر إليهم وعابن بلادهم فلما رأوا عزيمته متقدمة على
العبور أرسل بعضهم إلى بعض وكتبوهم يستجدون آراءهم في أمره وكان
مفرعهم في ذلك إلى المعتمد بن عباد لأنه كان أشجع القوم وأكبرهم مملكة
فوقع اتفاقهم على مكاتبته وقد تحققوا أنه يقصدهم يسألونه الإعراض عنهم

وأنهم تحت طاعته فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس كتابا هو أما بعد فانك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا فاختر لنفسك أكرم نسبتيك فانك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة وإن في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت والسلام فلما جاءه الكتاب مع تحف وهدايا وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف اللسان العربي لكنه كان يجيد فهم المقاصد وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية فقال له أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ويلتمسون منك ألا تجعلهم في منزلة الأعداء فإنهم مسلمون وهم من ذوي البيوتات فلا تغير بهم وكفى بهم من وراءهم من الأعداء الكفار وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر فأعرض عنهم إعراضك عن أطاعك من أهل المغرب فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه فما ترى أنت فقال أيها الملك اعلم أن تاج الملك وبهجته وشاهده الذي لا يرد بابه خليق بما حصل في يده من الملك أن يعفو إذا استعفي وأن يهب إذا استوهب وكلما وهب جزيلا كان اعظم لقدره فاذا اعظم قدره تأصل ملكه وإذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته وإذا كانت طاعته شرفا جاءه الناس ولم يتجشم المشقة إليهم وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته واعلم أن بعض الملوك الأكابر والحكماء البصراء بطريق تحصيل الملك قال من جاد ساد ومن ساد قاد ومن قاد ملك البلاد فلما ألقى الكاتب هذا الكلام إلى يوسف بن تاشفين بلغته فهمه وعلم أنه صحيح فقال للكاتب أجب القوم واكتب بما يجب في ذلك واقرأ

115 علي كتابك فكتب الكاتب بسم الله الرحمن الرحيم من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته تحية من سالمكم وسلم إليكم وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم وإنكم مما بأيديكم من الملك في أوسع إباحة مخصوصون منا بأكرم وإيثار وسماحة فاستديموا وفاءنا بوفائكم واستصلحوا إخواننا باصلاح إخوانكم والله ولي التوفيق لنا ولكم والسلام فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه فاستحسنه وقرن به يوسف بن تاشفين درقا لمطية مما لا يكون إلا في بلاده قلت للمطية بفتح اللام وسكون الميم وبعدها طاء مهملة ثم ياء مشددة مثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة هذه النسبة إلى لمطة وهي بليدة عند السوس الأقصى بينها وبين سجماسة عشرون يوما قاله ابن حوقل في كتاب المسالك والممالك وهي معدن الدرق اللمطية ولا يوجد مثلها في الدنيا على ما يقال والله أعلم قال وأنفذ ذلك إليهم فلما وصلهم كتابه

أحبوه وعظموه وفرحوا بولايته ملك المغرب وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج وأزمعوا إن رأوا من ملك الفرنج ما يرييهم أن يجيزوا إليه يوسف بن تاشفين ويكونوا من أعوانه على ملك الفرنج فتحصل ليوسف بن تاشفين برأي وزيره ما أراد من محبة أهل الأندلس له وكفاه الحرب لهم وإن الأذفونش بن فرذند صاحب طليطلة قاعدة ملك الفرنج أخذ يجوس خلال الديار ويفتتح بلاد الأندلس ويشتط على ملوكهم بطلب البلاد منهم وخصوصا المعتمد بن عباد فإنه كان مقصودا فيه وقد تقدم في ترجمة المعتمد ذكر تاريخ أخذه طليطلة والأبيات التي قيلت في ذلك فنظر المعتمد في أمره فرأى أن الأذفونش قد داخله طمع فيما يلي بلاده فأجمع أمره على استدعاء يوسف بن تاشفين على العبور على ما فيه من الخطر وعلم أن مجاورة غير الجنس مؤذنة بالبوار وأن الفرنج والمثلثين ضدان له إلا أنه قال إن دهينا من مداخلة الأضداد لنا فأهون الأمرين أمر المثلثين ولأن يرعى أولادنا جمالهم أحب إليهم من أن يرعوا خنازير الفرنج ولم يزل هذا الرأي نصب عينيه مهما اضطر إليه

116 وأن الأذفونش خرج في بعض السنين يتخلل بلاد الأندلس في جمع كبير من الفرنج فخافه ملوك الأندلس على البلاد وأجفل أهل القرى والرساتيق من بين يديه ولجأوا إلى المعقل فكتب المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين يقول له إن كنت مؤثرا للجهاد فهذا اوانه فقد خرج الأذفونش إلى البلاد فأسرع في العبور إليه ونحن معاشر أهل الجزيرة بين يديك وكان يوسف بن تاشفين على أتم أهبة فشرع في عبور عساكره فلما أبصر ملوك الأندلس عبور أهل المغرب يطلبون الجهاد وكانوا قد وعدوا من أنفسهم بالمساعدة أعدوا أيضا للخروج فلما رأى الأذفونش اجتماع العزائم على مناجزته علم أنه عام نطاح فاستنفر الفرنجية للخروج فخرجوا في عدد لا يحصيه إلا الله تعالى ولم تزل الجموع تتألف وتتدارك إلى أن امتلأت جزيرة الأندلس خيلا ورجلا من الفريقين كل أناس قد التقوا على ملكهم فلما عبرت جيوش يوسف بن تاشفين عبر في آخرها وأمر بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا قط جملا ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ولا سمعت أصواتها وكانت تذعر منها وتقلق وكان ليوسف بن تاشفين في عبورها رأي مصيب كان يحدق بها معسكره وكان يحضرها الحرب فكانت خيل الفرنج تحجم عنها فلما تكاملت العساكر بالجزيرة قصدت الأذفونش وكان نازلا بمكان أفيح من الأرض يسمى الزلاقة بالقرب من بطليوس قال البياسي بين المكانين أربعة فراسخ وقال أيضا إن يوسف بن

تاشفين قدم بين يدي حربة كتابا على مقتضى السنة يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الحرب أو الجزية ومن فصول كتابه وبلغنا يا أذفونش أنك دعوت في الاجتماع بك وتمنيت أن يكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا فقد أجزناه إليك وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك (^ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) غافر 50 فلما سمع الأذفونش ما كتب إليه جاش بحر غيظه وزاد في طغيانه وأقسم أنه لا يبرح من موضعه حتى يلقاه

117 ثم إن ابن تاشفين ومن معه قصدوا الزلافة فلما وافاها المسلمون نزلوا تجاه الفرنج بها فاختر المعتمد بن عباد أن يكون هو المصادم لهم أولاً وأن يكون يوسف بن تاشفين إذا انهزم المعتمد بعسكره بين أيديهم وتبعوه يميل عليهم بعساكره وتتألف معه عساكر الأندلس فلما عزموا على ذلك وفعلوه خذل الفرنج وخالطتهم عساكر المسلمين واستحر القتل فيهم فلم يفلت منهم غير الأذفونش في دون الثلاثين من أصحابه فلحق ببلده على أسوأ حال فغنم المسلمون من أسلحته وخيله وأثائه ما ملأ أيديهم خيراً قلت وكانت الواقعة في يوم الجمعة الخامس عشر من رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة وقيل في شهر رمضان في العشر الأواخر من السنة والله أعلم وقال البياسي كان حلول العساكر الإسلامية بالجزيرة الخضراء في المحرم سنة تسع وسبعين وأربعمائة فحكي أن موضع المعترك على اتساعه ما كان فيه موضع قدم إلا على جسد أو دم وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام حتى جمعت الغنائم فلما حصلت عف عنها يوسف بن تاشفين وأثر بها ملوك الأندلس وعرفهم ان مقصوده إنما كان الغزو لا النهب فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف ابن تاشفين لهم بالمغانم استكرموه وأحبوه وشكروا له ثم إن يوسف بن تاشفين أزمع الرجوع إلى بلاده وكان عند قصده ملاقة الأذفونش تحرى المسير بالعراء من غير أن يمر بمدينة أو رستاق حتى نزل الزلافة تجاه الأذفونش وهناك اجتمع بعساكر الأندلس وذكر أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي في كتاب تذكير العاقل وتنبيه الغافل أن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو في يوم الأربعاء وكان الموعد في المناجزة يوم السبت الأدنى فغدو الأذفونش ومكر فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب من العام أقبلت طلائع ابن عباد والروم في أثرها والناس على طمأنينة فبادر ابن عباد للركوب وانبت الخبر في العساكر فماجرت بأهلها ووقع البهت ورجفت الأرض وصارت الناس

118 فوضى على غير تعبية ولا أهبة ودهمتهم خيل العدو فقمرت ابن عباد وحطمت ما تعرض لها وتركت الأرض حصيداً خلفها وصرع ابن عباد

وأصابه جرح أشواه وفر رؤساء الأندلس وأسلموا محلاتهم وظنوا أنها وهية لا ترفع ونازلة لا تدفع وظن الأذفونش أن أمير المسلمين في المنهزمين ولم يعلم أن العاقبة للمتقين فركب أمير المسلمين وأحدق به أنجاد خيله ورجاله من صنهاجة ورؤساء القبائل فعمدوا إلى محلة الأذفونش فاقتحموها ودخلوها وقتلوا حاميتها وضربت الطبول فاهتزت الأرض وتجاوبت الآفاق وتراجع الروم إلى محلتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها فصدموها أمير المسلمين فأفرج لهم عنها ثم كر فأخرجهم منها ثم كروا عليه فأفرج لهم عنها ولم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمر أمير المسلمين حشمة السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بدرق اللط وسيوف الهند ومزاريق الزان فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها وأحجمت عن أقرانها وتلاحق الأذفونش بأسود نفدت مزاريقه بالقذف فأهوى ليضربه بالسيف فلصق به الأسود وقبض على أعنته وانتضى خنجراً كان منتظماً به فأثبتته في فخذه فهتك حلق درعه وشك فخذه مع بداد سرجه وكان وقوت الزوال من ذلك اليوم فهبت ريح النصر وأنزل الله سكينته على المسلمين ونصر دينه وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه فأخرجوهم عن محلتهم فولوا ظهورهم وأعطوا أعناقهم والسيوف تصفعهم إلى أن لحقوا بربوة لجأوا إليها واعتصموا بها وأحدقت بهم الخيل فلما أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة وأفلتوا بعدما نشبت فيهم أظفارهم واستولى المسلمون على ما كان في محلتهم من الأثاث والأنية والمضارب والأسلحة وأمر ابن عباد بضم رعوس قتلى الروم فنشر منها أمامه كاتل العظيم ثم كتب ابن عباد إلى ولده الرشيد كتاباً وأطار به الحمام يوم السبت سادس عشر المحرم يخبره بالنصر وقد روي أيضاً أن أمير المسلمين طلب من أهل البلاد المعونة على ما هو بصدد فوصل كتابه إلى المرية في هذا المعنى وذكر فيه أن جماعة أفتوه

119 بجواز طلب ذلك اقتداء بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال أهل المرية لقاضي بلدهم وهو ابو عبد الله ابن الفراء أن يكتب جوابه وكان هذا القاضي من الدين والورع على ما ينبغي فكتب إليه أما بعد ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخري عن ذلك وأن ابا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها وكان صاحب رسول الله وضجيعه في قبره ولا يشك في عدله فليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله ولا بضجيعه في قبره ولا من لا يشك في عدله فان كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته في العدل فالله سائلهم عن

تقلدهم فيك وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد رسول الله وحلف أن ليس عنده درهم واحد من بيت مال المسلمين ينفقه عليهم فلتدخل المسجد الجامع هنالك بحضرة أهل العلم وتحلف أن ليس عندك درهم واحد ولا في بيت مال المسلمين وحينئذ تستوجب ذلك والسلام ولما قضى أمير المسلمين من هذه الواقعة ما قضى أمر عساكره بالمقام وأن تنش الغارات على بلاد الفرنج وأمر عليهم سير ابن أبي بكر وطلب الرجوع في طريقه فتكرم له المعتمد بن عباد فعرج به إلى بلاده وسأله أن ينزل عنده فأجابه يوسف إلى ذلك فلما انتهى إلى إشبيلية مدينة المعتمد وكانت من أجمل المدن منظراً ونظر إلى موضوعها على نهر عظيم مستبحر تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من بر المغرب وحاملة إليه فر في غربية رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضياع كلها تين وعنب وزيتون وهذا الموضع هو المسمى شرف إشبيلية وتمير بلاد المغرب كلها من هذه الأصناف وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء وفيها أنواع ما يحتاج إليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش وغير ذلك فأنزل المعتمد يوسف بن تاشفين في أحدها وتولى من إكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له وكان مع ابن تاشفين أصحاب له ينبهونه على تأمل تلك الحال وما هي عليه من النعمة والإتراف

120 ويغرونه باتخاذ مثلها لنفسه ويقولون له إن فائدة الملك قطع العيش فيه بالنتعم واللذة كما هو المعتمد وأصحابه وكان يوسف بن تاشفين مقتصداً في أموره غير متطاول ولا مبذر متنوق في صنوف الملاذ بالأطعمة وغيرها وكان قد ذهب صدر عمره في بلاده في شطف العيش فأنكر على مغريه بذلك الإسراف وقال الذي يلوح من أمر هذا الرجل يعني المعتمد أنه مضيع لما في يده من الملك لأن هذه الأموال التي تعينه على هذه الأحوال لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبداً فأخذه بالظلم وأخرجه في هذه الترهات وهذا من افحش الاستهتار ومن كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الاجوفين متى يستجد همة في حفظ بلاده وضبطها وحفظ رعيته والتوفر على مصالحها ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذاته هل تختلف فتنقص عما هي عليه في بعض الأوقات فقيل له بل كل زمانه على هذا قال أفكل أصحابه وأنصاره على عدوه ومنجديه على الملك ينال حظاً من ذلك قالوا لا قال فكيف ترون رضاهم عنه قالوا لا رضا لهم عنه فاطرق يوسف وسكت فأقام يوسف عند المعتمد على تلك الحال أياماً

وفي بعض تلك الأيام استأذن رجل على المعتمد فدخل وهو ذو هيئة رثة وكان من أهل البصائر فلما دخل عليه قال له أصلحك الله أيها الملك إن من أوجب الواجبات شكر النعمة وإن من شكر النعمة إهداء النصائح وإني رجل من رعينك حالي في دولتك إلى الاختلال أقرب منها إلى الاعتدال لكنني ملتزم لك من النصيحة ما يستوجبه الملك على رعيته فمن ذلك خبر وقع في أذني من بعض أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين يدل على أنهم يرون أنفسهم وملكهم أحق بهذه النعمة منك وقد رأيت رأيا فإن أثرت الإصغاء إليه قلته قال له المعتمد قل له قال رأيت أن هذا الرجل الذي أطلعتة على ملكك رجل مستأسد على الملوك قد حطم ببر العدو زناته وأخذ الملك من أيديهم ولم يبق على أحد منهم ولا يؤمن أن يطمح إلى الطماعية في ملكك بل في ملك جزيرة الأندلس كلها بما قد عاينه من بلهنية

121 عيشك وإنه لمتخيل في مثل حالك سائر ملوك الأندلس وإن له من الولد والأقارب ممن يؤثر مسراتهم من يود له الحلول بما أنت فيه من خصب الجنب وقد أودى الأذفونش وجيشه واستأصل شأفتهم وأعدمك منه أقوى ناصر عليه لو احتجت إليه فقد كان لك منه أقوى عضد وأوقى مجن وبعد أن فات الأمر في الأذفونش لا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم قال له المعتمد وما هو الحزم اليوم قال أن تجمع أمرك على قبض ضيفك هذا واعتقاله في قصرك وتجزم أنك لا تطلقه حتى يأمر كل من بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء حتى لا يبقى منهم بالجزيرة طفل ثم تتفق أنت وملكوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجري فيه بغزاة له ثم بعد ذلك تستحلفه بأغلظ الإيمان ألا يضمر في نفسه عوداً إلى هذه الجزيرة إلا باتفاق منكم ومنه وتأخذ منه على ذلك رهائن فإنه يعطيك من ذلك ما تشاء فنفسه أعز عليه من جميع ما تلتمس منه فعند ذلك يقنع هذا الرجل ببلاده التي لا تصلح إلا له وتكون قد استرحت منه بعدما استرحت من الأذفونش وتقيم في موضعك على خير حال ويرتفع ذكرك عند ملوك الأندلس وأهل الجزيرة ويتسع ملكك وتنسب بهذا الاتفاق لك إلى سعادة وحزم وتهابك الملوك ثم اعمل بعد هذا ما يفتضيه حزمك في محاورة من عاملته هذه المعاملة واعلم أنه قد تهيأ لك من هذا أمر سماوي تتفانى الأمم وتجري بحار الدم دون حصول مثله فلما سمع المعتمد كلام الرجل استصوبه وجعل يفكر في انتهاز هذه الفرصة وكان للمعتمد ندماء قد انهمكوا معه في اللذات فقال أحدهم لهذا الرجل الناصح ما كان المعتمد على الله وهو إمام أهل المكرمات ممن يعامل بالحيف ويغدر

بالضيف فقال له الرجل إنما الغدر أخذ الحق من يد صاحبه لا دفع الرجل عن نفسه المحذور إذا ضاق به قال ذلك النديم لضيف مع وفاء خير من حزم مع جفاء ثم إن ذلك الناصح استدرك الأمر وتلافاه فشكر له المعتمد ووصله بصلة وانصرف واتصل هذا الخبر بيوسف بن تاشفين فأصبح عادياً فقدم له المعتمد الهدايا السنية والتحف الفاخرة فقبلها

122 ثم رحل فعبر من الجزيرة الخضراء إلى سبتة قلت وهو المكان المعروف بزقاق سبتة يعدي الناس فيه من أحد البرين إلى الآخر أعني بر الأندلس وبر العدو وقد تقدم الكلام على هذا المكان قال ولما عبر يوسف إلى بر العدو اقام عسكره بجزيرة الأندلس ريثما استراح ثم تبع آثار الأذفونش فتوغل في بلاده ولما رجع الأذفونش إلى موضعه سأل عن أصحابه وشجاعته وأبطال عسكره فوجد أكثرهم قد قتلوا ولم يسمع إلا نياح الثكالي عليهم فلم يأكل ولم يشرب حتى ماتهما وغماً ولم يخلف إلا بنتاً جعل الأمر إليها فتحصنت بمدينة طليطلة وأما عسكر ابن تاشفين فإنهم في غارتهم هذه كسبوا من المغنم ما لا يحد ولا يوصف وأنفذوا ذلك إلى بر العدو واستأذن أميرهم سير ابن أبي بكر يوسف بن تاشفين في المقام بجزيرة الأندلس وأعلمه أنه قد افتتح معاقل في الثغور ورتب بها مستحفظين ورجالاً يغنون فيها وأنه لا يستقيم لهذه الجيوش أن تقيم بالثغور في ضنك من العيش تصابح العدو وتماسيه وتحظى ملوك الأندلس من الأرياف برغد العيش فكتب إليه ابن تاشفين يأمره باخراج ملوك الأندلس من بلادهم وإحاقهم بالعدو فمن استعصى عليه منهم قاتله ولا ينفس عنه حتى يخرجهم وليبدأ منهم بمجاوري الثغور ولا يتعرض للمعتمد بن عباد ما لم يستول على البلاد ثم يولي تلك البلاد أمراء عسكره وأكابرهم فابتدأ سير ابن أبي بكر بملوك بني هود من ملوك الأندلس ليستنزلهم من معقلهم وهي روضة قلت هي بضم الراء وسكون الواو ثم طاء مهملة بعدها هاء قلعة منيعة من عاصمات الذرا ماؤها ينبوع في أعلاها وكان بها من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تقنيه الأزمان فلم يقدر عليها فرحل عنها ثم جند أجناداً على صور الفرنج وأمرهم أن يقصدوا هذه القلعة مغيرين عليها ويكمن هو وأصحابه بالقرب منها ففعلوا ذلك فرآهم صاحب القلعة فاستضعفهم ونزل في طلبهم فخرج سير ابن أبي بكر فقبض عليه وتسلم القلعة ثم نازل بني طاهر بشرق الأندلس فسلموا إليه ولحقوا بالعدو ثم نازل بني صمادح بالمرية وكانت قلعتهم حصينة

123 إلا أنهم لم يكن عندهم أجناد ولا أنجاد من الرجال فزحفوا عليهم وغلّبوهم فلما علم المعتصم بن صمادح أنه مغلوب دخل قصره فأدركه أسف قضى عليه فمات من ليلته فاشتغل أهله به فسلموا المدينة ثم نازلوا المتوكل عمر بن الأفطس ببطليوس وكان رجلاً شجاعاً عظيم القدر كبير البيت وكان أبوه المظفر بالله أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة التجيبي من فحول العلماء وكان ملكاً له تصانيف أعظمها وأشهرها الكتاب المنسوب إليه وهو المظفري في علم التاريخ وكانت مدينته بطليوس من أجمل البلاد لم يذعن ولا أقبل على غير المدافعة والقتال إلى أن خامر عليه أصحابه فقبض عليه باليد وعلى ولدين له فقتلوا صبراً وحمل أولاده الأصاغر إلى مراکش وسائر ملوك الجزيرة سلموا وتحولوا إلى بر العدو إلا ما كان من المعتمد بن عباد فإن سير ابن أبي بكر لما فرغ من ملوك الجزيرة كتب إلى يوسف بن تاشفين أنه لم يبق بالجزيرة من ملوكها غير المعتمد بن عباد فارسم في أمره بما تراه فأمره بقصده وأن يعرض عليه التحول إلى بر العدو بأهله وماله فإن فعل فبها ونعمت وإن أبي فنازله فلما عرض عليه سير ابن أبي بكر ذلك لم يعطه جواباً فنازله وحاصره اشهراً ثم دخل عليه البلد قهراً واستخرجه من قصره قسراً فحمل إلى العدو مقيداً فأنزل بأغمات وأقام بها إلى أن مات ولم يعتقل من ملوك الأندلس غيره وتسلم سير ابن أبي بكر الجزيرة كلها واستحوذ عليها فمات يوسف بن تاشفين في التاريخ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى وأفضى الملك إلى ولده أبي الحسن علي بن يوسف وكان رجلاً حليماً وقوراً صالحاً عدلاً منقاداً للحق والعلماء تجبى إليه الأموال من البلاد لم يزعزعه عن سريره قط حادث ولا طاف به مكروه قلت قد تقدم في ترجمة أبي نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان القيسي صاحب قلائد العقيان أنه جمع الكتاب المذكور باسم إبراهيم بن يوسف بن تاشفين

124 وأن الذي أشار بقتل الفتح المذكور هو علي بن يوسف بن تاشفين المذكور ثم ولي بعده ولده تاشفين بن علي بن يوسف وعلى يده انقرض ملكهم وسيأتي شرح ذلك مفصلاً إن شاء الله تعالى وقد تقدم في أوائل هذه الترجمة أن يوسف بن تاشفين هو الذي اختط مدينة مراکش قال صاحب هذا الكتاب الذي نقلت منه هذه الترجمة في آخر الكتاب إن مراکش مدينة عظيمة بناها الأمير يوسف بن تاشفين بموضع كان اسمه مراکش معناه امش مسرعاً بلغة المصامدة كان ذلك الموضع مأوى اللصوص وكان المارون فيه يقولون لرفقائهم هذه الكلمة فعرف الموضع بها وقال غير مؤلف هذا الكتاب بنى ابن

تاشفين مدينة مراكش في سنة خمس وستين وأربعمائة قاله أبو الخطاب ابن دحية في كتابه الذي سماه النبراس في خلافة القائم بأمر الله قال وكانت مزرعة لأهل نفيس فاشتراها منهم بماله الذي خرج به من الصحراء ونفيس بفتح النون وتشديد الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها جبل مطل على مراكش قلت وهي بنواحي أغمات في المغرب الأقصى وذلك أنه لما توطنت نفسه على الملك وأطاعته قبائل البربر وذهب من يخالفه من لمتونة سمت همتة إلى بناء هذه المدينة وكان في موضعها قرية صغيرة في غابة من الشجر وبها قوم من البربر فاختمها يوسف وبنى بها القصور والمسكن الأنيقة وهي في مرج فسيح وحولها جبال على فراسخ منها وبالقرب منها جبل لا يزال عليه الثلج وهو الذي يعتدل مزاجها وحرها وفي سنة أربع وستين وأربعمائة نزل يوسف على مدينة فاس وكانت إذ ذاك من قواعد بلاد المغرب العظام وضيق على أهلها ثم أخذها فأقر العامة بها ونفى البربر والجند بعد أن حبس بعضهم وقتل بعضهم فعند ذلك قوي شأنه وتمكن بالمغرب الأقصى والأدنى سلطانه مع ما صار بيده من بلاد جزيرة الأندلس كما شرحناه وكان حازماً سائساً للأمور ضابطاً

125 لمصالح مملكته مؤثراً لأهل العلم والدين كثير المشورة لهم وبلغني أن الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالي تغمده الله تعالى برحمته لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه فوصل إلى الإسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه فوصله خبر وفاته فرجع عن ذلك العزم وكنت وقفت على هذا الفصل في بعض الكتب وقد ذهب عني في هذا الوقت أين وجدته وكان يوسف معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم خفيف العارضين دقيق الصوت وكان يخطب لبني العباس وهو أول من تسمى بأمير المسلمين ولم يزل على حاله وعزه وسلطانه إلى أن توفي يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة وعاش تسعين سنة ملك منها مدة خمسين سنة رحمه الله تعالى وذكر شيخنا عز الدين بن الأثير في تاريخه الكبير ما مثاله سنة خمسمائة فيها توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك المغرب والأندلس وكان حسن السيرة خيراً عادلاً يميل إلى أهل العلم والدين ويكرمهم ويحكمهم في بلاده ويصدر عن آرائهم وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام فمن ذلك أن ثلاثة نفر اجتمعوا فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها وتمنى الآخر عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين وتمنى الآخر زوجته وكانت أحسن من النساء ولها الحكم في بلاده فبلغه الخبر فأحضرهم وأعطى متمني

المال ألف دينار واستعمل الآخر وقال للذي تمنى زوجته يا جاهل ما حملك على هذا الذي لا تصل إليه ثم أرسله إليها فتركته في خيمة ثلاثة أيام تحمل إليه في كل يوم طعاماً واحداً ثم أحضرته وقالت له ما أكلت في هذه الأيام قال طعاماً واحداً فقالت له كل النساء شيء واحد وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته (385) وأما ولده علي المذكور فإنه توفي لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلثين وخمسائة ومولده في حادي عشر رجب سنة ست وسبعين وأربعمائة 126 وقد سبق ذكر طرف من حديثه في ترجمة محمد بن تومرت المهدي فيكشف عنه ولما خرج عبد المؤمن بن علي المقدم ذكره قاصداً جهة البلاد المغربية ليأخذها من علي بن يوسف بن تاشفين المذكور كان مسيره على طريق الجبال فسير علي بن يوسف ولده تاشفين ليكون في قبالة عبد المؤمن ومعه جيش فساروا في السهل وأقاموا على هذا مدة فتوفي علي بن يوسف في أثنائها في التاريخ المذكور فقدم أصحابه ولده إسحاق بن علي وجعلوه نائب أخيه تاشفين على مراكش وكان صبيهاً وظهر أمر عبد المؤمن ودانت له الجبال وفيها غمارة وتالدة والمصامدة وهم أمم لا تحصى فخاف تاشفين بن علي واستشعر القهر وتيقن أن دولتهم ستزول فأتى مدينة وهران وهي على البحر وقصد أن يجعلها مقره فإن غلب عن الأمر ركب منها في البحر إلى بر الأندلس يقيم بها كما أقامت بنو أمية بالأندلس عند انقراض دولتهم بالشام وبقيّة البلاد وفي ظاهر وهران ربوة على البحر تسمى صلب الكلب وبأعلاها رباط يأوي إليه المتعبدون وفي ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وثلثين وخمسائة صعد تاشفين إلى ذلك الرباط ليحضر الختم في جماعة يسيرة من خواصه وكان عبد المؤمن بجمعه في تاجرة وهي وطنه كما ذكرته في ترجمته واتفق أنه أرسل منسراً إلى وهران فوصلوها في اليوم السادس والعشرين من شهر رمضان ومقدمهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى صاحب المهدي فكمنوا عشية وأعلموا بانفراد تاشفين في ذلك الرباط فقصدوه وأحاطوا به وأحرقوا بابه فأيقن الذين فيه بالهلاك فخرج تاشفين راكباً فرسه وشد الركض عليه ليثب الفرس النار وينجو فترامى الفرس نازياً لروعه ولم يملكه اللجام حتى تردى من جرف هنالك إلى جهة البحر على حجارة في وعر فتكسر تاشفين وهلك في الوقت وقتل الخواص الذين كانوا معه وكان عسكره في ناحية أخرى لا علم لهم بما جرى في الليل

127 وجاء الخبر بذلك إلى عبد المؤمن فوصل إلى وهران وسمى ذلك الموضع الذي فيه الرباط صلب الفتح ومن ذلك الوقت نزل عبد المؤمن من

الجل إلى السهل ثم توجه إلى تلمسان وهي مدينتان قديمة ومحدثة بينهما شوط فرس ثم توجه إلى فاس فحاصرها وأخذها في سنة أربعين وخمسة مائة ثم قصد مراکش في سنة إحدى وأربعين فحاصرها أحد عشر شهراً وفيها إسحاق بن علي وجماعة من مشايخ دولتهم قدموه بعد موت أبيه علي بن يوسف بن تاشفين نائباً عن أخيه تاشفين فأخذها وقد بلغ القحط من أهلها الجهد وأخرج إليه إسحاق بن علي ومعه سير بن الحاج وكان من الشجعان وخواص دولتهم وكانا مكتوفين وإسحاق دون البلوغ فعزم عبد المؤمن أن يعفو عن إسحاق لصغر سنه فلم يوافق خواجه وكان لا يخالفهم فخلى بينهم وبينهما فقتلوهما ثم نزل عبد المؤمن في القصر وذلك في سنة اثنتين وأربعين وخمسة مائة وانقرضت دولة بني تاشفين قلت وقد ذكرت في ترجمة المعتمد بن عباد أن يوسف بن تاشفين عاد إلى الأندلس في العام الثاني من وقعة الزلافة وذكرت ها هنا ما يدل على أنه ما عاد إليها وإنما نوابه هم الذين أخذوا بلاد الأندلس له فقد يعتقد الواقف على هذا الكتاب أن هذا متناقض والعذر في هذا أنني وجدته في ترجمة ابن عباد على تلك الصورة ووجدته في هذه الترجمة على هذه الصورة والله أعلم بالصواب ثم رأيت في كتاب تذكير العاقل تأليف أبي الحجاج يوسف البياسي أن ابن تاشفين لما جاز البحر قصد إشبيلية فخرج ابن عباد إلى لقائه ومعه الضيافة والإقامة ثم خرج من إشبيلية بقضه وقضيضه قاصداً بطليوس ومرت الواقعة المذكورة ثم عاد ابن تاشفين إلى بلاده وان ابن عباد جاز البحر ومضى إليه في سنة إحدى وثمانين واستتجده على ما يجاوره من بلاد العدو فأكرمه ابن تاشفين وأجابه إلى إنجاده ثم عاد ابن عباد إلى بلاده واستعد للعدو ولحقه ابن تاشفين في رجب من سنة إحدى وثمانين ثم خرج الأذفونش في جيش كثيف وكان ملوك الأندلس قد اجتمعوا عند

128 ابن تاشفين فلما رأى ما فعله من الاستعداد بالجمع الكثير رحل عن مكانه وأوهمه خواجه أن ملوك الأندلس يفرون عنه ويخلون بينه وبين الأذفونش فأصغى إلى كلامهم وعمل في نفسه قولهم فأخذ في الحركة إلى البرية وتحرك الجميع بحركته وجاز البحر عائداً إلى بلاده وقد غر صدره على ملوك الأندلس وتبين لهم تغيره عليهم وخافوه فشرعوا في تحصين بلادهم وتحصيل القوات وراسل بعضهم الأذفونش ليكون عوناً له خوفاً من ابن تاشفين فأجابه الأذفونش بالإعانة والمساعدة وكان قد سير له هدايا وأطافاً كثيرة فقبلها منه وحلف له على جميع ما التمس منه واتصل ذلك بابن تاشفين فاستشاط غيظاً ثم ابن تاشفين جاز البحر مرة ثالثة وقصد قرطبة وهي لابن

عباد فوصلها في جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وقد سبقه إليها ابن عباد فخرج إليه بالضيافة وجرى معه على عادته ثم ان ابن تاشفين أخذ غرناطة من صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس وحبسه فطمع ابن عباد في غرناطة وأن ابن تاشفين يعطيه إياها فعرض له بذلك فأعرض عنه ابن تاشفين وخاف ابن عباد منه وعمل على الخروج عنه فقال له إنه جاءته كتب من إشبيلية وهم خائفون من العدو المجاور لهم واستأذنه في العود إليها فأذن له فعاد ثم رجع ابن تاشفين إلى بلاده وجاز البحر في شهر رمضان من سنة ثلاث وثمانين وأقام ببلاده إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين ثم عزم على العبور إلى الأندلس لمنازلة ابن عباد وبلغ ذلك ابن عباد فأخذ في التأهب والاستعداد ووصل ابن تاشفين إلى سبتة وجمع العساكر الكثيرة وقدم عليهم سير بن أبي بكر فجازوا البحر وضابقوا بلاد ابن عباد فاستصرخ بالأذفونش فلم يلتفت إليه وكان ما ذكرته والله أعلم وفي هذه الترجمة ذكر الملتئمين فيحتاج إلى الكلام عليه والذي وجدته أن أصل هؤلاء القوم من حمير بن سبأ وهم أصحاب خيل وإبل وشاء ويسكنون الصحارى الجنوبية وينتقلون من ماء إلى ماء كالعرب وبيوتهم من الشعر والوبر وأول من جمعهم وحرصهم على القتال وأطعمهم في تملك

129 البلاد عبد الله بن ياسين الفقيه وقتل في حرب جرت مع برغواطة وقام مقامه أبو بكر ابن عمر الصنهاجي الصحراوي المقدم ذكره ومات في حرب السودان وقد ذكرنا حديث يوسف بن تاشفين وسبب تقدمه وهو الذي سمى أصحابه المرابطين وهم قوم يلتئمون ولا يكشفون وجوههم فلذلك سموهم الملتئمين وذلك سنة لهم يتوارثونها خلفاً عن سلف وسبب ذلك على ما قيل أن حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد يفعلها الخواص منهم فكثر ذلك حتى صار يفعلها عامتهم وقيل كان سببه أن قوماً من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون الحي فيأخذون المال والحريم فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء في زي الرجال إلى ناحية ويقعدوا هم في البيوت ملتئمين في زي النساء فإذا أتاهم العدو ظنوهم النساء فيخرجون عليهم ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم فلزموا اللثام تبركاً بما حصل لهم من الظفر بالعدو وقال شيخنا الحافظ عز الدين ابن الأثير في تاريخه الكبير ما مثله وقيل إن سبب اللثام لهم أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم فخالفهم العدو إلى بيوتهم ولم يكن بها إلا المشايخ والصبيان والنساء فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن تلبس ثياب الرجال ويتلثمن ويضيقنه

حتى لا يعرفن ويلبسن السلاح ففعلن ذلك وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن واستدار النساء بالبيوت فلما اشرف العدو رأى جمعاً عظيماً فظنه رجالاً وقالوا هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن قتال الموت والرأي أن نسوق النعم ونمضي فإن اتبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ أقبل رجال الحي فبقي العدو بينهم وبين النساء فقتلوا من العدو وأكثروا وكان من قبل النساء أكثر فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه فلا يعرف الشيخ من الشاب ولا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً

130 ومما قيل في اللثام (قوم لهم درك العلاف في حمير * وإن انتموا صنهاجة فهم هم) (لما حووا إحراز كل فضيلة * غلب الحياء عليهم فتلثموا) وكان يوسف بن تاشفين مقدم جيش أبي بكر ابن عمر الصنهاجي وخرج من سجلماسة في سنة اربع وخمسين وأربعمائة وكان أبو بكر ابن عمر قد أتى سجلماسة في سنة ثلاث وخمسين وحاصرها وقاتل أهلها أشد قتال وأخذها ثم رتب عليها يوسف بن تاشفين فكان ما كان 845 يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب أبو يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي صاحب المغرب وقد تقدم ذكر أبيه عبد المؤمن في حرف العين وذكر ولده يعقوب قبل هذا ولما توفي والده في التاريخ المذكور في ترجمته وخلع محمد بن عبد المؤمن استقل ولده يوسف بالملك وكان ولي العهد قبله أخوه محمد بن عبد المؤمن ونقش على الدنانير اسمه وكان ذلك باستخلاف أبيه وتحليفه الجند له فظهر منه اشتغال بالراحة وانهماك في البطالة فخلعه يوسف وكان له اخ آخر اسمه أبو حفص عمر ولاه جزيرة الأندلس وكان يوسف المذكور فقيهاً حافظاً متقناً لأن أباه هذبه وقرن به وباخوته أكمل رجال الحرب والمعارف فنشأوا في ظهور الخيل بين أبطال الفرسان وفي قراءة العلم بين أفاضل العلماء وكان ميله إلى الحكمة والفلسفة أكثر

131 من ميله إلى الأدب وبقية العلوم وكان جماعاً مناعاً ضابطاً لخراج مملكته عارفاً بسياسة رعيته وكان ربما يحضر حتى لا يكاد يغيب ويغيب حتى لا يكاد يحضر وله في غيبته نواب وخلفاء وحكام قد فوض الأمور إليهم لما علم من صلاحهم لذلك والدنانير اليوسفية المغربية منسوبة إليه فلما مهدت له الأمور واستقرت قواعد ملكه دخل إلى جزيرة الأندلس لكشف مصالح دولته وتفقد أحوالها وكان ذلك في سنة ست وستين وخمسمائة وفي صحبته مائة ألف فارس من العرب والموحدين فنزل باشبيلية (386) فخافه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش صاحب شرق

الأندلس مرسية وما انضاف إليها وحمل على قلبه فمرض مرضاً شديداً ومات وقيل إن أمه سقته السم لأنه كان قد أساء العشرة مع أهله وخواصه وكبراء دولته فنصحته وأغلظت عليه في القول فتهددها وخافت بطشه فعملت عليه فقتلته بالسم وكان موته في التاسع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وخمسمائة باشبيلية ومولده في سنة ثمانى عشرة وخمسمائة في قلعة من أعمال طرطوشة يقال لها بنشكله وهي من الحصون المنيعة ولما مات محمد بن سعد جاء أولاده وقيل إخوته إلى الأمير يوسف ابن عبد المؤمن وهو باشبيلية فسلموا إليه جميع بلاد شرق الأندلس التي كانت لأبيهم وقيل لأخيهم فأحسن إليهم الأمير يوسف وتزوج أختهم وأصبحوا عنده في أعز مكان ثم إن الأمير يوسف شرع في استرجاع بلاد المسلمين من أيدي الفرنج وكانوا قد استولوا عليها فاتسعت مملكته بالأندلس وصارت سراياها تصل مغيرة إلى باب طليطلة وهي كرسي بلادهم وأعظم قواعدهم ثم إنه حاصرها فاجتمع الفرنج كافة عليه واشتد الغلاء في عسكره فرجع عنها وعاد إلى مراكش وفي سنة خمس وسبعين قصد بلاد إفريقية وفتح مدينة قفصة ثم دخل جزيرة الأندلس في سنة ثمانين ومعه جمع كثيف وقصد غربي بلادها

132 فحاصر مدينة شنترين شهراً فأصابه مرض فمات منه في شهر ربيع الأول سنة ثمانين وخمسمائة وحمل في تابوت إلى إشبيلية رحمه الله تعالى وكان قد استخلف ولده أبا يوسف يعقوب بن يوسف المقدم ذكره وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أن يوسف مات من غير وصية بالملك لأحد من أولاده فاتفق رأي قواد الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تمليك ولده يعقوب فملكوه في الوقت الذي مات فيه ابوه لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من بلاد العدو وكان خلع أخيه أبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن في شعبان سنة ثمان وخمسين واستبد يوسف حينئذ بالأمر واجتمع أكابر أصحابهم على خلعه وتولية الأمير يوسف وقد روي له شعر لكنه ليس بالجيد فلم أذكر منه شيئاً وأما محمد بن سعد ابن مردنيش المذكور فيروى له () وحققاً إنها جفون * تسل من لحظها المنون) (لا صبر عنها ولا عليها * الموت من دونها يهون) (لأركبن الهوى إليها * يكون في ذاك ما يكون) (387) قلت ثم وجدت هذه الأبيات في كتاب الملح لابن القطاع وقد نسبها إلى أبي جعفر أحمد بن صمادح البني والله أعلم وقال البياسي في حماسته هو أبو جعفر أحمد بن الحسين بن خلف بن البني اليعمري الأبدى والله أعلم إلا إنه لم يذكر هذه الأبيات ثم أورد البياسي لأبي جعفر المذكور (صدني عن حلاوة

التشيع * اجتنابي مرارة التوديع) (لم يقم أنس ذا بوحشة هذا * فرأيت الصواب ترك الجميع)

133 وله في صفة قنديل (وقنديل كأن الضوء فيه * محاسن من أحب وقد تجلى) (اشار إلى الدجى بلسان أفعى * فشمز ذيله فرقاً وولى) ولما مات ابو يعقوب المذكور رثاه الأديب أبو بكر يحيى بن مجبر الشاعر المقدم ذكره في ترجمة يعقوب بن يوسف هذا بقصيدة طويلة أجاد فيها وأولها (جل الأسى فأسل دم الأجان * ما ذي الشؤون لغير هذا الشان) ومردنيش بفتح الميم وسكون الراء وفتح الدال المهملة وكسر النون وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها شين معجمة وهو بلغة الفرنج اسم العذرة وبنشكله بضم الباء الموحدة والنون وسكون الشين المعجمة وضم الكاف وفتح اللام وبعدها هاء والباقي معروف لا حاجة إلى ضبطه والبنبي في نسب الشاعر المذكور بكسر الباء الواحدة وتشديد النون والأبدي بضم الهمزة وتشديد الباء الموحدة وبعدها دال مهملة هذه النسبة إلى بلدة بالأندلس من كورة جيان بناها عبد الرحمن بن الحكم وجددها ابنه محمد قلت ولما فرغت من ترجمة يوسف بن عبد المؤمن صاحب هذه الترجمة وجدت مجموعاً بخط العماد بن جبريل أخي العلم المصري ناظر بيت المال بالديار المصرية وقد تقدم ذكره في ترجمة أبي إسحاق العراقي الفقيه المذكور في أوائل هذا الكتاب وفيه فوائد من أخبار المغاربة وغيرهم فنقلت منه ما يضاف إلى هذه الترجمة وهو

134 أن عبد المؤمن كان في حياته قد عهد إلى أكبر أولاده وهو محمد وباعه الناس وكتب ببيعته إلى البلاد فلما مات عبد المؤمن لم يتم له الأمر لأنه كان على أمور لا يصلح معها للمملكة من إدمان شرب الخمر واختلال الرأي وكثرة الطيش وجبن النفس ويقال إنه مع هذا كله كان به ضرب من الجذام واضطرب أمره واختلف الناس عليه فخلع وكانت مدة ولايته خمسة وأربعين يوماً وذلك في شعبان من سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وكان الذي سعى في خلعه أخويه يوسف وعمر ابني عبد المؤمن ولما تم خلعه دار الأمر بين الأخوين المذكورين وهما من نجباء أولاد عبد المؤمن ومن ذوي الرأي وتأخر عنهما أبو حفص عمر وسلم الأمر إلى أخيه يوسف فباعه الناس واتفقت عليه الكلمة وكان أبيض تعلوه حمرة شديدة سواد الشعر مستدير الوجه أفوه اعين إلى الطول ما هو في صوته جهارة رقيق حواشي اللسان حلو الألفاظ حسن الحديث طيب المجالسة أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها في الجاهلية والإسلام صرف عنايته إلى ذلك ولقي فضلاء إشبيلية أيام ولايته لها

ويقال إنه كان يحفظ صحيح البخاري وكان شديد الملوكية بعيد المهمة سخياً جواداً استغنى الناس في أيامه وكان يحفظ القرآن العظيم مع جملة من الفقه ثم طمح إلى علم الحكمة وبدأ من ذلك بعلم الطب وجمع من كتب لحكمة شيئاً كثيراً (388) وكان ممن صحبه من العلماء بهذا الشأن أبو بكر محمد بن الطفيل كان متحققاً لجميع أجزاء الحكمة قرأ على جماعة من أهلها منهم أبو بكر ابن الصائغ المعروف بابن باجة وغيره ولابن الطفيل هذا تصانيف كثيرة وكان

135 حريصاً على الجمع بين علم الشريعة والحكمة وكان مفنناً ولم يزل يجمع إليه العلماء من كل فن من جميع الأقطار ومن جملتهم أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي ولما استوثق ليوسف الأمر وملك بلاد مردنيش من الأندلس خرج من إشبيلية قاصداً بلاد الأذفونش من الأندلس أيضاً فنزل على مدينة له تسمى وبذة فأقام محاصراً لها شهوراً إلى أن اشتد عليهم الحصار وعطشوا فراسلوه في تسليم المدينة وأن يعطيهم الأمان على نفوسهم فامتنع عن ذلك فلما اشتد بهم العطش سمع لهم في بعض الليالي لغط عظيم واصوات هائلة وذلك أنهم اجتمعوا بأسرهم ودعوا الله تعالى فجاءهم مطر عظيم ملأ ما كان عندهم من الصهاريج فارتووا وتقووا على المسلمين فانصرف عنهم إلى إشبيلية بعد أن هادتهم مدة سبع سنين وكان يرتفع إليه في كل سنة من خراج إشبيلية وقر مائة وخمسين بغلاً خارجاً عما يرتفع إليه من خراج بقية البلاد في بر العدو وفي بر الأندلس وفي سنة تسع وسبعين تجهز للغزو في جيش عظيم وعبر إلى جزيرة الأندلس ونزل إشبيلية كعادتهم في إصلاح شأنهم ثم رحل إلى شنترين وهي بليدة في غرب الأندلس وهي في غاية المنعة والحصانة فحاصرها وضيق عليها فلم يقدر عليها وهجم الشتاء وخاف المسلمون من البرد وزيادة مد النهر فلا يقدر على العبور وتنقطع عنهم المادة فأشاروا عليه بالرجوع إلى إشبيلية فاذا طاب الزمان عاد عليها فقبل ذلك منهم وقال نحن راحلون غداً إن شاء الله تعالى ولم ينتشر هذا الحديث لأنه قاله في مجلس الخاصة فكان أول من قوض ورحل أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن الخطيب

136 المالقي وكان من أهل العلم والفضل فلما رآه الناس قد قوض خبائه قوضوا أيضاً ثقة به لمكانه من الدولة ومعرفته بأسرارها فعبر تلك الليلة أكثر العسكر على النهر خشية الزحام وطلباً لجيد المنازل ولم يبق إلا من كان بقرب خباء الأمير يوسف بن عبد المؤمن ولا علم له بذلك فلما رأى الروم عبور

العسكر وبلغهم من جواسيسهم ما عزم عليه الأمير يوسف وأصحابه خرجوا منتهزين الفرصة وحملوا حتى انتهوا إلى جهة الأمير يوسف فقتل على بابه خلق كثير من أعيان الجند وخلصوا إلى الأمير يوسف فطعنوه تحت سرتة طعنة كانت سبب منيته وتداركهم الناس فانهمز الروم وجعل الأمير يوسف في محفة وعبر به النهر ولم يسر به سوى ليلتين ومات في الثالثة فلما وصلوا به إلى إشبيلية صبروه وصيروه في تابوت وحملوه إلى تين مل ودفن هناك عند أبيه عبد المؤمن والمهدي محمد بن تومرت وكانت وفاته يوم السبت لسبع خلون من رجب سنة ثمانين وخمسائة وكان قبل موته بأشهر ينشد هذا البيت ويردده في أوقات كثيرة (طوى الجديدان ما قد كنت أنشره * وأنكرتني ذوات الأعين النجل) وقام بعده بالأمر ولده أبو يوسف يعقوب بويع في حياة أبيه وقيل إن اشيخ الدولة اتفقوا على تقديمه بعد وفاة ابيه والله اعلم (389) وكان الأديب ابو العباس أحمد بن عبد السلام الكواربي وكواريا قبيلة من البربر منازلهم بضواحي مدينة فاس وقيل إن هذه القبيلة إنما يقال لها جراوة بفتح الجيم وقد تبدل الجيم كافاً فيقال لها كراوة والنسبة إليها جراوي وكراوي وكان هذا الأديب نهاية في حفظ الأشعار القديمة والمحدثة وتقدم في هذا الشأن وجالس به عبد المؤمن ثم ولده يوسف ثم ولده يعقوب

137 وجمع كتاباً يحتوي على فنون الشعر على وضع الحماسة لأبي تمام الطائي وسماه صفوة الأدب وديوان العرب وهو كثير الوجود بأيدي الناس وهو عند اهل المغرب كالحماسة عند أهل المشرق والمقصود من ذكر هذا الأديب أنه كانت له نواذر نادرة وملح مستظرفة عند أهل الأدب فمن ذلك أنه حضر يوماً إلى باب دار الأمير يوسف المذكور وهناك الطبيب سعيد الغماري وغمارة بضم الغين المعجمة قبيلة من البربر أيضاً فقال الأمير يوسف لبعض خدمه انظر من بالباب من الأصحاب فخرج الخادم إلى الباب ثم عاد إليه فقال أحمد الكواربي وسعيد الغماري فقال الأمير يوسف من عجائب الدنيا شاعر من كورايا وطبيب من غمارة فبلغ ذلك الكواربي فقال (^ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه) يس 78 أعجب منهما والله خليفة من كومية فيقال إن الأمير يوسف لما بلغه ذلك قال أعاقبه بالحلم عنه والعفو ففيه تكذيبه ومن شعره من جملة قصيدة مدح بها الأمير يوسف المذكور وهو بديع غريب (إن الإمام هو الطبيب وقد شفى * علل البرية ظاهراً ودخيلاً) (حمل البسيطة وهي تحمل شخصه * كالروح توجد حاملاً محمولاً) ومن شعره أيضاً في ذم أهل فاس وهي مدينة بالمغرب فيما بين سبتة ومراكش (مشى اللؤم في الدنيا طريداً مشرداً *

يجوب بلاد الله شرقاً ومغرباً (فلما اتى فاساً تلقاه أهلها * وقالوا له أهلاً وسهلاً ومرحباً) وله كل شعر مليح وكان شيخاً مسناً جاوز ثمانين سنة وتوفي في آخر أيام الأمير يعقوب ابن الأمير يوسف وقد ذكرت وفاة الأمير يعقوب في ترجمته فيكشف منها وله مديح في الأمير عبد المؤمن بن علي وأولاده إلى آخر زمنه رحمه الله تعالى

138 وأما شنترين بفتح الشين المعجمة وسكون النون وفتح التاء المثناة من فوقها وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون فهي مدينة في غرب الأندلس وذكر ابن حوقل في كتاب المسالك والممالك أن شنترين على البحر المحيط وبها يقع العنبر ولا يعلم ببلد الروم والمحيط عنبر يقع في غير هذا الموضع وشيء وقع بالشام ويقع بشنترين في وقت من السنة دابة تحك الحجارة في وسط البحر فيقع بها وبرة في لين الخز ولون الذهب فيجمع منه ما يغزل وينسج ثياباً ويتلون الثوب ألواناً وتحجر عليه ملوك بني أمية بالأندلس فلا ينقل ولا يشتري فتزيد قيمة الثوب على ألف دينار لعزته وحسنه والله أعلم قلت وحكى لي بعض الفضلاء من أهل الأندلس أنه رأى قطعة من هذه الثياب هناك وأراد أن يصفها لي فما قدر أن يعبر عنها ثم قال لكنها أرفع وانعم من نسج العنكبوت فتعالى الله ما أجل قدرته وأطف حكيمته وأحسن صنعته وكيف خص كل صقع بنوع من الغرائب سبحانه وتعالى والله در ابي نواس حيث قال (وفي كل شيء له آية * تدل على أنه واحد)

139 السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي الملقب الملك الناصر صلاح الدين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والفراتية واليمينية قد تقدم في هذا الكتاب ذكر أبيه أيوب وجماعة من أولاده وعمه أسد الدين شيركوه أخيه الملك العادل أبي بكر محمد وجماعة من أولاده وغيرهم من أهل بيته وصلاح الدين كان واسطة العقد وشهرته أكبر من أن تحتاج إلى التنبيه عليه اتفق أهل التاريخ على أن اباه وأهله من دوين بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون وهي بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج وأنهم أكراد روادية بفتح الراء والواو وبعد الألف دال مهملة ثم ياء مثناة من تحتها ومشددة وبعدها هاء والروادية بطن من الهذبانبة بفتح الهاء والذال المعجمة وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء مشددة مثناة من تحتها وبعدها هاء وهي قبيلة كبيرة من الأكراد وقال لي رجل فقيه عارف بما يقول وهو من أهل دوين إن على باب دوين قرية يقال لها أجدانقان بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال المهملة وبعد

الألف نون مفتوحة وقاف مفتوحة وبعد الألف الثانية نون أخرى وجميع أهلها
أكراد روادية ومولد أيوب والد صلاح الدين

140 بها وشاذي أخذ ولديه اسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج
بهما إلى بغداد ومن هناك نزلوا تكريت ومات شاذي بها وعلى قبره قبة داخل
البلد ولقد تتبعت نسبتهم كثيراً فلم أجد أحداً ذكر بعد شاذي ابا آخر حتى إني
وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب فلم أر فيها سوى
شيركوه بن شاذي وأيوب بن شاذي لا غير وقال لي بعض كبراء بيتهم هو
شاذي بن مروان وقد ذكرت ذلك في ترجمة أيوب وشيركوه ورأيت مدرجاً
رتبة الحسن بن غريب بن عمران الحرشي يتضمن أن أيوب بن شاذي بن
مروان بن أبي علي بن عنثرة بن الحسن بن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد
العزیز بن هدبة بن الحصين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مرة بن عوف
بن اسامة بن بيهس بن الحارث صاحب الحمالة ابن عوف بن أبي حارثة بن
مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد ابن ذبيان بن بغيض بن ريث
بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن الياس ابن مضر بن نزار بن معد بن
عدنان ثم رفع بعد هذا النسب حتى انتهى إلى آدم عليه السلام ثم ذكر بعد ذلك
أن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبدالعزيز يقال إنه ممدوح المتنبى ويعرف
بالخراساني وفيه يقول من جملة قصيدته (شرق الجو بالغبار إذا سار * علي
بن أحمد القمقام) وأما حارثة بن عوف بن أبي حارثة صاحب الحمالة فهو
الذي حمل الدماء بين عبس وذبيان وشاركه في الحمالة خارجة بن سنان أخو
هرم بن

141 سنان وفيهما قال زهير بن ابي سلمى المزني قصائد منها قوله ()
على مكثريهم حق من يعترتهم * وعند المقلين السماحة والبذل (وهل ينبت
الخطي إلا وشيجه * وتغرس إلا في منابتها النخل) هذا آخر ما ذكره في
المدرج وكان قد قدمه إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل
صاحب دمشق وسمعه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر
داود ابن الملك المعظم وكتب لهما بسماعهما عليه في آخر رجب سنة تسع
عشرة وستمائة والله أعلم انتهى ما نقلته من المدرج ورأيت في تاريخ حلب
الذي جمعه القاضي كمال الدين ابو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم
الحلبي بعد أن ذكر الاختلاف في نسبهم فقال وقد كان المعز إسماعيل بن سيف
الإسلام ابن أيوب ملك اليمن ادعى نسباً في بني أميه وادعى الخلافة وسمعت
شيخنا القاضي بهاء الدين عرف بابن شداد يحكي عن السلطان صلاح الدين

أنه أنكر ذلك وقال ليس لهذا أصل أصلاً قلت ذكر شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري صاحب التاريخ الكبير في تاريخه الصغير الذي صنفه للدولة الأتابكية ملوك الموصل في فصل يتعلق بأسد الدين شيركوه ومسيره إلى الديار المصرية فقال كان أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وهو الأكبر ابنا شاذي من بلد دوين وأصلهما من الأكراد الروادية قد قدما العراق وخدموا مجاهد الدين بهروز بن عبد الله الغياثي شحنة بالعراق (390) قلت وهذا مجاهد الدين كان خادماً رومياً أبيض اللون تولى شحنة بالعراق من جهة السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي المقدم

142 ذكره وذكر والده وجماعة من أهل بيته وكان صاحب همة في عمل المصالح الجليلة وعماراة البلاد واسع الصدر والصبر في البذول والإنفاقات والمطاولة والمراجعة إذا امتنع عليه الغرض وكانت تكريت إقطاعاً له وكان خادم السلطان محمد والد مسعود المذكور وبنى في بغداد رباطاً وقف عليه وقفاً جيداً ومات يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب سنة أربعين وخمسمائة وبهروز بكسر الباء الموحدة وسكون الهاء وضم الراء وسكون الواو وبعدها زاي وهو لفظ عجمي معناه يوم جيد على التقديم والتأخير على عادة كلام العجم قال شيخنا ابن الأثير فرأى مجاهد الدين في نجم الدين أيوب عقلاً ورأياً حسناً وحسن سيرة فجعله دزدار تكريت إذ هي له قلت دزدار بضم الدال المهملة وسكون الزاي وفتح الدال المهملة وبعد الألف راء وهو لفظ عجمي معناه حافظ القلعة وهو الوالي ودزه بالعجمي القلعة ودار الحافظ فصار إليها ومعه أخوه أسد الدين شيركوه فلما انهزم اتابك الشهيد عماد الدين زنكي بالعراق من قراجا قلت وهي وقعة مشهورة خلاصتها أن مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي المقدم ذكره وعماد الدين زنكي صاحب الموصل قصداً حصار بغداد في أيام الإمام المسترشد فأرسل إلى قراجا الساقى واسمه برس صاحب بلاد فارس وخوزستان يستنجد به فأتاه وكبس عسكرهما وانهما بين يديه وانكسرا وذكر في تاريخ الدولة السلجوقية أنها كانت في شهر ربيع الآخر يوم الخميس ثاني عشر الشهر المذكور من سنة ست وعشرين وخمسمائة على تكريت وقال أسامة بن منقذ المقدم ذكره في كتابه الذي ذكر فيه البلاد وملوكها الذين كانوا في زمانه إنه حضر هذه الواقعة مع زنكي في التاريخ المذكور ذكر ذلك في موضعين أحدهما في ترجمة إربل والثاني في ترجمة تكريت

143 رجعنا إلى ما كنا فيه فوصل زنكي إلى تكريت فخدمه نجم الدين أيوب وأقام له السفن فعبر دجلة هناك وتبعه أصحابه فأحسن نجم الدين إليهم وسيرهم وبلغ ذلك بهروز فسير إليه وأنكر عليه وقال له كيف ظفرت بعدونا فأحسننت إليه وأطلقته ثم إن أسد الدين قتل إنسانا بتكريت لكلام جرى بينهما فأرسل مجاهد الدين إليهما فأخرجهما من تكريت فقصدا عماد الدين زنكي قلت وكان إذ ذاك صاحب الموصل قال فأحسن عماد الدين إليهما وعرف لهما خدمتهما وأقطعهما إقطاعا حسنا وصارا من جملة جنده فلما فتح عماد الدين زنكي بعلبك جعل نجم الدين دزدارها فلما قتل زنكي قلت وقد سبق ذكر ذلك في ترجمته قال فحصره عسكر دمشق قلت وكان صاحب دمشق يومئذ مجير الدين أبق بن محمد بن بوري ابن الأتابك ظهير الدين طغتكين وهو الذي حاصره نور الدين محمود بن زنكي في دمشق وأخذها منه قال شيخنا ابن الأثير فأرسل نجم الدين أيوب إلى سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل وقد قام بالملك بعد والده ينهي إليه الحال ويطلب منه عسكرا ليرحل صاحب دمشق عنه وكان سيف الدين في ذلك الوقت في أول ملكه وهو مشغول بإصلاح ملوك الأطراف المجاورين له فلم يتفرغ له وضاق الأمر على من في بعلبك من الحصار فلما رأى نجم الدين أيوب الحال وخاف أن تؤخذ قهرا أرسل في تسليم القلعة وطلب إقطاعا ذكره فأجيب إلى ذلك وحلف له صاحب دمشق عليه وسلم القلعة ووفى له صاحب دمشق بما حلف عليه من الإقطاع والتقدم وصار عنده من أكبر الأمراء واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل أبيه زنكي قلت هو نور الدين محمد بن زنكي صاحب حلب وكان يخدمه في أيام والده فقربه نور الدين وأقطعه وكان يرى منه في الحروب آثارا

144 يعجز عنها غيره لشجاعته وجرأته فصارت له حمص والرحبة وغيرهما وجعله مقدم عسكره قلت ثم خرج شيخنا ابن الأثير بعد هذا إلى حديث سفر أسد الدين إلى الديار المصرية وما تجدد لهم هناك وليس هذا موضع هذا الفصل بل نتم حديث صلاح الدين صاحب هذه الترجمة من مبدأ أمره حتى نصير إلى آخره إن شاء الله تعالى ويندرج فيه حديث المملكة وما صار حالهم إليه وإن كان قد سبق في ترجمة أسد الدين شيركوه طرف من أخبارهم لكن ما أستوفيته هناك اعتمادا على استيفائه ها هنا إن شاء الله تعالى قلت اتفق أرباب التواريخ أن صلاح الدين مولده سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت لما كان أبوه وعمه بها والظاهر انهم ما أقاموا بها بعد ولادة

صلاح الدين إلا مدة يسيرة لأنه قد سبق القول أن نجم الدين وأسد الدين لما خرجا من تكريت كما شرحناه وصلا إلى عماد الدين زنكي فأكرمهما وأقبل عليهما ثم إن عماد الدين زنكي قصد حصار دمشق فلم تحصل له فرجع إلى بعلبك فحصرها أشهرا وملكها في رابع عشر صفر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة كما ذكره أسامة بن منقذ المقدم ذكره في كتابه الذي ذكر فيه البلاد وملوكها وذكر أبو يعلى حمزة بن أسد المعروف بابن القلانسي الدمشقي في تاريخه الذي جعله ذيلا على تاريخ أبي الحسين هلال ابن الصابي أن عماد الدين حاصر بعلبك يوم الخميس العشرين من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين ثم ذكر في مستهل سنة أربع وثلاثين أنه ورد الخبر بفراغ عماد الدين من ترتيب بعلبك وقلعتها وترميم ما تشعث منها والله اعلم وإذا كان كذلك فيكون قد خرجوا من تكريت في بقية سنة اثنتين وثلاثين التي ولد فيها صلاح الدين أو في سنة ثلاث وثلاثين لأنهما أقاما عند عماد الدين بالموصل ثم لما حاصر دمشق وبعدها بعلبك وأخذها رتب فيها نجم الدين أيوب وذلك في أوائل سنة أربع وثلاثين

145 كما شرحته فيتعين أن يكون خروجهم من تكريت في المدة المذكورة تقديرا والله أعلم قلت ثم أخبرني بعض أهل بيتهم وقد سألته هل تعرف متى خرجوا من تكريت فقال سمعت جماعة من أهلنا يقولون إنهم أخرجوا منها في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين فتشاءموا به وتطيروا منه فقال بعضهم لعل فيه الخيرة وما تعلمون فكان كما قال والله أعلم ولم يزل صلاح الدين تحت كنف أبيه حتى ترعرع ولما ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي دمشق في التاريخ المذكور في ترجمته لازم نجم الدين أيوب خدمته وكذلك ولده صلاح الدين وكانت مخايل السعادة عليه لائحة والنجابة تقدمه من حاله إلى حالة ونور الدين يرى له ويؤثره ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد حتى تجهز للمسير مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية كما سنشرحه إن شاء الله تعالى وجدت في بعض تواريخ المصريين أن شاور المقدم ذكره هرب من الديار المصرية من الملك المنصور أبي الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار الملقب فارس المسلمين اللخمي المنذري لما استولى على الدولة المصرية وقهره وأخذ مكانه في الوزارة كعادتهم في ذلك وقتل ولده الأكبر طي بن شاور فتوجه شاور إلى الشام مستغيثا بالملك العادل نور الدين أبي القاسم محمود بن زنكي وذلك في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ودخل دمشق في الثالث

والعشرين من ذي القعدة من السنة فوجه نور الدين معه الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي في جماعة من عسكره كان صلاح الدين في جملتهم في خدمة عمه وهو كاره للسفر معهم وكان لنور الدين في إرسال هذا الجيش غرضان أحدهما قضاء حق شاوور لكونه قصده ودخل عليه مستصرخا والثاني أنه أراد استعلام أحوال مصر فإنه كان يبلغه أنها ضعيفة من جهة الجند وأحوالها في غاية الاختلال فقصده الكشف عن حقيقة ذلك

146 وكان كثير الاعتماد على شيركوه لشجاعته ومعرفته وأمانته فاننتدبه لذلك وجعل أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين مقدم عسكره وشاوور معهم فخرجوا من دمشق في جمادى الأولى سنة تسع وخمسين فدخلوا مصر واستولوا على الأمر في رجب من السنة وقال شيخنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف بابن شداد المقدم ذكره في كتابه الذي وسمه باسيره صلاح الدين إنهم دخلوا مصر في ثاني جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسائة والقول الأول أصح لأن الحافظ أبا طاهر السلفي ذكر في معجم السفر أن الضرغام بن سوار قتل في سنة تسع وخمسين وخمسائة وزاد غيره فقال يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من السنة عند مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها فيما بين القاهرة ومصر واحتز رأسه وطيف به على رمح وبقيت جثته هناك ثلاثة أيام تأكل منها الكلاب ثم دفن عند بركة الفيل وعمرت عليه قبة قلت والقبة إلى الآن باقية في موضعها تحت الكباش المستجد بناؤه ورأيت فيها جماعة من الفقراء الجوالقية مقيمين وقد قيل إن الضرغام إنما قتل في رجب من سنة تسع وخمسين وقد اتفقوا على أن الضرغام إنما قتل عند قدوم أسد الدين شيركوه وشاوور إلى مصر فما يمكن أن يكون دخولهم مصر في سنة ثمان وخمسين لأن الضرغام لا خلاف في قتله في سنة تسع وخمسين وأنه كان في أول وصولهم والحافظ السلفي أخبر بذلك لأنه كان مقيما في البلاد أول وصولهم وهو اضبط لهذه الأمور من غيره لأن هذا فنه وهو من أقعد الناس به ولما وصل أسد الدين وشاوور إلى الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا

147 الضرغام وحصل لشاوور مقصودة وعاد إلى منصبه وتمهدت قواعده واستمرت أموره غدر بأسد الدين شيركوه واستتجد بالفرنج عليه وحصله في بلبيس وكان أسد الدين قد شاهد البلاد وعرف أحوالها وأنها مملكة بغير رجال تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال فطمع فيها وعاد إلى الشام في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وخمسين وقال شيخنا

ابن شداد في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين بناء على ما قرره أولا أن دخولهم البلاد كان في سنة ثمان وخمسين وأقام أسد الدين بالشام مدة مفكرا في تدبير عوده إلى مصر محدثا نفسه بالملك لها مقرا قواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة وبلغ شاور حديثه وطمعه في البلاد فخاف عليها وعلم أن أسد الدين لا بد له من قصدتها فكتب الفرنج وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنهم منها تمكينا كليا ليعينوه على استئصال أعدائه وبلغ نور الدين وأسد الدين مكاتبة شاور للفرنج وما تقرر بينهم فخافا على الديار المصرية أن يملكوها ويملكوا بطريقها جميع البلاد فتجهز أسد الدين وأنفذ معه نور الدين العساكر وصلاح الدين في خدمة عمه أسد الدين وكان توجههم من الشام في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة وكان وصول أسد الدين إلى البلاد مقارنا لوصول الفرنج إليها واتفق شاور والمصريون بأسرهم والفرنج على أسد الدين وجرت حروب كثيرة ووقعات شديدة وانفصل الفرنج عن البلاد وانفصل أسد الدين أيضا راجعا إلى الشام وكان سبب عود الفرنج أن نور الدين جرد العساكر إلى بلادهم وأخذ المنيطرة منهم في رجب من هذه السنة وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم فعادوا إليها وكان سبب عود أسد الدين إلى الشام ضعف عسكره بسبب موقعة الفرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد وعائنه من الأهوال وما

148 عاد حتى صالح الفرنج على أن ينصرفوا كلهم عن مصر وعاد إلى الشام في بقية السنة وقد انضاف إلى قوة الطمع في الديار المصرية شدة الخوف عليها من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كما قد كشفها وعرفوها كما عرفها فأقام بالشام على مضض وقلبه قلق والقضاء يقوده إلى شيء قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك وكان عوده في ذي القعدة من هذه السنة إلى الشام وقيل إنه عاد في ثامن عشر شوال من السنة والله أعلم ورأيت في بعض المسودات التي بخطي ولا أعلم من أين نقلته أن أسد الدين لما طمع في الديار المصرية توجه إليها في سنة اثنتين وستين وسلك طريق وادي الغزلان وخرج عند إطفح فكانت فيها وقعة البابين عند الأشمونين وتوجه صلاح الدين إلى الإسكندرية فاحتوى بها وحاصره شاور في جمادى الآخرة من السنة ثم عاد أسد الدين من جهة الصعيد إلى بلبس وتم الصلح بينه وبين المصريين وسيروا له صلاح الدين فساروا إلى الشام ثم إن أسد الدين عاد إلى مصر مرة ثالثة قال شيخنا ابن شداد وكان سبب ذلك أن الفرنج جمعوا فارسهم وراجلهم وخرجوا يريدون الديار المصرية ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين

طمعا في البلاد فلما بلغ ذلك أسد الدين ونور الدين لم يسعهما الصبر دون أن سارعا إلى قصد البلاد أما نور الدين فبالمال والرجال ولم يمكنه المسير بنفسه خوفا على البلاد من الفرنج ولأنه كان قد حدث له نظر إلى جانب الموصل بسبب وفاة علي بن بكتكين قُلت هو زين الدين والد السلطان مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل وقد تقدم ذكره في ترجمة ولده كوكبوري قال فإنه توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وستين وخمسمائة وسلم ما كان في يده من الحصون لقطب الدين أتابك ما عدا إربل فإنها كانت له من أتابك زنكي وأما اسد الدين فبنفسه وماله وإخوته وأهله ورجاله ولقد

149 قال لي السلطان صلاح الدين قدس الله روحه كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة وما خرجت مع عمي باختياري وهذا معنى قوله تعالى ([^] وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) البقرة 216 وكان شاور لما أحس بخروج الفرنج إلى مصر على تلك القاعدة سير إلى أسد الدين يستصرخه ويستنجده فخرج مسرعا وكان وصوله إلى مصر في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة ولما علم الفرنج بوصول أسد الدين إلى مصر على اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين على أعقابهم ناكسين وأقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الأحيان وكان وعدهم بمال في مقابله ما خسروه من النفقة فلم يوصل إليهم شيئا وعلقت مخاليب أسد الدين في البلاد وعلم أنه متى وجد الفرنج رخصة أخذوا البلاد وأن شاور يلعب به تارة وبالفرنج أخرى وملاكها فقد كانوا على البدعة المشهورة وتحقق أسد الدين انه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور فأجمع رأيه على القبض عليه إذا خرج إليه وكان الأمراء الواصلون مع أسد الدين يترددون إلى خدمة شاور وهو يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به وكان يركب على عادة وزرائهم بالطبل والبوق والعلم ولم يتجاسر على قبضه أحد من الجماعة إلا السلطان بنفسه وذلك أنه لما سار إليهم تلقاه راكبا وسار إلى جانبه وأخذ بتلابيبه وأمر العسكر بأن قصدوا أصحابه ففروا ونهبهم العسكر وأنزل شاور إلى خيمة مفردة وفي الحال ورد توقيع على يد خادم خاص من جهة المصريين يقول لا بد من رأسه جريا على عادتهم في وزرائهم فحز رأسه وأرسل إليهم وسيروا إلى أسد الدين خلع الوزارة فلبسها وسار ودخل القصر وترتب وزيرا وذلك في سابع عشر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة ودام أمرا وناهيا والسلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى مباشر الأمور مقرر لها لمكان كفايته ودرايته وحسن

رأيه وسياسته إلى الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة
فمات أسد الدين قلت وقد تقدم حديث أسد الدين

150 وصورة موته فلا حاجة إلى شرحها ها هنا وكذلك وفاة شاور وهذا
كله نقلته من كلام شيخنا ابن شداد في سيرة صلاح الدين ولكنني أتيت منه
بالمقصود وحذفت الباقي ورأيت بخطي في جملة مسوداتي أن أسد الدين دخل
القاهرة يوم الأربعاء سابع شهر ربيع الآخر من سنة أربع وستين وخمسمائة
وخرج إليه العاضد عبد الله العبيدي آخر ملوك مصر المقدم ذكره وتلقاه
وحضر يوم الجمعة التاسع من الشهر إلى الإيوان وجلس إلى جانب العاضد
وخلع عليه وأظهر له شاور ودا كثيرا فطلب منه أسد الدين مالا ينفقه في
عسكره فدافعه فأرسل إليه أن الجند تغيرت قلوبهم عليه بسبب عدم النفقة فاذا
خرجت فكن على حذر منهم فلم يكثر شاور بكلامه وعزم أن يعمل دعوة
يستدعي إليها أسد الدين والعساكر الشامية ويقبض عليهم فأحس أسد الدين بذلك
فاتفق صلاح الدين وعز الدين جورديك النوري وغيرهما على قتل شاور
وأعلموا أسد الدين فنهاهم عنه وخرج شاور إلى أسد الدين وكانت خيامهم على
شاطيء النيل بالمقس فلم يجده في جهته وكان قد راح إلى زيارة تربة الإمام
الشافعي رضي الله عنه بالقرافة فقال شاور نمضي إليه فالتقوه فساروا جميعا
فاكتنفه صلاح الدين وجورديك وأنزلاه عن فرسه وكتفوه فهرب أصحابه
فأخذوه أسيرا ولم يمكنهم قتله بغير إذن نور الدين وجعلوه في خيمة ورسوموا
عليه جماعة فأرسل العاضد يأمرهم بقتله فقتلوه وسيروا رأسه على رمح إلى
العاضد وذلك يوم السبت لسبع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر من السنة
المذكورة وقيل إن أسد الدين لم يحضر ذلك بل لما قصد شاور جهة أسد الدين
لقىه صلاح الدين وجورديك ومعهما بعض العسكر فسلم بعضهم على بعض
وساروا ثم فعلا به هذه الفعلة والله أعلم ثم إن العاضد استدعى أسد الدين
عقيب قتل شاور وكان في الخيم

151 فدخل القاهرة فرأى جمعا كبيرا من من العامة فخافهم فقال لهم إن
مولانا العاضد امركم بنهب دار شاور فتفرقوا ومضوا لنهبها ودخل على
العاضد فتلقاه وأفاض عليه خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش ثم
إنه مات يوم الأحد لسبع بقين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة بعلة
الخوانيق وقيل إنه سم في حنك الوزارة لما خلع عليه وكانت وفاته بالقاهرة
ودفن بدار الوزارة ثم نقل إلى المدينة النبوية على ساكنها افضل الصلاة
والسلام فكانت مدة وزارته شهرين وخمسة أيام وقيل إن أسد الدين دخل على

العاضد يوم الإثنين التاسع عشر من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة والله أعلم قلت قد تقدم في ترجمة كل واحد من شاور وأسد الدين ذكر شيء من هذه الأمور التي ذكرتها ها هنا وإنما أعدت الكلام فيها لأنني استوفيتها ها هنا أكثر من هناك وأيضا فان المقصود في هذا كله ذكر سيرة صلاح الدين وتنقلاته وما جرى له من أول أمره إلى آخره فأحببت ذكر ذلك على سياقة واحدة كي لا ينقطع الكلام فيبقى أبتتر فأقول ذكر المؤرخون أن أسد الدين لما مات استقرت الأمور بعده للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وتمهدت القواعد ومشى الحال على أحسن الأوضاع وبذل الأموال وملك قلوب الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها وشكر نعمة الله تعالى عليه فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بقميص الجد والاجتهاد وما زال على قدم الخير وفعل ما يقربه إلى الله تعالى إلى أن مات قال شيخنا ابن شداد سمعته يقول رحمه الله تعالى لما يسر لي الله الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي ومن حين استتب له الأمر ما زال يشن الغارات على الفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادهما

152 وغشي الناس من سحائب الإفضال والإنعام ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام وهذا كله وهو وزير متابع القوم لكنه يقول بمذهب أهل السنة غارس في البلاد أهل الفقه والعلم والتصوف والدين والناس يهرعون إليه من كل صوب ويفدون عليه من كل جانب وهو لا يخيب قاصدا ولا يعدم وافدا إلى سنة خمس وستين وخمسمائة ولما عرف نور الدين استقرار أمر السلطان بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين وذلك في رجب سنة أربع وستين ولما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم وما تم للسلطان من استقامة الأمر بالديار المصرية علموا أنه يملك بلادهم ويخرب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك واجتمع الفرنج والروم جميعا وقصدوا الديار المصرية فقصدوا دمياط ومعهم آلات الحصار وما يحتاجون إليه من العدد ولما سمع فرنج الشام ذلك اشتد امرهم فسرقوا حصن عكار من المسلمين وأسروا صاحبها وكان مملوكا لنور الدين يقال له خطلخ العلم دار وذلك في شهر ربيع الآخر من سنة خمس وستين ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم فنزل على الكرك محاصرا لها في شعبان من السنة المذكورة فقصده فرنج الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقفوا له ثم بلغه وفاة مجد الدين ابن الداية وكانت وفاته بطلب في شهر رمضان سنة خمس وستين فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره وعاد يطلب الشام فبلغه أمر

الزلازل بطلب التي أخرجت كثيرا من البلاد وكانت في ثاني عشر شوال منها فصار يطلب حلب فبلغه خبر موت أخيه قطب الدين بالموصل قلت وقد ذكرت ذلك في ترجمته واسمه مودود قال وبلغه الخبر وهو بتل باشر فصار من ليلته طالبا بلاد الموصل ولما بلغ صلاح الدين قصد الفرنج دمياط استعد لهم بتجهيز الرجال وجميع

153 الآلات إليها ووعدهم بالإمداد بالرجال إن نزلوا عليهم وبالغ في العطايا والهبات وكان وزيرا متحكما لا يرد أمره في شيء ثم نزل الفرنج عليها واشتد زحفهم وقتالهم عليها وهو رحمه الله يشن عليهم الغارات من خارج والعسكر يقاتلهم من داخل ونصر الله تعالى المسلمين به وبحسن تدبيره فرحلوا عنها خائبين فأحرقت مناجيقهم ونهبت آلتهم وقتل من رجالهم خلق كثير واستقرت قواعد صلاح الدين وسير طلب والده نجم الدين أيوب ليتم له السرور وتكون قصته مشاكلة لقصة يوسف الصديق عليه السلام فوصل والده إليه في جمادى الآخرة من سنة خمس وستين قلت هكذا ذكر ابن شداد تاريخ وصوله إلى مصر والصواب فيه هو الذي ذكرته في ترجمته وسلك معه من الأدب ما جرت به عادته وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه وقال يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفاء له ولا ينبغي أن يغير موضع السعادة فحكمه في الخزائن كلها ولم يزل وزيرا حتى مات العاضد في التاريخ المقدم ذكره قلت أكثر ما ذكرته في هذا الفصل منقول من كلام شيخنا ابن شداد في سيرة صلاح الدين وفيه زوائد من غيرها والذي ذكره شيخنا الحافظ عز الدين ابن الأثير المذكور قبل هذا في تاريخه الأتابكي أن كيفية ولاية صلاح الدين أن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة يعني بعد موت أسد الدين منهم الأمير عين الدولة الياروقي وقطب الدين حسرو بن تليل وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل قلت هو صاحب المدرسة القطبية التي بالقاهرة ومنهم سيف الدين علي بن أحمد الهكاري وجده كان صاحب القلاع الهكارية قلت هو المعروف بالمشطوب والد عماد الدين أحمد بن المشطوب وقد تقدم ذكره في ترجمة مستقلة

154 قال ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين وكل واحد من هؤلاء يخطبها لنفسه وقد جمع ليغالب عليها فأرسل العاضد صاحب مصر غلى صلاح الجين وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الأمر بعد عمه وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف

صلاح الدين فإنه ظن أنه إذا لوي صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته مستضعفا يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه فاذا صار معه البعض أخرج الباقيين وتعود البلاد إليه وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين والقصة مشهورة أردت عمرا وأراد الله خارجه قلت هذا المثل مشهور بين العلماء وسيأتي الكلام عليه بعد الفراغ من هذه الترجمة إن شاء الله تعالى عدنا إلى تمام الكلام الأول فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزمه وأخذ كارها إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل فلما حضر في القصر خلع عليه خلع الوزارة الجبة والعمامة وغيرهما ولقب الملك الناصر وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه قلت وقد سبق ذكره في ترجمة مفردة قال ابن الأثير فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه وقال له إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل فمال إلى صلاح الدين ثم قصد شهاب الدين الحارمي وقال له إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك وقد استقام الأمر له فلا تكن أول من يسعى في إخراجة عنه ولا يصل إليك ولم يزل به حتى أحضره أيضا عنده وحلفه له ثم عدل إلى

155 قطب الدين وقال له إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير الياروقي وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك ووعدته وزاد في إقطاعه فأطاع صلاح الدين أيضا وعدل على عين الدولة الياروقي وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا فلم تنفعه رقاؤه ولا نفذ فيه سحره وقال أنا لا أخدم يوسف أبدا وعاد إلى نور الدين ومعه غيره فأنكر عليهم فراقه وقد فات الأمر ليقضي الله أمرا كان مفعولا وثبت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه وهو نائب عن الملك العادل نور الدين والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ولا يتصرفون إلا عن أمره وكان نور الدين يكتب صلاح الدين بالأمير الإصفهسلار ويكتب علامته في الكتب تعظما أن يكتب اسمه وكان لا يفرد في كتاب بل يكتب الأمير الإصفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه وطلب من العاضد شيئا يخرج به فلم يمكنه منعه فمال الناس إليه وأحبوه وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه وضعف أمر العاضد فكان كالباحث عن

حتفه بظلفه قال ابن الأثير في تاريخه الكبير قد اعتبرت التواريخ ورأيت كثيرا من التواريخ الإسلامية فرأيت كثيرا ممن يبتدئ الملك تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه منهم في أول الإسلام معاوية بن أبي سفيان أول من ملك من أهل بيته فانتقل الملك عن أعقابه إلى بني مروان من بني عمه ثم من بعده السفاح أول من ملك من بني العباس انتقل الملك من أعقابه إلى أخيه المنصور ثم السامانية أول من استبد فيهم نصر بن أحمد فانتقل الملك عنه إلى أخيه إسماعيل بن أحمد وأعقابه ثم يعقوب بن الليث الصفار وهو أول

156 من ملك من أهل بيته وانتقل الملك عنه إلى أخيه عمرو وأعقابه ثم عماد الدولة بن بويه أول من ملك من أهل بيته ثم انتقل الملك عنه إلى أخويه معز الدولة وركن الدولة ثم السلجوقية أول من ملك منهم طغرل بك ثم انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود ثم هذا شيركوه كما ذكرناه انتقل الملك إلى ولد أخيه نجم الدين أيوب ولولا خوف الإطالة لذكرنا أكثر من هذا والذي اظنه السبب في ذلك أن الذي يكون أول دولته يكثر القتل فيأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به فلهذا يحرم الله أعقابه ويفعل ذلك لأجلهم عقوبة له نعود إلى ذكر صلاح الدين وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه أخوته فلم يجبه إلى ذلك وقال أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر فسير نور الدين العساكر وفيهم إخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة توران شاه بن أيوب قلت وقد تقدم ذكره في ترجمة مستقلة قال وهو اكبر من صلاح الدين فلما أراد أن يسير قال له نور الدين إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر فإنك تفسد البلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه وإن كنت تنظر إليه صاحب مصر وقائم مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني فسر إليه واشدد أزره وساعده على ما هو بصدده فقال أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يتصل بك إن شاء الله تعالى فكان معه كما قال ثم قال شيخنا ابن الأثير بعد هذا بأوراق في فصل يتعلق بانقراض الدولة المصرية وإقامة الدولة العباسية بها في المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة فقال

157 قطعت خطبة العاضد صاحب مصر وخطب فيها للإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين وكان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه في مصر وزال المخالفون له وضعف أمر العاضد ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة العباسية فاعتذر صلاح

الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى دولة المصريين فلم يصغ نور الدين إلى قوله وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة له فيه واتفق أن العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة فاستشار أمراءه كيف الإبتداء بالخطبة العباسية فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ومنهم من خاف ذلك إلا أنه لا يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين وكان قد دخل إلى مصر إنسان عجمي يعرف بالأمرير العالم وقد رأيناه بالموصل كثيراً فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال أنا أبتدىء بها فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله فلم ينكر أحد ذلك فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان وكتب بذلك إلى سائر ديار المصرية وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك وقالوا إن سلم فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وجميع ما فيه وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصي يحفظه قلت وقد تقدم ذكره في ترجمة أيضاً قال وجعله كأستاذ دار العاضد فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد ووكل بحفظهم وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم

158 في إيوان في القصر وجعل عندهم من يحفظهم وأخرج من كان من العبيد والإماء فأعتق البعض ووهب البعض وباع البعض وأخلى القصر من أهله وسكانه فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره ممر الأيام وتعاقب الدهور ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعي صلاح الدين فظن أن ذلك خديعة فلم يمض إليه فلما توفي علم صدقة فندم على تخلفه عنه وكان ابتداء الدولة العبيدية بإفريقية والمغرب في ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين وأول من ظهر منهم المهدي أبو محمد عبيد الله وبنى المهديّة وملك إفريقية كلها قلت هكذا ذكر شيخنا ابن الأثير تاريخ استيلاء المهدي عبيد الله على إفريقية والصواب فيه هو الذي ذكرته في ترجمته فيكشف منه ثم إنه قال ولما مات المهدي عبيد الله قام بالأمر بعده ولده القائم أبو القاسم محمد ثم ذكرهم واحداً واحداً حتى انتهى إلى العاضد المذكور فقال وانقرضت دولتهم فكانت مدة دولتهم مائتي سنة وستين سنة وكان مقامهم بمصر مائتي سنة وثمانين سنين وملك منهم أربعة عشر وهم المهدي والقائم والمنصور والمعز والعزیز

والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلي والامر والحافظ والظافر والفائز والعاقد آخرهم قلت وقد ذكرت كل واحد من هؤلاء بترجمة مستقلة في هذا الكتاب فمن اختار الوقوف على احوالهم فليطلبه في اسمه ولا حاجة إلى ذكره ها هنا قال شيخنا ابن الأثير وقد أتينا على ذكر ما اجملناه مستقصى في التاريخ الكبير يعني كتابه الذي سماه الكامل وهو مشهور ومن أنفع الكتب في بابه قال ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد ووهب اهله وأمرائه وباع منه كثيرا وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك قد جمع على طول السنين وممر الدهور فمناه القضيبي الزمرذ طوله نحو قبضة ونصف والجبل

159 الياقوت وغيرهما ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد ولما خطب للمستضيء بأمر الله بمصر أرسل نور الدين إليه يعرفه ذلك فحل عنده أعظم محل وسير إليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صندل المقتفوي إكراما له لأن عماد الدين كان كبير المحل في الدولة العباسية وكذلك أيضا سير خلعا لصلاح الدين إلا أنها أقل من خلع نور الدين وسيرت الأعلام السود لتتصب على المنابر وكانت هذه أول أهبة عباسية دخلت مصر بعد استيلاء العبيدين عليها انتهى ما قاله شيخنا ابن الأثير قلت ولما وصل الخبر إلى الإمام المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن ابن الإمام المستنجد وهو والد الإمام الناصر لدين الله بما تجدد من أمر مصر وعود الخطبة والسكة بها باسمه بعد انقطاعها بمصر هذه المدة الطويلة نظم أبو الفتح محمد سبط ابن التعاويذي المقدم ذكره قصيدة طنانة مدح بها الإمام المستضيء وذكر هذا الفتوح المتجدد له وفتوح بلاد اليمن أيضا وهلاك الخارجي بها الذي سمي نفسه المهدي وذلك في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وكان صلاح الدين قد أرسل له من ذخائر مصر وأسلاب المصريين شيئا كثيرا وأولها (قل للسحاب إذا مرتهيد الجنائب فارحن) (عج باللوى فاسمح بدمعك للمعاهد والدمن) (يا منزل الأتس الجميع وملعب الحي الأغن) (سكنت بك الآرام من بعد الأحبة والسكن) (أين استقلت بالحبيب ركابة ومتى ظعن) (شوقي إلى زمن الحمى سقي الغواذي من زمن)

160 (شوق المغرب شردته يد البعاد عن الوطن) (ولقد عهدتك والزمان * بشملنا بك ما فطن) (وثرأك ما اغبرت مسارحه * وماؤك ما أجن) (وظباؤك الأتراب لي * وطر وتربك لي وطن) (لام العذول وما درى * وجدي وبلبالي بمن) (وجدي بمن فضح القضيبي وأخجل الرشأ

(الأغن) (ما ضر من هو فنتنتي * لو كان يرحم من فتن) (دمعي طليق في محبته * وقلبي مرتهن) (يا محنتي أودى الصدود * بعاشق بك ممتحن) (غادرته وفقاً على العبرات بعدك والحزن) (كلف الفؤاد معذباً * بين الإقامة والظعن) (عطفاً على قرح الجفون * بعيد عهد بالوسن) (لا تبخلي فالبخل يذهب * بهجة الوجه الحسن) (ولرب ليل بت فيه صريع باطية وذن) (أختال من مرح وأسحب فضل ذيلي والردن) (مع مخطف لدن القوام * إذا انتنى رخص البدن) (لكنني كفرت ليلة زرته عني وعن) (بمدائي للمستضيء * أبي محمد الحسن) (المستقر من الخلافة * في الشواهد والفتن) (ومنها) (يا جارياً في العدل من * سنن النبي على سنن) (يا جامعاً خلق النبوة * والخلافة في قرن)

161 (داننت لهيبتك الممالك * والمعائل والمدن) (بالمشرفيات الصوارم * والمتففة اللدن) (وأنتك اسلاب الملوك * من الصعيد إلى عدن) (سلب الدعي بأرض مصر والمضلل في اليمن) (مما اقتناه ذو رعين في القديم وذو يزن) (وشفيت منهم بالظبا * تلك الضغائن والاحن) (لم تغن عنهم حين رعتهم الحصون ولا الجنن) (أمست سباياهم تقاد * أدلة قود البدن) (غادرت عرض بلادهم * غرض النوائب والمحن) (في كل يوم من جيوشك * غارة فيها تشن) (وأعدت سر الأولياء * المؤمنين بها علن) (ورحضت ما ابقت آثار * الخوارج من درن) (فكأن دعوتهم على * تلك المنابر لم تكن) (وهي طويلة فتقتصر منها على هذا القدر ففيه كفاية ومدحه أيضاً بقصيدة أخرى اشار فيها إلى هذا المعنى وليس على خاطري من هذه القصيدة سوى غزلها فأحببت ذكره لكونه في غاية الحسن واللطافة وهو) (أهلا بطلعة زائر * فضح الدجى بضياؤها) (سمح الزمان بوصلها * فدننت على عدوائها) (باتت تعاطيني المدام * وكنت من أكفائها) (فسكرت من ألحاظها * وغنيت عن صهبائها) (بيضاء قتلي دأبها * في نأيها وثوائها)

162 (فإذا دننت بجفونها * وإذا نأت بجفائها) (لا تلتقي ابداً مواعدها * بيوم وفائها) (الشمس من ضراتها * والبدر من رقبائها) (والصبح فوق لثامها * والليل تحت رداؤها) (مضرية تنمى إذا انتسبت إلى حمرائها) (باتت وأطراف الرماح * تجول حول خبائها) (فالموت دون فراقها * والموت دون لقائها) (ولقد مررت بربيعها * بعد النوى وفنائها) (والعين في الأطلال ساكنة * على أطلائها) (فوقفت أنشد في مطالعها * بدور سمائها) (وبكيت حتى كدت أعطف بانتي جرعائها) (يا موحش العين التي

* أنست بطول بكائها) (غادرت بين جوانحي * نفساً تموت بدائها) (تشتاق عيني أن تراك * وأنت في سودائها) (فاذا بخلت بنظرة * سمحت بجمة مائها) (فكأنها كف الخليفة أسلبت بعطائها) وبعد هذا شرع في المديح وابدع فيها جميعها وسأذكر بعد هذا عند أواخر هذه الترجمة شيئاً من مدائحه في صلاح الدين إن شاء الله تعالى فقد كان يسير قصاده إليه من بغداد فتصل أولاً إلى القاضي الفاضل ومعها مديح للفاضل وهو الذي يعرض قصائده على صلاح الدين رحمه الله تعالى ثم ذكر شيخنا ابن الأثير بعد هذا فصلاً يتضمن حصول الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطناً فقال وفي سنة سبع وستين أيضاً حدث

163 ما أوجب نفرة نور الدين عن صلاح الدين وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنج والنزول على الكرك ومحاصرته ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه ويجتمعاً هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكرك فوصل إليه وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه فأرسل كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد المصرية لأمر بلغته عن بعض شيعة العلويين وأنهم عازمون على الوثوب بها وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها فلم يقبل نور الدين عذره وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها فبلغ الخبر إلى صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء وأعلمهم ما بلغه عن عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء فقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين قلت وقد تقدم ذكره في ترجمة مستقلة قال وقال إذا جاء قاتلناه وصددناه عن البلاد ووافقه غيره من أهله فشتهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وكان ذا رأي ومكر وعقل وقال لتقي الدين أقعد وسبه وقال لصلاح الدين أنا ابوك وهذا شهاب الدين خالك أتظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا فقال لا فقال والله لو

رأيت أنا وهذا خالك شهاب الدين نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك

164 بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا كيف يكون غيرنا وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه وهذه البلاد له وقد أقامك فيها وإن أراد عزلك فأبي حاجة له إلى المجيء يأمر بك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد وقال للجماعة كلهم قوموا عنا ونحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد فتفرقوا على هذا وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك فاذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر وكانوا أسلموك إليه وأما الآن بعد هذا المجلس فسيكتبون إليه ويعرفونه قولي وتكتب أنت إليه وترسل في المعنى وتقول أي حاجة إلى قصدي يجبي نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واستعمل ما هو أهم عنده والأيام تندرج والله في كل وقت في شأن والله لو أراد نور الدين قسبة من قصب سكرنا لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو اقتل ففعل صلاح الدين ما أشار به والده فلما رأى نور الدين الأمر هكذا عدل عن قصده وكان الأمر كما قال نجم الدين أيوب وتوفي نور الدين ولم يقصده وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها انتهى ما ذكره ابن الأثير وقال شيخنا ابن شداد في السيرة لم يزل صلاح الدين على قدم بسط العدل ونشر الإحسان وإفاضة الإنعام على الناس إلى سنة ثمان وستين وخمسمائة فعند ذلك خرج بالعسكر يريد بلاد الكرك والشوبك وإنما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية وكان لا يمكن أن تعبر قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها فأراد

165 توسيع الطريق وتسهيلها فحاصرها في هذه السنة وجرى بينه وبين الفرنج وقعات وعاد ولم يظفر منها بشيء ولما عاد بلغه خبر وفاة والده نجم الدين أيوب قبل وصوله إليه قلت وقد ذكرت تاريخ وفاته في ترجمته قال ولما كانت سنة تسع وستين رأى قوة عسكره وكثرة عدده وكان بلغه أن باليمن إنساناً استولى عليها وملك حصونها يسمى عبد النبي بن مهدي فسير أخاه توران شاه فقتله وأخذ البلاد منه وقد بسطت القول في ذلك في ترجمته ثم توفي نور الدين في سنة تسع وستين حسبما شرحت في ترجمته فلا حاجة إلى

الإعادة وبلغ صلاح الدين أن إنساناً يقال له الكنز جمع بأسوان خلقاً عظيماً من السودان وزعم أنه يعيد الدولة المصرية وكان أهل مصر يؤثرون عودهم فانضافوا إلى الكنز المذكور فجهز صلاح الدين إليه جيشاً كثيفاً وجعل مقدمه أخاه الملك العادل وساروا فالتقوا وكسروهم وذلك في السابع من صفر سنة سبعين وخمسمائة واستقرت له قواعد الملك وكان نور الدين رحمه الله قد خلف ولده الملك الصالح إسماعيل المذكور في ترجمة أبيه وكان بدمشق عند وفاة أبيه وكان بقلعة حلب شمس الدين علي بن الداية وشاذبخت وكان ابن الداية قد حدث نفسه بأمور فسار الملك الصالح من دمشق إلى حلب فوصل إلى ظاهرها في المحرم من سنة سبعين ومعه سابق الدين فخرج بدر الدين حسن ابن الداية فقبض على سابق الدين ولما دخل الملك الصالح القلعة قبض على شمس الدين وأخيه حسن المذكور وأودع الثلاثة السجن وفي ذلك اليوم قتل ابو الفضل ابن الخشاب لفتنة جرت بحلب وقيل بل قتل قبل قبض أولاد الداية بيوم لأنهم تولوا تدبير ذلك ثم إن صلاح الدين بعد وفاة نور الدين علم أن ولده الملك الصالح صبي

166 لا يستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك واختلفت الأحوال بالشام وكتب شمس الدين ابن المقدم صلاح الدين فتجهز من مصر في جيش كثيف وترك بها من يحفظها وقصد دمشق مظهراً أنه يتولى مصالح الملك الصالح فدخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة وتسلم قلعتها وكان أول دخوله دار أبيه قلت وهي الدار المعروفة بالشريف العقيقي وهي اليوم في قبالة المدرسة العادلية مشهورة هناك بالعقيقي قال واجتمع الناس إليه وفرحوا به وأنفق في ذلك اليوم مالاً جليلاً واطهر السرور بالدمشقيين وصعد القلعة وسار إلى حلب فنازل حمص وأخذ مدينتها في جمادى الأولى من السنة ولم يشتغل بقلعتها وتوجه إلى حلب ونازلها في يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى من السنة وهي الوقعة الأولى ثم إن سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل لما أحس بما جرى علم أن الرجل قد استقل أمره وعظم شأنه وخاف إن غفل عنه استحوذ على البلاد واستقرت قدمه في الملك وتعدى الأمر إليه فأنفذ عسكرياً وافرأ وجيشاً عظيماً وقدم عليه أخاه عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود وساروا يريدون لقاءه ليردوه عن البلاد فلما بلغ صلاح الدين ذلك رحل عن حلب في مستهل رجب من السنة عائداً إلى حماة ورجع إلى حمص فأخذ قلعتها ووصل عز الدين مسعود إلى حلب وأخذ معه عسكري ابن عمه الملك الصالح

بن نور الدين صاحب حلب يومئذ وخرجوا في جمع عظيم فلما عرف صلاح الدين بمسيرهم سار حتى وافاهم على قرون حماة وراسلهم وراسلوه واجتهد أن يصلحهم فما صالحوه ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نالوا به غرضهم والقضاء يجر إلى أمور وهم بها لا يشعرون فتلاقوا ففضى الله تعالى أن انكسروا بين يديه واسر جماعة منهم فمن عليهم وذلك في تاسع شهر رمضان من

167 السنة عند قرون حماة ثم سار عقيب كسرتهم ونزل على حلب وهي الدفعة الثانية فصالحوه على أخذ المعرة وكفر طاب وبارين ولما جرت هذه الواقعة كان سيف الدين غازي يحاصر أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار وعزم على أخذها منه لأنه كان قد انتمى إلى صلاح الدين وكان قد قارب أخذها فلما بلغه الخبر وأن عسكره انكسر خاف أن يبلغ أخاه عماد الدين الخبر فيشتد أمره ويقوى جأشه فراسله وصالحه ثم سار من وقته إلى نصيبين واهتم بجمع العساكر والإنفاق فيها وسار إلى البيرة وعبر الفرات وخيم على الجانب الشامي وراسل ابن عمه الصالح بن نور الدين صاحب حلب حتى تستقر له قاعدة يصل عليها ثم إنه وصل إلى حلب وخرج الملك الصالح إلى لقائه وأقام على حلب مدة وصعد قلعتها جريدة ثم نزل وسار إلى تل السلطان قلت وهي منزلة بين حماة وحلب قال ومعه جمع كبير وأرسل صلاح الدين إلى مصر طلب عسكرها فوصل إليه وسار به حتى نزل على قرون حماة ثم تصافوا بكرة نهار الخميس العاشر من شوال سنة إحدى وسبعين وجرى قتال عظيم وانكسرت ميسرة صلاح الدين بمظفر الدين بن زين الدين قلت هو صاحب إربل المقدم ذكره قال فإنه كان على ميمنة سيف الدين فحمل صلاح الدين بنفسه فانكسر القوم وأسر منهم جمعاً من كبار الأمراء فمن عليهم واطلقهم وعاد سيف الدين إلى حلب فأخذ منها خزائنه وسار حتى عبر الفرات وعاد إلى بلاده ومنع صلاح الدين من تتبع القوم ونزل في بقية ذلك اليوم في خيامهم فانهم تركوا أنقالهم وانهزموا ففرق صلاح الدين الاصطبلات ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين لابن أخيه عز الدين فرخشاه قلت هو ابن شاهان شاه ابن أيوب وهو أخو تقي الدين عمر صاحب حماة وفرخشاه صاحب بعلبك وهو والد الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك قال وسار إلى منبج فتسلمها ثم سار إلى قلعة عزاز يحاصرها وذلك

168 في رابع ذي القعدة من سنة إحدى وسبعين وعليها وثب جماعة من الإسماعيلية على صلاح الدين فنجاه الله سبحانه منهم وظفره بهم وأقام عليها

حتى أخذها في رابع عشر ذي الحجة من السنة ثم سار فنزل على حلب في سادس عشر الشهر المذكور وأقام عليها مدة ثم رحل عنها وكانوا قد أخرجوا له ابنة صغيرة لنور الدين سألته عزاز فوهبها لها ثم عاد صلاح الدين إلى مصر ليتفقد أحوالها وكان مسيره إليها في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين وكان أخوه شمس الدولة توران شاه قد وصل إليه من اليمن فاستخلفه بدمشق ثم تاهب للغزاة وخرج يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرملة وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وكانت الكسرة على المسلمين في ذلك اليوم قلت وذلك لأمر يطول شرحه قال فلما انهزموا لم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق وتبددوا وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى الهكاري وكان ذلك وهناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة وأما الملك الصالح صاحب حلب فإنه تخبط أمره وقبض على كمشتكين صاحب دولته وطلب منه تسليم حارم إليه فلم يفعل فقتله فلما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها وذلك في جمادى الآخرة من السنة فلما رأى أهل قلعتها الخطر من جهة الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأواخر من شهر رمضان من السنة فرحل الفرنج عنها وأقام صلاح الدين بمصر حتى لم شعته وشعث أصحابه من اثر كسرة الرملة ثم بلغه تخبط الشام فعزم على العود إليه واهتم بالغزاة فوصله رسول قليج أرسلان صاحب الروم يلتمس الصلح ويتضرر من الأرمن فعزم على قصد بلاد ابن لاون قلت وهي بلاد سيبس الفاصلة بين حلب والروم من جهة الساحل قال لينصر قليج أرسلان عليه فتوجه إليه واستدعى عسكر حلب لأنه كان في الصلح أنه متى استدعاه حضر إليه ودخل بلد ابن لاون واخذ في طريقه حصنا واخر به ورجعوا إليه في الصلح فصالحهم ورجع عنهم ثم سأله قليج أرسلان في صلح الشرقيين بأسرهم فأجاب إلى

169 ذلك وحلف صلاح الدين في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين وخمسائة ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة وعاد بعد تمام الصلح إلى دمشق ثم منها إلى مصر ثم توفي الملك الصالح بن نور الدين في التاريخ المذكور في ترجمة والده وكان قد استخلف أمراء حلب وأجنادها لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل قلت وقد تقدم ذكره وهو ابن قطب الدين مودود فلما مات سيف الدين في التاريخ المذكور في ترجمته قام مقامه أخوه عز الدين مسعود المذكور قال فلما بلغ عز الدين خبر موت الملك الصالح وأنه أوصى له بحلب بادر إلى التوجه إليها خوفاً أن يسبقه صلاح الدين

فأخذها فكان أول قادم إليها مظفر الدين بن زين الدين قلت هو صاحب إربل وكان إذ ذاك صاحب حران وهو مضاف إلى المواصلة لأن تلك البلاد كانت لهم قال فوصلها مظفر الدين في ثالث شعبان سنة سبع وسبعين وفي العشرين منه وصلها عز الدين مسعود وصعد إلى القلعة فاستولى على ما فيها من الحواصل وتزوج أم الملك الصلح في خامس شوال من السنة قلت ثم إن شيخنا ابن شداد ذكر بعد هذا أموراً ذكرتها في ترجمة عز الدين مسعود بن مودود وترجمة أخيه عماد الدين زنكي وترجمة تاج الملوك بوري أخي صلاح الدين فلا حاجة إلى إعادتها هنا فمن أراد الوقوف عليها يكشفها في هذه التراجم قلت وحاصل الأمر أن عز الدين مسعوداً قايض أخاه عماد الدين زنكي

170 صاحب سنجار عن حلب بسنجان وخرج عز الدين عن حلب ودخلها عماد الدين زنكي فجاءه صلاح الدين وحاصره فلم يقدر عماد الدين على حفظ حلب وكان نزول صلاح الدين على حلب في السادس والعشرين من المحرم سنة تسع وسبعين وخمسائة وقال ابن شداد نزل عليها في سادس عشر المحرم والله أعلم فتحدث عماد الدين زنكي مع الأمير حسام الدين طمان بن غازي بن يلمي بن تتجول من جبل سلور بحلب في السر بما يفعله فأشار عليه بأن يطلب منه بلاداً وينزل له عن حلب بشرط أن يكون له جميع ما في القلعة من الأموال فقال له عماد الدين وهذا كان في نفسي ثم اجتمع حسام الدين طمان بصلاح الدين في السر على تقرير القاعدة في ذلك فأجاب به صلاح الدين إلى ما طلب ودفع له سنجان والخابور ونصيبين وسروج ودفع لطمان الرقة لسفارته بينهما وحلف صلاح الدين على ذلك في سابع عشر صفر من السنة وكان صلاح الدين قد نزل على سنجان وأخذها في ثامن شهر رمضان سنة ثمان وسبعين وأعطاه لابن أخيه تقي الدين عمر فلما جرى الصلح على هذه الصورة أعطاه عماد الدين وتسلم صلاح الدين قلعة حلب وصعد إليها يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر سنة تسع وسبعين وخمسائة وأقام بها حتى رتب أموراً ثم رحل عنها في الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة وجعل فيها ولده الملك الظاهر المقدم ذكره في ترجمة مستقلة وكان صبيّاً وولى القلعة سيف الدين يازكوج الأسدي وجعله يرتب مصالح ولده ثم سار صلاح الدين إلى دمشق في التاريخ المذكور قال ابن شداد وتوجه من دمشق لقصده محاصرة الكرك في الثالث من رجب من السنة وسير إلى أخيه الملك العادل وهو بمصر يستدعيه ليجتمع به على الكرك فسار إليه بجمع كثير

وجيش عظيم واجتمع به على الكرك في رابع شعبان من السنة فلما بلغ الفرنج الخبر حشدوا خلقاً كثيراً وجاءوا إلى الكرك ليكونوا في

171 قبالة عسكر المسلمين فخاف صلاح الدين على الديار المصرية فسير إليها ابن أخيه تقي الدين عمر ورحل عن الكرك في سادس عشر شعبان من السنة واستصحب اخاه الملك العادل معه ودخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان من السنة وأعطاه حلب ودخلها في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رمضان من السنة وخرج الملك الظاهر ويازكوج ودخلا دمشق في يوم الاثنين الثامن والعشرين من شوال من السنة وكان الملك الظاهر أحب أولاده إليه لما فيه من الخلال الحميدة ولم يأخذ منه حلب إلا لمصلحة رآها في ذلك الوقت وقيل إن العادل أعطاه على أخذ حلب ثلثمائة ألف دينار يستعين بها على الجهاد والله أعلم ثم إن صلاح الدين رأى أن عود الملك العادل إلى مصر وعود الملك الظاهر إلى حلب أصلح قيل كان سبب ذلك أن الأمير علم الدين سليمان بن جندر قال لصلاح الدين وكان بينهما مؤانسة قبل أن يتملك البلاد وقد سايره يوماً وكان من أمراء حلب والملك العادل لا ينصفه ويقدم عليه غيره وكان صلاح الدين قد مرض على حصار الموصل وحمل إلى حران وأشفى على الهلاك فلما عوفي رجع إلى الشام واجتمعا في المسير قال له وكان صلاح الدين قد أوصى لكل واحد من أولاده بشيء من البلاد بأي رأي كنت تظن أن وصيتك تمضي كأنك كنت خارجاً إلى الصيد وتعود فلا يخالفونك أما تستحي أن يكون الطائر أن يعمل عشاً لفراخه قصد أعالي الشجر ليحمي فراخه وأنت سلمت الحصون إلى أهلك وجعلت أولادك على الأرض هذه حلب وهي أم البلاد بيد أخيك وحماة بيد ابن أخيك تقي الدين وحمص بيد ابن أسد الدين وابنك الأفضل مع تقي الدين بمصر يخرجهم متى شاء وابنك الآخر مع أخيك في خيمة يفعل به ما أراد فقال له صدقت واكتم هذا الأمر ثم أخذ حلب من أخيه وأعطاه ابنه الملك الظاهر وأعطى الملك العادل بعد ذلك حران والرها

172 وميافارقين ليخرجه من الشام ويتوفر الشام على أولاده فكان ما كان قلت وقد تقدم في ترجمة عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود صاحب الموصل فصل يتعلق بنزول صلاح الدين على الموصل وحصارها ثلاث مرار ولم يقدر عليها قال شيخنا ابن الأثير في تاريخه إنه نزل عليها في الدفعة الثالثة وكان زمن الشتاء وعزم على المقام وإقطاع جميع بلاد الموصل وكان نزوله في شعبان من سنة إحدى وثمانين وخمسمائة فأقام شعبان وشهر

رمضان وترددت الرسل بينه وبين صاحبها فينما هو كذلك مرض صلاح الدين فعاد إلى حران ولحقته الرسل بالإجابة إلى ما طلب وتم الصلح على أن يسلم إليه صاحب الموصل شهرزور وأعمالها وولاية القرابلي وما وراء الزاب من الأعمال وأن يخطب له على المنابر وينقش اسمه على السكة فلما حلف أرسل صلاح الدين نوابه وتسلم البلاد التي استقرت القاعدة على تسليمها وطال المرض على صلاح الدين بحران واشتد به حتى أيسوا منه فحلف الناس لأولاده وكان عنده منهم الملك العزيز عماد الدين عثمان وأخوه العادل جاءه من حلب وهو ملكها يومئذ وجعل لكل واحد شيئاً من البلاد وجعل الملك العادل وصياً على الجميع ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشق في المحرم من سنة اثنتين وثمانين ولما كان مريضاً بحران كان عنده ناصر الدين محمد ابن عمه شيركوه وله من الإقطاع حمص والرحبة فسار من عنده إلى حمص واجتاز بحلب وأحضر جماعة من الأحداث ووعدهم وأعطاهم مالاً ولما وصل إلى حمص راسل جماعة من أهل دمشق ووعدهم على تسليم دمشق إليه إذا مات صلاح الدين فعوفي ولم يمض قليل حتى مات ناصر الدين ليلة عيد النحر من السنة فإنه شرب

173 الخمر فأكثر منه فأصبح ميتاً وقيل إن صلاح الدين وضع عليه إنساناً فحضر عنده ونادمه وسقاه سماً فلما أصبحوا من الغد لم يروا ذلك الشخص وكان يقال له الناصح بن العميد فسألوا عنه فقالوا إنه سار من ليلته وكان هذا مما قوى الظن والله أعلم فلما توفي أعطى إقطاعه لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة وخلف من الأموال والدواب والأثاث شيئاً كثيراً فحضر صلاح الدين إلى حمص واستعرض تركته وأخذ أكثرها ولم يترك إلا ما لا خير فيه ثم قال شيخنا بعد هذا كله وبلغني أن شيركوه حضر عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة فقال له إلى أين بلغت في القرآن فقال له (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً) النساء 10 فعجب الجماعة وصلاح الدين من ذكائه والله أعلم بصحة ذلك قال ابن شداد ولما وصل صلاح الدين إلى دمشق عقيب مرضه وإبلاله سير طلب أخاه الملك العادل فخرج من حلب جريدة ليلة السبت الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين ومضى إلى دمشق فأقام في خدمة السلطان صلاح الدين وجرت بينهما احاديث ومراجعات وقواعد تتقرر إلى جمادى الآخرة من السنة فاستقر الأمر على عود الملك العادل إلى مصر وأخذت حلب منه وسار الملك الظاهر إليها فدخل قلعتها يوم السبت سنة اثنتين وثمانين

وخمسمائة وقد ذكرت في ترجمة الملك الظاهر أنه دخل حلب مالكاً لها في مثل يوم وفاته وعينت هناك التاريخ واسم اليوم هكذا وجدته وما أدري من أين نقلته وسلم السلطان ولده الملك العزيز إلى العادل وجعله أتاكبه قال ابن شداد قال لي الملك العادل لما استقرت هذه القاعدة اجتمعت بخدمة

174 الملك العزيز والملك الظاهر وجلست بينهما وقلت للملك العزيز أعلم يا مولاي ان السلطان أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر وأنا أعلم أن المقدمين كثير وما يخلو أن يقال عني ما لا يجوز ويخوفوك مني فإن كان لك عزم أن تسمع منهم فقل لي حتى لا أجيء فقال كيف يتهيأ لي أن أسمع منهم أو أرجع إلى رأيهم ثم التفت إلى الملك الظاهر وقلت له أنا أعرف أن أخاك ربما سمع في أقوال المقدمين وأنا فما لي إلا أنت وقد قنعت منك بمنيج متى ضاق صدري من جانبه فقال مبارك وذكر لي كل خير وزوج السلطان ولده الملك الظاهر غازية خاتون ابنة أخيه الملك العادل ودخل بها يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان من السنة ثم كانت وقعة حطين المباركة على المسلمين قال وكانت في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة في وسط نهار الجمعة وكان كثيراً ما يقصد لقاء العدو في يوم الجمعة عند الصلاة تبركاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر فسار في ذلك الوقت بمن اجتمع له من العساكر الإسلامية وكانت تجوز العد والحصر على تعبئة حسنة وهيشة جميلة وكان قد بلغه عن العدو أنه اجتمع في عدة كثيرة بمرج صفورية بأرض عكا عندما بلغهم اجتماع العساكر الإسلامية فسار ونزل على بحيرة طبرية ثم رحل ونزل على طبرية على سطح الجبل ينتظر قصد الفرنج له إذا بلغهم نزوله بالموضع المذكور فلم يتحركوا ولا خرجوا من منزلتهم وكان نزولهم بالموضع المذكور يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر فلما رأهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية وترك الأطلاب على حالها قبالة العدو ونازل طبرية وهجمها وأخذها في ساعة واحدة وانتهب الناس ما بها وأخذوا في القتل والسبي والحريق وبقيت القلعة محتمية بمن فيها

175 ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية قلقوا لذلك ورحلوا نحوها فبلغ السلطان ذلك فترك على طبرية من يحاصر قلعتها ولحق بالعسكر فالتقى بالعدو على سطح جبل طبرية الغربي منها وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر وحال الليل بين العسكرين قياما على مصاف إلى بكرة يوم الجمعة الثالث والعشرين منه فركب العسكران وتصادما والتحم

القتال واشتد الأمر وذلك بأرض قرية تعرف بلوبيا وضاق الخناق بالعدو وهم سائرون كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون وقد أيقنوا بالويل والثبور وأحست نفوسهم أنهم في غد يومهم ذلك من زوار القبور ولم تزل الحرب تضطرم والفراس مع قرنه يصطدم ولم يبق إلا الظفر ووقع الوبال على من كفر فحال بينهم الليل بظلامه وبات كل واحد من الفريقين في سلاحه إلى صبيحة يوم السبت فطلب كل من الفريقين مقامه وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن ومن بين أيديهم بلاد العدو وأنهم لا ينجيهم إلا الاجتهاد في الجهاد فحملت أطلاب المسلمين من جميع الجوانب وحمل القلب وصاحوا صيحة رجل واحد فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين وكان حقا عليه نصر المؤمنين ولما أحس القومص بالخذلان هرب منهم في أوائل الأمر وقصد جهة صور وتبعه جماعة من المسلمين فنجا منهم وكفى الله شره وأحاط المسلمون بالكافرين من كل جانب وأطلقوا عليهم السهام وحكموا فيهم السيوف وسقوهم كأس الحمام وانهزمت طائفة منهم فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها أحد واعتصمت طائفة منهم بتل يقال له تل حطين وهي قرية عندها قبر النبي شعيب عليه السلام فضايقهم المسلمون وأشعلوا حولهم النيران واشتد بهم العطش وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون للأمر خوفا من القتل لما مر بهم فأسر

176 مقدموهم وقتل الباقون وكان ممن سلم من مقدميهم الملك جفري وأخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك وابن الهنفرى وابن صاحبه طبرية ومقدم الديوية وصاحب جبيل ومقدم الاسبتار قال ابن شداد ولقد حكى لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصا واحدا معه نيف وثلاثون أسيرا قد ربطهم بطنب خيمة لما وقع عليهم من الخذلان ثم إن القومص الذي هرب في أول الأمر وصل إلى طرابلس فأصابه ذات الجنب فهلك منها وأما مقدما الاسبتار والديوية فان السلطان قتلها وقاتل من بقي من صنفهما حيا وأما البرنس أرناط فان السلطان كان قد نذر أنه إن ظفر به قتله وذلك لأنه كان قد عبر به عند الشوبك قوم من الديار المصرية في حال الصلح فغدر بهم وقتلهم فناشدوه الصلح الذي بينه وبين المسلمين فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي وبلغ السلطان فحملته حميته ودينه على أن يهدر دمه ولما فتح الله تعالى عليه بنصره جلس في دهليز الخيمة لأنها لم تكن نصبت بعد وعرضت عليه الأسارى وسار الناس يتقربون إليه بمن في أيديهم منهم وهو فرح بما فتح الله تعالى على يده للمسلمين ونصبت له الخيمة فجلس فيها شاكرا لله تعالى على

ما أنعم به عليه واستحضر الملك جفري وأخاه والبرنس أرناط وناول السلطان جفري شربة من جلاب وتلج فشرب منها وكان على أشد حال من العطش ثم ناولها البرنس وقال السلطان للترجمان قل للملك أنت الذي سقيته وإلا أنا فما سقيته وكان من جميل عادة العرب وكريم اخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن فقصد السلطان بقوله ذلك ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عينه لهم فمضوا بهم إليه فأكلوا شيئاً ثم عادوا بهم ولم يبق عنده سوى بعض الخدم فاستحضرهم

177 وأقعد الملك في دهليز الخيمة واستحضر البرنس أرناط وأوقفه بين يديه وقال له ها أنا أنتصر لمحمد منك ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل فسل النيمجاه فضربه بها فحل كتفه وتم قتله من حضر وأخرجت جثته ورميت على باب الخيمة فلما رآه الملك على تلك الحال لم يشك في أنه يلحقه به فاستحضره وطيب قلبه وقال له لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك وأما هذا فإنه تجاوز الحد وتجراً على الأنبياء صلوات الله عليهم وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور ترتفع أصواتهم بحمد الله وشكره وتهليله وتكبيره حتى طلع الفجر ثم نزل السلطان على طبرية يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر وتسلم قلعتها في ذلك النهار وأقام عليها إلى يوم الثلاثاء ثم رحل طالبا عكا فكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ شهر ربيع الآخر وقاتلها بكرة يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين فأخذها واستنقذ من كان بها من أسارى المسلمين وكانوا أكثر من أربعة آلاف نفس واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع لأنها كانت مظنة التجار وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة فأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرية وكان ذلك لخلوها من الرجال لأن القتل والأسر أفنى كثيراً منهم ولما استقرت قواعد عكا وقسم أموالها وأسارها سار يطلب تبنين فنزل عليها يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى وهي قلعة منيعة فنصب عليها المناجيق وضيق بالزحف خناق من فيها وكان فيها أبطال معدودون وفي دينهم متشددون فقاتلوا قتالاً شديداً ونصره الله سبحانه عليهم فتسلمها منهم يوم الأحد ثامن عشرة عنوة وأسر من بقي فيها بعد القتل ثم رحل عنها إلى صيدا فنزل عليها وتسلمها في غد يوم نزوله عليها وهو يوم الأربعاء العشرون من جمادى الأولى وأقام عليها ريثما قرر قواعدها وسار حتى أتى بيروت فنزلها ليلة الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى وركب عليها

المجانيق وداوم الزحف والقتال حتى أخذها في يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر المذكور

178 وتسلم أصحابه جبيل وهو على بيروت ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان ولم ير الاشتغال بصور بعد ان نزل عليها ثم رأى أن العسكر قد تفرق في الساحل وذهب كل واحد يحصل لنفسه وكانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب والنزال وكان قد اجتمع في صور من بقي في الساحل من الفرنج فرأى أن قصده عسقلان أولى لأنها ايسر من صور فاتى عسقلان ونزل عليها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة من السنة وتسلم في طريقه إليها مواضع كثيرة كالرملة والداروم وأقام في عسقلان المناجيق وقاتلها قتالا شديدا وتسلمها في يوم السبت سلخ جمادى الآخرة من السنة وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبريل والنطرون بغير قتال وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة فإنهم كانوا أخذوها من المسلمين في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسائة هكذا ذكره شيخنا ابن شداد في السيرة وذكر الشهاب ياقوت الحموي في كتابه الذي سماه المشترك وضعوا المختلف صقعا أنهم أخذوها من المسلمين في رابع عشر جمادى الآخرة من السنة قال ابن شداد لما تسلم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصد القدس المبارك واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل فسار نحوه معتمدا على الله تعالى مفوضا أمره إليه منتهزا الفرصة في فتح باب الخير الذي حث على انتهازه بقوله من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يعلم متى يغلق دونه وكان نزوله عليه في يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسائة وكان نزوله بالجانب الغربي وكان معه من كان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة وحزر أهل الخبرة ممن كان معه من كان فيه من المقاتلة فكانوا يزيدون على ستين ألفا خارجا عن النساء والصبيان ثم انتقل

179 لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي في يوم الجمعة العشرين من رجب ونصب المناجيق وضايق البلد بالزحف والقتال حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا مدفع له عنهم وظهرت لهم أمارات فتح المدينة وظهور المسلمين عليهم وكان قد اشتد روعهم لما جرى على أبطالهم وحماتهم من القتل والأسر وعلى حصونهم من التخريب والهدم وتحققوا أنهم صائرون إلى ما صار أولئك إليه

فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان واستقرت القاعدة بالمراسلة من الطائفتين وكان تسلمه في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن الكريم فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله تعالى عوده إلى المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى وكان فتحه عظيما شهده من أهل العلم خلق ومن أرباب الخرق والزهد عالم وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسره الله تعالى على يده من فتوح الساحل وقصده القدس قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف أحد منهم وارتفعت الأصوات بالضجيج بالدعاء والتهليل والتكبير وصليت فيه الجمعة يوم فتحه وخطب الخطيب قلت وقد تقدم في ترجمة القاضي محيي الدين محمد بن علي المعروف بابن الزكي ذكر الخطبة التي خطب بها ذلك اليوم فيكشف منه ورأيت في رسالة القاضي الفاضل المعروفة بالقدسية أن الخطبة أقيمت يوم الجمعة رابع شعبان والله أعلم وإذ قد ذكرنا فتوح القدس وقد تقدم ذكر الخطبة التي خطب يوم الجمعة بها يليق أن نذكر الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل إلى الإمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد ابن الإمام المستضيء بأمر الله تتضمن الفتوح فإنها بديعة بليغة في بابها ولم أذكرها بكمالها بل اخترت منها أحسنها وتركت الباقي لأنها طويلة وهي

180 أدام الله تعالى أيام الديوان العزيز النبوي ولا زال مظفر الجد بكل جاحد غنيا بالتوفيق عن رأي كل رائد موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد مستيقظ النصر والنصل في جفنه راقد وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلقي إلا بشكر واحد ماضي حكم العدل بعزم لا يمضي إلا بنبل غوي وريش راشد لا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المراتع وأنوارا إلى المساجد وبعوث رعبه إلى الإعداء خيلا إلى المراقب وخيالا إلى المراقد كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التباشير لصبح هذه العزيمة والعنوان لكتاب وصف النعمة فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل ولطف لحمل الشكر فيه عبء ثقيل وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب ولله تعالى في إعادة شكره رضا وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضى ولقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها وقد استتبت عقائد أهله على أبين بصائرهم وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط وقع المشروط وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه

والفوز معروضا فقد بذلت الأنفس في ثمنه وأمر أمر الحق وكان مستضعفا وأهل ربه وكان قد عيف حين عفا وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة وأدلت السيوف إلى الآجال وهي نائمة وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها جنان الجنين واسترد المسلمون تراثا كان عنهم أبقا وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النأي طارقا واستقرت على الأعلى أقدامهم وخفقت على الأقصى أعلامهم وتلاقت على الصخرة قبلهم وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غلهم ولما قدم الدين عليها عرف منها سويدا قلبه وهنا كفوها الحجر الأسود بين عصمتها من الكافر بحربه

181 وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى ولا يقاسى تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ولا يناجز من يستمطله في حربه ولا يعاتب بأطراف القتا من يتعادى في عتبه إلا لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هي العليا وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا وكانت الألسن ربما سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار ومن طلب خطيرا خاطر ومن رام صفقة رابحة جاسر ومن سما لأن يجلي غمرة غامر وإلا فإن القعود يلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فيعضها ويضعف في أيديها مهز القوائم فيفضها هذا إلى كون القعود لا يقضى به فرض الله في الجهاد ولا يرعى به حقه في العباد ولا يوفى به واجب التقليد الذي يطوقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون وخلفاء كانوا في مثل هذا اليوم يسألون لا جرم أنهم أورثوا سرهم وسريهم خلفهم الأطهر ونجلهم الأكبر وبقيتهم الشريفة وطليعتهم المنيفة وعنوان صحيفة فضلهم لا عدم سواد القلم وبياض الصحيفة فما غابوا لما حضر ولا غضوا لما نظر بل وصلهم الأجر لما كان به موصولا وشاطروها العمل لما كان عنه منقولا ومنه مقبولا وخلص إليهم المضاجع فاطمأنت به جنوبها وإلى الصحائف ما عبقت به جيوبها وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميرا والنهار به بصيرا والشرق يهتدي بأن داره بل إن بدا نور من ذاته هتف به الغرب بأنواره فإنه نور لا تكنه أغساق السدف وذكر لا توازيه أوراق الصحف وكتب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شققا وطارت

182 فرقه فرقا وقل سيفه فصار عصا وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصى وكلت حملاته وكان قدرا يضرب فيه العنان بالعنان وعقوبة من

الله ليس لصاحب يديها يدان وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة و غضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كثيفة ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث والرب الفرد الواحد وكان عندهم الثالث وبيوت الكفر مهدومة ونيوب الشرك مهتومة وطوائفه المحامية مجمعة على تسليم القلاع الحامية وشجاعانه المتوافية مذعنة لبذل القطائع الوافية لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة ولا في نار الأنفة لهم نصرة قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة وبدل الله مكان السيئة الحسنة ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركته وأنجده بملائكته فكسرهم كسرة ما بعدها جبر وصرعهم صرعة لا ينتعش بعدها بمشيئة الله كفر وأسر منهم من أسرت به السلاسل وقتل منهم من قتلت به المناصل وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار وعن أصناف يخيل بأنه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكسار فنيلوا بثار من السلاح ونالوه أيضا بثار فكم أهله سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين وكم أنجم قنا تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى اجل فاختلسه وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة وافترسه فكان اليوم مشهودا وكانت الملائكة شهودا وكان الضلال صارخا وكان الإسلام

183 مولودا وكانت ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا وأسر الملك وبيده أوثق وثنائقه وأكد وصله بالدين وعلائقه وهو صليب الصلبوت وقائد أهل الجبروت ما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهم يبسط لهم باعه وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه لا جرم أنهم يتهافت على ناره فراشهم ويجتمع في ظل ضلاله خشاشهم ويقاثلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عهد وأوثقه ويعدون سورا تحفر حوافر الخيل خندقه وفي هذا اليوم أسرت سراتهم ودهيت دهاتهم ولم يفلت منهم معروف إلا القومص وكان لعنه الله مليا يوم الظفر بالقتال ومليا يوم الخذلان بالاحتيال فجا ولكن كيف وطار خوفا من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف ثم أخذه الله تعالى بعد أيام بيده وأهلكه لموعده فكان لعدتهم فذلك وانتقل من ملك الموت إلى مالك وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغا البيضاء صنعا الخافقة هي وقلوب أعدائها الغالبة هي

وعزائم أوليائها المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها النشر وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر فافتتح بلاد كذا وكذا وهذه كلها أمصار ومدن وقد تسمى البلاد بلادا وهي مزارع وفدن كل هذه نوات معاقل ومعاقر وبحار وجزائر وجوامع ومنابر وجموع وعساكر يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها ويحصد منها كفرا ويزرع إيمانا ويحط من جوامعها صلبا ويرفع أذانا ويبدل المذابح منابر والكنائس مساجد ويبوء أهل القرآن بعد أهل الصلبان للقتال عن دين الله مقاعد ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أن يعلق النصر منه ومن عسكره بجار ومجرور وأن يظفر بكل سور ما كان يخاف زلزاله ولا زياله إلى يوم النفخ في الصور ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليه كل طريد منهم وشريد واعتصم

184 بمنعتها كل قريب منهم وبعيد وظنوا أنها من الله مانعتهم وأن كنيستها إلى الله شافعتهم فلما نزلها الخادم رأى بلدا كبلاد وجمعا كيوم التناد وعزائم قد تأليت وتألقت على الموت فنزلت بعرضته وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته فزاول البلد من كل جانب فإذا أودية عميقة ولجج وعر غريقة وسور قد انعطف عطف السوار وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقر الدار فعدل إلى جهة أخرى كان للطالع عليها معرج وللخيل فيها متولج فنزل عليها وأحاط بها وقرب منها وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ويزاحمه السور باكنافه وقابلها ثم قاتلها ونزلها ثم نازلها وبرز إليها ثم بارزها وحازها ثم ناجزها وضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح وصدع جمعها فإذا هم لا يبصرون على عبودية الحد عن عنق الصفح فراسلوه ببذل قطيعة إلى مدة وقصدوا نظرة من شدة وانتظارا لنجدة فعرفهم الخادم في لحن القول وأجابهم بلسان الطول وقدم المنجنقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها وأوتر لهم قسيها التي ترمي ولا تفارقها سهامها ولكن تفارق سهامها نصالها فصافحت السور فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك وقدم النصر نسرا من المنجنيق يخلد إخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى السماءك فشج مرادع أبراجها وأسمع صوت عجيجها صم أعلاجها ورفع منار عجاجها فأخلى السور من السيارة والحرب من النظارة وأمكن النقب أن يسفر للحرب النقب وأن يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة انملة وأسمع الصخرة الشريفة أنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقتله وتبرأ بعض الحجارة من

بعض واخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الأرض وفتح من السور باب سد من نجاتهم أبوابا

185 وأخذ ينقب في حجره فقال عنده الكافر يا ليتني كنت ترابا فحينئذ يئس الكفار من اصحاب الدور كما يئس الكفار من أصحاب القبور وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور وفي الحال خرج طاغية كفرهم وزمام أمرهم ابن بارزان سائلا أن يؤخذ البلد بالسلم لا بالعنوة وبالأمان لا بالسطوة وألقى بيده إلى التهلكة وعلاه ذل الهلكة بعد عز المملكة وطرح جنبه على التراب وكان جنبيا لا يتعاطاه طارح وبذل مبلغا من القطيعة لا يطمح إليها أمل طامح وقال ها هنا اسارى مسلمون يتجاوزون الألوف وقد تعاقد الفرنج على أنهم إن هجمت عليهم الدار وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار بدىء بهم فجعلوا وثنى بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا ثم استقتلوا بعد ذلك فلا يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف ولا يفيل سيف من يد إلا بعد أن تقطع أو ينقص فأشار الأمراء بأخذ الميسور من البلد المأسور فإنه لو أخذ حربا فلا بد أن يتقحم الرجال الأنجاد ويقال كفوا عنها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفتكات وأتقل الحركات فقبل منهم المبدول عن يد وهم صاغرون وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون وملك الإسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان لا جرم أن الله تعالى أخرجهم منها وأهبطهم وأرضى أهل الحق وأسخطهم فإنهم خذلهم الله حموها بالأسل والصفاح وبنوها بالعمد والصفاح وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوية والاسبتارية فيها بكل غريبة من الرخام الذي يطرد ماؤه ولا ينطرد لألاؤه قد لطف الحديد في تجزيعه وتفتن في توشيعه إلى أن صار الحديد الذي فيه بأس شديد كالذهب الذي فيه نعيم عتيد فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقرق وعمدا كالأشجار لها من التنبيت أوراق وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود وأقام له من الأئمة من

186 يوفيه ورده المورد وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان فكادت السموات ينقطن للسجود لا للوجوم والكواكب منها تنتثر للطرب لا للرجوم ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طريقها مسدودة وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة وأقيمت الخمس وكان التثليث يقعدا وجهرت الألسنة بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر فرحب به ترحيب من بر بمن بر وخفق علماه في

حفافية فلو طار سروراً لطار بجناحيه وكتاب الخادم وهو مجد في استفتاح بقية الثغور واستشراح ما ضاق بتمادي الحرب من الصدور فان قوى العساكر قد استنفدت مواردها وايام الشقاء قد مردت مواردها والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها ونهبت ذخائرها وأكلت غلالها فهي بلاد ترفد ولا تسترشد وتجم ولا تستنفد يتفق عليها ولا ينفق منها وتجهز الأساطيل لبحرها وتقام المراتب بساحلها ويدأب في عمارة اسوارها ومرمات معاقلها وكل مشقة بالإضافة إلى نعمة الفتح محتملة وأطماع الفرنج بعد ذلك غير مرجئة ولا معتزلة فان يدعوا دعوة يرجو الخادم من الله أنها لا تسمع ولن يكفوا ايديهم من اطراف البلاد حتى تقطع وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص ولا بما سوى المشافهة تتخلص فلذلك نفذ الخادم لساناً شارحاً ومبشراً صادقاً يطالع بالخبر على سياقته ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته وهو فلان والله الموفق هذا بحر الرسالة الفاضلية وكان في عزمي اختصارها والاقتصار على محاسنها فلما شرعت فيها قلت في نفسي عسى أن يقف عليها من يؤثر الوقوف على جميعها فأكملتها ورجعت عن الرأي الأول وهي قليلة الوجود

187 في ايدي الناس وكانت النسخة التي نقلتها منها سقيمة ولقد اجتهدت في تحريرها حتى صحت على هذه الصورة حسب الإمكان وقد عمل عماد الدين الأصبهاني الكاتب رسالة في فتح القدس ايضاً فلم أر التطويل بكتابتها فتركتها وجمع كتاباً سماه الفتح القسي في الفتح القدسي وهو في مجلدين ذكر فيه جميع ما جرى في هذه الواقعة ورأيت منذ زمان رسالة مليحة أنشأها ضياء الدين ابو الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الجزري رحمه الله تعالى المقدم ذكره في حرف النون تتضمن فتح القدس ايضاً وكل واحد من أرباب صناعة الإنشاء كان يريد يمتحن خاطره بما يعمل في ذلك والقاضي الفاضل رئيس هذا الفن وإذا شرع في شيء من هذا الباب لا يستطيع أحد أن يجاريه ولا يباريه فلهذا اثبت رسالته ورفضت غيرها خوف الإطالة وكان قد حضر الرشيد أبو محمد عبد الرحمن بن بدر بن الحسن بن مفرج النابلسي الشاعر المشهور هذا الفتح فأنشد السلطان صلاح الدين قصيدته التي أولها (هذا الذي كانت الآمال تنتظر * فليوف لله أقوام بما نذروا) وهي طويلة تزيد على مائة بيت يمدحه ويهنيه بالفتح وإذا قد نجز المطلوب من هذا الأمر فلنرجع إلى تنمة ما ذكره شيخنا بهاء الدين بن شداد في السيرة الصلاحية قال ونكس الصليب

الذي كان على قبة الصخرة وكان شكلاً عظيماً ونصر الله الإسلام على يده
نصراً عزيزاً

188 قلت وقد تقدم في ترجمة أرتق طرف من أخبار القدس وأن الأفضل
أمير الجيوش بمصر أخذه من ولديه سقمان وإيل غازي ثم إن الفرنج استولوا
عليه يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة
وقيل في ثاني شعبان وقيل يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان
من السنة ولم يزل بأيديهم حتى استنقذه منهم صلاح الدين في التاريخ المذكور
نعود إلى كلام ابن شداد وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل
رجل عشرين ديناراً وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية عن كل صغير ذكر
أو أنثى ديناراً واحداً فمن أحضر قطيعته نجا بنفسه وإلا أخذ أسيراً وأفرج عمن
كان بالقدس من أسارى المسلمين وكانوا خلقاً عظيماً وأقام به يجمع الأموال
ويفرقها على الأمراء والرجال ويحبو بها الفقهاء والعلماء والزهاد والوافدين
عليه وتقدم بإيصال من قام بقطيعته إلى مأمنه وهي مدينة صور ولم يرحل عنه
ومعه من المال الذي جبي له شيء وكان يقارب مائتي ألف دينار وعشرين ألفاً
وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان من السنة ولما فتح
القدس حسن عنده قصد صور وعلم أنه إن أخر أمرها ربما عسر عليه فسار
نحوها حتى أتى عكا فنزل عليها ونظر في أمورها ثم رحل عنها متوجهاً إلى
صور في يوم الجمعة خامس شهر رمضان من السنة فنزل قريباً منها وسير
لإحضار آلات القتال ولما تكاملت عنده نزل عليها في ثاني عشر الشهر
المذكور وقاتلها وضايقها قتالاً عظيماً واستدعى أصطول مصر فكان يقاتلها
في البر والبحر ثم سير من حاصر هونين فسلمت في الثالث والعشرين من
شوال من السنة ثم خرج أصطول صور في الليل فكبس أصطول المسلمين
وأخذوا

189 المقدم والرئيس وخمس قطع للمسلمين وقتلوا خلقاً كثيراً من رجال
المسلمين وذلك في السابع والعشرين من الشهر المذكور وعظم ذلك على
السلطان وضاق صدره وكان الشتاء قد هجم وتراكت الأمطار وامتنع الناس
من القتال لكثرة الأمطار فجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه
بالرحيل لتستريح الرجال ويجتمعوا للقتال فرحل عنها وحملوا من آلات
الحصار ما أمكن وأحرقوا الباقي الذي عجزوا عن حمله لكثرة الوحل والمطر
وكان رحيله يوم الأحد ثاني ذي القعدة من السنة وتفرقت العساكر وأعطى كل
طائفة منها دستوراً وسار كل قوم إلى بلادهم وأقام هو مع جماعة من خواصه

بمدينة عكا إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثم نزل على كوكب في أوائل المحرم من السنة ولم يبق معه من العسكر إلا القليل وكان حصناً حصيناً وفيه الرجال والأقوات فعلم أنه لا يؤخذ إلا بقتال شديد فرجع إلى دمشق ودخلها في سادس عشر شهر ربيع الأول من السنة قال ابن شداد ولما كان على كوكب وصلت إلى خدمته ثم فارقتهم ومضيت لزيارة القدس والخليل عليه أفضل الصلاة والسلام ودخلت دمشق يوم دخول السلطان إليها قلت وقد ذكرت هذا في ترجمته قال وأقام بدمشق خمسة أيام ثم بلغه أن الفرنج قصدوا جبيل واغتاوها فخرج مسرعاً وكان قد سير يستدعي العساكر من جميع المواضع وسار يطلب جبيل فلما عرف الفرنج بخروجه كفوا عن ذلك وكان بلغه وصول عماد الدين صاحب سنجار ومظفر الدين بن زين الدين وعسكر الموصل إلى حلب قاصدين خدمته والغزاة معه فسار نحو حصن الأكراد

190 قال ابن شداد في السيرة إنه اتصل بخدمة السلطان في مستهل جمادى الأولى من سنة أربع وثمانين وجميع ما ذكرته فهو بروايتي عن أثق به ومن هنا ما اسطر إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق إليه خبراً يقارب العيان قال لما كان يوم الجمعة رابع جمادى الأولى دخل السلطان بلاد العدو على تعبئة حسنة ورتب الأطلاب وسارت الميمنة أولاً ومقدمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط والميسرة في الأخير ومقدمها مظفر الدين ابن زين الدين فوصل إلى انطرسوس ضاحي نهار الأحد سادس جمادى الأولى فوقف قبالتها ينظر إليها لأن قصده كان جبلة فاستهان بأمرها وعزم على قتالها فسير من رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر والميسرة على الجانب الآخر ونزل هو موضعه والعساكر محدقة بها من البحر إلى البحر وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان كالقلعتين فركبوا وقاربوا البلد وزحفوا واشتد القتال وباغتوها فما استتم نصب الخيام حتى صعد لمسلمون سورها وأخذوها بالسيف وغنم المسلمون جميع من بها وما بها وأحرق البلد وأقام عليها إلى رابع عشر جمادى الأولى وسلم أحد البرجين إلى مظفر الدين فما زال يحاربه حتى أخربه واجتمع به ولده الملك الظاهر لأنه كان قد طلبه فجاءه في عسكر عظيم ثم سار يريد جبلة وكان وصوله إليها في ثاني عشر جمادى الأولى وما استتم نزول العسكر عليها حتى أخذ البلد وكان فيه مسلمون مقيمون وقاض يحكم بينهم وقوتلت القلعة قتالاً شديداً ثم سلمت بالأمان في يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى من السنة وأقام عليها إلى الثالث والعشرين منه ثم سار عنها إلى اللاذقية وكان نزوله عليها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى

الأولى وهو بلد مليح خفيف على القلب غير مسور وله ميناء مشهور وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد واشتد القتال إلى 191 آخر النهار فأخذ البلد دون القلعتين وغنم الناس منه غنيمة عظيمة لأنه كان بلد التجار وجدوا في أمر القلعتين بالقتال والنقوب حتى بلغ طول النقب ستين ذراعاً وعرضه أربعة أذرع فلما رأى أهل القلعتين الغلبة لانوا بطلب الأمان وذلك في عشية يوم الجمعة الخامس والعشرين من الشهر والتمسوا الصلح على سلامة نفوسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم ما خلا التظال والذخائر والسلاح وآلات الحرب فأجابهم إلى ذلك ورفع العلم الإسلامي عليها يوم السبت وأقام عليها إلى يوم الأحد السابع والعشرين من الشهر فرحل عنها إلى صهيون فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من الشهر واجتهد في القتال فأخذ البلد يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة ثم تقدموا إلى القلعة وصدقوا القتال فلما عاينوا الهلاك طلبوا الأمان فأجابهم إليه بحيث يؤخذ من الرجل عشرة دنانير ومن المرأة خمسة دنانير ومن كل صغير ديناران الذكر والأنثى سواء واقام السلطان بهذه الجهة حتى أخذ عدة قلاع منها بلاطنس وغيرها من الحصون المنيعة المتعلقة بصهيون ثم رحل عنها وأتى بكاس وهي قلعة حصينة على العاصي ولها نهر يخرج من تحتها وكان النزول عليها يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة وقاتلها قتالاً شديداً إلى يوم الجمعة تاسع الشهر ثم يسر الله فتحها عنوة فقتل أكثر من بها وأسر الباقون وغنم المسلمون جميع ما كان فيها ولها قليعة تسمى الشجر وهي في غاية المنعة يعبر إليها منها بجسر وليس عليها طريق فسلطت المناجيق عليها من جميع الجوانب ورأوا أنهم لا ناصر لهم فطلبوا الأمان وذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر ثم سألوا المهلة ثلاثة ايام فأمهلوا وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قلتها يوم الجمعة سادس عشر الشهر ثم سار إلى برزية وهي من الحصون المنيعة في غاية القوة يضرب بها

192 المثل في بلاد الفرنج تحيط بها أودية من جميع جوانبها وعلوها خمسمائة ونيف وسبعون ذراعاً وكان نزوله عليها يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر ثم اخذها عنوة يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه ثم سار إلى دربساك فنزل عليها يوم الجمعة ثامن رجب وهي قلعة منيعة وقاتلها قتالاً شديداً ورقى العلم الإسلامي عليها يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب وأعطاه الأمير علم الدين سليمان بن جندر وسار عنها بكرة يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر ونزل على بغراس وهي قلعة حصينة بالقرب من

أنطاكية وقاتلها مقاتلة شديدة وصعد العلم الإسلامي عليها في ثاني شعبان وراسله أهل أنطاكية في طلب الصلح فصالحهم لشدة ضجر العسكر من البيكار وكان الصلح معهم لا غير على أن يطلقوا كل أسير عندهم والصلح إلى سبعة أشهر فإن جاءهم من ينصرهم وغا سلّموا البلد ثم رحل السلطان فسأله ولده الملك الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به فأجابته إلى ذلك فوصل حلب في حادي عشر شعبان وأقام بالقلعة ثلاثة أيام وولده يقوم بالضيافة حق القيام وسار من حلب فاعترضه تقي الدين عمر ابن أخيه وأصعده إلى قلعة حماة وصنع له طعاماً وأحضر له سماعاً من جنس ما تعمل الصوفية وبات فيها ليلة واحدة وأعطاه جبلة واللادقية وسار على طريق بعلبك ودخل دمشق قبل شهر رمضان بأيام يسيرة ثم سار في أوائل شهر رمضان يريد صدد فنزل عليها ولم يزل القتال حتى تسلمها بالأمان في رابع عشر شوال وفي شهر رمضان المذكور سلمت الكرك سلمها نواب صاحبها وخلصوه بذلك لأنه كان في الأسر من نوبة حطين

193 قلت هكذا ذكره وهذا لا ينتظم مع ما قبله فقد تقدم قبل هذا أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك أسر في وقعة حطين ثم قتله السلطان بيده فيكشف عن ذلك في مكان آخر ليحقق قال ثم سار إلى كوكب وضايقوها وقاتلها مقاتلة شديدة والأمطار متواترة والوحوول متضاعفة والرياح عاصفة والعدو متسلط بعلو مكانه فلما تيقنوا أنهم مأخوذون طلبوا الأمان فأجابهم إليه وتسلمها منهم في منتصف ذي القعدة من السنة ثم نزل إلى الغور وأقام بالمخيم بقية الشهر وأعطى الجماعة دستوراً وسار مع أخيه الملك العادل يريد زيارة القدس ووداع أخيه لأنه كان متوجهاً إلى مصر ودخل القدس في ثامن ذي الحجة وصلى بها العيد وتوجه في حادي عشر ذي الحجة إلى عسقلان لينظر في أمورها وأخذها من أخيه العادل وعوضه عنها الكرك ثم مر على بلاد الساحل يتفقد أحوالها ثم دخل عكا فاقام بها معظم المحرم من سنة خمس وثمانين يصلح أمورها ورتب بها الأمير بهاء الدين قراقوش والياً وأمره بعمارة سورها وسار إلى دمشق فدخلها في مستهل صفر من السنة وأقام بها إلى شهر ربيع الأول من السنة ثم خرج إلى شقيف أرنون وهو موضع حصين فخيم في مرج عيون بالقرب من الشقيف في سابع عشر شهر ربيع الأول وأقام أياماً يباشر قتاله كل يوم والعساكر تتواصل إليه فلما تحقق صاحب الشقيف أنه لا طاقة له به نزل إليه بنفسه فلم يشعر به إلا وهو قائم على باب خيمته فأذن له

194 في دخوله إليه واکرمه واحترمه وكان من أكبر الفرنج وعقلائهم وكان يعرف بالعربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث وكان حسن التأتني لما حضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته وأنه يسلم إليه المكان من غير تعب واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنه الفرنج وإقطاعاً يقوم به وبأهله وشروطاً غير ذلك فأجابته إلى ذلك وفي أثناء شهر ربيع الأول وصله الخبر بتسليم الشوبك وكان السلطان قد اقام عليه جمعاً يحاصرونه مدة سنة كاملة إلى أن نفذ زاد من كان فيه فسلموه بالأمان ثم ظهر للسلطان بعد ذلك أن جميع ما قاله صاحب الشقيف كان خديعة فرسم عليه ثم بلغه أن الفرنج قصدوا عكا ونزلوا عليها يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة خمس وثمانين وفي ذلك اليوم سير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة وأتى عكا ودخلها بغتة لتقوى قلوب من بها وسير استدعى العساكر من كل ناحية فجاءته وكان العدو بمقدار ألفي فارس وثلاثين ألف راجل ثم تكاثر الفرنج واستفحل أمرهم وأحاطوا بعكا ومنعوا من يدخل إليها ويخرج وذلك يوم الخميس سلخ رجب فضاق صدر السلطان لذلك ثم اجتهد في فتح الطريق إليها لتستمر السابلة بالميرة والنجدة وشاور الأمراء فاتفقوا على مضايقة العدو لينفتح الطريق ففعلوا ذلك وانفتح الطريق وسلكه المسلمون ودخل السلطان عكا فأشرف على أمورها ثم جرى بين الفريقين مناوشات في عدة ايام وتأخر الناس إلى تل العياضية وهو مشرف على عكا وفي هذه المنزلة توفي الأمير حسام الدين طمان المقدم ذكره في هذه الترجمة وذلك ليلة نصف شعبان من سنة خمس وثمانين وخمسائة وكان من الشجعان

195 ثم إن شيخنا ابن شداد ذكر بعد هذا وقعات ليس لنا غرض في ذكرها وتطول هذه الترجمة باستيفاء الكلام فيها إذ ليس الغرض سوى المقاصد لا غير وإنما ذكرت فتوحات هذه الحصون لأن الحاجة قد تدعو إلى الوقوف على تواريخها مع أنني لم أذكر إلا ما يكثر التطلع إلى الوقوف عليه وأضربت عن الباقي قال ابن شداد سمعت السلطان ينشد وقد قيل له إن الوخم قد عظم بمرج عكا وإن الموت قد فشا في الطائفتين (اقتلاني ومالكا * واقتلا مالكا معي) يريد بذلك أنه قد رضي أن يتلف إذا أتلف الله أعداءه قلت وهذا البيت له سبب يحتاج إلى شرح وذلك أن مالك بن الحارث المعروف بالأشتر النخعي كان من الشجعان والأبطال المشهورين وهو من خواص أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه تماسك في يوم وقعة الجمل المشهورة هو وعبد الله بن

الزبير بن العوام وكان أيضاً من الأبطال وابن الزبير يومئذ مع خالته عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير رضي الله عنهم أجمعين وكانوا يحاربون علياً رضي الله عنه فلما تماسكا صار كل واحد منهما إذا قوي على صاحبه جعله تحته وركب صدره وفعلاً ذلك مراراً وابن الزبير ينشد (اقتلاني ومالكا * واقتلا مالكا معي) يريد الأشتر النخعي هذه خلاصة القول في ذلك وإن كانت القصة طويلة وهي في التواريخ مبسوطة وقال عبد الله بن الزبير لاقيت الأشتر النخعي يوم الجمل فما ضربته ضربة حتى ضربني ستاً أو سبعة ثم أخذ برجلي فألقاني في الخندق وقال

196 والله لولا قرابتك من رسول الله ما اجتمع منك عضو إلى عضو ابداً وقال أبو بكر بن أبي شيبه أعطت عائشة رضي الله عنها الذي بشرها بسلامة ابن الزبير لما لاقى الأشتر عشرة آلاف درهم وقيل أيضاً إن الأشتر دخل على عائشة رضي الله عنها بعد وقعة الجمل فقالت له يا أشتر أنت الذي أردت قتل ابن أخي يوم الوقعة فأنشدها (أعائش لولا أنني كنت طاوياً * ثلاثاً لألفيت ابن أختك هالكا) (غداة ينادي والرماح تنوشه * بأخر صوت اقتلوني ومالكا) (فنجاه مني أكله وشبابه * وخلوة جوف لم يكن متماسكا) وقال زجر بن قيس دخلت مع عبد الله بن الزبير الحمام فاذا في رأسه ضربة لو صب فيها قارورة دهن لاستقر فقال لي أتدري من ضربني هذه الضربة قلت لا قال ابن عمك الأشتر النخعي رجعنا إلى ما كنا عليه قال ابن شداد ثم إن الفرنج جاءهم الأمداد من داخل البحر واستظهروا على الجماعة الإسلامية بعكا وكان فيهم الأمير سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب الهكاري والأمير بهاء الدين قراقوش الخادم الصلاحي وضايقوهم أشد مضايقة إلى أن غلبوا عن حفظ البلد فلما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من سنة سبع وثمانين وخمسائة خرج من عكا رجل عوام ومعه كتب من المسلمين يذكرون حالهم وما هم فيه وأنهم قد تيقنوا الهلاك ومتى أخذوا البلد عنوة ضربت رقابهم وأنهم صالحوا على أن يسلموا البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدة والأسلحة والمراكب ومائتي ألف دينار وخمسائة أسير مجاهيل ومائة أسير معينين من جهتهم

197 وصليب الصلبوت على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذرائعهم ونسائهم وضمنوا للمركيس لأنه كان الواسطة في هذا الأمر أربعة آلاف دينار ولما وقف السلطان على الكتب المشار إليها أنكر ذلك إنكاراً عظيماً وعظم عليه هذا الأمر وجمع أهل الرأي

من اكابر دولته وشاورهم فيما يصنع واضطربت براؤه وتقسم فكره وتشوش حاله وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه وهو يتردد في هذا فلم يشعر إلا وقد ارتفعت أعلام العدو وصلبانه وناره وشعاره على سور البلد وذلك في ظهيرة يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من السنة وصاح الفرنج صيحة عظيمة واحدة وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزنهم ووقع فيهم الصياح والعيول والبكاء والنحيب ثم ذكر ابن شداد بعد هذا أن الفرنج خرجوا من عكا قاصدين عسقلان ليأخذوها وساروا على الساحل والسلطان وعساكره في قبالتهم إلى أن وصلوا إلى أرسوف فكان بينهما قتال عظيم ونال المسلمين منه وهن شديد ثم ساروا على تلك الهيئة تنمة عشر منازل من مسيرهم من عكا فأتى السلطان الرملة وأتاه من أخبره بأن القوم على عزم عمارة يافا وتقويتها بالرجال والعدد والآلات فأحضر السلطان أرباب مشورته وشاورهم في أمر عسقلان وهل الصواب خرابها أم بقاءها فاتفقت آراؤهم أن يبقى الملك العادل في قبالة العدو ويتوجه هو بنفسه ويخربها خوفاً من أن يصل العدو إليها ويستولي عليها وهي عامرة ويأخذ بها القدس وتنقطع بها طريق مصر وامتنع العسكر من الدخول وخافوا مما جرى على المسلمين بعكا ورأوا أن حفظ القدس أولى فتعين خرابها من عدة جهات وكان هذا الاجتماع يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة سبع وثمانين وخمسائة فسار إليها سحرة الأربعاء ثامن عشر الشهر قال ابن شداد وتحدث معي في معنى خرابها بعد أن تحدث

198 مع ولده الملك الأفضل في أمرها أيضاً ثم قال لأن أفقد ولدي جميعهم أحب إلي من أن أهدم منها حجراً ولكن إذا قضى الله تعالى ذلك وكان فيه مصلحة للمسلمين فما الحيلة في ذلك قال ولما اتفق الرأي على إخراجها أوقع الله تعالى في نفسه ذلك وأن المصلحة فيه لعجز المسلمين عن حفظها وشرع في إخراجها سحرة يوم الخميس التاسع عشر من شعبان من السنة وقسم السور على الناس وجعل لكل امير وطائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجاً معيناً يخربونه ودخل الناس البلد ووقع فيهم الضجيج والبكاء وكان بلداً خفيفاً على القلب محكم الأسوار عظيم البناء مرغوباً في سكنه فلحق الناس على خرابه حزن عظيم وعظم عويل أهل البلد عليه لفراق أوطانهم وشرعوا في بيع ما لا يقدر على حمله فباعوا ما يساوي عشرة دراهم بدرهم واحد وباعوا اثني عشر طير دجاج بدرهم واحد واختبأ البلد وخرج الناس بأهلهم وأولادهم إلى المخيم وتشتتوا فذهب قوم منهم إلى مصر وقوم إلى الشام وجرت عليهم

أمور عظيمة واجتهد السلطان وأولاده في خراب البلد كي لا يسمع العدو فيسرع إليه ولا يمكن من إخرابه وبات الناس على اصعب حال وأشد تعب مما قاسوه في خرابها وفي تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل من أخبر أن الفرنج تحدثوا معه في الصلح وطلبوا جميع البلاد الساحلية فرأى السلطان أن ذلك مصلحة لما علم من نفس الناس من الضجر من القتال وكثرة ما عليهم من الديون وكتب إليه يأذن له في ذلك وفوض الأمر إلى رايه وأصبح يوم الجمعة العشرين من شعبان وهو مصر على الخراب واستعمل الناس عليه وحثم على العجلة فيه وابعاهم ما في الهري الذي كان مدخراً للميرة خوفاً من هجوم الفرنج والعجز عن نقله وأمر بإحراق البلد فأضرمت النيران في بيوته وكان سورها عظيماً ولم يزل الخراب يعمل في البلد إلى سلخ شعبان من السنة وأصبح يوم الإثنين مستهل شهر رمضان أمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه ولقد رأيتهم يحمل الخشب بنفسه لأجل الإحراق

199 وفي يوم الأربعاء ثالث شهر رمضان أتى الرملة ثم خرج إلى لد واشرف عليها وأمر بإخربها وإحراق قلعة الرملة ففعل ذلك وفي يوم السبت ثالث عشر شهر رمضان تأخر السلطان بالعسكر إلى جهة الجبل ليتمكن الناس من تسيير دوابهم لإحضار ما يحتاجون إليه ودار السلطان حول النظرون وهي قلعة منيعة فأمر بإخربها وشرع الناس في ذلك ثم ذكر ابن شداد بعد هذا أن الانكثار وهو من أكابر ملوك الفرنج سير رسوله إلى الملك العادل يطلب الاجتماع به فأجابه إلى ذلك واجتمعوا يوم الجمعة ثامن عشر شوال من السنة وتحادثوا معظم ذلك النهار وانفصلا عن مودة أكيدة والتمس الانكثار من العادل أن يسأل السلطان أن يجتمع به فذكر العادل ذلك للسلطان فاستشار أكابر دولته في ذلك ووقع الاتفاق على أنه إذا جرى الصلح بيننا يكون الاجتماع بعد ذلك ثم وصل رسول الانكثار وقال إن الملك يقول إنني أحب صداقتك ومودتك وأنت تذكر أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه وتقسم البلاد بيني وبينه ولا بد أن يكون لنا علة بالقدس وأطال الحديث في ذلك فأجابه السلطان بوعده جميل وأذن له في العود في الحال وتأثر لذلك تأثراً عظيماً قال ابن شداد وبعد انفصال الرسول قال لي السلطان متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم ولو حدث بي حادث الموت ما كانت تجتمع هذه العساكر وتقوى الفرنج والمصلحة أن لا نزول عن الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت هذا كان رأيه وإنما غلب على الصلح قال ابن شداد ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح وأطال القول في ذلك فتركته إذ لا حاجة إليه وجرت بعد ذلك

وقعات أضربت عن ذكرها لطول الكلام فيها وحاصل الأمر أنه تم الصلح بينهم وكانت الأيمان يوم

200 الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ونادى المنادي بانتظام الصلح وأن البلاد الإسلامية والنصرانية واحدة في الأمن والمسالمة فمن شاء من كل طائفة يتردد إلى بلاد الطائفة الأخرى من غير خوف ولا محذور وكان يوماً مشهوداً نال الطائفتين فيه من المسرة ما لا يعلمه إلا الله تعالى وقد علم الله تعالى أن الصلح لم يكن عن مرضاته وإيثاره ولكنه رأى المصلحة في الصلح لسأمة العسكر ومظاهرتهم بالمخالفة وكان مصلحة في علم الله تعالى فانه اتفقت وفاته بعد الصلح فلو اتفق ذلك في أثناء وقعاته كان الإسلام على خطر ثم أعطى للعساكر الواردة عليه من البلاد البعيدة برسم النجدة دستوراً فساروا عنه وعزم على الحج لما فرغ باله من هذه الجهة وتردد المسلمون إلى بلادهم وجاءوا هم إلى بلاد المسلمين وحملت البضائع والمتاجر إلى البلاد وحضر منهم خلق كثير لزيارة القدس وتوجه السلطان إلى القدس ليتفقد أحوالها وأخوه الملك العادل إلى الكرك وابنه الملك الظاهر إلى حلب وابنه الأفضل إلى دمشق وأقام السلطان بالقدس يقطع الناس ويعطيهم دستوراً ويتأهب للمسير إلى الديار المصرية وانقطع شوقه عن الحج ولم يزل كذلك إلى أن صح عنده مسير مركب الانكثار متوجهاً إلى بلاده في مستهل شوال فعند ذلك قوي عزمه أن يدخل الساحل جريداً يتفقد القلاع البحرية إلى بانياس ويدخل دمشق ويقوم بها أياماً قلائل ويعود إلى القدس ومنه إلى الديار المصرية قال شيخنا ابن شداد وامرني بالمقام في القدس إلى حين عوده لعمارة مارستان أنشأه به وتكميل المدرسة التي أنشأها فيه وسار منه ضاحي نهار الخميس السادس من شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ولما فرغ من افتقاد أحوال القلاع وإزاحة خللها دخل دمشق بكرة

201 الأربعاء سادس عشر شوال وفيها أولاده الملك الأفضل والملك الظاهر والملك الظافر مظفر الدين الخضر المعروف بالمشعر وأولاده الصغار وكان يحب البلد ويؤثر الإقامة فيه على سائر البلاد وجلس للناس في بكرة يوم الخميس السابع والعشرين منه وحضروا عندهم وبلوا شوقهم منه وأنشده الشعراء ولم يتخلف أحد عنه من الخاص والعام وأقام ينشر جناح عدله يوهطل سحاب إنعامه وفضله ويكشف مظالم الرعايا فلما كان يوم الاثنين مستهل ذي القعدة عمل الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر لأنه لما وصل إلى دمشق وبلغه حركة السلطان اقام بها ليطمئئ بال نظر إليه ثانياً وكان نفسه كانت قد أحست بدنو

أجله فودعه في تلك الدفعة مراراً متعددة ولما عمل الملك الأفضل الدعوة أظهر فيها من الهمم العالية ما يليق بهمته وكأنه أراد بذلك مجازاته ما خدمه به حين وصل إلى بلده وحضر الدعوة المذكورة أرباب الدنيا والآخرة وسأل السلطان الحضور فحضر جبراً لقلبه وكان يوماً مشهوداً على ما بلغني ولما تصفح الملك العادل أحوال الكرك واصلح ما قصد إصلاحه فيه سار قاصداً إلى البلاد الفراتية فوصل إلى دمشق في يوم الأربعاء سابع عشر ذي القعدة وخرج السلطان إلى لقائه وأقام يتصيد حوالي غباغب إلى الكسوة حتى لقيه وسارا جميعاً يتصيدان وكان دخولهما إلى دمشق آخر نهار يوم الأحد حادي عشر ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون في أراضي دمشق ومواطن الصبا وكأنه وجد راحة مما كان به من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل وكان ذلك كالوداع لأولاده ومراتع نزهه ونسي عزمه إلى مصر وعرضت له أمور أخر وعزمات غير ما تقدم قال ابن شداد ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني لخدمته وكان شتاء شديداً ووحلا عظيماً فخرجت من القدس في يوم الجمعة الثالث والعشرين

202 من المحرم سنة تسع وثمانين وكان الوصول إلى دمشق في يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر من السنة وركب السلطان لملتقى الحاج يوم الجمعة خامس عشر صفر وكان ذلك آخر ركوبه ولما كان ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً وما تنصف الليل حتى غشيته حمى صفاوية وكانت في باطنه أكثر منها في ظاهره واصبح يوم السبت متكسلاً عليه اثر الحمى ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل ودخل ولده الملك الأفضل وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو قلقه في الليل وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ثم انصرفنا وقلوبنا عنده فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الملك الأفضل ولم تكن للقاضي الفاضل في ذلك عادة فانصرف ودخلت إلى الإيوان القبلي وقد مد السماط وابنه الملك الأفضل قد جلس في موضعه فانصرفت وما كانت لي قوة في الجلوس استيحاشاً له وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلاً لجلوس ولده في موضعه ثم أخذ المرض يتزايد من حينئذ ونحن نلازم التردد طرفي النهار وندخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً وكان مرضه في رأسه وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد عرف مزاجه سافراً وحضراً ورأى الأطباء فصدده ففصدوه في الرابع فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه وكان يغلب عليه اليبس ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ولم

يزل يتزايد ويغيب ذهنه ولما كان التاسع حدثت له غشية وامتنع من تناول المشروب واشتد الخوف في البلد وخاف الناس ونقلوا أقمشتهم من الأسواق وعلا الناس من الكآبة والحزن ما لا تمكن حكايته ولما كان العاشر من مرضه حقن دفتين وحصل من الحقن بعض الراحة وفرح الناس بذلك ثم اشتد مرضه وأيس منه الأطباء ثم شرع الملك الأفضل في تحليف الناس ثم إنه توفي بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر

203 سنة تسع وثمانين وخمسمائة وكان يوم موته يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم وغشي القلعة والملك والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى وبالله لقد كنت أسمع من الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم وكنت أتوهم أن هذا الحديث على ضرب من التجوز والترخص إلى ذلك اليوم فاني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالأنفس ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء وغسله الدولعي (391) قلت الدولعي المذكور هو ضياء الدين ابو القاسم عبد الملك بن زيد ابن ياسين بن زيد بن قائد بن جميل التغلبي الأرقمي الدولعي الشافعي خطيب جامع دمشق توفي في ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وسئل عن مولده فقال في سنة سبع وخمسمائة ثم ذكر غير هذا والله أعلم ودفن بمقابر الشهداء بباب الصغير قال وأخرج بعد صلاة الظهر رحمه الله في تابوت مسجى بثوب فوط فارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظم الضجيج وأخذ الناس في البكاء والعويل وصلوا عليه أرسالا ثم أعيد إلى الدار التي في البستان وهي التي كان ممرضا بها ودفن في الصفة الغربية منها وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر ثم أطال ابن شداد القول في ذلك فحذفته خوفاً من الملالة وأنشد في آخر السيرة بيت ابي تمام الطائي وهو (ثم انقضت تلك السنون وأهلها * فكأنها وكأنهم أحلام)

204 رحمه الله تعالى وقدس روحه فلقد كان من محاسن الدنيا وغرائبها وذكر سبط ابن جوزي في تاريخه في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ما مثاله وفي خامس المحرم خرج صلاح الدين من مصر فنزل البركة قاصداً الشام وخرج أعيان الدولة لوداعه وأنشده الشعراء أبياتاً في الوداع فسمع قائلاً يقول في ظاهر الخيمة (تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار) فطلب القائل فلم يوجد فوجم السلطان وتطير الحاضرون فكان كما قال فإنه اشتغل ببلاد الشرق والفرنج ولم يعد بعدها إلى مصر قلت وهذا البيت من جملة أبيات في الحماسة في باب النسيب وذكر شيخنا عز الدين ابن الأثير في

تاريخه الكبير هذه القضية على صورة أخرى فقال ومن عجيب ما يحكى من التطير أنه لما برز عن القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر وعنده أعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب فمن بين مودع له وسائر معه وكل واحد منهم يقول شيئاً في الوداع والفراق وفي الحاضرين معلم لبعض أولاده فأخرج راسه من بين الحاضرين وأنشد هذا البيت فانقبض صلاح الدين وتطير بعد انبساطه وتتكلم المجلس على الحاضرين فلم يعد إليها إلى أن مات مع طول المدة وذكر ابن شداد أيضاً في أوائل السيرة أنه مات ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية وجرماً واحداً ذهباً سوريا ولم يخلف ملكاً لا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة وفي ساعة موته كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) الأحزاب

205 (^ إن زلزلة الساعة شيء عظيم) الحج 1 كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر أحسن الله عزاءه وجبر مصابه وجعل فيه الخلف في الساعة المذكورة وقد زلزل المسلمون زلزلاً شديداً وقد حفرت الدموع المحاجر وبلغت القلوب الحناجر وقد دعت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده وقد قبلت وجهه عني وعنك وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة ضعيف القوة راضياً عن الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وبالباب من الجنود المجندة والأسلحة المعدة ما لم يدفع البلاء ولا ملك يرد القضاء وتدمع العين ويخشع القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب وأنا عليك لمحزونون يا يوسف وأما الوصايا فما تحتاج إليها والآراء فقد شغلني المصاب عنها وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما عدتم إلا شخصه الكريم وإن كان غيره فالمصائب المستقبلية أهونها موته وهو الهول العظيم والسلام قلت لله دره فلقد أبدع في هذه الرسالة الوجيزة مع ما تضمنته من المقاصد السديدة في مثل تلك الحالة التي يذهل فيها الإنسان عن نفسه قلت وقد ذكرت كل واحد من أولاده المذكورين وهم الأفضل والظاهر والعزيز في ترجمة مستقلة وعينت تاريخ مولده وموته سوى الملك الظاهر المشهور بالمشمر فإني لم أذكر له ترجمة مستقلة وقد ذكرته ها هنا فيحتاج إلى ذكر شيء من أحواله فأقول (392) لقبه مظفر الدين وكنيته أبو الدوام وأبو العباس الخضر وإنما قيل له المشمر لأن أباه رحمه الله تعالى لما قسم البلاد بين أولاده الكبار قال وأنا مشمر فغلب عليه هذا اللقب وكان مولده بالقاهرة في سنة ثمان وستين وخمسائة في خامس شعبان وهو شقيق الملك الأفضل وتوفي في جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وستمائة بحران

عند ابن عمه الملك الأشرف ابن الملك العادل ولم يكن الأشرف يومئذ ملكاً وإنما كان مجتازاً بها عند دخوله بلاد الروم لأجل الخوارزمية

206 قال غير ابن شداد ثم إن السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى بقي مدفوناً بقلعة دمشق إلى أن بنيت له قبة في شمالي الكلاسة التي هي شمالي جامع دمشق ولها بابان أحدهما إلى الكلاسة والآخر في زقاق غير نافذ وهو مجاور المدرسة العزيزية قلت ولقد دخلت إلى هذه القبة من الباب الذي في الكلاسة وقرأت عنده وترحمت عليه وأحضر لي القيم ومتولي القبة بقجة فيها ملبوس بدنه وكان في جملته قباء أصفر قصير ورأس كميته بأسود فتبركت به قال ثم نقل من مدفنه بالقلعة إلى هذه القبة في يوم عاشوراء وكان الخميس من سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ورتب عنده القراء ومن يخدم المكان ثم إن ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان المقدم ذكره لما أخذ دمشق من أخيه الملك الأفضل بنى إلى جانب هذه القبة المدرسة العزيزية ووقف عليها وقفاً جيداً وللقبة المذكورة شبك إلى هذه المدرسة وهي من أعيان مدارس دمشق وزرت قبره في أول جمعة من شهر رمضان سنة ثمانين وستمئة فقرأت على صندوق قبره بعد تاريخ وفاته ما مثاله اللهم فارض عن تلك الروح وافتح له أبواب الجنة فهي آخر ما كان يرجوه من الفتوح وذكر قيم المكان أن هذا من كلام القاضي الفاضل قلت ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس فإن الدولة المصرية كان مذهبها الإمامية فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء فعمر في القرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه وقد تقدم ذكرها في ترجمة نجم الدين الخبوشاني وبنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما وجعل عليها وقفاً كبيراً وجعل دار سعيد السعداء خادم المصريين خانقاه ووقف عليها وقفاً طائلاً وجعل دار عباس المذكور في ترجمة الظاهر العبيدي والعادل ابن السلار مدرسة للحنفية وعليها وقف جيد أيضاً

207 والمدرسة التي بمصر المعروفة بزین التجار ووقفاً على الشافعية ووقفها جيد أيضاً وبنى بالقاهرة داخل القصر مارستاناً وله وقف جيد وله بالقدس مدرسة أيضاً وقفها كثير وخانقاه بها أيضاً وله بمصر مدرسة للمالكية ولقد فكرت في نفسي في أمور هذا الرجل وقلت إنه سعيد في الدنيا والآخرة فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكبيرة وغيرها ورتب هذه الأوقاف العظيمة وليس فيها شيء منسوباً إليه في الظاهر فإن المدرسة

التي في القرافة ما يسميها الناس إلا بالشافعي والمجاورة للمشهد لا يقولون إلا
المشهد والخانقاه لا يقولون إلا خانقاه سعيد السعداء والمدرسة الحنفية لا
يقولون ايضاً إلا مدرسة السيوفية والتي بمصر لا يقولون إلا مدرسة زين
التجار والتي بمصر مدرسة المالكية وهذه صدقة السر على الحقيقة والعجب
أن له بدمشق في جوار البيمارستان النوري مدرسة يقال لها الصلاحية فهي
منسوبة إليه وليس لها وقف وله بها مدرسة للمالكية أيضاً ولا تعرف به وهذه
النعم من ألطاف الله تعالى به وكان مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة
العظيمة كثير التواضع واللفظ قريباً من الناس رحيم القلب كثير الاحتمال
والمداواة وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم وكان يميل إلى
الفضائل ويستحسن الأشعار الجيدة ويردها في مجالسه حتى قيل إنه كان
كثيراً ما ينشد قول ابي منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن
إسحاق الحميري وقيل إنها لأبي محمد أحمد بن علي بن خيران العامري كان
أميراً بالمرية من بلاد الأندلس وكان جده خيران من سبي المنصور بن أبي
عامر فنسب إليه والله أعلم وهي هذه (وزارني طيف من أهوى على حذر *
من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا) (فكدت أوقظ من حولي به فرحاً * وكاد
يهتك ستر الحب بي شعفا) (ثم انتهت وآمالي تخيل لي * نيل المنى
فاستحالت غبطني أسفا) وقيل إنه كان أيضاً يعجبه قول نشؤ الملك أبي
الحسن علي بن مفرج

208 المعروف بابن المنجم المعري الأصل المصري الدار والوفاة وهو
في خضاب الشيب ولقد أحسن فيه (وما خضب الناس البياض لقبه * وأقبح
منه حين يظهر ناصله) (ولكنه مات الشباب فسودت * على الرسم من حزن
عليه منازل) قالوا فكان إذا قال ولكنه مات الشباب يمسك كريمته وينظر إليها
ويقول أي والله مات الشباب وذكر العماد الكاتب الأصبهاني في كتاب
الخريدة أن السلطان صلاح الدين في أول ملكه كتب إلى بعض أصحابه
بدمشق هذين البيتين (أيها الغائبون عنا وإن كنتم لقلبي بذكركم جيرانا) (
إنني مذ فقدتكم لأراكم * بعيون الضمير عندي عيانا) وأما القصيدتان اللثات
ذكرت أن سبط ابن التعاويذي أنفذهما إليه من بغداد فإن إحداهما وازن بها
قصيدة صردر المقدم ذكره وقد ذكرت منها أبياتاً في ترجمة الوزير الكندري
وأولها (أكذا يجازى ود كل قرين) وقصيدة سبط ابن التعاويذي أولها (إن
كان دينك في الصباية ديني * فقف المطي برمليتي يبرين) (والتم ثرى لو
شارفت بي هضبة * ايدي المطي لثمته بجفوني) (وانشد فؤادي في الظباء

معرضاً * فبغير غزلان الصريم جنوني () ونشيدتي بين الخيام وإنما *
غالطت عنها بالطباء العين () لولا العدا لم أكن عن ألاحظها * وقودها
بجوازيء وغصون ()

209 (لله ما اشتملت عليه قبابهم * يوم النوى من لؤلؤ مكنون) (من
كل تائهة على أترابها * في الحسن غانية عن التحسين) (خود ترى قمر
السماء إذا بدت * ما بين سالفة لها وجبين) (غادين ما لمعت بروق ثغورهم
* إلا استهلت بالدموع شؤوني) (إن تنكروا نفس الصبا فلأنها * مرت بزفرة
قلبي المحزون) (وإذا الركائب في الحبال تلتفت * فحنينها لتلفتي وحنيني)
(يا سلم إن ضاعت عهودي عندكم * فأنا الذي استودعت غير أمين) (أو
عدت مغبوناً فما أنا في الهوى * لكم بأول عاشق مغبون) (رفقاً فقد عسف
الفراق بمطلق العبرات في أسر الغرام رهين) (مالي ووصل الغانيات
أرومه * ولقد بخلن علي بالماعون) (وعلام أشكو والدماء مطاحة *
بلحاظهن إذا لوين ديوني) (هيهات ما للبيض في ود امرىء * أرب وقد
أربى على الخمسين) (ومن البلية أن تكون مطالبي * جدوى بخيل أو وفاء
خؤون) (ليت الضنين على المحب بوصله * لئن السماحة من صلاح الدين
(وأما القصيدة الثانية فهي (حتام أرضى في هواك وتغضب * وإلى متى
تجني علي وتعتب) (ما كان لي لولا ملالك زلة * لما مللت زعت أني
مذنب) (خذ في أفانين الصدود فإن لي * قلباً على العلات لا يتقلب)
(أتظنني أضمرت بعدك سلوة * هيهات عطفك من سلوي أقرب) (لي فيك نار
جوانح ما تنطفي * حرقاً وماء مدامع ما تنضب) (أنسيت أياماً لنا وليالياً *
للهو فيها والبطالة ملعب) (أيام لا الواشي يعد ضلالة * ولهي عليك ولا
العذول يؤنب)

210 (قد كنت تنصفي المودة راكباً * في الحب من أخطاره ما أركب
() (واليوم أقنع أن يمر بمضجعي * في النوم طيف خيالك المتأوب) (ما
خلت أن جديد أيام الصبا * يبلى ولا ثوب الشبيبة يسلب) (حتى انجلي ليل
الغواية واهتدى * ساري الدجي وانجاب ذلك الغييب) (وتتافر البيض
الحسان فأعرضت * عني سعاد وأنكرتني زينب) (قالت وريعت من بياض
مفارقي * ونحول جسمي بان منك الأطيب) (إن تنقمي سقمي فخصرك
ناحل * أو تنكري شبيبي فتغرك أشنب) (قلت لله دره فلقد أجاد في هذا المعنى
كل الإجادة غير أنه قد ظن أن الشنب بياض الثغر وعليه بني هذا المعنى حتى
تم له مقصوده فانها لما عيرته بالسقم قابلها بنحول الخصر فقال لها إن كنت

نحيلاً فخصرك أيضاً نحيل فلما أنكرت شبيهه قابلها بأن ثغرها أشنب فكأنه قال لها بياض شبيبي في مقابلة ثغرك الأشنب وليس الأمر كما أظن فان الشنب في اللغة ليس البياض وإنما هو حدة الأسنان ويقال بردها وعذوبتها والصحيح أنه حدثها وهو دليل على الحدائثة لأن الأسنان في أول طلوعها تكون حادة فإذا مرت عليها السنون احتكت وذهبت حدثها وهذا المعنى ينظر إلى قول النابغة الذبياني في جملة قصيدته المشهورة وهو (ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب) وقد تقدم ذكر هذا البيت في ترجمة عروة بن الزبير فيكشف هناك ومثله أيضاً ما أنشدني بهاء الدين زهير بن محمد الكاتب المقدم ذكره لنفسه من جملة أبيات وهو قوله (ما فيه من عيب سوى * فتور عينيه فقط)

211 رجع (يا طالباً بعد المشيب غضارة * من عيشه ذهب الزمان المذهب) (أتروم بعد الأربعين تعدها * وصل الدمى هيهات عز المطلب) (ومن السفاه وقد شاك طلابة * يفعلاً تطلبه وفودك أشيب) (لولا الهوى العذري يا دار الهوى * ما هاج لي طرباً وميض خلب) (كلا ولا استجدبت أخلاف الحيا * وندي صلاح الدين هام صيب) وقد مدحه جميع شعراء عصره وانتجعوه من البلاد فمنهم العلم الشاتاني واسمه الحسن وقد تقدم ذكره مدحه بقصيدته الرائية التي أولها (أرى النصر مقروناً برايتك الصفرا * فسر واملك الدنيا فأنت بها أحرى) ومدحه المهذب أبو حفص عمر بن محمد بن علي بن أبي نصر المعروف بابن الشحنة الموصلية الشاعر المشهور بقصيدته التي أولها (سلام مشوق قد براه التشوق * على جيرة الحي الذين تفرقوا) وعدة أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتاً وفيها البيتان السائران أحدهما (وإني امرؤ أحببتكم لمكارم * سمعت بها والأذن كالعين تعشق) وقد أخذه من قول بشار بن برد المقدم ذكره وهو (يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة * والأذن تعشق قبل العين أحياناً) والبيت الثاني من قصيدة ابن الشحنة قوله (وقالت لي الآمال إن كنت لاحقاً * بأبناء أيوب فأنت الموفق) ومما قيل فيه لبعض أهل المشرق

212 (الله أكبر جاء القوس باريها * ورام أسهم دين الله راميتها) (فكم لمصر على الأمصار من شرف * باليوسفين فهل أرض تدانيها) (فإن يعقوب هزت جيدها طرباً * وبابن أيوب هزت عطفها تيتها) (قل للملوك تخلى عن ممالكها * فقد أتى أخذ الدنيا ومعطيها) فلما أنشدتها إياه أعطاه ألف دينار (ومدحه ابن قلاقس وابن الذروي وابن المنجم وابن سناء الملك وابن

الساعاتي والبحراني الإربلي وابن دهن الحصى الموصلي ومحمد بن إسماعيل ابن حمدان الحيزاني وغير هؤلاء وقد ذكرت أكثر هذه الجماعه في هذا التاريخ وعذري في تطويل هذه الترجمة قول المتنبي (وقد أطال ثنائي طول لابسه * إن الثناء على التنبال تنبال) التنبال الرجل القصير وهو بكسر التاء المثناة من فوقها وبعدها نون ساكنة وباء موحدة وبعده الألف لام قلت قد تقدم في هذه الترجمة عند ذكر إرسال العاضد إلى صلاح الدين وطلبه إياه ليخلع عليه ويوليه الوزارة ذكر المثل المشهور وهو أردت عمراً وأراد الله خارجه وقد يقف عليه من لا يعرف سبب هذا المثل ولا المراد منه فأحببت أن اشرحه كيلا يحتاج من يقف عليه إلى كشفه من مكان آخر فأقول (393) عمرو المذكور هو عمرو بن العاصي بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي

213 كنيته أبو عبد الله وقيل ابو محمد أحد الصحابة رضي الله عنهم أسلم سنة ثمان من الهجرة قبل فتح مكة ومكة فتحها رسول الله في شهر رمضان من هذه السنة وقيل بل أسلم بين الحديبية وخيبر والأول أصح وقدم هو وخالد بن الوليد المخزومي وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة القرشي العبدري على رسول الله بالمدينة مسلمين فلما دخلوا عليه ونظر إليهم قال لهم قد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها وقال الواقدي قدم عمرو بن العاصي مسلماً على رسول الله قد أسلم عند النجاشي ملك الحبشة وقدم معه عثمان بن طلحة وخالد بن الوليد فقدموا المدينة في صفر سنة ثمان من الهجرة وقيل إنه لم يأت من أرض الحبشة إلا معتقداً الإسلام وذلك أن النجاشي قال له يا عمرو كيف يعزب عنك أمر ابن عمك فوالله إنه لرسول الله حقاً قال أتتحقق ذلك قال أي والله فاطعني فخرج من عنده مهاجراً إلى النبي وبعثه رسول الله على سرية إلى الشام يدعو أخوال أبيه إلى الإسلام فبلغ السلاسل من بلاد قضاة وهو ماء بأرض جذام وبذلك سميت تلك الغزوة ذات السلاسل وكان معه ثلثمائة رجل فخاف عمرو فكتب إلى رسول الله يستمده فأمده بجيش مائتي فارس من المهاجرين والأنصار أهل الشرف فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فلما قدموا على عمرو بن العاصي قال أنا أميركم وإنما أنتم مددي فقال ابو عبيدة بل أنت أمير من معك وأنا أمير من معي فأبى عمرو فقال أبو عبيدة إن رسول الله إلى إذا قدمت على عمرو فنتاوعا ولا تختلفا فان خالفتني أطعتك قال عمرو فأني أخالفك فسلم إليه ابو عبيدة وصلى خلفه في الجيش كله وكانوا خمسمائة وولى رسول الله عمرو بن

العاصي على عمان فلم يزل عليها حتى قبض رسول الله وفي سنة اثنتي عشرة بعث أبو بكر رضي الله عنه عمرو بن العاصي ويزيد

214 ابن أبي سفيان الأموي وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة إلى الشام وسار إليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق وأول شيء فتحوا من الشام بصرى صلحاً وتوفي أبو بكر رضي الله عنه واستخلف عمر رضي الله عنه فولى أبا عبيدة على الجيش وفتح الله تعالى عليه الشام فولى يزيد بن أبي سفيان على فلسطين وهي كورة قصبتها الرملة ولما مات أبو عبيدة استخلف معاذ بن جبل ومات معاذ فاستخلف يزيد بن أبي سفيان ومات يزيد فاستخلف أخاه معاوية بن أبي سفيان وكتب إليه عمر رضي الله عنه بعده على ما كان عليه أخوه يزيد وكان موت هؤلاء كلهم في طاعون عمواس في سنة ثمان عشرة للهجرة وعمواس بفتح العين المهملة والميم وفي آخرها سين مهملة وهي قرية بالشام بين نابلس والرملة وكان الطاعون بها في العام المذكور وقيل بل مات يزيد بن أبي سفيان في ذي الحجة من سنة تسع عشرة بدمشق والله أعلم وذلك بعد فتح قيسارية وكان عمر رضي الله عنه قد ولى عمرو بن العاصي بعد موت يزيد بن أبي سفيان فلسطين والأردن وولى معاوية دمشق وبعلبك والبلقاء وولى سعيد بن عامر بن حذيم حمص ثم جمع الشام كلها لمعاوية وكتب إلى عمرو فسار إلى مصر فافتتحها في سنة عشرين للهجرة فلم يزل عليها والياً حتى مات عمر رضي الله عنه فأقره عثمان رضي الله عنه عليها أربع سنين أو نحوها ثم عزله وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري وكان أخا عثمان رضي الله عنه من الرضاعة فاعتزل عمرو بن العاصي في ناحية فلسطين وكان يأتي المدينة أحياناً فلما قتل عثمان رضي الله عنه سار إلى معاوية باستجلاب معاوية إياه وشهد صفين مع معاوية وكان منه في صفين وقضية التحكيم ما هو مشهور عند أهل العلم بهذا الفن وكان قد طلب من معاوية أنه إذا تم له الأمر يوليه مصر وكتب إليه في بعض أيام طلبه

215 (معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل * به منك دنيا فانظرن كيف

تصنع) (فان تعطني مصرأ فأربح بصفقة * أخذت بها شيخاً يضر وينفع) ثم ولاه معاوية مصر فلم يزل بها أميراً إلى أن مات يوم عيد الفطر من سنة ثلاث وأربعين للهجرة وقيل سنة اثنتين وأربعين وقيل سنة ثمان وأربعين وقيل سنة إحدى وخمسين والأول اصح وعمره تسعون سنة ودفن بسفح المقطم وصلى عليه ابنه عبد الله ولما رجع صلى بالناس العيد ثم عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاصي وولى أخاه عتبة بن أبي سفيان فمات عتبة بعد سنة

أو نحوها فولى معاوية مسلمة بن مخلد وكان عمرو بن العاصي من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية وكان من الدهاة في أمور الدنيا المقدمين في الرأي وكان عمر رضي الله عنه إذا استضعف رجلاً في رأيه قال أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد يريد خالق الأضداد وذكر أبو العباس المبرد في كتاب الكامل أن عمرو بن العاصي لما حضرته الوفاة دخل عليه ابن عباس رضي الله عنهما فقال له يا ابا عبد الله كنت أسمعك كثيراً ما تقول وددت لو رأيت رجلاً عاقلاً حضرته الوفاة حتى أسأله عما يجد فكيف تجد فقال أجد كأن السماء مطبقة على الأرض وكأني بينهما وكأنما أتنفس من خرت إبرة ثم قال اللهم خذ مني حتى ترضى فدخل عليه ولده عبد الله فقال له يا ولدي خذ ذلك الصندوق قال لا حاجة لي به فقال إنه مملوء مالا فقال لا حاجة لي به فقال ليته مملوء بعرأ ثم رفع يديه وقال اللهم إنك امرت فعصينا ونهيت فارتكبنا فلا بريء فأعتذر ولا قوي فأنتصر ولكن لا إله إلا أنت ثم فاض يقال فاض وفاض بالطاء والضاد أي مات قال الشاعر

216 (لا يدفنون منهم من فاضا) (394) وأما خارجه المذكور في هذا المثل فانه خارجه بن حذافة بن غانم بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب القرشي العدوي شهد فتح مصر واختط بمصر وكان أمير ربع المدد الذين أمد بهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن العاصي في فتح مصر وكان على شرط مصر في إمرة عمرو ابن العاصي لمعاوية بن ابي سفيان الأموي قتله خارجي بمصر سنة أربعين للهجرة وهو يحسب أنه عمرو بن العاصي هكذا قاله ابن يونس في تاريخ مصر وذكره في كتاب الاستيعاب لابن عبد البر وساق نسبه على هذه الصورة ثم قال يقال إنه كان يعد بألف فارس ذكر بعض أهل النسب والأخبار أن عمرو بن العاصي كتب إلى عمر رضي الله عنه يستمده بثلاثة آلاف فارس فأمده بخارجه بن حذافة والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود الكندي وشهد خارجه فتح مصر وقيل إنه كان قاضيا لعمر بن العاصي بها وقيل إنه كان على شرطة عمرو ولم يزل بها إلى أن قتل قتله أحد الخوارج الثلاثة الذين كانوا انتدبوا لقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاصي فأراد الخارجي قتل عمرو فقتل خارجه هذا وهو يظنه عمرا وذلك أنه كان استخلفه عمرو بن العاصي على صلاة الصبح ذلك اليوم فلما قتله أخذ وأدخل على عمرو فقال من هذا الذي أدخلتموني عليه فقالوا عمرو بن العاصي فقال ومن قتلت فقالوا خارجه فقال أردت عمرا وأراد الله خارجه وقد قيل إن

الخارجي الذي قتله لما أدخل على عمرو قال له عمرو أردت عمرا وأراد الله خارجة والله أعلم من قال ذلك منهما والذي قتل خارجة هذا رجل من بني العنبر بن عمرو بن تميم يقال له دادويه وقيل إنه مولى لبني العنبر وقد قيل إن خارجة الذي قتله الخارجي بمصر

217 على أنه عمرو بن العاصي رجل يسمى خارجة من بني سهم رهط عمرو بن العاصي وليس بشيء انتهى ما قاله صاحب الاستيعاب وقال غيره إن عمرو بن العاصي أصابه شيء في بطنه فتخلف في منزله تلك الليلة وكان خارجة يعشي الناس فضربه الخارجي وكان عمرو يقول ما نفعتني بطني قط إلا تلك الليلة قلت فهذا أصل المثل في قولهم أردت عمرا وأراد الله خارجة وإلى هذا أشار أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الأندلسي في قصيدته التي رثى بها بني الأفطس ملوك بطليوس وأولها (الدهر يفجع بعد العين بالأثر *) بقوله (وليتها إذ فدت عمرا بخارجة * فدت عليا بمن شاءت من البشر) وهي من غرر القصائد جمعت تاريخا كثيرا وشرحها الأديب أبو مروان عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي الشلبي شرحا مستوفى وهذا البيت يحتاج إلى شرح أيضا وهو من تتمة الكلام على المثل المذكور لكني أذكره مختصرا فانه طويل ذكر أهل علم التاريخ أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما بويج بالخلافة في اليوم الذي قتل فيه عثمان بن عفان رضي الله عنه خرج عليه من قاتله في وقعة الجمل وقد ذكرت طرفا من هذه الوقعة في ترجمة يموت بن المزرع ساقها الكلام هناك فذكرت المقصود منه ثم كانت وقعة صفين عند خروج معاوية بن أبي سفيان الأموي وعمرو بن العاصي على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فتوجه إليهم من العراق وجاءوه من الشام والتقوا على صفين وهو موضع على شاطئ الفرات بالقرب من الرحبة وهي واقعة مشهورة وكانت في سنة سبع وثلاثين من الهجرة ولما غلب

218 أهل الشام طلبوا من علي بن أبي طالب رضي الله عنه التحكيم فأجابهم إليه بعد معاودات كثيرة فخرج على علي جماعة من أصحابه وقالوا حكمت في دين الله ولا حكم إلا لله ورحلوا إلى النهروان فمضى إليهم وقاتلهم واستأصلهم إلا اليسير منهم وهي واقعة مشهورة بقتال الخوارج ولما طال الأمر في ذلك اجتمعوا وقالوا إن عليا ومعاوية وعمرو بن العاصي قد أفسدوا امر هذه الأمة فلو قتلناهم لعاد الأمر إلى حقه فقال عبد الرحمن ابن ملجم المرادي أنا أقتل عليا قالوا فكيف لك بذلك قال اغتاله وقال الحجاج بن عبد الله الصريمي أنا أقتل معاوية ويعرف هذا الصريمي بالبرك وقال دادوية

وقيل زانويه وقد تقدم الكلام عليه في الكلام على خارجة بن حذافة أنا أقتل عمرا وأجمعوا آراءهم على أن يكون ذلك في ليلة واحدة فدخل ابن ملجم الكوفة وعلي رضي الله عنه بها فاشتري سيفاً بألف درهم وسقاه السم حتى لفظه فلما خرج علي لصلاة الصبح كان ابن ملجم قد كمن له فضربه على رأسه وقال الحكم لله يا علي لا لك وقيل إنه ضربه وهو في صلاة الصبح وذلك في صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان من سنة أربعين للهجرة وقيل غير هذا التاريخ وقدم البرك الصريمي على معاوية بدمشق فضربه فجرح أليته وهو في الصلاة ويقال إنه قطع عرق النسل فما أحبل بعدها وأما عمرو فقد سبق الكلام عليه عند قتل خارجة وهذا تفسير المثل والبيت الشعر على سبيل الاختصار والله أعلم

219 847 الموفق بن الخلال الكاتب أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال الملقب بالموفق صاحب ديوان الإنشاء بمصر في دولة الحافظ أبي الميمون عبد المجيد العبدي المقدم ذكره ومن بعده قال عماد الدين الكاتب الأصبهاني في كتاب الخريدة في حقه هو ناظر مصر وإنسان ناظره وجامع مفاخره وكان إليه الإنشاء وله قوة على الترسل يكتب كما يشاء عاش كثيراً وعطل في آخر عمره وأضر ولزم بيته إلى أن تعوض منه القبر وتوفي بعد ملك الملك الناصر مصر بثلاث أو أربع سنين وذكر له عدة مقاطيع من الشعر نورد شيئاً منها بعد هذا إن شاء الله تعالى وذكره ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الجزري ثم الموصلي المقدم ذكره في الفصل الأول من كتابه الذي سماه الوشي المرقوم في حل المنظوم فقال حدثني القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني رحمه الله تعالى بمدينة دمشق في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وكان إذ ذاك كاتب الدولة الصلاحية فقال كان فن الكتابة بمصر في زمن الدولة العلوية غضا طريا وكان لا يخلوا ديوان المكاتبات من رأس يرأس

220 مكانا وبيانا ويقوم لسلطانه بقلمه سلطانا وكان من العادة أن كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشدا شيئاً من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع قال فأرسلني والدي وكان إذ ذاك قاضياً بثغر عسقلان إلى الديار المصرية في أيام الحافظ وهو أخذ خلفائها وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجلاً يقال له ابن الخلال فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبتي رحب بي وسهل ثم قال لي ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات

فقلت ليس عندي شيء سوى أنني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة فقال في هذا بلاغ ثم أمرني بملازمته فلما ترددت إليه وتدرجت بين يديه أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة فحللته من أوله إلى آخره ثم أمرني أن أحله مرة ثانية فحللته انتهى ما ذكره ابن الأثير قلت وبعد أن نقلت ما قاله ضياء الدين ابن الأثير على هذه الصورة اجتمع بي من له عناية بالأدب خصوصا هذا الفن وهو من أعرف الناس بأحوال القاضي الفاضل وقال لي هذا الذي ذكره ابن الأثير ما يمكن تصحيحه ولعله قد غلط في النقل فإن القاضي الفاضل لم يدخل إلى الديار المصرية إلا في أيام الظافر ابن الحافظ وكان وصوله إليها مع أبيه في أمر يختص بهم ثم إنني وجدت في بعض تعاليقي بخطي وما أدري من أين نقلته أن القاضي الأشرف والد القاضي الفاضل كان من أهل عسقلان وكان ينوب في الحكم والنظر بمدينة بيسان فدخل إلى مصر في زمان الظافر بن الحافظ لكلام جرى بينه وبين والي الناحية من أجل كند كبير كان عندهم

221 له قيمة كثيرة فداجى الوالي في حقه وأطلقه فاستدعى الوالي إلى مصر لذلك وطولب بمال طائل فاحتفى ببعض أمراء الدولة وجعلوا الأقاويل في حق القاضي الأشرف فاستدعى وصورر إلى أن لم يبق له شيء ولم يكن معه من الأولاد سوى القاضي الفاضل فحمل على قلبه وتوفي بالقاهرة ليلة الأحد حادي عشر شهر ربيع الأول من سنة ست وأربعين وخمسمائة ودفن بسفح المقطم ثم توجه القاضي الفاضل إلى ثغر الإسكندرية وحضر عند ابن حديد قاضي البلد وناظره فعرفه بوالده فعرفه بالسمعة واستكتبه وأخذ الفرنج عسقلان فحضر إخوته إليه وكانت مكاتبات ابن حديد ترد إلى مصر بخطه وهي في غاية البلاغة فحسده كتاب الإنشاء بها على فضله وخافوا من تقدمه عليهم فسعوا إلى الظافر به فقالوا إنه قصر في المكاتبة وكان صاحب ديوان الإنشاء القاضي الإثير ابن بنان فيحكى أنه دخل على الظافر فقال له تكتب إلى ابن حديد بقطع يد كاتبه فتعصب له ابن بنان وقال يا مولانا هذا الرجل ما منه تقصير وإنما حسده هؤلاء الكتاب فسعوا به ليؤذيه مولانا قال له الظافر فتكتب إلى ابن حديد ليرسله إلينا ويكتب لنا قال ابن بنان وكنت بعد ذلك في مجلس الظافر فرأيت القاضي الفاضل وقد حضر وهو قائم بين يديه ثم استخدمه والله أعلم وقال العماد في الخريدة أنشدني مرفف بن أسامة بن منقذ قال أنشدني الموفق بن الخلال لنفسه من قصيدة (عذبت ليال بالعذيب حوالي * وختل مواقف بالوصال حوالي)

222 (ومضت لذاذات تقضى ذكرها * تصبي الخلي وتستهيم السالي)
(وجلت موردة الخدود فأوثقت * في الصبوة الخالي بحسن الخال) (قالوا
سراة بني هلال أصلها * صدقوا كذاك البدر فرع هلال) قال العماد في
الخريدة أيضا ونقلت من كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان قلت وهو تأليف
الرشيد بن الزبير المقدم ذكره من شعر ابن الخلال قوله (وأغن سيف لحاظه
* يفري الحسام بحده) (فضح الصوارم واللدان * بقده وبقده) (عجب
الورى لما حييت * وقد منيت ببعده) (وبقاء جسمي ناحلا * يصلى بوقدة
صده) (كبقاء عنبر خاله * في نار صفحة خده) وقوله (اما اللسان فقد
أخفى وقد كتما * لو أمكن الجفن كف الدمع حين همى) (أصبتم بسهام اللحظ
مهجته * فهل يلام إذا أجرى الدموع دما) (قد صار بالسقم من تعذيبكم علما
* ولم يبح بالذي من جوركم علما) (فما على صامت أبدى لصدكم * في كل
جارحة منه السقام فما) وأورد له في الشمعة (وصحيحة بيضاء تطلع في
الدجى * صباحا وتشفي الناظرين بدائها)

223 (شابت ذوائبها أوان شبابها * واسود مفرقها أوان فنائها) ()
كالعين في طبقاتها ودموعها * وسوادها وبياضها وضيائها) وذكر العماد في
الخريدة أيضا في ترجمة القاضي أبي المعالي عبد العزيز بن الحسين بن
الجباب أبياتا كتبها ابن الجباب المذكور إلى الرشيد ابن الزبير في نكبة جرت
للموفق بن الخلال المذكور وقال العماد كان خاله ولم يذكر أيهما خال الآخر
وكان ابن الجباب قد حصل له بسبب نكبة ابن الخلال صداع والأبيات المشار
إليها (تسمع مقالي يا ابن الزبير * فأنت خليق بأن تسمعه) (بلينا بذى نسب
شابك * قليل الجدى في زمان الدعه) (إذا ناله الخير لم نرجه * وإن صفعوه
صفعنا معه) وهذا من قول حصين بن خصفة السعدي الخارجي يخاطب
قطري بن الفجاءة رئيس الخوارج المقدم ذكره (وأنت الذي لا نستطيع فراقه
* حياتك لا نفع وموتك ضائر) ثم إنني كشفت عن قول العماد كان خاله ولم
يبينه فوجدت ابن الخلال المذكور خال ابن الجباب المذكور وذكر العماد أيضا
في كتاب السيل والذيل الذي جعله ذيلا على كتاب الخريدة ابن الخلال أيضا
وأورد له (وغزال نار وجنته * أذكت النيران في كبدي) (وله طرف
لواظحه * نصرت شوقي على جلدي) (قذفت عيني سوافه * فتوارت منه
بالزرد)

224 والبيت الأخير مأخوذ من قول أبي محمد الحسن بن جكينا
البغدادي الشاعر المشهور (طرفك يرمي قلبي بأسهمه * فما لخديك تلبس

الزردا) وقد روي لغيره أيضا والله أعلم ثم وجدت في كتاب خريدة القصر تأليف عماد الدين الكاتب الأصفهاني لعبد السلام بن الجكر المعروف بابن الصواف الواسطي (لو كان أمري إلي أو بيدي * أعددت لي قبل بينك العدا (طرفك يرمي قلبي بأسهمه * فما لخديك تلبس الزردا) (ريقته الشهد والدليل على * ذلك نمل بخده صعدا) وذكر أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي المصري في كتاب بدائع البدائة أن أبا القاسم ابن هانئ الشاعر المتأخر هجا ابن الخلال المذكور وبلغه هجوه فأضمر له حقدا واتفق بعض المواسم التي جرت عادة ملوك مصر بالحضور فيه لاستماع المدائح فجلس الحافظ أبو الميمون عبد المجيد ملك مصر إذ ذاك فأنشده الشعراء وانتهت النوبة إلى ابن هانئ المذكور فأنشد وأجاد فيما قاله فقال الحافظ للموفق المذكور كيف تسمع فأثنى عليه واستجاد شعره وبالغ في وصفه ثم قال له ولو لم يكن له ما يمت به إلا انتسابه إلى أبي القاسم ابن هانئ شاعر هذه الدولة ومظهر مفاخرها وناظم مآثرها لولا بيت أظهره منه الضجر عند دخوله هذه البلاد فقال له الحافظ ما هو فتخرج من إنشاده فأبى الحافظ إلا أن ينشده وفي أثناء ذلك صنع بيتا وهو

225 (تبا لمصر فقد صارت خلافتها * عظما تنقل من كلب إلى كلب) فعظم ذلك على الحافظ وقطع صلته وكاد يفرط في عقوبته والله أعلم ولم يزل ابن الخلال بديوان الإنشاء إلى أن طعن في السن وعجز عن الحركة فانقطع في بيته ويقال إن القاضي الفاضل كان يرعى له حق الصحبة والتعليم فكان يجري عليه ما يحتاج إليه إلى أن مات في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وستين وخمسائة رحمه الله تعالى 848 الرمادي الشاعر أبو عمر يوسف بن هارون الكندي المعروف بالرمادي الشاعر المشهور ذكره الحافظ أبو عبد الله الحميدي في كتاب جذوة المقتبس فقال أظن أحد آبائه كان من أهل رمادة موضع بالمغرب شاعر قرطبي كثير الشعر سريع القول مشهور عند الخاصة والعامة هنالك لسلوكة في فنون من المنظوم مسالك تنفق عند الكل حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون فتح الشعر بكندة وختم بكندة يعنون امرأ القيس والمنتبي ويوسف بن هرون وكانا متعاصرين واستدللت على ذلك بمدحه أبا علي

226 إسماعيل بن القاسم القالي عند دخوله الأندلس بالقصيدة التي أولها (من حاكم بيني وبين عدولي * الشجو شجوي والعويل عويلي) وكان وصول أبي علي القالي إلى الأندلس في سنة ثلاثين وثلثمائة قلت وقد سبق ذكر ذلك في ترجمته ثم ذكر له الحميدي وقائع وعدة مقاطيع من الشعر وأنه ألف

كتابا في الطير وسجن مدة قلت وقد ذكر أبو منصور الثعالبي في كتاب يتيمة الدهر الأبيات التي مدح بها يوسف بن هرون أبا علي القالي وأورد له بعد البيت المذكور قوله (في أي جارحة أصون معذبي * سلمت من التعذيب والتكيل) (إن قلت في بصري فثم مدامعي * أو قلت في كبدي فثم غليلي) (وثلاث شيبات نزلن بمفرقي * فعلمت أن نزولهن رحيلي) (طلعت ثلاثا في نزول ثلاثة * واش ووجه مراقب وثقيل) (فعزلنني عن صبوتي فلئن ذلت * لقد سمعت بذلة المعزول) قلت ثم خرج بعد هذا إلى المدح وكان قد وصف الصيد والروض فقال (روض تعاوده السحاب كأنه * متعاهد من عهد إسماعيل) (قسه إلى الأعراب تعلم أنه * أولى من الأعراب بالتفضيل) (حازت قبائلهم لغات فرقت * فيهم وحاز لغات كل قبيل) (فالشرق خال بعده فكأنما * نزل الخراب بربعه المأهول) (وكأنه شمس بدت في غربنا * وتغيبت عن شرقهم بأفول)

227 (يا سيدي هذا ثنائي لم أقل * زورا ولا عرضت بالتنويل) (من كان يأمل نائلا فأنا امرؤ * لم أرج غير القرب في تأميلي) وله في غلام ألثغ من جملة أبيات (لا الرء تطمع في الوصال ولا أنا * الهجر يجمعنا فنحن سواء) (فاذا خلوت كتبنتها في راحتي * وبكيت منتحبا أنا والرء) وله فيه أيضا (أعد لثغة في الرء لو أن واصلا * تسمعها ما أسقط الرء واصل) قلت وهذا واصل هو واصل بن عطاء المقدم ذكره في حرف الواو وقد ذكرت هناك هذا الشاعر وشيئا من شعره قلت وذكره ابن بشكوال في كتاب الصلة فقال يوسف بن هرون الرمادي الشاعر من أهل قرطبة يكنى أبا عمر كان شاعر أهل الأندلس المشهور المقدم على الشعراء روى عن أبي علي البغدادي يعني القالي كتاب النوادر من تأليفه وقد أخذ عنه أبو عمر ابن عبد البر قطعه من شعره رواها عنه وضمنها بعض توأليفه قال ابن حيان وتوفي سنة ثلاث وأربعمائة يوم العنصره فقيرا معدما ودفن بمقبرة كلع انتهى كلامه قلت يوم العنصره يوم مشهور ببلاد الأندلس وهو موسم للنصارى كالميلاد وغيره وهو اليوم الرابع والعشرون من حزيران فيه ولد يحيى بن زكريا عليهما السلام والعنصره بفتح العين المهملة وسكون النون وفتح الصاد المهملة والرء وفي آخرها هاء وفي هذا اليوم حبس الله تعالى الشمس على يوشع بن نون عليه السلام حين بعثه موسى عليه الصلاة والسلام وكان

228 يوشع ابن أخته إلى أريحا لقتال الجبابرة فقتلهم وبقيت منهم بقية فخشى أن يحول الليل بينه وبينهم فسأل الله تعالى أن يحبس عليهم الشمس حتى

يفرغ فحبسها بدعائه وقد ذكر الشعراء ذلك في أشعارهم كثيرا فقال أبو تمام الطائي الشاعر المشهور من جملة قصيدة طويلة (فردت علينا الشمس والليل راغم * بشمس لهم من جانب الخدر تطلع) (نضا ضوءها صبغ الدجنة وانطوى * لبهجتها ثوب السماء المجزع) (فوالله ما أدري أحلام نائم * أملت بنا أم كان في الركب يوشع) وقال أبو العلاء المعري من جملة قصيدة طويلة أيضا (ويوشع رد بوحا بعض يوم * وأنت متى سفرت رددت بوحا) وبوح بالباء الموحدة وسكون الواو وبعدها حاء مهملة اسم من أسماء الشمس وكذلك يوح بالياء المثناة من تحتها وأريحا بفتح الهمزة وكسر الراء ثم ياء ساكنة وبعدها حاء مهملة ثم ألف مقصورة بلدة بين القدس والشريعة من أرض الشام وهي قريبة من مدائن لوط عليه السلام والرمادي بفتح الراء والميم وبعد الألف دال مهملة وبعدها ياء النسب هذه النسبة إلى الرمادة قال ياقوت الحموي في كتابه الذي سماه المشترك وضعا المختلف صعقا في باب الرمادة عشرة مواضع وعدها

229 فقال الثالث رمادة المغرب ينسب إليها يوسف بن هارون الكندي الرمادي الشاعر القرطبي وكلع بفتح الكاف واللام وبعدها عين مهملة وهي مقبرة قرطبة والله أعلم وذكر ابن سعيد في كتاب المغرب في أشعار أهل المغرب أن الرمادي المذكور اكتسب صناعة الأدب من شيخه أبي بكر يحيى بن هذيل الكفيف علم أدباء الأندلس وهو القائل (لا تلمني على الوقوف بدار * أهلها صبروا السقام ضجيعي) (جعلوا لي إلى هواهم سبيلا * ثم سدوا على باب الرجوع) ثم قال وتوفي يحيى بن هذيل المذكور في سنة ست أو خمس وثمانين وثلثمائة وهو ابن ست وثمانين رحمه الله تعالى

230 ابن الدري يوسف بن درة الشاعر المعروف بابن الدري الموصلي الأصل كان شاباً ذكياً ذكره ابو شجاع محمد بن علي بن الدهان في تاريخه وقال إنه هلك مع الحاج سنة خمس وأربعين وخمسمائة لما خرجت عليهم زعب وقد ذكره عماد الدين الكاتب الأصبهاني في كتاب خريدة القصر وذكره أبو المعالي سعد بن علي الحظيري المقدم ذكره في كتاب زينة الدهر ومن مشهور شعره قوله في رجل أرجل وقد أحسن فيه (مدور الكعب فاتخذه * لتل غرس وتل عرش) (لو نظرت عينه الثريا * أخرجها في بنات نعش) وله غير هذا أشياء حسنة قال شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري في مختصر كتاب الحافظ أبي سعد عبد الكريم بن السمعاني الذي عمله

231 في الأنساب ما مثاله قلت الزعبي بكسر الزاي وسكون العين المهملة وآخره باء موحدة نسبة إلى زعب بن مالك بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم بطن مشهور من سليم وهذه زعب هي التي أخذت الحاج سنة خمس وأربعين وخمسائة فهلك منهم خلق كثير قتلاً وجوعاً وعطشاً ثم إن الله تعالى رمى زعباً بالقلة والذلة بعده إلى الآن ودره بضم الدال المهملة والدرى بفتحها وتشديد الراء وبعدها ألف مقصورة 850&& أبو المحاسن الشواء أبو المحاسن يوسف بن إسماعيل بن علي بن أحمد بن الحسين بن إبراهيم المعروف بالشواء الملقب شهاب الدين الكوفي الأصل الحلبي المولد والمنشأ والوفاء كان أديباً فاضلاً متقناً لعلم العروض والقوافي شاعراً يقع له في النظم معان بديعة في البيتين والثلاثة وله ديوان شعر كبير يدخل في أربع مجلدات وكان زيه على زي الحلبيين الأوائل في اللباس والعمامة المشقوقة وكان كثير الملازمة لحلقة الشيخ تاج الدين أبي القاسم أحمد بن هبة الله بن سعد الله بن سعيد بن سعد بن مقلد المعروف بابن الجبراني الحلبي النحوي

232 اللغوي الفاضل وأكثر ما أخذ الأدب عنه وبصحبه انتفع وعاشر التاج أبا الفتح مسعود بن أبي الفضل النقاش الحلبي الشاعر المشهور زماناً وتخرج عليه في عمل الشعر وكان بيني وبين الشهاب الشواء مودة أكيدة ومؤانسة كثيرة ولنا اجتماعات في مجالس نتذاكر فيها الأدب وأنشدني كثيراً من شعره وما زال صاحبي منذ أواخر سنة ثلاث وثلاثين وستمئة إلى حين وفاته وقبل ذلك كنت أراه قاعداً عند ابن الجبراني المذكور في موضع تصدره بجامع حلب وكان يكثر التمشي في الجامع أيضاً على جاري عادتهم في ذلك كما يعملون في جامع دمشق ولم يكن بيننا إذ ذاك معرفة وكان حسن المحاورة مليح الإيراد مع السكون والتأني وجميل التأتني وأول شيء أنشدني من شعره قوله (هاتيك يا صاح ربا لعل * ناشدتك الله فعرج معي) (وانزل بنا بين بيوت النقا * فقد غدت أهلة المربع) (حتى نطيل اليوم وقفاً على الساكن أو عطفاً على الموضع)

233 وأنشدني لنفسه أيضاً (ومهفهف عني الزمان بخده * فكساه ثوبي ليله ونهاره) (لا مهدت عذري محاسن وجهه * إن غض عندي منه غض عذاره) وأنشدته يوماً في أثناء مناشدة جرت بيننا قول شرف الدين أبي المحاسن محمد المعروف بابن عنين الدمشقي المقدم ذكره في صدر جهان المعروف بابن مازة البخاري وقيل السرخسي (مال ابن مازة دونه لعفاته * خرط القتادة أو منال الفرقد) (مال لزوم الجمع يمنع صرفه * في راحة مثل

المنادى المفرد) فقال هذا ليس بجيد فقلت له ولم ذاك فقال ليس من شرط
المنادى المفرد أن يكون مضموماً ولا بد فقد يكون المنادى مفرداً ولا يكون
مضموماً بأن يكون نكرة غير معين كما تقول يا رجلاً ولكن أنا أعمل في هذا
شيئاً ثم إننا اجتمعنا بعد ذلك في الجامع فقال قد عملت في ذلك المعنى شيئاً
فاسمعه ثم أنشد (لنا خليل له خلال * تعرب عن أصله الأخرس) (أضحت له
مثل حيث كف * وددت لو أنها كأمس) فقلت له وهذا أيضاً فيه كلام فقال وما
هو فقلت حيث فيها لغات فمن العرب من يبينها على الضم ومنهم من يبينها
على الفتح ومنهم من يبينها على الكسر وفيها لغات آخر غير هذه وأما أمس
فمنهم من يبينها على الكسر ومنهم من يقول إنها اسم معرب لكنه لا ينصرف
وأنشدوا على هذه اللغة (لقد رأيت عجباً مذ أمسا * عجائزاً مثل السعالي
خمسا)

234 هذا إذا كانت معرفة فأما إذا كانت نكرة فإنها معربة قولاً واحداً
فسكت وكان كثيراً ما يستعمل العربية في شعره فمن ذلك قوله ولا أدري هل
أنشدني أم لا فإنه أنشدني شيئاً كثيراً من شعره وما ضبطت كل ما أنشدني
وكذلك كل شيء اذكره بعد هذا لا اتحقق الحال في سماعي منه فأورده مهملاً
فمنه (وكنا خمس عشرة في التمام * على رغم الحسود بغير آفة) (فقد
أصبحت تتويناً وأضحى * حبيبي لا تفارقه الإضافة) وله أيضاً في غلام
أرسل أحد صدغيه وعقد الآخر (أرسل صدغاً ولوى قاتلي * صدغاً فأعيا
بهما واصفه) (فخلت ذا في خده حية * تسعى وهذا عقرباً واقفه) (ذا ألف
ليست لوصل وذا * واو ولكن ليست العاطفة) ومن هذا النمط ما أنشدني بهاء
الدين زهير بن محمد الكاتب المقدم ذكره رحمه الله تعالى لنفسه من جملة
أبيات وهو (عسى عطفة بالوصل يا واو صدغه * علي فإني أعرف الواو
تعطف) ولأبي المحاسن الشواء أيضاً قوله (ناديت وهو الشمس في شهرة *
والجسم للخفية كالفيء) يا زاهياً أعرف من مضمر * صل واهياً أنكر من
شيء) وله في المديح

235 (فتى فاق الورى كرمأ وبأساً * عزيز الجار مخضر الجناب) ()
تري في السلم منه غيث جود * وفي يوم الكريهة ليث غاب) (إذا ما سل
صارمه لحرب * اراك البرق في كف السحاب) وله أيضاً في شخص لا يكتم
السر (لي صديق غدا وإن كان لا ينطق إلا بغيبة أو محال) (أشبه الناس
بالصدي إن تحدثه حديثاً أعاده في الحال) وله أيضاً (قالوا حبيبيك قد تضيع
نشره * حتى غدا منه الفضاء معطرا) _ (فأجبتهم والخال يعلو خده * أو ما

ترون النار تحرق عنبراً) قلت وقد تقدم في ترجمة يحيى بن نزار المنجي عدة مقاطيع من شعر العماد المحلي وغيره وفيها إلمام بهذا المعنى ولأبي المحاسن أيضاً (هواك يا من له اختيال * مالي على مثله احتيال) (قسمة افعاله لحيني * ثلاثة مالها انتقال) (وعدك مستقبل وصبري * ماض وشوقي إليك حال) وله أيضاً (فديت بنفسي رأس عين ومن فيها * وبيض السواقي حول زرق سواقيها) (إذا راقني منها جوارى عيونها * أراق دمي منها عيون جواريتها) وله أيضاً (إن كان قد حجبوه عني غيرة * منهم عليه فقد قنعت بذكره)

236 (كالمسك ضاع لنا وضاع مكانه * عنا فأغنى نشره عن نشره) وله في غلام قد ختن (هنأت من اهواه عند ختانه * فرحاً وقلبي قد عراه وجوم) (يفديك من الم بك امرؤ * يخشى عليك إذا ثناك نسيم) (أمعذبي كيف استطعت على الأذى * جلدأ وأجزع ما يكون الريم) (لو لم تكن هذي الطهارة سنة * قد سنها من قبل إبراهيم) (لفتكت جهدي بالمزين إذ غدا * في كفه موسى وأنت كلیم) ومعظم شعره على هذا الأسلوب وقد أوردت منه أنموذجاً فيه كفاية وكان من المغالين في التشيع وأكثر أهل حلب ما كانوا يعرفونه إلا بمحاسن الشواء والصواب فيه هو الذي ذكرته هنا وأن اسمه يوسف وكنيته أبو المحاسن وبعد هذا رأيت في كتاب عقود الجمان الذي وضعه صاحبنا الكمال ابن الشاعر الموصلي وقد بنى ترجمة المذكور على يوسف وكنيته أبو المحاسن وكان صاحبه وأخذ عنه كثيراً من شعره وهو من أخبر الناس بحاله وأعلم ذلك في وقته وكان مولده تقديراً في سنة اثنتين وستين وخمسائة فإنه كان لا يحقق مولده وتوفي يوم الجمعة تاسع عشر المحرم سنة خمس وثلاثين وستمائة بحلب ودفن ظاهرها بمقبرة باب أنطاكية غربي البلد ولم أحضر الصلاة عليه لعذر عرض لي في ذلك الوقت رحمه الله تعالى فلقد كان نعم صاحب

237 (395) وأما شيخه ابن الجبراني المذكور فهو طائي بحتري وكان من قرية من أعمال عزاز يقال لها جبرين قورسطايا نسب إليها هكذا أخبر عن نفسه وكان متضلعاً من علم الأدب خصوصاً اللغة فإنها كانت غالبية عليه وكان متبحراً فيها وكان له تصدر في جامع حلب في لمقصورة الشرقية على صحن الجامع قبالة المقصورة التي يصلي فيها قضاة حلب يوم الجمعة ولقد كنت يوماً قاعداً في هذه المقصورة عند الدرايزين الذي إلى جهة الصحن وإذا به قد حضر ومعه جماعة من أصحابه وفيهم الشهاب أبو المحاسن الشواء

المذكور وجلس إلى المحراب الصغير الذي في هذه المقصورة وهو موضع تصدره فجعلت بالي من كلامه وأنا في ذلك الوقت مشتغل بالأدب فسمعتة يتكلم في قاعدة الأفعال الثلاثية التي أولها واو وهي على فعل بكسر العين مثل وجل وغيره وأن مضارعه فيه اربع لغات يوجل وييجل وياجل وييجل إلا ما شذ من الأفعال الثمانية التي هي ورم وورث وورع ووري وومق ووثق ووفق وولي فإن مضارعها أيضاً بالكسر كماضيها وشذ من ذلك قولهم وسع يسع ووطىء يطأ وإنما انفتح هذان الفعلان في المضارع لأجل حرفي الحلق وأطال الكلام في ذلك بما لم اقدر على حفظه في ذلك الوقت ولم أسمع منه غير هذا الفصل وكان مولده يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شوال سنة إحدى وستين وخمسائة وتوفي يوم الاثنين سابع رجب من سنة ثمان وعشرين وستمائة بحلب ودفن في سفح جبل جوشن رحمه الله تعالى

238 البياسي صاحب الحماسة ابو الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري البياسي أحد فضلاء الأندلس وحفاظها المتقنين كان أديباً بارعاً فاضلاً مطلعاً على اقسام كلام العرب من النظم والنثر وراوياً لوقائعها وحروبها وأيامها بلغني أنه كان يحفظ كتاب الحماسة تأليف أبي تمام الطائي والأشعار الستة وديوان أبي تمام المذكور وديوان أبي الطيب المتنبي وسقط الزند ديوان أبي العلاء المعري إلى غير ذلك من الأشعار من شعراء الجاهلية والإسلام وتنقل في بلاد الأندلس وطاف بأكثرها ولما قدم من جزيرة الأندلس إلى مدينة تونس جمع للأمير ابي زكريا يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر صاحب إفريقية رحمهم الله أجمعين كتاباً سماه الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام ابتداءً فيه بمقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وختمه بخروج الوليد بن طريف الشاري على هرون الرشيد ببلاد الجزيرة الفراتية وقد ذكرت ترجمة الوليد المذكور وخبره وما جرى له ومقتله على يد يزيد بن يزيد بن زائدة الشيباني وذكرت يزيد المذكور في ترجمة مستقلة أيضاً قبل هذا واستوفيت القصة في الترجمتين ورأيت هذا الكتاب وطالعته وهو في مجلدين أجاد في تصنيفه وكلامه فيه كلام عارف بهذا الفن

239 ورأيت له أيضاً كتاب الحماسة في مجلدين وقد قرئت النسخة عليه وعليها خطه كتبه في أواخر شهر ربيع الآخر سنة خمسين وستمائة وقال في آخر الكتاب وكان الفراغ من تأليفه وترتيبه بمدينة تونس حرسها الله تعالى في شوال سنة ست وأربعين وستمائة ونقلت من أوله بعد الحمدلة ما مثاله أما بعد فإنني قد كنت في أو ان حدثتي وزمان شبيبتي ذا ولوع بالأدب ومحبة في كلام

العرب ولم ازل متتبعاً لمعانيه ومفتشاً عن قواعده ومبانيه إلى أن حصلت لي جملة منه لا يسع الطالب المجتهد جهلها ولا يصلح بالناظر في هذا العلم إلى أن يكون عنده مثلها وحملتني المحبة في ذلك العلم والولوع به على أن جمعت مما اخترته واستحسنته من أشعار العرب جاهليها ومخضرميها وإسلاميها ومولدها ومن اشعار المحدثين من أهل المشرق والأندلس وغيرهم ما تحسن به المحاضرة وتجل عليه المناظرة ثم إنني رأيت أن بقاءها دون أن تدخل تحت قانون يجمعها وديوان يؤلفها مؤذن بذهابها ومؤد إلى فسادها فرأيت أن اضم مختارها وأجمع مستحسنها تحت ابواب تقيد نافرها وتضم نادرها ونظرت في ذلك فلم أجد اقرب تبويب ولا أحسن ترتيب مما بوبه ورتبه ابو تمام حبيب بن أوس رحمه الله تعالى في كتابه المعروف بكتاب الحماسة وحسن الاقتداء به والتوخي لمذهبه لتقدمه في هذه الصناعة وانفراده منها بأوفر حظ وأنفس بضاعة فاتبعت في ذلك مذهبه ونزعت منزعه وقرنت الشعر بما يجانسه ووصلته بما يناسبه ونقحت ذلك واخترته على قدر استطاعتي وبلوغ جهدي وطاقتي قلت وأطال القول بعد هذا بما لا حاجة بنا إلى ذكره ونقلته منه شيئاً فمن ذلك ما ذكره في باب المرثي قال ابو علي القالي البغدادي أنشدنا أبو بكر ابن دريد قال أنشدنا أبو حاتم السجستاني (ألا في سبيل الله ماذا تضمنت * بطون الثرى واستودع البلد القفر)

240 (بدور إذا الدنيا دجت أشرقت بهم * وإن أجذبت يوماً فايديهم القطر) (فيا شامتاً بالموت لا تشمتن بهم * حياتهم فخر وموتهم ذكر) (حياتهم كانت لأعدائهم عمى * وموتهم للفاخرين بهم فخر) (أقاموا بظهر الأرض فاخضر عودها * وصاروا ببطن الأرض فاستوحش الطهر) ونقلته من باب النسيب قول العباس بن الأحنف المقدم ذكره (تحمل عظيم الذنب ممن تحبه * وإن كنت مظلوماً فقل أنا ظالم) (فإنك إن لم تغفر الذنب في الهوى * يفارقك من تهوى وأنفك راغم) وقول الوأواء الدمشقي هكذا قال وغالب ظني انها لأبي فراس ابن حمدان والله أعلم (بالله ربكما عوجا على سكني * وعاتباه لعل العتب يعطفه) (وعرضا بي وقولا في حديثكما * ما بال عبدك بالهجران تتلفه) (فإن تبسم قولاً في ملاطفة * ما ضر لو بوصال منك تسعفه) (وإن بدا لكما من سيدي غضب * فغالطاه وقولا ليس نعرفه) وقول المجنون (تعلقت ليلي وهي بكر صغيرة * ولم يبد للأتراب من ثديها حجم) (صغيرين نرعى البهم يا ليت أننا * إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم البهم الصغار من أولاد الضأن الواحدة بهمة بفتح الباء الموحدة

241 وسكون الهاء وهذان البيتان يستدل بهما النجاة على انتصاب الحال من الفاعل والمفعول به معاً بلفظ واحد فان صغيرين انتصب على الحال من التاء في قوله تعلقت وهي فاعلة ومن ليلى وهي مفعولة ومثله قول عنتره العبسي (متى ما تلقني فردين ترجف * روانف أليتيك وتستطارا) نصب فردين على الحال من ضمير الفاعل والمفعول في تلقني ذكره ابن الأنباري في كتاب أسرار العربية في باب الحال وقال الواواء الدمشقي ايضاً ذكره في حماسته البياسي المذكور أيضاً (وزائر راع كل الناس منظره * أحلى من الأمن عند الخائف الوجل) (ألقى على الليل ليلاً من ذوائبه * فهابه الصبح أن يبدو من الخجل) (أراد بالقتل هجري فاستجرت به * فاستل بالوصل روي من يدي أجلي) (فصرت فيه أمير العاشقين فقد * صارت ولاية أهل العشق من قبلي) وقال علي بن عطية البننسي ابن الزقاق (ومرتجة الأعطاف أما قوامها * فلدن وأما ردفها فرداح) (أمت فبات الليل من قصر بها * يطير وما غير السرور جناح) (وبت وقد زارت بأنعم ليلة * تعانقني حتى الصباح صباح) (على عاتقي من ساعديها حمائل * وفي خصرها من ساعدي وشاح) وقال أحمد بن الحسين بن خلف المعروف بابن النبي اليعمري قلت

242 هو المقدم ذكره في ترجمة يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب وكان قد أخرجه صاحب ميورقة وسيره في البحر فساروا يومهم فهبت عليهم الرياح فردتهم فقال (أحببتنا الأولى عتبوا علينا * فأقصونا وقد أرف الوداع) (لقد كنتم لنا جذلاً وأنساً * فهل في العيش بعدكم انتفاع) (أقول وقد صدرنا بعد يوم * اشوق بالسفينة أم نراع) (إذا طارت بنا حامت عليكم * كأن قلوبنا فيها شراع) وقال الواثق بالله وله فيه غناء (ما كنت أعرف ما في البين من حزن * حتى تنادوا بأن قد جيء بالسفن) (قامت تودعني والدمع يغلبها * فجمجت بعض ما قالت ولم تبين) (مالت علي تفديني وترشفني * كما يميل نسيم الريح بالغصن) (فأعرضت ثم قالت وهي باكية * يا ليت معرفتي إياك لم تكن) وأورد في باب القرى والأضياف والفخر والمديح قول أبي الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج اللورقي (عجباً لمن طلب المحامد * وهو يمنع ما لديه) (ولباسط أماله * للمجد لم يبسط يديه) (لم لا أحب الضيف أو * أرتاح من طرب إليه) (والضيف يأكل رزقه * عندي ويحمدني عليه) ومما ينسب إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال حين كف بصره

243 (إن يأخذ الله من عيني نورهما * ففي لساني وقلبي منهما نور)
(قلبي ذكي وذهني غير ذي دخل * وفي فمي صارم كالسيف مطرور)
وذكر في باب الهجاء والعتاب وما يتعلق بهما لأبي العالية أحمد بن مالك
الشامي (أدم بغداد والمقام بها * من بعد ما خبرة وتجريب) (ما عند
أملكها لمرتقب * رقد ولا فرجة لمكروب) (خلوا سبيل العلى لغيرهم *
ونازعوا في الفسوق والحب) (يحتاج راجي النجاح عندهم * إلى ثلاث من
بعد تقريب) (كنوز قارون أن تكون له * وعمر نوح وصبر أيوب) وأنشد
ابو بكر محمد بن يحيى الصولي لأبي العطف الكوفي صالح بن عبد الرحمن
بن نشيط (يا ابن الوليد أبن لنا * إن البيان له حدود) (مالي أراك مسيباً *
ابن السلاسل والقيود) (أغلا الحديد بأرضكم * أم ليس يضبطك الحديد)
قلت إلى هنا نقلت من كتاب الحماسة المذكور وفيه كفاية إذ كان الغرض إيراد
شيء من أخبار هذا الرجل ليستدل به على معرفته في الشعر وكان مولده يوم
الخميس الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة
وتوفي يوم الأحد الرابع من ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وستمائة بمدينة
تونس رحمه الله تعالى والبياسي بفتح الباء الموحدة والياء المشددة المثناة من
تحتها هذه النسبة

244 إلى بياسة وهي مدينة كبيرة بالأندلس معدودة في كورة جيان هكذا
قاله ياقوت الحموي في كتابه المشترك وضعا 852 يونس بن حبيب ابو عبد
الرحمن يونس بن حبيب النحوي قال أبو عبيد الله المرزباني في كتابه المقتبس
في أخبار النحويين هو مولى ضبة وقيل هو مولى بني ليث بن بكر بن عبد
منة بن كنانة وقيل مولى بلال بن هرمي من بني ضبيعة بن بجالة وهو من
أهل جبل ومولده سنة تسعين ومات سنة اثنتين وثمانين ومائة وكان يقول اذكر
موت الحجاج وقيل مولده سنة ثمانين وأنه رأى الحجاج وعاش مائة سنة
وسنتين وقيل عاش ثمانيا وتسعين سنة وقال غير المرزباني أخذ يونس الأدب
عن أبي عمرو بن العلاء وحماد ابن سلمة وكان النحو أغلب عليه وسمع من
العرب وروى سيبويه عنه كثيراً وسمع منه الكسائي والفراء وله قياس في
النحو ومذاهب ينفرد بها وكان من الطبقة الخامسة في الأدب وكانت حلقة
بالبصرة ينتابها الأدباء وفصحاء العرب وأهل البادية قال أبو عبيدة معمر بن
المثنى اختلفت إلى يونس أربعين سنة

245 أملاً كل يوم الواحي من حفظه وقال أبو زيد الأنصاري النحوي
جلست إلى يونس بن حبيب عشر سنين وجلس إليه قبلي خلف الأحمر عشرين

سنة وقال يونس قال لي روبة بن العجاج حتام تسألني عن هذه البواطل وأزخرفها لك أما ترى الشيب قد بلغ في لحيتك وليونس من الكتب التي صنفها كتاب معاني القرآن الكريم وكتاب اللغات وكتاب الأمثال وكتاب النوادر الصغير وقال إسحاق بن إبراهيم الموصللي عاش يونس مائة سنة وستين وقيل عاش ثمانياً وتسعين سنة وقيل ثمانياً وثمانين سنة لم يتزوج ولم يتسر ولم تكن له همة إلا طلب العلم ومحادثة الرجال وقال يونس لو تمنيت أن أقول الشعر لما تمنيت أن أقول إلا مثل قول عدي بن زيد العبادي (أيها الشامت المعير بالدهر * أنت المبرأ الموفور) قلت وهذا البيت من جملة أبيات سائرة بين الأدباء فيها مواعظ وعبر وبعد هذا البيت (أم لديك العهد القديم من الأيام * بل أنت جاهل مغرور) (من رأيت المنون أخلدن أم من * ذا عليه من أن يضام خفير) (أين كسرى كسرى الملوك أنو شروان * أم اين قبله سابور) (وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم * لم يبق منهم مذكور) (وأخو الحضرة إذ بناه وإذ دجلة * تجنبي إليه والخابور) (شاده مرمرأ وجلله كلساً * فللطير في ذراه وكور) (لم يهبه صرف الزمان فباد الملك * عنه فبابه مهجور) (وتفكر رب الخورنق إذا اشرف * يوماً وللهدى تفكير)

246 (سره ملكه وكثرة ما يملك * والبحر معرضاً والسدير) (فارعوى قلبه فقال وما غبطة * حي إلى الممات يصير) (ثم بعد الفلاح والملك والأمة * وارثهم هناك القبور) (ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت * به الصبا والدبور) قلت وهذه الأبيات تحتاج إلى تفسير طويل ولو شرعت فيه لطل الكلام وخرجنا عن المقصود فان أكثرها يتعلق بالتاريخ وفيها شيء يتعلق بالأدب فاقتصرنا على الإتيان بالغرض وتركنا الباقي خوفاً من الإطالة فلعل الشرح يدخل في أربع خمس كراريس وليس هذا موضعه وروى محمد بن سلام الجمحي عن يونس أنه قال ما بكت العرب على شيء في أشعارها كبكائها على الشباب وما بلغت كنهه فاتبع هذا الكلام منصور النمري فقال من جملة قصيدة طويلة يمدح بها هارون الرشيد بيتاً وهو (ما كنت أوفي شبابي كنه غرته * حتى انقضى فاذا الدنيا له تبع) (وقال يونس تقول العرب فرقة الأحباب سقم الألباب وأنشد) شيطان لو بكت الدماء عليهما * عيناى حتى يؤذنا بذهاب) (لم يبلغا المعشار من حقيهما * شرخ الشباب وفرقة الأحباب) وقال يونس لم يقل لبيد في الإسلام سوى بيت واحد وهو

247 (الحمد لله إذ لم يأتني أجلي * حتى لبست من الإسلام سربالا) قال أبو عبيدة معمر بن المثنى قدم جعفر بن سليمان العباسي من عند المهدي

الخليفة فبعث إلى يونس بن حبيب فقال له أنا وأمير المؤمنين اختلفنا في هذا البيت (والشيب ينهض في السواد كأنه * ليل يصيح بجانبه نهار) فما الليل والنهار فقال يونس الليل الليل الذي تعرف والنهار النهار الذي تعرف فقال زعم المهدي أن الليل فرخ الكروان والنهار فرخ الحبارى فقال أبو عبيدة القول في البيت ما قاله يونس والذي قاله المهدي معروف في الغريب من اللغة وقال يونس كان جبلة بن عبد الرحمن يخرج إلى طباخه الرقاع يستدعي بها الطعام وفيها الألفاظ الغربية الحوشية فلا يدري الطباخ ما فيها حتى يمضي بها إلى ابن أبي إسحاق ويحيى بن يعمر وغيرهما يفسرون ما فيها من الألفاظ فاذا عرف الطباخ ما فيها أتاه بما استدعاه فقال له يوماً ويحك إنني أصوم معك فقال له الطباخ سهل كلامك حتى يسهل طعامك فيقول يا ابن اللخناء أفأدع عربيتي لعيك وكان يونس من أهل جبل وهي بليدة على دجلة بين بغداد وواسط وكان لا يؤثر أن ينسب إليها فلقبه رجل من بني أبي عمير فقال له يا ابا عبد الرحمن ما تقول في جبل أنتصرف أم لا فستمه يونس فالتفت العميري فلم ير أحداً يشهده عليه حتى إذا كان من الغد وجلس للناس أتاه العميري فقال يا ابا عبد الرحمن ما تقول في جبل أنتصرف أم لا فقال له يونس الجواب ما قلته لك
أمس

248 وجبل بفتح الجيم وضم الباء الموحدة المشددة كذا قاله الحافظ ابن السمعاني في كتاب الأنساب وهذه جبل منها أبو الخطاب الجبلي الشاعر المشهور ومن شعره قوله (كم جبت نحوك مهماً لو لم يعن * شوقي عليه لما قدرت أجوبه) (وركبت أخطاراً إليك مخوفة * ولحبذا خطر إليك ركوبه) قال السمعاني وتوفي أبو الخطاب المذكور في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين وأربعمائة وكان بينه وبين أبي العلاء المعري مشاعرة وكتب إليه أبو العلاء قصيدته التي أولها (غير مجد في ملتي واعتقادي) قلت وهذا غلط منه بل كتبها أبو العلاء المعري إلى أبي حمزة الحسن بن عبد الله الفقيه الحنفي قاضي منبج كان وقد ذكر ذلك الفقيه القاضي كمال الدين عرف باين العديم الحلبي وحبيب اسم أمه ولهذا لا يصر فونه فانه لا يعرف له اب ويقال إنه ولد ملاءنة ويقال إنه اسم أبيه فينصرف والله أعلم وكذلك محمد ابن حبيب النسابة أيضاً ودخل يونس المسجد يوماً وهو يتهدى بين اثنين من الكبر فقال له رجل كان يتهمه في مودته بلغت ما أرى يا ابا عبد الرحمن فقال

249 هو الذي ترى لا بلغته فأخذ هذا المعنى جماعة من الشعراء فنظموه وقال ابو الخطاب زياد بن يحيى مثل يونس كمثل كوز ضيق الراس لا يدخله

شيء إلا بعسر فاذا دخله لم يخرج منه يعني أنه لا ينسى شيئاً وقد ذكرت تاريخ مولده وموته في أول الترجمة وقيل إنه توفي سنة ثلاث وثمانين وقيل خمس وثمانين وقال عبد الباقي بن قانع سنة أربع وثمانين ومائة والله أعلم وقيل إنه عاش ثمانياً وتسعين سنة رحمه الله تعالى 853 يونس بن عبد الأعلى الصدفي أبو موسى يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة بن حفص بن حيان الصدفي المصري الفقيه الشافعي أحد أصحاب الشافعي رضي الله عنه والمكثرين في الرواية عنه والملازمة له وكان كثير الورع متين الدين وكان علامة في علم الأخبار والصحيح والسقيم لم يشاركه في زمانه في هذا أحد وقد سبق في هذا لكتاب ذكر حفيده أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد ابن يونس وهو المنجم المشهور صاحب الزيج وكل واحد منهما إمام في فنة

250 وأخذ يونس القراءة عرضاً عن ورش وسقلاب بن شيبية ومعلّى بن دحية عن نافع وعن علي بن أبي كيسة عن سليم عن حمزة بن حبيب الزيات وسمع سفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب المصري وروى القراءة عنه مواس بن سهل ومحمد بن الربيع وأسامة بن أحمد ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ومحمد ابن جرير الطبري وغيرهم وكان محدثاً جليلاً وذكره أبو عبد الله القضاعي في كتاب خطط مصر فقال كان من أفضل أهل زمانه وكان من العقلاء يروى عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال ما رأيت بمصر أعقل من يونس بن عبد الأعلى وصحب الشافعي وأخذ عنه الحديث والفقه وحدث بهما عنه جماعة وله حبس في ديوان الحكم وعقب وله دار مشهورة في خطة الصدف مكتوب عليها اسمه وتاريخها سنة خمس عشرة ومائتين وكان أحد الشهود بمصر أقام شاهداً ستين سنة وذكر غير القضاعي أن يونس بن عبد الأعلى روى عنه الإمام مسلم بن الحجاج القشيري وأبو عبد الرحمن النسائي وأبو عبد الله ابن ماجه وغيرهم وقال أبو الحسن ابن زولاق في كتاب أخبار قضاة مصر إن القاضي بكار بن قتيبة لما تولى قضاء مصر وتوجه إليها من بغداد لقي في طريقه محمد ابن الليث قاضي مصر كان قبله بالجفار خارجاً من مصر إلى العراق مصروفاً فقال له بكار أنا رجل غريب وأنت قد عرفت البلد فدلني على ما أشاوره وأسكن إليه فقال له عليك برجلين أحدهما عاقل وهو

251 يونس بن عبد الأعلى فاني سعيت في دمه فقدر علي فحقن دمي والآخر أبو هارون موسى بن عبد الرحمن بن القاسم فانه رجل زاهد فقال له بكار صف لي الرجلين فقال له أما يونس فرجل طوال أبيض ووصفه ووصف موسى فلما دخل بكار مصر ودخل الناس إليه دخل شيخ فيه صفة يونس فرفعه

بكار واقبل يحدثه ويقول يا ابا موسى في كل حديثه فبينما بكار كذلك إذ قيل له قد جاء يونس فأقبل على الرجل وقال له يا هذا من أنت وما سكوتك كذا لو افشيت إليك سرأ لي ثم دخل يونس فأكرمه ورفعته وأتاه موسى بن عبد الرحمن فاختص بهما وأخذ رأيهما وقيل إن موسى المذكور اختص به القاضي بكار وكان يتبرك به لزهده فقال له يوماً يا أبا هارون من أين المعيشة قال من وقف وقفه أبي فقال له بكار أيكفيك قال قد تكفيت به وقد سألتني القاضي فأريد أن أسأله قال سل قال هل ركب القاضي دين بالبصرة حتى تولى بسببه القضاء قال لا قال فهل رزق ولدأ أحوجه إلى ذلك قال لا ما نكحت قط قال فهل لك عيال كثيرة قال لا قال فهل أجبرك السلطان وعرض عليك العذاب وخوفك قال لا قال فضربت أباط الإبل من البصرة إلى مصر لغير حاجة ولا ضرورة لله علي لا دخلت عليك ابدأ فقال يا أبا هارون اقلني أنت بدأت بالمسألة ولو سكت لسكت ثم انصرف عنه ولم يعد إليه بعدها وقال يونس رأيت في المنام قائلاً يقول لي إن اسم الله الأكبر لا إله إلا الله ونقلت من كتاب المنتظم في أخبار من سكن المقطم قال في ترجمة يونس المذكور ومن حكاياته التي حكاها عن غيره أن رجلاً جاء إلى نحاس فقال له أسلفني ألف دينار إلى أجل فقال له النحاس من يضمن المبلغ قال الله تعالى فأعطاه ألف دينار فسافر بها الرجل

252 يتجر فلما بلغ الأجل أراد الخروج إليه فحبسه عدم الريح فعمل تابوتاً وجعل فيه ألف دينار وأغلقه وسمره والقاء في البحر فقال اللهم هذا الذي ضمنته لي فخرج صاحب المال ينتظر قدوم الذي معه المال فرأى سواداً في البحر فقال ايتوني بهذا فأتي بالتابوت ففتحه فاذا فيه ألف دينار ثم إن الرجل جمع ألفاً بعد ذلك وطابت الريح فجاء إلى النحاس وسلم عليه فقال له النحاس من أنت فقال أنا صاحب الألف هذه ألك فقال النحاس لا اقبلها منك حتى تخبرني ما صنعت بها فأخبره بالذي صنع وأن الريح لم تطب فقال له النحاس قد أدى الله عز وجل عنك الألف ووصلت وله أخبار كثيرة وروايات ماثورة وكان يونس يروي للشافعي رضي الله عنه (ما حك جلدك مثل ظفرك * فتول أنت جميع أمرك) (وإذا قصدت حاجة * فاقصد لمعترف بقدرك) وقال يونس قال لي الشافعي رضي الله عنه يا يونس دخلت بغداد قلت لا قال ما رأيت الدنيا ولا رأيت الناس وقال يونس سمعت من الشافعي كلمة لا تسمع إلا من مثله وهي رضي الناس غاية لا تدرك فانظر ما فيه صلاح نفسك في أمر دينك ودنياك فالزمه وقال علي بن قديد كان يونس بن عبد الأعلى يحفظ الحديث ويقوم به وذكره أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسوي فقال هو ثقة

وقال غيره ولد يونس في ذي الحجة سنة سبعين ومائة وتوفي يوم الثلاثاء ليومين

253 بقيا من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين ومائتين وهي السنة التي مات فيها المزني رحمه الله تعالى وكانت وفاته بمصر ودفن بمقابر الصدف وقبره مشهور بالقرافة (396) وأما أبوه عبد الأعلى فإنه يكنى ابا سلمة وكان رجلاً صالحاً ومن كلامه من اشترى ما لا يحتاج إليه باع ما يحتاج إليه وقال ولده يونس والأمر عندي كما قال وتوفي عبد الأعلى المذكور في المحرم سنة إحدى ومائتين ومولده سنة إحدى وعشرين ومائة (397) وأما ابنه ابو الحسن أحمد بن يونس والد أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد صاحب تاريخ مصر فإن ابنه أبا سعيد عبد الرحمن بن أحمد ذكر في تاريخه أنه ولد في ذي القعدة سنة أربعين ومائتين وتوفي يوم الجمعة أول يوم من رجب سنة اثنتين وثلاثمائة وقال هو عديد للصدف وليس من أنفس الصدف ولا من مواليهم والصدفي بفتح الصاد والبدال المهملتين وبعدهما فاء هذه النسبة إلى الصدف بكسر الدال وذكر السهيلي أنه بكسر الدال وفتحها وإنما فتحوا الدال في النسب مع كسرها في غير النسب كي لا يوالوا بين كسرتين قبل ياءين كما قالوا في النسبة إلى النمر نمري وغير ذلك واختلفوا في اسم الصدف فقيل هو مالك بن سهيل بن عمرو بن قيس هكذا قاله القضاعي في كتاب الخطط وزاد السمعاني في كتاب الأنساب على هذا النسب فقال الصدف بن سهيل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس ابن وائل بن الغوث بن حيدان بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن هميسع ابن حمير بن سبأ وقال الدارقطني واسم الصدف شهال بن دتمي بن زياد بن حضرموت وقال الحازمي في كتاب العجالة في النسب هو

254 عمرو بن مالك والله أعلم وقال القضاعي دعوتهم مع كندة وإنما سمي الصدف لأنه صدف بوجهه عن قومه حين أتاهم سيل العرم فأجمعوا على ردمه فصدف عنهم بوجهه تلقاء حضرموت فسمي الصدف وقيل إنما سمي الصدف لأنه كان رجلاً شجاعاً لا يذعن لأحد من العرب فبعث إليه بعض ملوك غسان رسولا ليقدم به عليه فعدا على الرسول فقتله وخرج هارباً فبعث الملك إليه رجلاً في خيل عظيمة فكان كلما جاء حياً من أحياء العرب سأل عن الصدف فيقولون صدف عنا وما رأينا له وجهاً فسمي الصدف من يومئذ ثم لحق بكندة فنزل فيهم قال أرباب علم النسب أكثر الصدف بمصر وبلاد المغرب والله أعلم قلت قد خرجنا عن المقصود لكنه ما يخلو عن فائدة

854&&رضي الدين الإربلي أبو الفضل يونس بن محمد بن منعة بن مالك بن محمد بن سعد بن سعيد بن عاصم بن عائد بن كعب بن قيس الملقب رضي الدين الإربلي والد الشيخين عماد الدين ابي حامد محمد وكمال الدين أبي الفتح موسى وقد تقدم ذكرهما قلت هكذا وجدت نسبه بخط بعض اصحابنا المتأدبين ولم أعلم من اين له هذه الزيادة والذي أعرفه من نسبه هو الذي ذكرته في ترجمة ولديه والله أعلم كان الشيخ يونس المذكور من اهل إربل ومولده بها وقدم الموصل

255 فتفقه بها على تاج الإسلام أبي عبد الله الحسين بن نصر المعروف بابن خميس الكعبي الجهني المقدم ذكره وسمع عليه كثيراً من كتبه ومسموعاته ثم انحدر إلى بغداد وتفقه بها على الشيخ أبي منصور سعيد بن محمد بن عمر المعروف بابن الرزاز مدرس النظامية ثم أصعد إلى الموصل وتديرها وصادف بها قبولاً تاماً عند المتولي بها الأمير زين الدين أبي الحسن علي بن بكتكين والد الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل المقدم ذكره في حرف الكاف وفوض له تدريس مسجده المعروف به وجعل نظره إليه فكان يدرس ويفتي وي ناظر وتقصده الطلبة للاشتغال عليه والمباحثة مع ولديه المذكورين ولم يزل على قدم الفتوى والتدريس والمناظرة إلى أن توفي بالموصل يوم الاثنين سادس المحرم سنة ست وسبعين وخمسمائة وسمعت بعض خواصهم يقول توفي سنة خمس وسبعين وأما ولده الشيخ كمال الدين فكان يقول بل توفي سنة ست وسبعين وهو أعلم بذلك ودفن بتربته المجاورة لمسجد زين الدين المذكور رحمه الله تعالى وكان عمره ثمانياً وستين سنة وقد تقدم ذكر حفيده ايضاً شرف الدين أحمد بن الشيخ كمال الدين موسى بن يونس المذكور رحمهم الله تعالى وعلى الجملة فإنه خرج من بيتهم جماعة من الفضلاء وانتفع بهم أهل تلك البلاد وغيرهم وكانوا مقصودين من بلاد العراق والعجم وغيرها رحمهم الله تعالى أجمعين وله شعر فمن ذلك قوله (لها زورة في كل عام وتارة * تمر شهور الحول لا نتجمع) (وصال وصد لا لشيء سوى انها * على خلق الدنيا تجود وتمنع) وله غير ذلك والله أعلم

256 يونس المخارقي يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني ثم المخارقي شيخ الفقراء اليونسية وهم منسوبون إليه ومعروفون به وكان رجلاً صالحاً وسألت جماعة من أصحابه عن شيخه من كان فقالوا لم يكن له شيخ بل كان مجنوباً وهم يسمون من لا شيخ له بالمجنوب يريدون بذلك أنه جذب إلى طريق الخير والصلاح ويذكرون له كرامات أخبرني الشيخ محمد بن أحمد بن

عبيد كان قد رآه وهو صغير وذكر أن أباه أحمد كان صاحبه فقال كنا مسافرين والشيخ يونس معنا فنزلنا في الطريق على عين بوار وهي التي يجلب منها الملح البواري وهي بين سنجار وعانة قال وكانت الطريق مخوفة فلم يقدر أحد منا أن ينام من شدة الخوف ونام الشيخ يونس فلما انتبه قلت له كيف قدرت تنام فقال لي والله ما نمت حتى جاء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وتذكر القفل فلما أصبحنا رحلنا سالمين ببركة الشيخ يونس قال وعزمت مرة على دخول نصيبين وكنت عند الشيخ يونس في قريته فقال إذا دخلت البلد فاشترى لأم مساعد كفنًا قال وكانت في عافية وهي أم ولده فقلت له وما بها حتى نشترى لها كفنًا فقال ما يضر فذكر أنه لما عاد وجدها قد ماتت وذكر له غير هذا من الأحوال والكرامات

257 وأنشد له مواليا وهو (أنا حميت الحمى وأنا سكنتو فيه * وأنا رميت الخلاق في بحار التيه) (من كان يبغى العطا مني أنا أعطيه * انا فتى ما أداني من به تشبيهه) وذكر لي الشيخ محمد المذكور أن الشيخ يونس توفي سنة تسع عشرة وستمئة في قريته وهي القنية من أعمال دارا وهي بضم القاف وفتح النون وتشديد الياء المثناة من تحتها تصغير قناة وقبره مشهور بها يزار وكان قد ناهز تسعين سنة من عمره رحمه الله تعالى

258 قال المصنف ما مثاله نجز الكتاب الذي سميته وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان بحمد الله ومنه وذلك في يوم الاثنين العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وسبعين وستمئة بالقاهرة المحروسة يقول الفقير إلى الله تعالى أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان مؤلف هذا الكتاب :
إنني كنت قد شرعت في هذا الكتاب في التاريخ المذكور في أوله على الصورة التي شرحها هناك مع استغراق الأوقات في فصل القضايا الشرعية والأحكام الدينية بالقاهرة المحروسة فلما انتهيت فيه إلى آخر ترجمة يحيى بن خالد ابن برمك حصلت لي حركة إلى الشام المحروس في خدمة الركاب العالي المولوي السلطاني المجاهدي المرابطي المفاخري المؤيدي المنصوري الغياثي المنعمي المحسني الملكي الظاهري ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبي الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين خلد الله سلطانه وشيد بدوام دولته قواعد الملك وثبت أركانه وكان الخروج من القاهرة المحروسة يوم الأحد سابع شوال سنة تسع وخمسين وستمئة ودخلنا دمشق يوم الاثنين سابع ذي القعدة من السنة المذكوره وقلدني الأحكام بالبلاد الشامية يوم الخميس ثامن ذي الحجة من السنة المذكورة فتراكمت الأشغال وكثرت الموانع الصارفة عن

إتمام هذا الكتاب فاقترضت على ما كنت قد اثبتته من ذلك وختمت الكتاب
واعذرت في آخره بهذه الشواغل عن إكماله وقلت إن قدر الله تعالى مهلة في
الأجل وتسهيلاً في العمل أستأنف يكون كتاباً جامعاً لجميع ما تدعو الحاجة إليه
في هذا الباب

259 ثم حصل الانفصال عن الشام والرجوع إلى الديار المصرية وكان
مدة المقام بدمشق المحروسة مدة عشر سنين كوامل لا تزيد يوماً ولا تنقص
يوماً فاني دخلتها في التاريخ المذكور وخرجت منها بكرة نهار الخميس ثامن
ذي القعدة من سنة تسع وستين وستمائة فلما وصلت إلى القاهرة صادفت بها
كتبا كنت أوثر الوقوف عليها وما كنت أتفرغ لها فلما صرت أفرغ من حجام
ساباط بعد أن كنت أشغل من ذات النحيين كما يقال في هذين المثليين طالعت
تلك الكتب وأخذت منها حاجتي ثم تصديت لإتمام هذا الكتاب حتى كمل على
هذه الصورة وأنا على عزم الشروع في الكتاب الذي وعدت به إن قدر الله
تعالى ذلك والله يعين عليه ويسهل الطرق المؤدية إليه فمن وقف على هذا
الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعجل بالمؤاخذة فيه فاني
توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لي مع أنه كما يقال أبي الله أن يصح إلا كتابه
لكن هذا جهل المقل وبذل الاستطاعة وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه
وفوق كل ذي علم عليم وقد تقدم في أول هذا الكتاب الاعتذار عن الدخول في
هذا الأمر والحامل عليه فأغنى عن إعادته ها هنا والله يستر عيوبنا بستر
كرمه الضافي ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع أعضائه النمير الصافي إن
شاء الله تعالى.